موسوعة

الإسلام وإيران

(ديناميكيّة الثّقافة وحيويّة الحضارة)

الدكتور علي أكبر ولايتي

٣ / ٤



الرسم البياني التاريخي للثقافة والحضارة الإسلامية

دار الهادي

موسوعة

الإسلام و ايران

«ديناميكية الثقافة وحيوية الحضارة»

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة
الإسلام و ايران

«ديناميكية الثقافة وحيوية الحضارة»

تأليف
الدكتور علي أكبر ولايتي
«مستشار قائد الثورة ووزير الخارجية السابق للجمهورية الاسلامية الايرانية»

تعريب
عبد الرحمن العلوي

الجزء الثالث

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

المقدمة

منذ فترة طويلة، كان الهاجس الذي ينتابُني كمسلم ايراني هو الهوية الثقافية والحضارية للاسلام وايران. ولذلك كنت انطلق بشوق الى أية جهة احتمل ان أجد ضالتي فيها. فاذا كانت تلك الضالة خطاباً كنت استمع اليه، واذا كانت مقالة كنت أقرأها، فأدركت تدريجياً مدى الظلم العظيم الذي لحق بأمتنا وشعبنا وثقافتنا وحضارتنا بفعل سوء نية الأجانب وتكاسلنا.

فالأجانب أنكروا من جانب فضائل المسلمين، والمسلمون تساهلوا من جانب آخر في كتابة وعرض انجازاتهم ومكتسباتهم العلمية والثقافية. فانتشر بالنتيجة هذا الخطأ العالمي حتى بين المسلمين وهو ان الغربيين يتفوقون على غيرهم في الخلقة ويتميزون بذكاء استثنائي لا نظير له في الامم الاخرى بما فيها الأمة الاسلامية. فالغربيون بدءاً باليونان القديمة ومروراً بروما وإنتهاءاً بعصر النهضة، كانوا هم الطلائع والرواد والمنتجين، اما الشرقيون والمسلمون فليسوا سوى تابعين ومستهلكين.

والنتيجة العملية لمثل هذا الاعتقاد الواسع الذي يُبلَّغ له منذ حوالى قرنين من الزمن والى يومنا الحاضر هو أن لا نقوم بأية جهود لا جدوى فيها وان نتقبل مصيرنا المحتوم كأناس من الدرجات الدنيا بجميع ما يترتب على ذلك من تبعات

سياسية وثقافية!

وهكذا نرى كيف أدت الفطنة الشيطانية للمتسلطين الغربيين وغفلتنا نحن المسلمين بمرور الزمن الى ظهور قناعات لدى ابناء بلادنا ينبغي عدها صفات ثانوية كقولهم: لا نسعى دون جدوى! لا نستطيع ان نرتقي ذرى العلم والمعرفة وعلينا ان نكتفي بذلك الحد المقدَّر لنا منذ الأزل(١).

وليس ثمة ألم أقسى على كل ملتزم من ان يرى سحق وضياع اعتبار عقيدته وأمته. فمنذ تلك الفترة التي تعرضت فيها البلدان الاسلامية والشرقية للغزو الغربي العسكري والثقافي والدعاية لمثل هذه القناعات التي تُعد المصداق الأتم للاستعمار، ظهرت شخصيات كبرى تهتف بشعار ايقاظ الشرق والمسلمين، وتقرع طبول الدعوة للصحوة الشرقية والاسلامية في مقابل دعوات التفوق الثقافي والحضاري الغربية(٢).

امواج الصحوة الاسلامية أخذت تتسع وتمتد منذ مائتي عام والى يومنا هذا. وأهم مكتسبات هذه الحركة التاريخية هي الاعادة التدريجية للثقة بالنفس الى العالم الاسلامي، بحيث ان الادعاء الغربي القديم بالتفوق والأفضلية بات ذا تأثير أقل رغم شدة الدعايات الصوتية والتصويرية والالكترونية.

في هذا اليوم بطل سحر سحرة فراعنتنا، وفقدت حنّاؤهم لونها. غير أن هذه الصيانة، سياسية قبل ان تكون علمية. فالتيار الأول والمعكوس للاستعمار الثقافي كان يتوخى فرض الاستعمار السياسي والاستغلال الاقتصادي.

اذن كان ينبغي استثمار ما أعده رواد ودعاة اليقظة السياسية والثقافية مع التمهيد لاعادة الثقة بالنفس علمياً ومعرفياً.

من أجل تحقيق هذا الهدف، بُذلت جهود كبيرة قيمة من قبل بعض الشخصيات الكبرى. والتحرك ضمن هذا الاتجاه يكشف عن أننا في بداية الطريق ولا زالت تفصلنا عن الهدف مسافة كبيرة، ولكن الذي لاشك فيه هو أن الحركة

قد بدأت حقاً.

هذا الكتاب نتاج جهد طويل الى حد ما وعلى أساس تفكير ـ ربما هو جديد ـ كان يخطر في ذهني منذ سنوات طويلة. وقد توصلت من خلال التروي وامعان النظر الى نتائج ربما لازالت غير ناضجة تماماً وبحاجة الى دراسة ونقد أهل الرأي وأصحاب الاختصاص. الخطوط العريضة لهذا التفكير كالتالي:

المرحلة الاولى: بدأ تاريخ الاسلام من مكة المكرمة بدعوة الرسول الاكرم محمد ﷺ. وهذه هي بداية الحركة في تاريخ الثقافة والحضارة الاسلاميتين.

المرحلة الثانية: تبلورت هذه الحركة المهمة في تاريخ الانسان حين تشكيل الحكم الاسلامي في يثرب والتي تحول اسمها منذ ذلك اليوم الى مدينة النبي. ويمكن ان نستوحي من هذه التسمية ان المدنيّة الاسلامية قد أُسست بهذه الحركة.

المرحلة الثالثة: انتشار الاسلام في جهتين: الاولى انتشاره في جزيرة العرب، والثانية انتشاره في العالم المتحضر آنذاك مثل بلاد ما بين النهرين، وايران، وبلاد الروم، ومصر، والحبشة، والهند، وماوراء النهر، والصين، والهند الصينية، وشمال أفريقيا، وجنوب اوربا. وبلغت هذه المرحلة ذروتها في القرنين الهجريين الأول والثاني.

المرحلة الرابعة: وهي عبارة عن مجاورة الثقافة والحضارة الفتية الاسلامية للحضارات العالمية القديمة، والسعي لمعرفة تلك الحضارات ونقلها الى عالم الحضارة الاسلامية. بدأت هذه الحركة بشكل جاد منذ القرن الثاني واستمرت حتى القرنين الثالث والرابع الهجريين. وسلك هذا الانتقال الحضاري طريقين:

أ ـ الترجمة التي تُعد أهم اشكال الانتقال وتُدعى في التاريخ باسم نهضة الترجمة. وتُعد هذه الحركة لا نظير لها في تاريخ الحضارات القديمة من حيث سرعة وحجم

المعارف المنتقلة، حتى ان أباً وابنه ـ وهما حنين بن اسحاق، واسحاق بن حنين ـ ترجما من اليونانية والسريانية الى العربية نحو ٢٠٠ كتاب ورسالة(٣).

ب ـ تأسيس المكتبات ونقل الكتب من الأقاليم الحضارية المجاورة الى اقليم الحضارة الاسلامية.

ج ـ انتقال المفكرين ـ أو جذب الأدمغة المفكرة بالاصطلاح المعاصر ـ الى المراكز العلمية والتعليمية في العالم الاسلامي.

المرحلة الخامسة: عصر ازدهار الحضارة الاسلامية الذي بدأ منذ القرن الثالث واستمر حتى القرن الخامس الهجري.

المرحلة السادسة: عصر ازدهار الثقافة الاسلامية العميقة والأدب العرفاني. والتلاحم الوثيق بين العرفان والأدب يُعد من عجائب الثقافة الاسلامية. وتتمتع هذه الدائرة برصيد عظيم لا يمكن ان يُقاس به أي رصيد ثقافي آخر. وبلغ عظماؤها الذرى وأصبحوا كواكب لامعة في سماء المعرفة. وبدأ ازدهار هذه المرحلة منذ القرن الرابع وتألق في القرن السابع الهجري.

المرحلة السابعة: عصر الفن وفن العمارة. ولربما هي لغة سنة التاريخ المنطقية ان لا يزدهر الفن والخط والرسم وفن العمارة والبناء ما لم تبلغ العلوم العقلية والتجربية الكمال، وما لم تتعمق معرفة الانسان بالوجود والحياة، وما لم يزدهر الأدب.

والغريب في الأمر انه بعد الضربتين الكبيرتين اللتين وجههما الصليبيون والمغول للعالم الاسلامي وبعد الخرائب التي نجمت عن هاتين الكارثتين، ظهرت الحركة الفنية ـ المعمارية، وبشرت باحياء الاسلام في العصر الصفوي ـ العثماني ـ الغوركاني، وعليه ليس من باب الصدفة ان نرى ذروة الفن الاسلامي في ايران والدولة العثمانية والهند منذ القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر الهجري.

المرحلة الثامنة: عصر الجمود. الغزوان الكبيران الطويلان الصليبي والمغولي من

غرب وشرق العالم الاسلامي ـ حيث استمر الاول نحو مائتي عام والثاني نحو ثلاثمائة عام ـ وما خلّفاه من آثار ونتائج وخيمة، استنزفا طاقات المسلمين وأشاعا الخرائب والدمار. فما قام في مصر والهلال الخصيب(٤) من ثقافة وحضارة على يد المسلمين، تقوّض على يد الصليبيين. وما شيّده المسلمون في ماوراء النهر وخراسان والعراق، حوّله المغول الى بلاقع. فهؤلاء نفخوا في الثقافة الاسلامية العالية روح اليأس بكل قسوة وهمجية، وزعزعوا كيان مدنيّة المسلمين من خلال تدمير مدنهم وتخريبها.

ورغم ان الاسلام يحمل في ذاته جوهرة الحركة والتطور والتقدم والتكامل، غير ان الغزو الصليبي والعدوان المغولي، تركا آثاراً مخربة في كيان الحضارة الاسلامية أدت في آخر المطاف الى ظهور عصر الجمود الذي بلغ أقصى مداه في القرن الهجري الثامن والنصف الأول من القرن التاسع.

المرحلة التاسعة: عصر التجديد الأول لحياة العالم الاسلامي. فالهزيمة التي لحقت بالصليبيين في الشام وفلسطين على يد صلاح الدين الأيوبي (١١٨٧ م/ ٥٨٣ هـ) والمغول في عين جالوت على يد مماليك مصر (١٢٦٠م) خلقت محيطاً آمناً في الشام والروم وشمال أفريقيا استطاع الحفاظ على كثير من التراث العلمي والثقافي المتبقي.

الى جانب شجاعة صلاح الدين وسيفه، ومقاومة مماليك مصر، لابد من الاشادة ايضاً بتدبير نصيرالدين الطوسي، وشمس الدين صاحب الديوان، وعطاء الملك الجويني، ورشيدالدين فضل الله الهمداني الذين خاطروا بأنفسهم من اجل حفظ ما لم يدمره الغزو المغولي. ولاشك في انهم لا يقلون في هذا الدور أهمية عن مجاهدي مصر والشام وفلسطين. بانتقال ما تبقى من تراث للثقافة والحضارة الاسلاميتين في بلدان العالم الاسلامي المحترقة، أخذت تنمو فسائل جديدة تحولت الى أشجار عظيمة في الامبراطوريات العثمانية والصفوية، والغوركانية، فازدهرت الاوضاع السياسية للعالم الاسلامي.

المرحلة العاشرة: الغزو الاستعماري وبدء عهد الجمود الثاني. فبعد النهضة الاوربية، ظهرت بلدان قوية في اوربا لجأت الى غزو بلدان العالم الاسلامي بحثاً عن المواد الأولية الرخيصة والحصول على أسواق لتصريف منتوجاتها الصناعية. فغزا البرتغاليون افريقيا والهند ومسقط وايران، وغزا البريطانيون غربي افريقيا وشرقها وجنوبي آسيا وجنوب شرقها، وغزا الفرنسيون مصر وشمال افريقيا وغربها، وغزا الايطاليون شمال افريقيا وشرقها، وغزا الهولنديون جنوب شرق أسيا.

هذه الظاهرة بدأت منذ القرن الخامس عشر الميلادي وبلغت أوجها في القرن التاسع عشر.

لابد من الاشارة الى الغزو الغربي الثاني الذي حمل عنوان الحروب الصليبية الثانية والذي يُعد أعقد من الغزو الأول. ففي هذه المرة جاء الصليبيون بدون بيرق صليبي، واستخدموا الأسلحة النارية بدلاً من السيوف. والأخطر من ذلك كله محاولاتهم التي استهدفت تغيير الثقافة الاسلامية وتدمير عقيدة المسلمين وسائر الامم التي أخضعوها لسيطرتهم.

هذه الحركة الغربية الواسعة تركت آثارها السيئة على العالم الاسلامي برمته، أو حسب تعبير محمد قطب انها ساقت المسلمين الى عصر جاهلي جديد هو عبارة عن شكل آخر للاستعمار الفكري أو الاستعمار المزين باستدلالات فكرية وفلسفية قائمة على فكرة فصل الدين عن المجتمع. وتحدثوا عن تجربة الغرب كتجربة ناجحة في هذا المضمار قائلين ان تقدمهم يعود الى تحررهم سياسياً واجتماعياً من سلطة الكنيسة وخروجهم من عصر الظلمات الى عصر التنوير، داعين المسلمين الى الانفصال عن الاسلام من أجل وضع القدم في طريق التقدم!

هذه الدعايات الغربية التي كانت اكثر تأثيراً من قنابل المدفعية، استقطبت بعض السذج والسياسيين الشاعرين بالاحباط السياسي والاجتماعي في المجتمعات

الاسلامية، وظهور ظاهرة عجيبة في العالم الاسلامي لم تكن موجودة من قبل، فأصبح بعض ابناء المسلمين دعاة بلا أجر ولا راتب للفكر الغربي! وليس باستطاعة الغربيين ان يجدوا طريقاً أفضل من هذا لتغيير الامة الاسلامية.

واستمر هذا النهج الاستعماري الى هذا اليوم، رغم ان هناك تغييراً في التكتيك بين فترة واخرى.

هذه المرحلة من الجمود اكثر جدية من الجمود الذي اعقب الحروب الصليبية الاولى والغزو المغولي. ففي تلك المرحلة انتصرت الثقافة الاسلامية على الغزاة المنتصرين عسكرياً. اما في هذه المرحلة فقد كانت الغلبة الثقافية للغزاة في بادئ الأمر فقد حملوا معهم الى العالم الاسلامي التكنولوجيا، والثقافة اللادينية أيضاً.

الغزو الفكري الغربي الهادف الى تغيير ثقافة المسلمين، كان بمنزلة صعقة كهربائية موجهة الى المراكز العصبية للعالم الاسلامي، أدت ـ بصرف النظر عن نتائجها المدمرة ـ الى بعث امواج حياتية انتجت فيما بعد سلسلة من الحركات التاريخية المتتالية في سائر بقاع العالم الاسلامي والتي نعبر عنها بالصحوة الاسلامية أو الدعوة للعودة للاسلام.

المرحلة ١: الصحوة الاسلامية

يتفاوت تفسيرنا وتحليلنا لهذه الظاهرة بحسب الزاوية التي ننظر منها اليها. ولذلك اخذ المفكرون يعبرون عنها بعناوين مختلفة بحيث يمكن ان يفهم منها طبيعة رؤيتهم اليها وتحليلهم لها، مثل: الاصلاحية، والسلفية، والعودة الى الذات، ومحاربة الخرافة، والحداثة، ومناهضة الاستعمار، ووحدة المسلمين، واليقظة الاسلامية.

انتخابنا لاصطلاح الصحوة الاسلامية، وتخصيصنا فصلاً مهماً من فصول هذا

الكتاب لهذا المبحث، نابع من شمولية هذا الاصطلاح وتجانسه مع سائر الفصول.

والنقطة الاخرى التي لا تقل في اهميتها عن هذه التسمية، لربما هي اكتشاف نوع من التماثل بين مختلف مراحل تاريخ الثقافة والحضارة الاسلاميتين في المرحلة الاولى وقبل الغزو المغولي ومرحلة الصحوة الاسلامية في العصر الراهن.

ويبدو ان مسار منحنى الثقافة والحضارة الاسلاميتين يتكرر، ويذكر هذا الوضع بنوع من فلسفة التاريخ حيث ان التاريخ ليس سوى تكرار للوقائع والأحداث، أو لربما تكمن في أعماق الاسلام حالة الاحياء والتجدد. والشاهد على ذلك هو مصير الاسلام في العصر الراهن الذي يُعد بشهادة جميع المراقبين المحليين والأجانب انه اكثر الأديان جاذبية لجميع الأمم والشعوب.

من هذه الظاهرة يمكن أن نستنتج ان هذا الدين لازال حياً، ولازالت لديه مثل سائر الكائنات الحية القابلية على التصفية من الداخل وترميم العناصر المتآكلة والتخلص من المواد الفاسدة أو المفسدة، والدفاع عن نفسه في مقابل هجمات العناصر الغريبة المؤذية الضارة، والنمو، وتحويل الطاقات والقابليات الموجودة من حالة القوة الى حالة الفعل.

بدأت الصحوة الاسلامية ـ كبداية الاسلام نفسه ـ بدعوة الناس. فانطلق الأمير عبدالقادر، والسيد جمال الدين الأسدآبادي، والشيخ محمد عبده، والسيد أحمد خان، والشيخ فضل الله النوري، وعبدالرحمن الكواكبي، والشيخ شامل، ورشيد رضا، والعلامة اقبال اللاهوري، والسيد حسن المدرس، وحسن البنا، وسيد قطب، وابو الأعلى المودودي، والسيد محسن الأمين وغيرهم، ثم أخيراً الامام الخميني لدعوة الناس للعودة لاحياء الاسلام، واستقبل الناس هذه الدعوة وأخذوا يبايعون الاسلام ثانية زرافات زرافات. وتبلور عن تلك الدعوة وهذه الاستجابة نهضة واسعة لاحياء الدين والقيم الدينية في سائر ارجاء العالم

الاسلامي.

التنقيب في التاريخ المعاصر والنظرة المتفحصة الى دقائق ما حدث في عصرنا، يكشف بوضوح عن الحقيقة التالية وهي لا يوجد بلد اسلامي إلّا وفيه أثر للصحوة الاسلامية أو نهضة العودة الى الاسلام. مثل هذه الحقيقة تكشف عن النجاح الكبير في المرحلة الاولى من الولادة الاسلامية الجديدة.

هذه المرحلة مهمة الى درجة كبيرة بحيث دفعت الطامعين بالبلاد الاسلامية وورثة الاستعمار القديم لارتداء زي الدفاع عن حقوق الانسان والسلام والأمن والديمقراطية، وطرح نظرية (حوار الحضارات)، من أجل القضاء على الاسلام. ووقفوا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي بجميع ما لديهم من امكانات عسكرية وغير عسكرية، صفاً واحداً بوجه المسلمين.

المرحلة ٢: تأسيس حكومة اسلامية

المرحلة الاخرى بعد مرحلة الدعوة لعودة الاسلام هي تأسيس حكومة اسلامية. في كلا الدائرتين السنية والشيعية نلاحظ جهوداً نظرية وعملية لتأسيس حكومة اسلامية. في العالم السني تُطرح الدعوة لاعادة عنصر الخلافة كمحور لتأسيس حكومة اسلامية من قبل مختلف المفكرين. ويُعد رشيد رضا الذي هو من مؤسسي الفكر السلفي، أحد الذين طرحوا موضوع الخلافة بشكل جاد. وكان اقتراحه ان يتم تأسيس حكومة اسلامية عاصمتها الموصل ومبايعة الامام الهادي ـ وهو امام اليمن الزيدي آنذاك ـ كخليفة للمسلمين.

وفي العالم الشيعي نظّر آية الله النائيني لتأسيس حكومة اسلامية في العصر الجديد وذلك في كتابه الذي يدعى «تنبيه الامة وتنزيه الملة». كما رسم الامام الخميني الملامح المعاصرة لنظرية الحكومة الاسلامية من خلال طرح موضوع

«ولاية الفقيه».

الجزء الثاني من هذه المرحلة هو تأسيس حكومة اسلامية. ففي شمال نيجيريا أسس عثمان دان فوديو حكومة اسلامية في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي دامت نحو مائة عام.

في العالم السني، جرت محاولات ناجحة ونصف ناجحة اخرى. ففي السودان قام حسن الترابي من الاخوان المسلمين ـ كمنظّر لتأسيس حكومة اسلامية ـ باسقاط حكومة جعفر النميري العلمانية بدعم من الجنرال حسن البشير، فأسس حكومة اسلامية ودعا الى اجراء الشريعة.

في تركيا أسس نجم الدين اربكان حزب الرفاه لتأسيس حكومة اسلامية دون ان يعلن عن هذا الهدف خوفاً من جنرالات الجيش التركي. ومن خلال الكثير من الجهود والتغيير المتكرر في التكتيك تمكن من تشكيل حكومة ائتلافية مع السيدة تانسو تشيلر، والتي من أهم انجازاتها اعادة حجاب السيدات، واقامة صلاة الجماعة في الدوائر، وتوسيع مدارس الامام الخطيب.

في الجزائر ظهرت جبهة الانقاذ الاسلامية الى الوجود بزعامة عباس مدني لتأسيس حكومة اسلامية، ثم انتشرت بسرعة وحصلت على أغلبية الآراء في الانتخابات البلدية في جميع مدن الجزائر.

وفي العالم الشيعي أسس آية الله السيد عبدالحسين اللاري حكومة اسلامية على اساس ولاية الفقيه في جنوب ايران وذلك في مطلع القرن الميلادي العشرين.

ولربما يمكن عد حكومة جيلان على يد ميرزا كوجك خان في اطار حزب الاتحاد الاسلامي، مع شيء من التساهل، أحد النماذج الناقصة لتأسيس حكومة اسلامية.

الخطوة الناقصة التي جرت في عهد ضياء الحق في باكستان والمتمثلة في

المصادقة على (لائحة الشريعة) في البرلمان الباكستاني وتغيير اسم باكستان الى الجمهورية الاسلامية الباكستانية، تعد جزءاً من الخطوات التي جرت لتأسيس حكومة اسلامية. ويمكن في آخر المطاف ان نصف تأسيس حكومة الجمهورية الاسلامية الايرانية، المصداق الكامل للحكومة الاسلامية في العصر الراهن.

المرحلة ٣: انتشار الاسلام

المرحلة الثالثة، بدأت بعد الدعوة وتأسيس الحكومة في القرن الأول الهجري وفي المرحلة الاولى من تكامل المدنية الاسلامية، ثم انطلقت بسرعة، وتكررت في اعادة الاسلام من جديد في العصر الحديث. فالتقدم السريع للاسلام في امريكا وأوربا وأفريقيا في العقود الأخيرة، يُعد من النماذج البارزة على انتشار الاسلام السريع.

المرحلة ٤: اعادة تشييد الثقافة والحضارة الاسلاميتين

الثقافة الاسلامية تعيد في هذا اليوم تشييد نفسها في ظل صحوة المسلمين. وشُلّت أيدي سحرة فرعون باحياء واعادة بناء الثقافة الاسلامية. ففي هذا اليوم بهتت ألوان القيم الغربية المستوردة ليس لدى المثقفين فحسب وانما لدى الجماهير المليونية المسلمة بأسرها، ووقف حملة لواء الثقافة الاسلامية بوجه منظري الثقافة الغربية، وأنتجوا من خلال الاستناد الى الثقافة الاسلامية الغنية، نتاجات عقائدية ـ ثقافية عظيمة.

المصنفات العظيمة مثل جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب، والمستقبل لهذا الدين لسيد قطب، وفلسفتنا واقتصادنا لآية الله السيد محمد باقر الصدر، وماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن الندوي، واصول الفلسفة واسلوب

الواقعية للعلامة الطباطبائي وآية الله مرتضى المطهري، نماذج لتنظير المثقفين والرساليين المسلمين من اجل بلورة الثقافة الاسلامية وإحيائها من جديد. كما ان جهود بعض الشعوب الاسلامية الرامية للحصول على الفنون والتكنولوجيا الحديثة والتي ارعبت المستعمرين الغربيين، تحكي عن طلوع جديد لفجر الحضارة الاسلامية.

تطبيق المنحنى الجديد على المنحنى القديم

لربما يمكن من خلال تطبيق نقاط معلومة للمنحنى الجديد (احياء الثقافة والحضارة الاسلامية) على نقاط مماثلة في المنحنى الأول للحضارة الاسلامية، ان نستنتج عودة القوة للمسلمين وشموخ ثقافة الاسلام والحضارة الاسلامية في المستقبل القريب ان شاء الله.

الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم حصيلة جهود فريق من الأساتذة والمحققين والباحثين الشباب خلال ثمانية أعوام متتالية. ويمكن تصنيف هذه الجهود بحسب الزمان ونوع العمل الذي تم انجازه، كما يلي:

١ـ اخذ يُعقد في بادئ الأمر وبدعوة مني محفل علمي وثقافي اسبوعياً باشتراك السادة الدكتور محمود البروجردي، وحجة الاسلام والمسلمين الدكتور مصطفى البروجردي، والدكتور السيد محمد الترابي، ومحمدرضا الجوادي، وحجة الاسلام والمسلمين محمد جواد حجتي الكرماني، والدكتور غلام علي خوشرو، والدكتور عباس العراقجي، ومرتضى مراديان، والدكتور عباس الملكي، والمهندس محمد علي النجفي، والدكتور رضا نظر الاهاري. وتم خلال اجتماعات ذلك المحفل الاسبوعية بحث الموضوع بشكل واسع ومن جميع الجوانب، الى ان توصلنا بشكل تدريجي الى نتيجة مشتركة.

٢ـ من خلال اعراب المسؤولين المحترمين في القناة التلفزيونية الرابعة لاسيما

السيد الدكتور رضا بورحسين رئيس القناة آنذاك والسيد محمد علي رامين المقدم والمعد، تم اعداد أربعين حلقة تلفزيونية لمحاضرات القيتها على لفيف من الطلبة الراغبين ضمن برنامج يحمل عنوان (احياء الثقافة والحضارة الاسلاميتين).

بعد فترة زمنية طرح موضوع الصحوة الاسلامية كمكمل للمسار التاريخي للثقافة والحضارة الاسلاميتين. وطلبت القناة التلفزيونية الرابعة اعداد برنامج بهذا الخصوص. فتم اعداد هذا البرنامج بعد تحضير مقدماته ضمن مرحلتين: المرحلة الاولى تتألف من ٣٩ حلقة شارك فيها الى جانبي الدكتور عباس الملكي، والمرحلة الثانية تتألف من ٢٦ حلقة ساهم فيها الى جانبي السيد محمد الساجدي، وقد بُث الجزء الأعظم منها، من تلفزيون الجمهورية الاسلامية الايرانية.

٣ـ اقترح السيد صادق الخرازي وكيل وزير الخارجية لشؤون التعليم والبحث آنذاك، والسيد علي الموجاني مدير مركز الوثائق العام، ان يُعرَّف هذا الموضوع ويُتابع على شكل مشروع تحقيقي، حيث تم التوقيع على هذا المشروع. وبعد التحاق السيدين الخرازي والموجاني بسفارة ايران في باريس، تابع الدكتور رضا نظر الآهاري ـ المدير العام الجديد لمركز الوثائق ـ هذا المشروع بدعم من السيد علي رضا المعيري الوكيل الجديد لشؤون التعليم والبحث.

وعلى اساس فكرة جديدة، تقرر ان يأخذ هذا المشروع شكل كتاب يعتمد محاضراتي التي بُثت من القناة التلفزيونية الرابعة على مدى ١٠٥ حلقات. وأضيف فريق آخر من الزملاء القدماء والجدد لتنظيم هذه المرحلة وهم السادة علي بهراميان، ومجيد الرهباني، وعلي سقائيان، ومحمد رضا شكيبا، وأصغر صادقي يكتا، وأصغر فتحي، وحسن فرهنك (الانصاري القمي)، وفريد قاسملو، ومحمد علي قانع زادة، ومحمد حسن الكاووسي، وجواد الكريمي، ومهدي الكريمي، ومحمد الكريمي، وأصغر المحمدي، والدكتور رضا نظر الآهاري. وقد بذل كل واحد من

هؤلاء جهوداً قيمة في هذا الاتجاه.

لابـد لـي ان اقدم جزيل شكري لجميع اولئك الذي ساعـدوا فـي بـلورة هـذه الخـدمـة الاسلامية والوطنيـة فـي شـتـى المـراحـل، مـع تمـنياتـي لهـم بالتوفيـق.

أخصّ بالذكر منهم الأستاذ عبد الرحمـن العلوي لجـهوده البـالغة في تـعريب الكتاب وكذلك الأخوين الفاضلين توفيق السعداني ويحـيى الخـليلي لعـملهما في المراجعة والتصحيح والأخ الوجيه والأستاذ الحاج صلاح عز الدين صاحب دار الهادي للطباعة والنشر، لنشره الكتاب.

اتمنى ان يساهم أصحاب الرأي والفكر في رفع نواقص وعيوب هذا الكـتاب وتصحيح الأخطاء المحتملة.

ومن الله التوفيق وعليه التكلان

علي اكبر ولايتي

هوامش المقدمة:

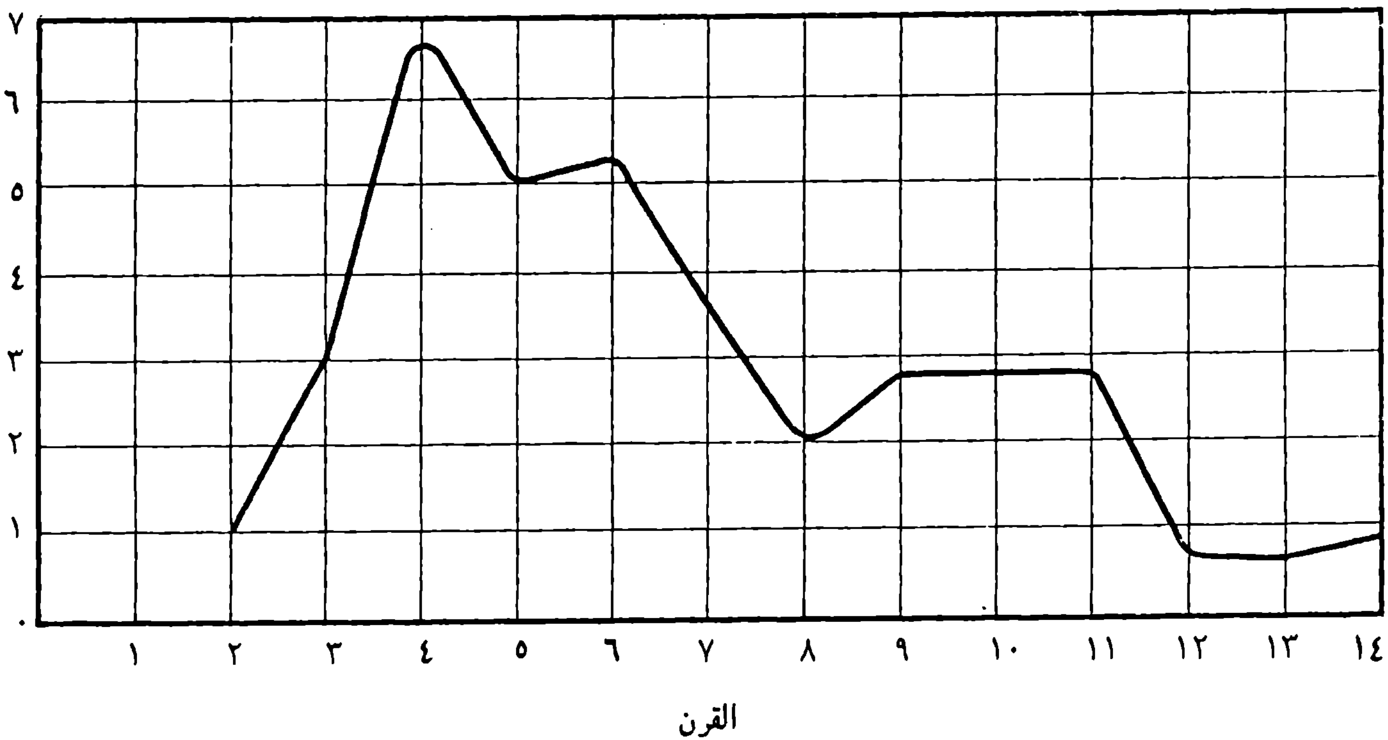
١ ـ لمزيد من الاطلاع انظر: علي اكبر ولايتي، الأزمات التاريخية، الهوية الايرانية، طهران، مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ١٩٩٩، ص ٤٢ ـ ٦١.

٢ ـ راجع: مجموعة العروة الوثقى للسيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، طهران، ١٣٩٠ هـ؛ محمد اقبال اللاهوري، احياء الفكر الديني في الاسلام، طهران، رسالة القلم، ١٩٧٧.

٣ ـ راجع: دليسي اونزاوليري، انتقال العلوم اليونانية الى العالم الاسلامي، ترجمة أحمد آرام، طهران، اصدار جامعة طهران، ١٩٦٣، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٣.

٤ ـ الأرض الخصبة الواقعة شرقي وشمالي الجزيرة العربية وتشمل العراق، وسوريا، وفلسطين. لمزيد من الاطلاع راجع: دائرة المعارف الفارسية بادارة غلام حسين المصاحب، ذيل: الهلال الخصيب.

رسم بياني للمسار التاريخي لثقافة الاسلام وحضارته



الجزء الثالث

«من الجمود الى النهضة»

الباب الأول

العوامل المؤثرة في افول نجم الحضارة الاسلامية
(من القرن الخامس وحتى منتصف القرن التاسع الهجري)

الفصل الأول: الحروب الصليبية

الفصل الثاني: الغزو المغولي وافرازاته

الفصل الثالث: المسلمون في الأندلس

الفصل الأول

الحروب الصليبية

تُعدّ الحروب الصليبية، من الأحداث الكبرى على صعيد العلاقة بين العالمين الاسلامي والمسيحي. وقد حظيت دراسة أسباب هذه الحروب باهتمام المؤرخين وشتى المذاهب التاريخية والسياسية والاقتصادية. ويعزو البعض تلك الحروب والحملات الى الازدياد الهائل في نفوس البلدان الغربية، الأمر الذي دفع بهذه البلدان للبحث عن مناطق جديدة، لاتخاذها اسواقاً تجارية. ولذلك ظهرت في اوربا آنذاك حركة اجتماعية واسعة مهّدت الطريق لتلبية دعوة البابا اوربانوس الثاني (Urbainus11) التي وجهها في ٢٧ تشرين الثاني عام ١٠٩٥ / ٤٦٨ هـ من مدينة كلرمون (Clermont) الفرنسية، لانقاذ القدس. ويرى البعض ان البابا قد وجّه هذه الدعوة من اجل السيطرة على بلد الحواريّ بطرس (S.T.Pierre) الذي يُعد الوطن الثاني، وذلك لأن زيارة مرقد المسيح كانت تحظى باهتمام كبير من قبل سكان اوربا الغربية، وكان عدد الزائرين يزداد باستمرار(١).

يرى آخرون ان اسباب تلك الحروب، كامنة في التنافس بين البابا والأباطرة. بينما ينسب غيرهم تلك الأسباب الى تعاظم نفوذ البابا في أعقاب اصلاحات البابا

غرغوريوس السابع(٢). وهناك شطر عظيم من المؤرخين يعتقد ان العامل الأساس لتلك الحروب، كان الحيلولة دون زحف الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى وسقوط القسطنطينية ودخولهم الى شبه جزيرة البلقان. غير ان هذا العامل لم يكن هو العامل الوحيد، اذ يعتقد بعض المؤرخين الرومانطيقيين ان رغبة الفرسان في التعبير عن وجودهم واستعراض عضلاتهم، كان هو الحافز والمحرك لتلك الحروب، لاسيما وأن الكثير من الاقطاعيين الذين كانوا يتولون قيادتهم، كان يسعى كل منهم كي يكون ملكاً على القدس، لأنه يُعد المنصب الثاني بعد منصب البابا.

من جانب آخر فقد عمل تزايد عدد المقاتلين الاوربيين في الجيش البيزنطي، والانتصار الواضح الذي حققه الفرسان في حربهم مع عرب أسبانيا وصقلية خلال القرن الحادي عشر الميلادي، على تشجيع الاوربيين للقيام بتلك الحملات وشنّ تلك الحروب، لاسيما في أعقاب استيلاء الاتراك على الأرض المقدسة(٣).

ومع أهمية جميع هذه العوامل والأسباب، ينبغي البحث عن العامل الحقيقي في التركيبة الاجتماعية والسياسية للبلدان الغربية. كما لابد ايضاً من دراسة الافرازات التي أفرزها هذان القرنان من الحملات الصليبية، لاسيما على فرنسا.

دراسة التركيبة السياسية والاجتماعية لاوربا تكشف عن انقسام الامبراطورية الرومانية في عام ٣٩٥ م الى قسمين شرقي وغربي. فكان الجزء الغربي يتألف من ايطاليا مع مساحة واسعة من فرنسا وألمانيا والنمسا وجزء من افريقيا الشمالية. وكان الجزء الشرقي يتألف من آسيا الصغرى، وسوريا، وفلسطين، ومصر، وشبه جزيرة البلقان، او ما يُعرَف بالامبراطورية البيزنطية. وقد اعتبر المؤرخون الغربيون هذا التاريخ بداية القرون الوسطى(٤).

الامبراطورية الرومانية الشرقية كانت اكثر تطوراً من الرومانية الغربية من حيث الثقافة والتجارة، وكانت الوريثة لثقافة اليونان وحضارتها، لكنها كانت مهدّدة باستمرار من جانبين: من جانب الامبراطورية الساسانية ثم من قبل العرب المسلمين، ومن جانب شبه جزيرة البلقان والاقوام الهمجية الجرمانية والبلغارية

والسلافية. وأدت هذه العوامل الى قلة السكان في هذا البلد المترامي الأطراف. كما عمل الضعف العسكري وزحف الاتراك السلاجقة والأتراك الغُز، على تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية في هذه البلاد.

قبيل اندلاع الحروب الصليبية، زحف الأتراك في آسيا الصغرى نحو بحيرة مرمرة واقتربوا من القسطنطينية. وكانت الرومانية الغربية تتعرض في بادئ الأمر للهجمات التي يشنها الجرمانيون والسلافيون وقبائل الهون بقيادة اتيلا. ورغم صد تلك الهجمات الا انها أدت الى تقسيم الامبراطورية بين الاقطاعيين.

في عام ٨٠٠ م، أسس «شارلمان» ـ امبراطور فرنسا ـ امبراطورية كبرى في اوربا الغربية تضم فرنسا، وألمانيا، وشمال ايطاليا، والنمسا. لكنه حينما توفي، قُسمت هذه الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة شارل، ولوثر، ولويس من خلال معاهدة فردين (Verden) وذلك في عام ٢٢٨ هـ / ٨٤٣ م(٥). ونظراً لعدم كفاءة الملوك الذين امسكوا بزمام الامور، وتدهور الأوضاع الاقتصادية، والتخلف الثقافي، وقلّة النفوس، قُسِّمت هذه الامبراطورية بين ثلاثة اقطاعيين هم: كنت، وويكنت، ودوك. فكانوا يحكمون المناطق التابعة لهم وفق صلاحيات تامة. ورغم وجود الملوك إلّا ان طاعة الاقطاعيين لهم، لم تكن سوى طاعة شكلية لا غير. ورغم قسم الوفاء والحماية العسكرية للملك الذي كانوا يؤدونه اثناء تتويج الملك، إلّا انهم لا يدفعون الضرائب.

كانت أمارات الوفاء، أعظم في فرنسا من غيرها، اذ اصطبغ ولي العهد «هوغكابت» (Hugcapet) بصبغة قدسية حينما توّجه الأسقف الكبير في كنيسة مدينة «رين» (Reins). اي أصبح «أسمى من الشعب الفاني». وظل هذا التقليد حتى عهد الثورة الفرنسية، بحيث اكتسب ملوك فرنسا اعتباراً روحانياً ومعنوياً، وأصبح عامة الشعب يعتقد ان بامكانه صنع المعجزة، وأنه يبرئ المريض من مرضه. وبالرغم من هذا الاعتبار المعنوي، فقد كانت ثروة الملوك وقواهم العسكرية اقل بكثير مما كان لدى شطر كبير من النبلاء، اذ لم تكن توجد لديهم

أملاك وعقارات كثيرة، وكانت معظم ممتلكاتهم، في ضواحي باريس. وكانت المدن ذات نفوس قليلة، فلم تكن نفوس كل من باريس ولندن تزيد عن خمسة آلاف نسمة. كما ان مدينة روما التي كان يزيد عدد نفوسها عن مليون نسمة، تضاءل الى ٢٠ ألف نسمة(٦).

كانت ثروة الأشراف ومقدرتهم العسكرية، تعتمد على مقدار ما لديهم من املاك وممتلكات ومزارعين. ورغم ان الرق كان أمراً شائعاً في روما القديمة، إلّا انه أُلغي خلال ذلك العهد، وكان المزارعون احراراً. وكان الجيش يتألف من الفرسان الذين كان عددهم عند الملك أو الاقطاعي، يعتمد على ما لديه من ثروة وقوة. وكان الفرسان يُنتخبون عادة من بين الأسر الصغيرة او المزارعين، والذين لديهم الاستعداد لتوفير الدرع والسلاح والحصان. وكان سعر الدرع يعادل قيمة المزرعة، وسعر الحصان يعادل قيمة خمس أبقار. ويتلقى الفرسان تمارين قاسية تجعلهم قادرين على خوض الحروب والعمليات الصعبة. ولذلك كانت الأناشيد الوطنية والحماسية تتغنى بشجاعتهم وبطولاتهم.

فضلاً عن الشجاعة التي ينبغي ان يتّسم بها الفرسان، لابد ان يكونوا أوفياء تماماً لسادتهم، أي للاقطاعيين. ولذلك تُعد خيانتهم هم من أعظم الجرائر والمعاصي. وحينما كان يتعرض الاقطاعيون لهجوم من قبل أعدائهم، كانوا يحمون المزارعين في قلعتهم ويوفرون لهم الزاد والطعام، بينما يهبّ الفرسان لقتالهم. اما في ايام السلام والصلح، فيشرف الفرسان على الشؤون الزراعية وحصاد المحاصيل. فكان كل مُلك من أملاك الأشراف والنبلاء بمثابة وحدة اقتصادية، وكانت جميع المتطلبات الحياتية، بالقرب من ذلك المُلك.

منذ القرن العاشر الميلادي أخذ يظهر تطور اقتصادي وصناعي في اوربا الغربية بشكل محسوس الى جانب التزايد في عدد السكان، بحيث أصبح عدد نفوس باريس في عام ١٠٠٠ م نحو ٥٠ ألف نسمة. وبذلك اتسعت التجارة بين اوربا الغربية وشمال أفريقيا ـ لاسيما مصر ـ حيث كانت توابل الهند تصل الى اوربا عن

ذلك الطريق(٧).

في عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م استولى ملكشاه السلجوقي على سوريا قبل بدء الحروب الصليبية بقليل. وفي أعقاب موته قسّم خلفاؤه هذا البلد الى امارتين: دمشق، وحلب، وذلك لبعد سورية عن العاصمة. وكان هناك اختلاف بين هاتين الامارتين من جهة، وكانا يتعرضان لتهديد الخلفاء الفاطميين في مصر من جهة اخرى. وهؤلاء الأتراك هم الذين كانوا يقاتلون الصليبيين في آسيا الصغرى وليس عرب سوريا وفلسطين. واستولى الأتراك السلاجقة على مدينة نيسة، ووصلوا قريباً من القسطنطينية(٨).

وكان البابا اوربانوس الثاني ـ الذي كان اسقفاً فرنسياً قبل تولّيه البابوية ـ يرى في تعاظم الحكومات التركية المسلمة في آسيا الصغرى وضعف الامبراطورية الرومانية الشرقية، خطراً كبيراً على اوربا. وحينما لم يكن بامكانه اعداد جيش كبير من خلال التدخل شخصياً لدى ملك فرنسا، قرر الدخول من باب آخر، عن طريق التوسل بالاقطاعيين، لتحقيق الأهداف التالية:

الهدف الأول الحاق الهزيمة بالأتراك السلاجقة او اجبارهم على التراجع على الأقل؛ الهدف الثاني احتلال مدينة القدس؛ الهدف الثالث والأهم تحريك التعصب الديني لدى كبار الاقطاعيين مثل الكونت دوتولوز، والكونت دوفلاندر، الذين كانت لديهم ثروات وأموال طائلة تفوق ثروة الملك أضعافاً مضاعفة.

تركت الحروب الصليبية تأثيراً مهماً على التركيبة السياسية ـ الاجتماعية لاوربا الغربية، اذ اخذ الاقطاعيون يميلون نحو الضعف، الأمر الذي وفّر الفرصة للملك للسيطرة على مناطقهم واخضاعها لحكمه المباشر، فأصبح ذا سلطة تنفيذية ومالية كبيرة. ومما يجدر ذكره هو أن هذه الآثار لم تتحقق بشكل فجائي، وانما تحققت بعد قرن ونصف في فرنسا اولاً، ثم في بريطانيا. بينما استمر الاقطاعيون الألمان على قوتهم حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر نظراً لعدم اشتراكهم في تلك الحروب(٩).

نتائج الحروب الصليبية ظهرت في اوربا الغربية بعد قرنين وفق الشكل التالي:

في بريطانيا، تحققت الوحدة الوطنية والسلطة المطلقة للملك، غير أن النبلاء والأشراف في بريطانيا اندفعوا نحو الأعمال التجارية والصناعية ـ على العكس مما كان الأمر عليه في فرنسا ـ وذلك نظراً لعدم وجود الأراضي الزراعية. واستطاعوا من خلال الاتحاد مع الطبقة البرجوازية الغنية والكنيسة، الاستحواذ على صلاحيات الملك. وكتبوا دستوراً للبلاد في ٦٧٣ هـ / ١٢١٥ م جعلوا فيه الملك تابعاً للقانون. وقد كُتب هذا الدستور في عهد الملك جون ساتر وأُطلق عليه اسم المنشور الكبير (Magna Carta) ثم أُكمل في عهد هنري الثالث وأُطلق عليه اسم منشور اكسفورد. ومهّد هذا الدستور لظهور الحرية والحياة السياسية ـ المدنية في بريطانيا من خلال تشكيل مجلس الأعيان(١٠).

هذا الدستور الذي لم يسبقه دستور آخر في العالم، أصبح اساساً ومنطلقاً للتطور والتغيير والتكامل السياسي. لذلك لم يعد الملك الانجليزي يمتلك السلطة المطلقة، الأمر الذي أدى الى ضمان الحرية الفردية، وأصبحت السلطة القضائية الملكية خاضعة للقانون ايضاً. وانتخبت الطبقات العليا في البلاد ممثلين لهم، راح يُعبّر عنهم في عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م بالبرلمان، فكان البرلمان يعيّن ممثلين عنه للاشراف على تطبيق الملك للدستور ومدى عمله به.

في فرنسا، ظهر اتحاد وطني وأصبح الملك ذا سلطة مطلقة وذلك في أعقاب ضعف الاقطاعيين وتعاظم قوة الملك وتزايد نفوذه.

ومن نتائج وافرازات الحروب الصليبية الاخرى، تقلّص دور الكنيسة في الحياة السياسية ـ الاجتماعية الاوربية. فقد كانت الكنيسة في بادئ الأمر هي المحرض الأول على تلك الحروب، لكنها فقدت اعتبارها وأهميتها في اعقاب الفساد الذي ظهر بين صفوف رجالها، وكذلك بفعل عجزها في تحقيق وعودها.

وأفرزت تلك الحروب نتائج اجتماعية ايضاً، وعملت على اخراج سكان اوربا الغربية من الحياة البسيطة المترهلة والانطلاق الى حياة تتسم بحيوية لا سابقة لها.

واتسعت علاقتهم مع العالم الخارجي ومدّوا جسور الاتصال حتى مع الشرق الأقصى. فتم ارسال سفير باسم بلان كاربن الى بلاط جنكيز خان، لكنه وصل الى هناك بعد وفاة جنكيزخان. كما بعث لويس التاسع سفيرين باسم روبروكي، وأندريه لونغ جومو (Andre - Long Jumeau) الى منغوليا. كما زار ماركوبولو كلاً من ايران، وأرمينيا، والصين. وانهمك مانديفيل (Mandeville) الانجليزي في استكشاف جغرافي لأفريقيا الغربية على مدى ثلاثين عاماً. وسجّل فينسن دي بوفا (Vencent de Beau Vais) جميع اكتشافاته الجغرافية في كتاب باسم «مرآة التاريخ»(١١).

متطلبات تلك الحروب الطويلة، عملت على تطور وازدهار الصناعات الزراعية. كما بعثت حركة السفر المستمرة على تطور صناعة السفن، وشهدت موانئ البحر المتوسط المهمة مثل فينيسيا ومارسيه وحتى برشلونه، حركة ملاحة وابحار كبرى، وتطورت هذه الموانئ من الناحية التقنية كثيراً.

وأدرك أبناء اوربا الغربية ان العالم اكبر بكثير من تصوراهم، لذلك انطلق الكثيرون لاستكشاف ذلك العالم. كما تطورت الصناعات والتجارة، وبلغت مراحل جديدة، وأصبحت كثيرة الربح والفائدة. كما عمل التقدم العلمي على رقي المستوى الثقافي العام حتى اعتبر العديد من المؤرخين مرحلة ما بعد الحروب الصليبية، البداية الحقيقية للتجدد الثقافي الذي بلغ ذروته في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وحضارة الشرق الأدنى التي كانت تفوق الحضارة الاوربية في بداية الحروب الصليبية، لم يأخذها الاوربيون فحسب، وانما عملوا على تكاملها ايضاً.

في الشرق الأدنى، استولت الامبراطورية البيزنطية على سوريا عام ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م. واستعاد السلاجقة سوريا في ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وأقاموا فيها امارتي دمشق وحلب. وفي ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م سقطت القدس في يد الأتراك، فخضع الشرق الأدنى لسيطرة الاتراك بما فيهم العرب(١٢).

على صعيد آخر، ادت الصراعات الداخلية بين المسلمين الى تبديد قواهم

وامكاناتهم. كما تقوّضت آثار الحضارة والحياة في العالم الاسلامي بفعل الحروب الصليبية. فكانت المحصلة النهائية لتلك الحروب، الكثير من الفوائد للبلدان الاوربية رغم الهزيمة النهائية التي لحقت بها وخروج سوريا وفلسطين من أياديها(١٣).

كيفية نشوب الحروب الصليبية

في الأيام الأخيرة من عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وفد البابا اوربانوس الثاني من ايطاليا الى فرنسا، فأخذ يدعو للحرب الصليبية ويحرض عليها في صومعة كلوني (Cluny) الواقعة في ولاية شامباني. وفي هذه الصومعة أيضاً أُقيم مهرجان كبير خلال القرن الحادي عشر الميلادي، من اجل الزحف نحو أسبانيا ودعم نصارى هذا البلد لمواجهة المسلمين.

وكان البابا اوربانوس الثاني، يُدعى قبل بابويته «اودو دي شاتيلون» (Eudu de Chatillon). وكان قد شاهد في عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م أحد ابناء بلده ـ ويدعى ابل دي روسي (Eble de Roucy) ـ وقد انضم الى فرسان شرق فرنسا للالتحاق بجبال بيرنه لطرد العرب من اراغون الأسبانية. فظلت تلك الخاطرة عالقة في ذهنه، لذلك حينما ولي مقام البابوية خلفاً للبابا غرغوريوس السابع، انطلق نحو أسبانيا في عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م على رأس فرسان جنوب فرنسا. وكان الانتصار في أسبانيا آنذاك بمثابة مقدمة كبرى للحروب الصليبية.

في تلك الفترة كان المسلمون يسيطرون على نصف أراضي بلاد الروم القديمة التي كانت تمتد من سوريا الى أسبانيا. وكان يوحنا الأول (تزيميسكيس) (Jean Tzimisces) ـ وكان أحد أعظم اباطرة الامبراطورية البيزنطية ـ قد استولى على سوريا عام ٩٧٥ م وبلغ الأرض المقدسة في الجليل وصلّى عند ساحل بحيرة طبرية وصعد الى جبل طابور، وهو الموضع الذي بُعث منه السيد المسيح. ورغم وصوله قريباً من القدس لكنه انصرف عن الزحف بسبب الحرب مع العرب الذين

كانوا يحكمون موانئ لبنان.

في أعقاب ذلك، ترتبت أوضاع جديدة في أعقاب امساك السلاجقة الأتراك بزمام الامور. فالايرانيون والعرب الذين كانوا يُعدّون من حماة الاسلام في الماضي، تخلّوا عن القتال منذ مدة. بينما تحول السلاجقة الأتراك الذين كانوا رجال قتال وحرب، الى قوة اسلامية جديدة بعد سنوات عجاف من الترحال والتنقل في آسيا الوسطى. لذلك يُعد دخول طغرل بيك الى بغداد عام ١٠٥٥ م، منعطفاً مهماً في تاريخ الاسلام. فحينما استولى على بغداد فصل الخلافة الدينية عن السلطنة الدنيوية، فهيمنت الامبراطورية السلجوقية على الامبراطورية العربية، واستؤنفت الفتوحات والانتصارات الاسلامية بعد توقف دام قرنين من الزمن(١٤).

حينما كان البابا اوربانوس الثاني في صومعة كلوني، سمع بأن السلاجقة استطاعوا اقتطاع أرمينيا من الامبراطورية البيزنطية. ثم طرق سمعه خبر أشد وقعاً يتحدث عن هزيمة الجيش البيزنطي أمام الب أرسلان في ملازجرت. وتُعد هزيمة ديوجين في ملازجرت ـ شمالي بحيرة وان ـ عام ٤٦٤ هـ / ١٩ آب ١٠٧١م، من أسوأ الهزائم في التاريخ الاوربي. واقترب السلاجقة في عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م من بحر مرمرة في قبال القسطنطينية بعد وصولهم الى مدينة نيسي (Nicee) أو نيقية ـ والتي كانت من مراكز تأسيس الجمعيات اليسوعية في آسيا الوسطى ـ واتخاذها عاصمة لهم. وقبل ذلك بسنوات كان الامراء السلاجقة قد انتزعوا القدس من الخلفاء الفاطميين بمصر عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م. كما نجحوا في انتزاع انطاكية من الجيش البيزنطي عام ١٠٨٥ م.

في عهد السلطان السلجوقي ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م)، امتدت امبراطورية السلاجقة من بخارى في آسيا الوسطى حتى انطاكية. ووصل هذا الامبراطور الى سواحل البحر المتوسط في عام ١٠٨٧ م. وأثارت هذه الأحداث التي وقعت في عهد البابا اوربانوس الثاني، اضطراباً شديداً في اوربا.

اذن دفع تقوّض أركان الامبراطورية البيزنطية في أعقاب معركة ملازجرت وعدم ظهور ردود فعل من قبل البيزنطيين ازاء سيطرة المسلمين السلاجقة على آسيا الصغرى، بالغربيين للتدخل في هذا الأمر. فالسلاجقة الذين كانوا يرابطون في مدينة نيقية، كان باستطاعتهم غزو القسطنطينية في كل لحظة. وبعد أربع سنوات من استيلاء السلاجقة على نيقية، دعا اوربانوس الثاني الناس للجهاد المقدس (الصليبي) من اجل السيطرة على مضيق البسفور والدردنيل، والقدس.

حينما عُقد المجمع الأسقفي العاشر في مدينة كلرمون الفرنسية عام ٤٨٨ هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٥م، دعا اوربانوس الثاني جميع المسيحيين الى التسلّح والدفاع عن المسيحية ومواجهة المسلمين(١٥). ولبّىٰ النصارى دعوة البابا هذه، واضعين على ثيابهم وأسلحتهم شارة الصليب بأمر من البابا.

وهكذا بدأت الحرب الصليبية، وتقاطر الأمراء والاقطاعيون وعامّة الناس على الشرق. ويمكن مقايسة فكرة الحروب الصليبية بالفكرة التي كانت لدى الاسكندر المقدوني التي تبلورت في مؤتمر كورينث (Corinthe)، ودعا من خلاله اليونانيين للزحف نحو الشرق.

جاءت دعوة اوربانوس الثاني في ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م لتعبئة اوربا ضد المسلمين في أعقاب وفاة ملكشاه السلجوقي في ٤٨٥ هـ / ١٥ تشرين الثاني ١٠٩٢م وتقسّم امبراطوريته الواسعة بين أبنائه وابناء اخوته الذين عملوا على اضعاف الدولة السلجوقية من خلال الصراع والتناحر، الأمر الذي كان يصبّ في صالح الصليبيين.

بما أن اوربانوس الثاني لم يكن باستطاعته مغادرة روما، لقيادة الحرب الصليبية، فأخذ يبحث عن اسقف زار القدس ولديه اطلاع بأوضاع الشرق، فوجد هذه الخصوصية في اديمار دي مونتي (Adhemar de Monteil)، اسقف مدينة بوي (Puy) الذي استطاع ان ينسّق ما بين الاقطاعيين واستقطاب أشراف وارستقراطيي جنوب فرنسا الذين كانوا قد ساهموا في حرب

أسبانيا، ومنهم كونت مدينة تولوز الذي يدعى ريموند دي سانت جيل (Raymond de Saint - Gilles) الذي كان لديه ايمان عميق بالأساقفة، ولذلك لبّى الدعوة التي وجهت اليه فوراً.

الحقيقة هي ان الحرب الصليبية تمثل استمراراً للحرب التي خاضها المسيحيون ضد المسلمين في أسبانيا. وفضلاً عن أشراف جنوب فرنسا ونبلائها الذين مارسوا حرب المسلمين في أسبانيا، كان بمقدور اوربانوس الثاني الاستناد الى النورمان في صقلية المعروفين بالمغامرة والذين سكنوا جنوبي ايطاليا منذ قرن من الزمن. فكان هؤلاء طلائع الحروب الصليبية في حقيقة الأمر، وذلك عندما انتصروا على البيزنطيين والعرب في جنوب ايطاليا.

كان النورمان، في طليعة الطوائف اللاتينية التي تمردت على اليونانيين والعرب. وعبروا قناة اوترانت (Otrant) لطرد اليونانيين من البلقان قبل مهاجمة العرب في آسيا. وزحف روبرغيسكار وابنه بوهموند (Bohemond) بالحرب حتى الأرض البيزنطية خلال الفترة ٤٧٤ ـ ٤٧٨ هـ / ١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م، فتم احتلال جزء من ايبير (Epire) ومقدونية، والوصول الى مركز سالونيك، وقد واصل بوهموند الحرب الصليبية بحماس بالغ(١٦).

وجد اوربانوس الثاني في ايطاليا من يؤيده في شن الحرب الصليبية. فأهالي مدينتي بيزا والبندقية الذين أمضوا حياتهم منذ مئتي عام في حرب مع القوة البحرية للمسلمين، خاضوا مع سكان مدينة جنوة حرباً ضد المسلمين عام ١٠١٥ م وهزموهم في جزيرة ساردني. وفي عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م هاجم ربابنة بيزا الارض التونسية بمساعدة أهل جنوه وبايعاز من البابا فيكتور الثالث الذي خلف اوربانوس الثاني، واستولوا على عاصمتها ـ المهدية ـ وأطلقوا سراح الأسرى المسيحيين.

استطاع اوربانوس الثاني ان يحدد أهمية هذه العوامل بدقة، حتى انه اصطحب اسقف بيزا حينما حضر اجتماع الأساقفة في مدينة كلرمون الفرنسية. فكان هذا

الأسقف هو الذي قاد بعد أربع سنوات القوة البحرية نحو سوريا، وأصبح اول اسقف للقدس حينما استولى عليها المسيحيون(١٧).

كان اوربانوس الثاني يسعى في بادئ الأمر لتأسيس جيش من فرسان جنوب فرنسا لخوض تلك الحرب، لكنّ الحماس الذي ظهر في أعقاب الاعلان عن الحرب الصليبية، كان مؤثراً على تشجيع المسيحيين وتحريضهم على المساهمة في تلك الحرب ولذلك تقرر ان ينقسم الجيش الصليبي الى أربعة أفواج فيتخذ كل فوج طريقاً على أن تلتقي تلك الأفواج الأربعة عند القسطنطينية. فاجتاز الفرنسيون الشماليون بقيادة غودفروي دي بويلون (Godefroy de Bouillon) ـ شقيق فيليب الأول ملك فرنسا، وأخوه بودوين (Baudouin) حاكم فنلندا، كلاً من المانيا وهنغاريا. واجتاز الفرنسيون الجنوبيون بزعامة ريمون ـ حاكم تولوز ـ شمالي ايطاليا وكرواتيا وصربيا وبلغاريا(١٨).

واستقل النورمان بقيادة تانكريد (Tancrede) وبوهموند السفن منطلقين من البانيا ومقدونية. وانطلق الفوج الرابع نحو ايطاليا بقيادة هوك الكبير، كونت دي نورماندو (Hugues de Normandois). ولم يشترك في ذلك الزحف أي ملك من ملوك اوربا، لأن البابا كفّر فيليب الأول ملك فرنسا، والامبراطور هنري الرابع. وكان البابا هو القائد الأعلى لتلك الحرب وقد عيّن الأسقف ادمار دي مونتي نائباً عنه فيها(١٩).

وتحركت مشاعر المسيحيين وتعاظم الحماس للحرب لديهم بفعل مواعظ بيرليرميت (Pierrel'Ermite)، أشهر وعاظ وخطباء الحروب الصليبية، وانطلقوا من مدينة بري في شمال فرنسا نحو القسطنطينية، فكان يلتحق بهم الكثيرون خلال اجتيازهم للبلدان الاوربية.

اذن اشتعلت نار الحرب الصليبية على يد اوربانوس الثاني. وفي عام ١٠٩٠ م طرد السلاجقة، البيزنطيين من آسيا، وتأهبوا للزحف نحو اوربا. اما بعد عشر سنوات من ذلك فقد حيل بينهم وبين القسطنطينية واحتل اليونانيون نصف أراضي

آسيا الصغرى، واصبحت سواحل سوريا وفلسطين مستعمرة اوربية.

ان فتح الاتراك العثمانيين للقسطنطينية في عام ٨٥٦ هـ / ١٤٥٣ م، كان من الممكن ان يتحقق قبل ذلك على يد السلاجقة في عام ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م، لكنه تأخّر ثلاثة قرون ونصف بفعل التحريض الذي مارسه اوربانوس والحرب الصليبية التي شنّها.

انطلق بيرليرميت ـ الذي كان ممثل البابا في تلك الحروب ـ نحو القدس مع شتى المجاميع المسيحية ومن جميع الطبقات، بما فيهم المجرمون من أصحاب السوابق والمشرّدون والمذنبون الذين لا ايمان لهم. وكان هؤلاء الافراد يحملون الصليب من أجل غفران ذنوبهم كما يتصورون، ويعتبرون انفسهم مقاتلين صليبيين، غير ان الكثير من اولئك المقاتلين غير المؤمنين، سرعان ما خضعوا لغرائزهم الهابطة، ومارسوا في المدن التي عبروا منها لاسيما في هنغاريا والبلاد البيزنطية، عمليات النهب والسلب. وقد ثأرت الدولة البيزنطية من هؤلاء بعد ذلك بقليل فقتلت الآلاف منهم، ووضعت الباقين تحت المراقبة في طريق القسطنطينية.

وصل بيرليرميت الى القسطنطينية في ٤٨٩ هـ / آب ١٠٩٦ م. وكان قد سبقه اليها مجموعة من الطلائع ذات الحماس الكبير لرؤية المدينة المقدسة، يقودها فارس يدعي غوتيه(٢٠). واستقبل الكسيوس كومننوس ـ امبراطور بيزنطة ـ بيرليرميت بتحفظ وبُعد نظر، وحذّره من عبور البوسفور ومحاربة السلاجقة قبل وصول الجيش الصليبي. وكان الامبراطور البيزنطي يخشى على الأوضاع الأمنية في عاصمته، لذلك بعث جميع هؤلاء القادمين، الى الجزء الآسيوي من امبراطوريته ووفّر لهم الاقامة في قلعة بالساحل الجنوبي لخليج نيكومديا (Nicomedie) بالقرب من الحدود اليونانية. وانتهز هؤلاء غيبة بيرليرميت فانطلقوا نحو مدينة نيقية ـ عاصمة السلاجقة ـ لكنهم تقهقروا عائدين الى بيزنطة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، اذ لم يعد الى بيزنطة سوى ثلاثة آلاف من مجموع ٢٥ ألف مقاتل(٢١).

الحملة الصليبية الاولى ٤٨٩ ـ ٤٩٢ هـ / ١٠٩٦ ـ ١٠٩٩ م

تحرك الجيش المنظّم نحو القدس بقيادة غودفروا دي بويون الذي كان دوقاً لمدينة لورين السفلى الفرنسية. فكان مثالاً كاملاً للفارس الشمالي، وقد ورث عن ابيه وأمه دوقية برايان وبولوني (Boulogne) في بلجيكا وفرنسا. وبما انه كان مقاتلاً شجاعاً، فقد استطاع في معركة دوريلي (Dorylee) ـ اسكي شهر الحالية بتركيا ـ ان يحوّل بخمسين فارساً الوضع الحربي من الهزيمة الى النصر.

ورغم الاختلاف المذهبي بين اليونانيين الارثذوكس والصليبيين الكاثوليك، فقد سلك الامبراطور البيزنطي سياسة سلمية كي يستطيع الحصول على مكاسب من تلك الحرب، واستعادة المدن البيزنطية التي استولى عليها السلاجقة مثل نيقية وانطاكية. فقد كانت معظم مدن آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين كالقدس وانطاكية واديسا (Edessa)، جزءاً من الامبراطورية البيزنطية في بادئ الأمر.

كان هدف الكسيوس من اتخاذ سياسة التشجيع والتأديب، هو استخدام الصليبيين لتنفيذ مراميه وأهدافه. لذلك كان يتوقع من غودفروا ان يؤدي يمين الوفاء له. لكنه أحجم عن ذلك لأنه أمير الامبراطورية الجرمانية ويقاتل لتحقيق أهداف البابا، ولأن الامبراطور البيزنطي يدين بالمذهب الارثذوكسي. حيث نشب اختلاف شديد بين الجانبين، وشنّ الامبراطور البيزنطي هجوماً على معسكر غودفروا، الأمر الذي فرض عليه الاستسلام، لأنه لم يأت كي يقاتل المسيحيين، لذلك أدى يمين الوفاء أمام الامبراطور البيزنطي في القاعة الكبرى بقصر بلاشيرن (Blachernes)، وتعهد باستعادة جميع الأراضي البيزنطية من السلاجقة ووضعها تحت تصرف الامبراطور. فعانقه الامبراطور البيزنطي وأهداه العديد من الهدايا الثمينة كالأثواب الذهبية والصناديق المليئة بالذهب، والخيول(٢٢).

المجموعة الثانية من الصليبيين والمؤلفة من النورمان القاطنين في جنوب ايطاليا

والتي كانت بقيادة بوهموند(٢٣) أمير تارانت، ترجّلت في ابير. وكان هذا الجيش الصليبي في قتال مرير مع الامبراطور البيزنطي خلال الفترة ٤٧٤ ـ ٤٧٨ هـ / ١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م، وسبق ان حاصر القسطنطينية. لذلك تخوّف منه سكان القسطنطينية حين اقترابه منها، لكن بوهموند ـ الذي كان ذكياً ومقاتلاً جريئاً، تعامل مع الامبراطور البيزنطي وسكان القسطنطينية بالمنطق السلمي، ودعا سائر الصليبيين بقيادة ريمون دي سان جيل لخدمة الامبراطور.

ثم وصلت مجموعة اخرى من الصليبيين ـ لاسيما من العاصمة الفرنسية ـ الى القسطنطينية بما فيهم شقيق امبراطور فرنسا فيليب الأول. وبذلك تحوّل ذلك الجيش الصليبي القادم من مناطق اوربية شتى الى جيش دولي، ولذلك اختير لهم اسم مشترك هو «فرانك» الذي كان يشمل في ايام اتحاد كارولنجين (Carolingiene) بلداناً مثل جرمانيا وايطاليا والتي شكلت امبراطورية تحت زعامة كنيسة روما(٢٤).

اذن بعد وصول الصليبيين الى آسيا الصغرى، أبرموا عهداً مع الدولة البيزنطية لتطويق مدينة نيقية معاً وذلك في ٤٩٠ هـ / مايس ١٠٩٧م. وكانت هذه المدينة قد استولى عليها السلاجقة وانتزعوها من الامبراطورية البيزنطية قبل ١٦ عاماً، واصبحت عاصمة لسلاجقة آسيا الصغرى. وفي آخر المطاف تم احتلال هذه المدينة في ٢٦ مايس ١٠٩٧م طبقاً لما ورد في معاهدة القسطنطينية.

بعد احتلال نيقية، عبر الصليبيون مضيق البوسفور والدردنيل، ثم دخلوا الى آسيا الصغرى متجهين نحو سوريا. وانقسم الجيش الصليبي الى مجموعتين من اجل اجتياز تلك الأرض الوعرة الجافة: مجموعة بقيادة بوهموند، وابن اخيه تانكرد، وروبركورت هس، واخرى بقيادة غودفروا دي بويون، وريمون دي سان جيل. وكان السلاجقة قد عبّأوا جميع ما لديهم من قوات بقيادة السلطان قليج ارسلان السلجوقي محاولين استغلال انقسام الجيش الصليبي الى قسمين، والاعتماد على اسلوب أجدادهم من خلال استخدام حرب العصابات واسلوب الكر والفرّ.

ورغم الهجمات المتلاحقة التي شنّوها على الجيش الصليبي والتضحيات التي قدّموها خلال ذلك والأضرار الثقيلة التي الحقوها بالصليبيين، إلّا انهم عجزوا عن تغيير مصير الحرب. فتلك المعركة التي عُرِفت باسم «دوريله»، أضفت الوضع العسكري على منطقة الشرق الأدنى لما يزيد عن قرن وجعلها المسيحيون في مقابل معركة ملازجرت(٢٥).

بما ان الافرنج والسلاجقة، كان كل منهما متمرساً على القتال، لذلك ادرك كل منهما قوة الآخر في أعقاب اول مواجهة بين الجانبين. ووصل الصليبيون الى قونية العاصمة الثانية للسلاجقة، بعد مواجهتهم لظروف طبيعية غير مناسبة ومناطق خالية من السكان والطعام. وكان عليهم بعد ذلك اجتياز جبال طوروس وانتي طوروس، لذلك انقسموا الى عدة اقسام: مجموعة انطلقت نحو سهل سيليسي، ومجموعة اخرى دارت حول جبال انتي طوروس وقيصرية. وانضم الى هاتين المجموعتين خلال الطريق حلفاء لم يكونوا يتوقعون انضمامهم اليهم، وهم الأرمن. فحينما استولى السلاجقة في بداية القرن الحادي عشر الميلادي على ارمينيا، هرب بعض سكانها الى كابادوس، وسيليسي، بينما ذهب البعض الى منطقة ادسا. وشيّد البعض لأنفسهم قواعد حصينة جداً في مرتفعات طوروس بدءاً بملاطية وانتهاءاً بأدسا، محتفظين خلال ذلك بديانتهم المسيحية. لذلك كان وصول الصليبيين اليهم، بمثابة مساعدة كبرى لم تكن في حسبانهم. كما كان دعم الأرمن للصليبيين امراً في منتهى الأهمية ايضاً(٢٦).

نظراً لتجهز الجيش الصليبي خلال زحفه في آسيا الصغرى بأسلحة ثقيلة، ونظراً كذلك لوعورة المنطقة ومناخها الجاف القاسي، فقد واجه هذا الجيش مشاكل كبرى لاسيما مشكلة الظمأ، والحر الشديد. ومما ضاعف من مشاكلهم، تعرضهم المستمر للهجمات المفاجئة الخاطفة التي كان يشنها عليهم المقاتلون السلاجقة بخيولهم السريعة الرشيقة. ورغم ذلك استطاع الجيش الصليبي اجتياز جبال طوروس، والانطلاق نحو سوريا والشام.

وبدلاً من ان يتعامل هذا الجيش الزاحف، مع الناس بشفقة ويحاول استمالتهم اليه، أطلق لنفسه عنان النهب والسلب واساءة معاملة سكان تلك المناطق التي كانوا يزحفون فيها. ولذلك تعرضوا لمجاعة كبيرة وأخذ زمام الامور يفلت من بين ايديهم، ونشب نزاع بين اثنين من قادتهم وهما تانكرد، وبودوين، فانفصل كل منهما مع جنوده عن الآخر. وفعل الجوع فعلته فيهم الى درجة بحيث قاموا بتقطيع أوصال الجواسيس، واطعام جنودهم بلحومهم(٢٧).

الكتب التي الّفها المؤرخون المسيحيون تقدم أدلة دامغة على الممارسات الوحشية للجيش المسيحي خلال الحروب الصليبية. فقصة مدينة مارات التي شهدها الراهب روبرت ونقلها، كافية لاثبات هذه الحقيقة. فيقول هذا المؤرخ: «كان الجنود يسيرون في الأزقة والميادين ويصعدون الى أسطح المنازل لارواء ظمئهم بدماء الناس... فكانوا يقتلون الأطفال والشباب والشيوخ ويقطعون أجسامهم ارباً اربا، ولم يتركوا اي انسان حيّاً. وكانوا يشنقون كل عدة اشخاص بحبل واحد من اجل الاسراع في عملية القتل. فكانوا يحملون معهم كل من يجدونه. وكانوا يبقرون بطون الموتى بحثاً عن الذهب. فانظروا ماذا يفعل الطمع وحب المال والذهب! وأخذت الدماء تجري في أزقة القدس كالأنهار من أجساد الموتى المتراكم بعضها فوق البعض الآخر. آه من هؤلاء العمي ذوي القلوب الصخرية! فلم يكن يوجد بين كل هؤلاء شخص واحد يؤمن بالدين المسيحي! ثم أمر بوهموند باحضار جميع من كانوا في برج القصر فقطع رؤوس الشيوخ والنساء والمرضى، وبيع الشباب والأقوياء في سوق النخاسة.

وحدثت تلك المجزرة العامة في يوم الأحد ١٢ كانون الاول، غير ان ذلك اليوم لم يكف لقتل الجميع، فأرجأت قواتنا ـ اي المسيحيون ـ قتل البقية الى الغد»(٢٨).

حينما انطلق الصليبيون من اوربا لاحتلال القدس، كان عددهم يفوق المليون نسمة، غير انهم لم يبق منهم سوى عشرين ألف نسمة بسبب الجوع، والمرض، وسوء التعامل، والتناحرات الداخلية(٢٩).

حين دخول الصليبيين الى القدس، كانت هذه المدينة قد خرجت من يد السلاجقة وأصبحت تدار من قبل سلاطين مصر. وقد احتلت القوات الصليبية هذه المدينة في ٤٩٢ هـ / ١٥ حزيران ١٠٩٩م. وكان سلوكهم مع المسلمين بالضبط عكس السلوك الذي سلكه الخليفة الثاني حين تحريره لها.

يكتب ريمون داجيل اسقف مدينة لوبوي: «حينما استولى جيشنا على برج وسور القدس، استولت الحيرة والرعب على ساكنيها العرب. فأخذت الرؤوس تُفصل عن الأجسام، وكان هذا أهون من المصائب الاخرى، اذ راح بعض الجند يبقرون البطون، فاضطر بعض العرب لالقاء انفسهم من الشواهق الى الأرض. كما قاموا باحراق البعض الآخر من المسلمين بعد فترة من اخضاعهم لعملية تعذيب قاسية. فلم يكن يلاحظ في ازقة القدس وساحاتها سوى تلول من رؤوس المسلمين وأيديهم وأرجلهم المقطّعة. ولم يكن بمقدور أحد ان يجتاز تلك الأزقة إلّا من فوق تلك الأشلاء والأوصال. ولم يكن هذا إلّا جزءاً بسيطاً من المصيبة التي حلّت بالمسلمين ...»(٣٠).

لم يكتف المقاتلون الصليبيون بهذا القدر من القتل، وانما شكّلوا جمعية صادقوا فيها على قتل جميع سكان القدس سواء كانوا مسلمين او يهود او نصارى، فقتلوا خلال ثمانية أيام نحو ٦٠ ألف شخص، ولم يرحموا حتى النساء والأطفال والشيوخ. ومارسوا فوق هذا كله ممارسات قبيحة وقذرة وهم في حالة السكر والعربدة. وقد دفعت تلك المجازر والأعمال الوحشية بالمسلمين للتخلي عن اختلافاتهم، والنهوض من اجل استعادة القدس والثأر لما لحق بهم(٣١).

نصّب الصليبيون غودفروا ملكاً على القدس بسبب ما أبداه من وحشية، فتأسست بذلك دولة صليبية في القدس، وقد ضُمّت اليها بعض الامارات الاخرى التي استولى عليها بعض قادة الجيش الصليبي مثل أدسا التي استولى عليها بودوين حاكم فلاندر، وأنطاكية التي استولى عليها بوهموند، وطرابلس التي احتلها ريمون.

الغربيون الذين سكنوا في القدس، سرعان ما تطبّعوا على الآداب والتقاليد

المحلية. وقد كتب فوشه دي شارتر، وهو أحد امناء الدين المسيحي وكان في موكب بودوين، في ذلك قائلاً: «نحن الذين كنا من الغرب، أصبحنا في صورة أهل الشرق... ونسينا وطننا. ولم يعد الكثير منا يعرفون مسقط ولادتهم ولم يتحدثوا عنه. فلأحدهم بيت وخدم وكأنّه قد ورثهم، ويتقدم الآخر طالباً يد فتاة من اهل الشام او عربية نصرانية. فأصبحوا يتحدثون بجميع اللغات ويفهمون كلامهم... فاذا كان الشرق منسجماً معنا الى هذا الحد، فما هي الضرورة للعودة الى الغرب؟»(٣٢).

لم يمر وقت طويل حتى توفي غودفروا، ثم توفي خلفه بودوين في عام ٥١٣ هـ / ١١١٩م، أي بعد عشرين عاماً من احتلال القدس، دون ان يُلاحَظ في عهدهم شيء عدا الدمار، والقتل، والبؤس، والفقر. وكان من نتائج حكمهم لفلسطين، تقسيم مدنها على غرار اوربا. فظهرت في طرابلس، وعسقلان، ويافا، وسائر المدن حكومات محلية كانت تعيش حالة الصراع والتناحر فيما بينها.

يتحدث جاك روفيتري، وكان من قساوسة مدينة عكا ومؤرخاً ايضاً، في كتابه الذي الّفه في تاريخ القدس:

«الصليبيون الأوائل المتدينون خلّفوا فئة شريرة وفاسدة، تبادر الى الحرب والنزاع لأتفه الأشياء... ولا يلاحظ أحد في الارض المقدسة سوى حفنة من غير المتدينين، واللصوص، والزناة، والقتلة، والخونة، والمتحللين، والرهبان الفاسدين، والراهبات العواهر»(٣٣).

كتب غيوم الصوري في هؤلاء ايضاً قائلاً: «لو أراد كاتب ما ان يسطر أعمالهم الوحشية وشنائعهم على صفحات التاريخ، فعليه ان يخرج عن الطريقة المتبعة في كتابة التاريخ، ويتحول الى انسان سبّاب ولعان، كي يتاح له تسطير قبائح أعمالهم»(٣٤).

حينما كان النصارى يدمرون القدس، كان المسلمون يسعون تدريجياً لاستعادة الأراضي التي فقدوها. وبعث زحفهم في الشام واورفا (الرها)(٣٥)، الخوف في

قلوب نصارى فلسطين، الى درجة بحيث اضطروا الى الاستنجاد بنصارى اوربا(٣٦).

الحملة الصليبية الثانية (٥٤١ ـ ٥٤٣ هـ / ١١٤٦ ـ ١١٤٨ م)

اسس الأتابك عماد الدين زنكي ابن آق سنقر، الدولة الزنكية (الأتابكية) في حلب وحران والموصل. ونجح في استعادة مدينة الرها من جوسلين الثاني في ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م، بعد نصف قرن في الخضوع للحكومة اللاتينية، الأمر الذي بث الخوف والهلع في قلوب نصارى القدس.

خلف نور الدين زنكي أباه عماد الدين زنكي، وقد اشتهر في الشجاعة والكفاءة والتقوى والفضيلة. واستطاع اخماد تمردات النصارى التي كان يحرض عليها جوسلين. وأدخلت هجمات نور الدين الذعر الى قلوب الصليبيين فاستنجدوا بالبابا اوجينيوس الثالث والملوك الاوربيين. وانطلق سان برنارد ـ رئيس ديركلرو ومن كبار زعماء المسيحية آنذاك ـ نحو الامبراطور الفرنسي لويس السابع، طالباً منه ومن المسيحيين الاستعداد للحرب.

اذن عملت المساعدات الاوربية للصليبيين على اعداد مقدمات الحملة الصليبية الثانية التي اندلعت باقتراح من الامبراطور الفرنسي لويس السابع في ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م، في أعقاب الانكسار الشنيع الذي حلّ بالجيش الفرنسي على يد السلاجقة في ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م وفقدانهم لمدينة أدسا.

انطلق سان برنارد لاثارة مشاعر نصارى اوربا، الأمر الذي دفع امبراطور المانيا كنراد الثالث للاستعداد للحرب الى جانب لويس السابع. وزحف الامبراطور الفرنسي مع جيشه نحو فلسطين، إلّا انه تعرض لضربة قاصمة قبيل وصوله الى آسيا الصغرى، واضطر لويس السابع للهرب عن طريق البحر الى انطاكية، والدخول متخفياً الى القدس. اما كنراد الثالث فلم يحقق أي شيء بفعل

الانقسام الذي ظهر في صفوف قواته(٣٧).

مارس المسيحيون (الصليبيون) خلال هذه الحملة، نفس الاسلوب الوحشي الذي مارسوه في الحملة الاولى، كالقتل، والتدمير، والنهب. حيث يكتب الراهب اتكتيل في ذلك قائلاً: «قلّما شوهد ان يتعامل الصليبي وفقاً للتعاليم الدينية. فقد ارتكب الصليبيون كل الاعمال التي يرتكبها الوحشيون وقطاع الطرق وكافة السلوكيات القبيحة والمشينة»(٣٨). ويعزو سان برنارد تلك الهزيمة الى ظلمهم وسلوكهم المشين.

لذلك أصبحت القدس في وضع شديد الخطورة، لاسيما بعد ان استطاع صلاح الدين الايوبي الاستيلاء على مصر وجزيرة العرب والعراق، والدخول الى بلاد الشام. وتمكن في نهاية المطاف من الدخول الى القدس وأسر ملكها الصليبي جي دولوزينيان، وتحرير هذه البقعة الاسلامية من الصليبيين. وكان صلاح الدين كأشهر الخلفاء العرب في التقوى والشجاعة والحلم. لذلك عندما حرر القدس لم يتعامل مع الصليبيين كما تعاملوا مع المسلمين، وانما اكتفى بفرض جزية قليلة ومنع اية عملية قتل او نهب(٣٩). وبقيت مدينة القدس بيد المسلمين وخاضعة لحكمهم على مدى قرون عديدة رغم كافة الجهود التي بذلها العالم المسيحي لاستعادتها.

صلاح الدين الايوبي والتمهيد للحملة الصليبية الثالثة

كان صلاح الدين الايوبي، وزير العاضد، آخر خليفة فاطمي(٤٠). وقد أسس الدولة الايوبية عام ٥٧٦ هـ / ١١٨١ م في اعقاب وفاة العاضد، وانتهج سياسة اسلافه ـ لاسيما نور الدين زنكي ـ المناهضة للصليبيين.

في عام ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م هاجم «أرناط» صاحب الكرك(٤١)، قافلة مسلمة، الأمر الذي أثار حفيظة صلاح الدين فاتخذ قرار الثأر والانتقام. وورد في كتاب «القدس مدينة الأنبياء» ما يلي:

اشتبك صلاح الدين في مشارف طبرية(٤٢) مع الجيش الصليبي القوي، فقتل عدداً كبيراً منهم وألحق الهزيمة بالصليبيين. واعتبر صلاح الدين ذلك النصر طليعة لتحرير القدس. فحاصرها وكتب الى الصليبيين يقول: انني احترم القدس ولا ارغب في سفك الدماء. لذلك انصحكم بمغادرة المدينة وانا اتعهد لكم بصيانة اموالكم»(٤٣). لكنهم رفضوا هذه النصيحة التي تقدم بها صلاح الدين، فبدأت الحرب بين الجانبين. ونجح صلاح الدين في تحطيم ابراج المدينة وسورها، وقتل الكثير من الصليبيين. وحينما رأى الصليبيون ما حلّ بهم طلبوا منه الأمان فرفض ذلك وقال: «سأحرر القدس بالسيف مثلما استوليتم عليها قبل ٩١ عاماً»(٤٤). وقدم «باليان» ـ الحاكم الصليبي لرهلة(٤٥) ـ على صلاح الدين وأخبره بأنه اذا لم يعط الأمان للصليبيين فان النصارى الساكنين في القدس سيقتلون المسلمين ويذبحونهم. فتشاور صلاح الدين مع قادة جيشه، فوافق على الصلح شريطة ان يدفع الصليبيون عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة دنانير وعن كل طفل دينارين فدية، ثم يغادر الجيش الصليبي القدس مع أسره.

وبذلك تحررت القدس من الاحتلال الصليبي الذي استمر ٩١ عاماً. وفي ٥٨٣ هـ / ٢ تشرين الأول ١١٨٧، استطاع صلاح الدين الايوبي في معركة حطين التاريخية ان يقتل عدداً كبيراً من الصليبيين. وقام ابن الاثير بزيارة منطقة حطين بعد عام من تلك المعركة فكتب قائلاً بأن الارض مليئة بعظام القتلى الصليبيين، هذا عدا ذلك الذي جرفته السيول او التهمته الوحوش(٤٦).

كان تحرير القدس على يد صلاح الدين الايوبي ضربة قاصمة للاوربيين. لذلك كان ذلك دافعاً لهم للاستعداد للحملة الصليبية الثالثة.

الحملة الصليبية الثالثة (٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م)

اندحار الصليبيين حفّزهم على شن حملة اخرى ساهم فيها امبراطور المانيا فردريك باربروس، وامبراطور فرنسا فيليب اغوست، وملك بريطانيا ريتشارد

قلب الأسد. ولربما يُعد «كليوم» ـ رئيس قساوسة مدينة صور ـ أهم عامل يقف خلف تلك الحملة.

وصل فردريك باربوس مع الجيش الصليبي الالماني الى آسيا الصغرى قبل الجميع ودحر جيوش السلاجقة في مدينة قونية ثم عسكر عند ساحل نهر قره سو (سيدنوس)، لكنه توفي هناك، فالتحق جيشه بالقوات البريطانية والفرنسية عند مدينة عكا(٤٧).

انطلق امبراطور فرنسا من مدينة جين، وملك بريطانيا من مارسيه فوصلا الى صقلية في ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م، ثم ذهبا الى عكا، حيث استولى قلب الأسد على جزيرة قبرص. فعسكرا حول مدينة عكا وفرضا عليها حصاراً برياً وبحرياً لما يزيد عن عام، وقد حدثت خلال هذه الفترة تسع معارك كبرى وما يزيد عن مائة اشتباك. ولم تفلح المحاولات التي بذلها صلاح الدين الايوبي في فك الحصار عن هذه المدينة، كما لم تفلح القوات الصليبية بالمقابل في تحطيم ابراجها وأسوارها. غير أن المجاعة التي المّت بسكان المدينة دفعتهم للاستسلام في ٥٨٧ هـ / تموز ١١٩١ م.

خلال تلك الفترة انصرف فيليب اوغست عن القتال بسبب الاعياء الذي المّ به، وعاد الى فرنسا بينما انضم جيشه ـ الذي يربو عن عشرة آلاف فارس ـ الى صفوف قوات ريتشارد قلب الأسد الذي بقي مع قواته سنتين اخريين في فلسطين. وقد ارتكب كالصليبيين الاوائل أعمالاً وحشية كثيرة منها انه ذبح في يوم واحد ٢٦٠٠ أسير مسلم كانوا قد استسلموا بسبب الجوع والانهاك، بينما كان قد تعهد لهم بحفظ أرواحهم وعدم قتلهم.

ورغم ذلك كله لم تستطع القوات الصليبية في حملتها الثالثة الوصول الى القدس وبقيت هذه المدينة في يد المسلمين. وحينما رأى الصليبيون تعذر وصولهم الى القدس، طلبوا التهادن مع المسلمين(٤٨). واقتصر الحكم اللاتيني على فينيقية وعاصمتها عكا. وبقيت هذه المدينة تحت الاحتلال النصراني حتى عام ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م.

اذن لم يستطع الملوك الغربيون الثلاثة بلوغ اهدافهم في الحملة الصليبية الثالثة ولم يستولوا على القدس، واكتفوا بالسيطرة على بعض المدن الساحلية.

من أهم ملامح الحملة الصليبية الثالثة: قلة تفاعل عامة الناس معها وانفصال الجنود عن الآخرين الذين يرغبون في زيارة القدس انطلاقاً من دافع عقائدي فقط. ومعنى هذا ان الجانب العسكري قد طغى في هذه الحملة على الجانب الديني. وكذلك استخدام القوات الفرنسية والانجليزية للطريق البحري في تحركها نحو فلسطين، بدلاً من الطريق البري الطويل المحفوف بالمخاطر(٤٩).

الحملة الصليبية الرابعة (٥٩٨ ـ ٦٠٠ هـ / ١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ م)

الحملة الصليبية الرابعة، كانت امتداداً للحملة الصليبية الثالثة، وقد ادى اليها عدد من العوامل. فاختلاف الكنيسة الارثذوكسية البيزنطية مع الكنيسة الكاثوليكية حول المبادئ المسيحية من جهة، وقلة دعم القسطنطينية للصليبيين في مقابل الانجازات الكثيرة التي حققها الصليبيون للبيزنطيين في أعقاب اعادة احتلال جزء كبير من آسيا الصغرى من جهة اخرى(٥٠)، أمر دفع بالاسطول الصليبي لتطويق مدينة القسطنطينية في ذي القعدة عام ٦٠٠ / حزيران ١٢٠٣م، ثم مهاجمتها واحتلالها بعد ارتكاب المجازر البشعة(٥١).

تعامل الصليبيون مع مدينة القسطنطينية كما يتعامل المتوحشون والهمج. ففضلاً عن أعمال القتل والنهب والانتهاكات الاخرى، قاموا بتدمير وتحطيم الآثار القديمة التي تعود للعصرين اليوناني والروماني بما فيها الآثار الفنية والتماثيل البرونزية والرخامية التي تُعد من روائع تلك العصور والتي صنعها أشهر الفنانين والنحاتين مثل ليزيب، وفيدباس، وبراكزيل، وأحرقوا في يوم واحد جميع الكتب التي ألّفها دموستن، وديودوروس، وبوليب(٥٢).

بعد حصول زعماء القوات الصليبية على غنائم القسطنطينية، انصرفوا عن

الزحف نحو فلسطين ومصر، وتقاسموا اراضي الدولة البيزنطية فيما بينهم، وأسسوا امبراطورية لاتينية في القسطنطينية، وانتخبوا بودوين ـ والي فلاندر ـ امبراطوراً عليها. كما أصبح بونيفاكيوس دومون فرا سلطاناً على سالونيك ومقدونية. وأُلحق جزء من القسطنطينية ومعظم الأرخبيل ـ والذي يؤلف ربع المنطقة المحتلة من الامبراطورية البيزنطية ـ بفينيسيا. وعُيِّن امراء الجيوش الصليبية حكاماً على اثينا ومره (بلوبونيز) وتسالي(٥٣).

استمر الحكم اللاتيني في القسطنطينية على مدى نصف قرن. ورغم اعتراض البابا اينوكنتيوس الثالث، على أعمالهم وأساليبهم في تلك الحرب، إلّا انه اعترف بامبراطورية بودوين وأقرّها.

في عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م هاجم البلغار امبراطورية بودوين من الشمال وقتلوه. كما شنّ اليونانيون هجوماً آخر من الشرق وكانوا قد نقلوا عاصمتهم الى نيقية. وأفلح الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن بالايولوغوس (Michael Paleogus) في استعادة القسطنطينية عام ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م، وتقويض أركان الامبراطورية اللاتينية(٥٤).

يتضح من طريقة الاستيلاء على القسطنطينية وما تعرضت له على يد الصليبيين من قتل ونهب ودمار، ان افكار الناس وعقائدهم قد تغيّرت تماماً وأن ايمانهم قد تزعزع. وقد حدثت عدة حروب صليبية على مدى القرن الثالث عشر كانت محصلتها النهائية جميعاً، انكسار المسيحيين وهزيمتهم، وكان معظمها يهدف الى مهاجمة مصر للحصول على الغنائم بدلاً من القدس(٥٥).

من نماذج تلك الحروب، تلك التي اشترك فيها صبيان تتراوح اعمارهم بين ١٠ الى ١٨ عاماً، انطلقوا للحرب من الساحل السفلي لنهر الراين بقيادة ناشئ من مدينة كولن يدعى نيكولا في عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م، يرافقه عدد قليل جداً من الكبار في السن والقساوسة. وقد عُرِفت تلك الحرب بحرب الأطفال الصليبية. وقد وقع هؤلاء الأطفال ضحية للمعلومات الخاطئة التي كانت تبث آنذاك، وإلّا هل

يمكن تصور ان يقوم هؤلاء بشن حرب بدون امكانات مادية وتجربة وخطة؟ لذلك لا يمكن عدّها حرباً صليبية من المنظار الفني. وقد اجتاز هؤلاء الصبية والناشئة الصليبيون جبال الألب ووصلوا الى ميناء جنوه في ايطاليا، لكنهم توقفوا هناك اذ لم يُسمح لهم بعبور البحر. وقيل ان عددهم كان يبلغ آنذاك سبعة آلاف شخص. اضطروا في نهاية الأمر للعودة الى أوطانهم وبيوتهم مع فقدان عدد منهم(٥٦).

وأخذ البابا يفكر في حملة صليبية جادة اخرى. ومنذ عهد البابا اوربانوس الثاني، لم يكن لدى أي بابا آخر الحماس لشن الحروب الصليبية ضد المسلمين كالبابا اينوكنتيوس الثالث. وكان هذا البابا الأخير يأمل ايضاً في القضاء على الامبراطورية البيزنطية وتحقيق اتحاد الكنائس(٥٧). ولذلك اصدر امراً في ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م بالاعداد لحرب صليبية اخرى.

الحملة الصليبية الخامسة (٦١٣ ـ ٦١٨ هـ / ١٢١٧ ـ ١٢٢١ م)

توفي اينوكنتيوس الثالث في بروجيا(٥٨)، في ربيع الاول ٦١٣ / تموز ١٢١٦ خلال عملية الاعداد للحرب الصليبية، فواصل خليفته البابا هونوريوس الثالث (٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ـ ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) مساعيه لهذا الغرض رغم ضعفه السياسي. فدعا الصليبيين الى الحرب الخامسة. فلم يشترك الفرنسيون فيها لانشغالهم في حرب مع الالبيجينيين(٥٩). بينما كان هناك حماس شديد في النمسا والمجر للمساهمة في الحرب. وكان امبراطور المجر اندريه الثاني قد حمل الصليب منذ عام ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م واستعد لخوض الحرب. واعلن البندقيون كذلك عن استعدادهم لنقل الجيش المجري بحرياً في مقابل حصولهم على ميناء زارا(٦٠).

انطلق النمساويون والمجريون مع سائر الصليبيين من جنوب ايطاليا نحو عكا وذلك في عام ٦١٤ هـ / آب ١٢١٧ م. كما وصل الى عكا صليبيو فريزيا اولراين السفلى بقيادة اليوركلني في محرم وصفر ٦١٥ هـ / نيسان ومايس ١٢١٨م.

وقررت اللجنة الحربية مهاجمة مدينة دمياط المصرية الواقعة في دلتا النيل. فحاصروها على مدى عام كامل ثم تمكنوا من الاستيلاء عليها. وبعث اسقف عكا ويدعى جيمس الويترائي، كتابا الى البابا يطلعه على ذلك. وتُعد كتبه الى البابا، أحد اهم المصادر المهمة للحروب الصليبية(٦١).

قسّم صلاح الدين الايوبي اراضي الامبراطورية الأيوبية بين أبنائه عندما حضرته الوفاة في ٥٧٢ هـ / ١١٩٣ م. لكن الملك العادل استطاع بدهائه ان يفرض نفسه ملكاً على جميع أرجاء الدولة الايوبية منذ عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م(٦٢). وكان يسعى للافلات من مواجهة العدو عسكرياً لقلة ما كان لديه من قوات. لذلك قرر الحاكم الصليبي للقدس والذي كان يعيش مبعداً في عكا ان يحتل مدينة دمياط. وتوفي الملك العادل في ٧ جمادىٰ الثانية ٦١٥هـ/ ١٢١٥م، فحل محله ولده الملك الكامل الذي كان اميراً على دمشق(٦٣).

تم احتلال دمياط في ٢٥ شعبان ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، بينما واصل الايوبيون مقاتلة الصليبيين في مدينة المنصورة. وكان السلطان الايوبي يخشى من احتلال الصليبيين للقاهرة لذلك اقترح على الصليبيين الانسحاب من مصر في مقابل السماح لهم بالسيطرة على القدس وبعض المدن الاخرى في الشام. لكنّ الصليبيين الذين عُرِفوا بالجهل والطمع، رفضوا الاقتراح الايوبي. فاتّكل المسلمون على الله واستمروا في مقاومتهم، فاستطاعوا من خلال الاستعانة بنهر النيل ان يوجّهوا ضربة قاصمة للعدو. فتراجع الصليبيون من دمياط في رجب ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، واضعين بذلك نهاية للحملة الصليبية الخامسة. وتزامن مع هذه الحملة، الغزو المغولي(٦٤).

الحملة الصليبية السادسة (٦٢٥ ـ ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م)

الهزيمة في الحرب الصليبية الخامسة، دفعت المسيحيين للقيام بدراسة دقيقة لقضايا الشرق، ولماذا بات من غير الممكن القيام بهجوم مباشر على القدس منذ

عهد قلب الأسد.

يُعد فردريك الثاني اقوى امبراطور جرماني، بعد شارلمان. وقد خلّف له جده فردريك باربروس جميع الامبراطورية الجرمانية المقدسة(٦٥)، كما أورثته امه جزيرة صقلية والولايات الجميلة جنوبي ايطاليا. اضف الى ذلك، كان عالماً، وملماً باللغة العربية، كما كان ناجحاً في التصدي للبابا.

فردريك الثاني الذي كان بقية أُسرة هوهنشتوفن (Hohenstaufen) التي كانت تعادي البابوية دائماً، انتهز بعض الظروف والأوضاع فاستقطب اهتمام البابا اينقنتيوس الثالث ثم هونوريوس الثالث الذي كان يتوسم فيه انه سيعيد الحرب الصليبية من جديد. كما كان هذا الشعور، لدى رئيس فرقة تيوتون (Teuton) العسكرية والذي كان فارساً وراهباً يدعى هيرمان فون سولزا (Herman Von Solza). لذلك قال فيه البابا ورئيس تلك الفرقة، انه جدير بعرش القدس، وذلك من اجل تحريضه على شن الحرب الصليبية(٦٦).

كان فردريك الثاني رجلاً مدبراً وشجاعاً. ورغم انه اصبح امبراطوراً بدعم من البابا، لكنه سرعان ما اختلف معه. ودعا البابا مجموعة من امناء الدين لادانة فردريك رسمياً، لكنه أسرهم جميعاً(٦٧). فبعث هذا العمل الذي قام به فردريك الدهشة في قلب البابا. وكان باستطاعة البابا ان يُخرج صقلية من دائرة الامبراطورية ويعزل فردريك فيها. وكان طريق الحل الوحيد أمام فردريك هو انتصاره في الشرق، اذ سيصبح بمقدور مثل هذا الانتصار ان يضمن نفوذه في الغرب. لذلك وضعت حربه الصليبية البابا في معرض خطر جاد كبير. ومن الطبيعي ان يلجأ البابا في ظل مثل هذه الظروف لبذل اقصى ما لديه من جهود كي ينكسر فردريك في الحرب الصليبية.

بعد توقف قصير في جزيرة قبرص في شوال ٦٢٥ هـ/ ايلول ١٢٢٨ م، دخل فردريك الى عكا، فحظي باستقبال البعض، بينما هبّ آخرون من انصار البابوية بزعامة جيرالد فالينس (Gerald Valence) ـ اسقف القدس الأعظم ـ

لمعارضته(٦٨).

ولم يكن فردريك جاهلاً بحيث يقرر خوض حرب صليبية من دون توفر الظروف المواتية. وكانت الأوضاع تسير لصالحه لأن الصراعات الداخلية بين الاخوة الايوبيين الذين اتحدوا منذ عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م لاخراج الافرنج من مصر، تحولت الى صراع على الحكم بين الكامل والمعظم. ووجد الكامل نفسه مرغماً في عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م على العمل باتفاقية عام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م والقاضية بالتخلي عن فتوحات صلاح الدين للامبراطور، لكنّ وفاة المعظم في الأول من ذي الحجة ٦٢٤ هـ / ١٢ تشرين الثاني ١٢٢٧ م، انقذت الكامل من خطر الحرب في جبهتين. ولكن كان ذلك متأخراً جداً للحيلولة دون الحرب الصليبية.

دخل فردريك في حوار مع السلطان الكامل، فتم على أساس ذلك الحوار وعلى ضوء اتفاقية «تل العجول»(٦٩) حدوث تغييرات في الخريطة السياسية للمناطق الخاضعة للدولة الايوبية، فأصبحت سورية ودمشق من نصيب الأشرف، وفلسطين من نصيب الكامل. غير ان ذلك الاتفاق لم يكن سوى حبر على ورق، اذ وافق الكامل على اقتراح سلام «يافا» ووقعه مع فردريك الثاني في ٦٢٦ هـ / ١٨ شباط ١٢٢٩ م.

طبقاً لهذه الخطوة الجديدة التي حيّرت العالمين الاسلامي والمسيحي، تُعطى القدس، واللد (Lydda) ويافا(٧٠)، وبيت لحم، والناصرة، وصيدا الى فردريك (الصليبيين) باستثناء قبة الصخرة، المقدسة لدى المسلمين!

والحقيقة هي ان فردريك الثاني قد حقق مكاسب كبيرة جداً من دون اي حرب، بينما لم يتم تحقيقها خلال الفترة الطويلة الماضية رغم الحروب الكثيرة التي خاضها الصليبيون من أجلها. ورفع هذا الانجاز من مكانة فردريك في عين العالم، وأفشل محاولات البابا الرامية لاسقاطه(٧١). وعُرفت مجموعة هذه الخطوات الواسعة في التاريخ، بالحملة الصليبية السادسة.

والسبب في عدم حدوث اشتباك حربي خلال هذه الحملة، هو ان الملك المعظم الذي كان اميراً على دمشق، تحالف مع جلال الدين خوارزمشاه ضد أخيه السلطان الكامل. وحينما علم السلطان الكامل بذلك وقّع على تلك الاتفاقية مع فردريك الثاني خشية من خوارزمشاه٧٢).

اذن طبقاً لتلك الاتفاقية تم التخلي عن القدس للصليبيين شريطة عدم تعرضهم للمسجد الاقصى وعدم الدخول اليه، مع بقاء القرى المحيطة بيد الولاة المسلمين عدا القرى الواقعة بين القدس وعكا. كما الزمت تلك الاتفاقية الامبراطور الجرماني بنصرة السلطان الايوبي اذا هوجم من قبل أعدائه.

ورغم ان ذلك الانتصار كان مهماً لدى المسيحيين، إلاّ أنّه لم يُرحب به كما ينبغي نظراً لمعارضة البابا غريغوريوس التاسع واينوقنتيوس الرابع لفردريك. وحتى حينما زار كنيسة القيامة، أعرض عنه العاملون في الكنيسة، فعاد الى بلده مغتماً ممتعضاً.

اذن العمليات التي قام بها فردريك في الشرق عملت على اضعاف المسيحيين وتفرقتهم، فتمكن السلطان الظاهر بيبرس من الحاق هزيمة بالنصارى في غزة، وأفلح جند الاسلام في تحرير القدس ثانية.

توفي الملك الكامل في ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م، فخلفه ولده الذي تلقب بلقب الملك الصالح، وخاض حرباً ضد عمه اسماعيل الذي كان قد تحالف مع الصليبيين. وانتصر على الصليبيين في ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م، وانتزع القدس منهم. فحرّض هذا العمل الغرب لاعداد العدة للحملة الصليبية السابعة.

الحملة الصليبية السابعة (٦٤٦ ـ ٦٥٢ هـ / ١٢٤٨ ـ ١٢٥٤ م)

قام الامبراطور الفرنسي لويس التاسع بالتحضير لهذه الحملة وقيادتها. وقد اصبح امبراطوراً في عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م. وكان قد تربى على يد امه بلانش

دوكاستي التي كانت متعصبة للديانة المسيحية فنشأ متديناً، ولذلك سمي بالقديس لويس(٧٣).

في عام ١٢٤٥ م، دعاه البابا اينوقنتيوس الرابع للجهاد المقدس. فاستلم الصليب من يد ممثل البابا الخاص في اكتوبر ١٢٤٨ م، من اجل خوض الحرب ضد المسلمين والاستيلاء على مصر التي كانت مركز العالم الاسلامي آنذاك. فانطلق من باريس قاصداً قبرص. ورغم شيوع مرض الهيضة بين جنوده، إلّا انه انطلق من قبرص باتجاه مصر على ظهر ١٢٠ سفينة كبيرة و ١٦٠ سفينة صغيرة، فوصل الى دمياط في ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م(٧٤).

كان يترأس معسكر دمياط الأمير فخر الدين بن يوسف والى جانبه بنو كفاته. لكنهم جميعاً هربوا حين رؤيتهم للسفن الصليبية وهي تقترب من الساحل المصري، فوقعت دمياط في يد الصليبيين بدون قتال. فأسس لويس التاسع في هذه المدينة القاعدة الأساسية لانطلاق الصليبيين في عملياتهم الحربية ضد المسلمين، غير ان فيضان نهر النيل، عمل على تأخير المشاريع التي كانت تدور في مخيلته(٧٥).

خلال تلك الحملة توفي الملك الصالح نجم الدين، إلّا ان زوجته شجرة الدر كتمت خبر وفاته كي لا يتفرق جنده. ورغم دخول الصليبيين الى مدينة المنصورة، غير ان الجهود الكبرى التي بذلها المماليك البحريون، ومساعي توران شاه الأيوبي وتضحيات الأمير فخر الدين الجويني(٧٦)، عملت على الحاق الهزيمة بالصليبيين، ووقوع الامبراطور الفرنسي لويس التاسع مع عشرة آلاف مسيحي، أسرى في يد المسلمين. وقام المسلمون في الأيام اللاحقة بقتل جميع المسلحين الذين كانوا يقاومون، بينما بعثوا بالآخرين الى سوق النخاسة بالقاهرة. اما لويس التاسع فقد افتدى نفسه بفدية مالية والتخلي عن دمياط، فعاد الى عكا في ٨ مايس ١٢٥٠ م. ومكث نحو ٤ سنوات في سوريا، اي منذ ١٣ مايس ١٢٥٠ م وحتى ٢٤ نيسان ١٢٥٤ م، واتخذ العديد من الخطوات التي حصّن من خلالها المدن الساحلية مثل

عكا، وسزارة، ويافا، وصيدا. كما رتّب اوضاع الافرنج فيها، وحطم مقاومة ووقاحة رجال الدين المسيحي. كما بعث القس روبروكي(٧٧) ـ وهو من طائفة الدومينيكان ـ على رأس وفد الى بلاط الملك المغولي منغوقا آن (١٢٥٣ ـ ١٢٥٤ م)، دون ان يسفر ذلك عن شيء ما(٧٨).

تزامنت مع تلك الأحداث هجمات قامت بها الطوائف التي كانت تقطن في سفوح جبال بيرنه، على مدينة قرطبة. فأخذت تمارس عمليات السلب والنهب والقتل فى تلك المدينة الاسلامية، ثم دمرت هذه المدينة وأحرقت حتى مكتبتها التي تعبِّر بوضوح عن ثقافة مسلمي الأندلس وحضارتهم.

تواكبت هذه الاحداث مع زحف المغول نحو بلاد المسلمين فاجتازوا جدار الصين وأسقطوا الدولة الخوارزمشاهية، ودمّروا مدن ايران وقراها، ثم استولوا على بغداد ودمّروها وقتلوا أهلها وأسقطوا الدولة العباسية في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م.

الغزو المغولي للعالم، بدأ في ٦٠٨ هـ / ١٢١٠ م بزعامة جنكيزخان متزامناً مع الحملة الصليبية الخامسة، واستمر حتى اواخر القرن الثالث عشر الميلادي. ويمكن ان يُعد القرن الثالث عشر الميلادي، قرن الرعب، لأنه قرن قامت فيه الهجمات والحروب الوحشية والدموية، وتقوّضت فيه الحضارات(٧٩).

بعد أن استولى جنكيزخان على الصين وايران في ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م، توفي في صحراء غوبي، وتقاسم أبناؤه البلاد التي اخضعها لسيطرته. وفي عام ١٢٣٨ م بعث اوغتاي قاآن ـ خان المغول ـ جيشاً كبيراً بقيادة سوبتاي بهادر لاحتلال ماوراء نهر الخزر وسواحل نهر الدانوب، فاستولى على المجر، وبولندا، وسيلسبري حتى بلغ سواحل البحر الادرياتيكي، وأثار الرعب في قلوب ملوك وامراء ذلك الجزء من العالم. وشعر البابا بالخوف اضاً واستنجد بملوك اوربا. ومن حسن حظ الاوربيين ان الخان المغولي اوغتاي قاآن توفي خلال تلك الفترة ايضاً الأمر الذي اجبر القائد العسكري المغولي سوبتاي بهادر على العودة للاشتراك في الاجتماع المغولي الذي سيعقد لانتخاب خليفة للخان المتوفى، فلم يكتمل الزحف المغولي

على اوربا(٨٠).

ورغم ذلك ظل البابا يعتبر المغول خطراً كبيراً، ولذلك فكر في استمالة تلك القوى الكبرى واستخدامها ضد المسلمين واحتلال القدس، فبعث وفداً الى بلاط الخان المغولي، فلم يجن هذا الوفد اية ثمار من زيارته في المرة الاولى، ولكن الوفد الآخر الذي بعثه البابا في المرة الثانية استطاع ان يقيم علاقة مع البلاط المغولي، ويؤسس كنيسة صغيرة في قراقروم(٨١).

كذلك بعث الامبراطور الفرنسي لويس التاسع وفداً للبلاط المغولي، لاستمالة المغول والاستعانة بهم. كما اوفد الامبراطور الأرميني هايتون ممثلين دينيين لاقامة روابط مع المغول. وكان هذان الامبراطوران يسعيان في حقيقة الأمر لاسترجاع القدس من المسلمين.

وكان هولاكو يدّعي حماية المسيحيين، لذلك ما ان استولى على بغداد وأسقط الدولة العباسية في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م حتى بعث جيشاً نحو القدس لرفع معنويات المسيحيين، وسألهم ان يساعدوه في ذلك الأمر، لكنهم لم يجيبوا دعوته، فانكسر الجيش المغولي في عين جالوت(٨٢) امام المسلمين الذين كان يقودهم الامير سيف الدين قطز وذلك في عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م.

كانت بلاد الشام آنذاك خاضعة للدولة الايوبية، فيما كانت مصر تحكم من قبل المماليك الذين كانوا في عداء مع الايوبيين. ورغم ان المسيحيين كانوا يسعون لمدجسور الاتصال مع المغول كي يأمنوا خطرهم، لكنهم ادركوا بعد هزيمتهم في عين جالوت ان المماليك اخطر عليهم من المغول، ولذلك عقدوا العزم على اقامة علاقة معهم(٨٣).

المماليك كانوا غلماناً أتراكاً ابتاعهم السلطان الأيوبي الملك الصالح واستخدمهم حرساً خاصاً به، لكنهم اصبحوا فيما بعد ملوكاً على مصر والشام. ويقسم المماليك المصريون الى قسمين هما: المماليك البحريون، والمماليك البرجيون(٨٤). وكان المماليك مقاتلين اشداء، وقد بلغوا مناصب عليا في الدولةالايوبيةبعد انهيار الدولة

الفاطمية، حتى انهم اخذوا يلعبون دوراً أساسياً في عزل وتنصيب بعض السلاطين الايوبيين. كما كان لهم تأثير كبير في طرد الصليبيين والمغول من الأراضي الاسلامية(٨٥).

رغم الاختلافات والصراعات الناشبةبين الصليبيين، إلّا انهم استطاعوا الحفاظ على وحدتهم السياسية في الخارج. وفي عام ١٢٦٠م نجح هولاكو ـ حفيد جنكيزخان ـ في الاستيلاء على سوريا الاسلامية واخراجها من سيطرةآخر أحفاد صلاح الدين الأيوبي،والسيطرة على المدن السورية المهمة مثل دمشق، وحلب، وحماه، وحمص.

وكان بعض المغول قد اعتنقوا المسيحية (المذهب النسطوري)، ومنهم زعيمهم كيت بوقا (Kitbouqa)، كما انضم الملكالأرمني هيثوم (Hethoum) الى المغول وتحالف معهم، كما تحالف معهم بوهموند السادس ملك انطاكية وطرابلس وصهر الملك الأرميني. وعلى هذا الاساس لعب المغول دور الصليبيين في قتال المسلمين واحتلال سوريا. غير أن نصارى تلك المنطقة شعروا بالخوف من المغول، وهاجم أحدهم ويدعى جولين الصيدوني (Julien de Sidon) طابوراً من الجيش المغولي لكنهم ردّوا عليه بعنف. وقرر المجلس الحكومي في اكر (عكا)(٨٦) الاتحاد مع مماليك مصر في التصدي للمغول. فاستطاع مماليك مصر من خلال ذلك ونتيجة لحيادية الصليبيين في الحرب بين المماليكوالمغول، تحقيق الانتصار على المغول في معركة عين جالوت، وطردهم من سائر أرجاء سوريا وذلك في ٣ أيلول ١٢٦٠ م(٨٧).

هزيمة المغول في الحرب أمام المماليك، آلت الى تحرير سوريا الاسلامية، وسيطرةالمماليك على حلب ودمشق والقدس وامتداد دولتهم من ليبيا وحتى ضفاف نهر الفرات، وتحوّلهم الى قوة بلا منازع.

ويعود التقدم الذي أحرزه الصليبيون في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي الى اتحادهم، وتشتت المسلمين وفرقتهم. ولكن حينما اتحد المسلمون عسكرياً وسياسياً

في مقابل الاضطرابات والصراعات التي كان يعاني منها الصليبيون، تغيرت الأوضاع لصالح المسلمين تماماً، لاسيما وقد امسك بزمام الامور في دولةالمماليك خلال الفترة ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧م، رجل شجاع ومقاتل هو السلطان بيبرس، الذي عقد العزم على طرد الافرنج والصليبيين من البلاد الاسلامية. فاستطاع منذ شباط ١٢٦٥ وحتى مايس ١٢٦٨ ان يستعيد معظم المدن الساحلية في فلسطين مثل قيصرية، وأرسوف، وقلعة فرسان المعبد في صفد، ويافا، وانطاكية. ولم تبق في يد بوهموند السادس سوى طرابلس(٨٨).

الحملة الصليبية الثامنة (٦٦٨هـ / ١٢٧٠م)

قام بيبرس وأنصاره بقتل السلطان الايوبي توران شاه، وتنصيب امه شجرة الدر بدلاً منه، كما اختير عزالدين ايبك اتابكاً وذلك في ٦٤٧هـ / ١٢٥٠م، فيكون بذلك قد تم القضاء على آخر سلطان ايوبي، واستحواذ المماليك على مقاليد الامور. وانقسم المماليك الى شطرين هما: المعزيون الذين كانوا يؤيدون عزالدين ايبك الملقب بالملك المعز، والصالحيون الذين كانوا من انصار الملك الصالح المتوفى.

تزوج معزالدين بشجرة الدر، ارملة السلطان الايوبي الملك الصالح، واختار طفلاً ايوبياً يبلغ عمره ٨ سنوات سلطاناً على البلاد ولقبه بالملك الأشرف، وأخذ ينوب عنه فيحكم البلاد. وكان قد اشترط لاطلاق سراح لويس التاسع والأسرى الصليبيين الآخرين فدية مقدارها ثمانمائة الف دينار ذهباً مع اعادة دمياط الى المسلمين، وعودة الصليبيين الى بلادهم من دون التدخل في شؤون المسلمين. ووافق الصليبيون على تلك الشروط جميعاً. وعاد لويس التاسع الى فرنسا بعد فترة من التوقف في عكا، منهياً بذلك الحملة الصليبية السابعة(٨٩).

الصراع بين المماليك المعزيين والصالحيين، انتهى آخر المطاف الى مقتل معزالدين ايبك بعد أن تآمرت عليه زوجته شجرة الدر التي أحلت محله ولدها البالغ من العمر ١٥ عاماً بعد ان اضفت عليه لقب الملك المنصور. غير ان المنصور لم يحكم

سوى عدة ايام فقط اذ اطاح به سيف الدين قطز الذي كان يميل الى الصالحيين ايضاً، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد بعد أن تلقب بالملك المظفر وذلك في ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م (٩٠).

اختار الملك المظفر قطز، أحد غلمان الملك الصالح ويدعى ركن الدين بيبرس وزيراً له، وأصدر امراً بقتل شجرة الدر قصاصاً لعزالدين ايبك الذي قتلته.

حينما كان قطز منهمكاً في تعزيز المواقع الدفاعية للمدن المصرية لمجابهة الغزو الصليبي المحتمل، طرق سمعه نبأ مهاجمة هولاكو للشام ودمشق، ولذلك تأهب لقتاله.

بدأ هولاكو غزوه في نهاية عام ٦٥١هـ بقواته التي معظمها من المغول الذين اعتنقوا الديانة المسيحية، فأخضع ايران وقضى على امراء الاسماعيلية. ثم زحف نحو بغداد في نهاية عام ٦٥٥هـ وقضى على الدولة العباسية بعد أن قتل آخر خلفائها وهو المستعصم بالله. وزحف في أعقاب ذلك نحو الشام لدعم الصليبيين، فبعث الى قطز يطالبه بالاستسلام او الحرب، فاختار الحرب، وبعث ركن الدين بيبرس على رأس جيش غفير الى فلسطين، ثم لحق بهم ايضاً.

حينما سمع هولاكو نبأ وفاة منغوقا آن، عاد الى قراقورم بينما وضع على رأس الجيش المغولي اميراً جنگيزياً من اجل الانطلاق لاحتلال القدس. ولكن المغول هزموا هزيمة شنعاء في عين جالوت على يد المسلمين، فتفرق جمعهم ولم يعد بمقدورهم الزحف نحو مصر. لذلك يعد النصر الذي حققه ركن الدين بيبرس في عين جالوت، أحد الانتصارات الخالدة في تاريخ الحضارة الاسلامية، ومهد الطريق لاتحاد الشام ومصر(٩١).

استطاع الملك الظاهر ركن الدين بيبرس خلال الفترة ٦٦٦ ـ ٦٧١هـ / ١٢٦٥ ـ ١٢٧١ م، استعادة معظم القلاع والمدن التي كان يستولي عليها الصليبيون والمغول، بما فيها دمشق. ثم انطلق نحو ارمينيا فحقق بعض الانتصارات هناك، عاد بعدها ليستعيد من الصليبيين مدينتي يافا، وانطاكية.

حينما سمع البابا كليمنس الرابع بسقوط هاتين المدينتين، بعث الى الملوك والأباطرة الاوربيين يطالبهم فيها بالزحف نحو العالم الاسلامي من جديد، فلم يلب طلبه سوى لويس التاسع الذي خرج بجيشه من فرنسا عام ١٢٧٠ م، لكنه شن هجوماً على تونس بدلاً من مهاجمةمصر. فألحقت قوات السلطان التونسي محمد بن زكريا الملقب بالمستنصر ضربات قاصمة بالجيش الصليبي، كما فشى مرض الطاعون في صفوف هذا الجيش، ومات به لويس التاسع ايضاً، فعادت قواته المتبقية الى بلادها(٩٢).

بعد وفاة لويس التاسع، ادام ابنه فيليب الثالث، تلك الحرب، فزحف عمه شارل دانجو مع ملك صقلية نحو العالم الاسلامي لدعم الصليبيين، فحاصروا مدينة تونس، فأجبروا سلطانها على الصلح ودفع غرامة قدرها ٢٢٠ ألف مسكوكة ذهبية.

في ذلك العام ايضاً، أقبل الأمير الانجليزي ادوارد الاول ابن هنري الثالث لدعم الصليبيين. غير ان المماليك انطلقوا بعيد ذلك، وفي عهد الملك الأشرف، لاستئناف عملياتهم الحربية فاستولوا على طرابلس وعكا، وكانتا آخر المواقع المتبقية بيدالصليبيين. ولجأ من بقي حياً من الصليبيين في تلك الحرب، الى قبرص. وذهب التامبليون الى فرنسا، والهوسبتاليون الى رودس، والتوتونيون الى بروس(٩٣).كما عاد ادوارد الى انجلترا بعد ان وقع على اتفاقية للسلام مع المماليك(٩٤).

في تلك الفترة ايضاً بايع الملك الظاهر بيبرس، أبا القاسم احمد المستنصر بن الظاهر ـ عم المستعصم بالله الذي قتله المغول ـ وكان قد هرب من بغداد الى مصر في اعقاب سقوط بغداد بيد المغول. وبذلك تكون الخلافة الشكلية للعباسيين قد استمرت في مصر حتى عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، حيث سقطت في هذا العام على يد السلطان العثماني سليم الأول. وأفتى بعض علماء اهل السنة بانتقال الخلافة الاسلامية من العباسيين الى العثمانيين(٩٥).

بعث البابا اوربانوس الرابع كتاباً جوابياً الى هولاكو يشكره فيه على حسن

سلوكه مع النصارى، ويدعوه الى الديانة النصرانية. وقد توفي هولاكو في ٦٨٣هـ / ١٢٨٢م قبل ان يتسلم ذلك الكتاب، وخلفه ابنه اباقاخان(٩٦). وكان اباقاخان تزوج بابنة الامبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوغوس (Michael paleologos) وتدين بالدين المسيحي. وقد تأثر كثيراً للهزيمة التي لحقت بالمغول في عين جالوت، ولذلك أبدى رغبة شديدة نحو توثيق العلاقةمع الصليبيين، فبعث العديد من الوفود الى الغرب لتحقيق هذا الغرض، فلم تحقق النتائج المطلوبة.

قال أحد السفراء الذين بعثهم اباقاخان الى البابا: «في هذا اليوم هناك الكثير من المغول النصارى. ويوجد بينهم الامراء والملوك والملكات، وقد تعمدوا جميعاً واعتنقوا الديانة المسيحية... ينوي ملك المغول مهاجمة بلاد الشام ويدعوك لمساعدته في احتلال بيت المقدس»(٩٧).

ولم تجر الامور كما كان يفكر اباقاخان، اذ أنه هزم في حمص أمام الملك المنصور قلاوون في ٦٨٠هـ / ١٢٨١م(٩٨). وحينما اسلم أحمد تكودار وجلس على العرش، أصبحت العلاقات بين المغول والمماليك علاقات ودية. فانتهز قلاوون تلك الفرصة فهاجم القوات الصليبية. كما تابع ابنه الملك الأشرف نهج ابيه ايضاً، فطرد آخر البقايا الصليبية من الشام في ٦٩٠هـ ١٢٩١/م(٩٩).

العلاقات الودية بين المغول والمماليك، لم تستمر طويلاً، حيث تقوّضت عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م في أعقاب دعوة احد بقايا الخلفاء العباسيين ويدعى اباالعباس أحمد، لاعادة الخلافة في بغداد. وحقق غازان خان نصراً في الحرب التي اندلعت بين الجانبين(١٠٠). غير ان جيش المماليك تمكن من دحر الجيش المغولي عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م، وطرد المغول من الشام الى الأبد، وذلك في المعركة التي عرفت بمرج الصفَّر.

نتائج الحروب الصليبية وظهور الاستعمار الغربي

طرح مارينوسانودو (Marino Sanudo) في كتابه «مؤمنو الصليب» الذي ألّفه

عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م، فكرة العودة لاحتلال مصر لمجابهة الاسلام. وقد ظهر أمثال هذا الكتاب في القرن الرابع عشر بشكل واضح. وأخذت تتصاعد الدعوات خلال تلكالفترة لاحياء الحروب الصليبية. وكانت اوربا تواجه آنذاك تهديداً كبيراً من قبل الدولةالعثمانية القوية، ولم يحقق الاوربيون أي نجاح في مقابل العثمانيين بالرغم من كافة الأعمال الاحترازية التي قاموا بها وتأسيس الاتحادات والتكتلات، ومنيت قواتهم بهزائم متتالية أمام القوات العثمانية.

فيليب مزيرس (Philip Mezieres) الذي ساعد على الحرب الصليبية التي شنت عام ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م، أمسك ثانيةبالقلم كي يكتب رسالة تفيض بالألم(١٠١). وأثار في هذا الأثر مشروعه لتأسيس جمعية للنبلاء تأخذ على عاتقها مهمة التصدي للأتراك العثمانيين، لكنه كان يجهل انه يقدم الوعظ لعالم انهكته الموعظة ومل سماعها. فالقسطنطينية التي كانت عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية، سقطت في يد العثمانيين عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م. وبالرغم من دعوة بيوس الثاني(١٠٢). لشن حرب صليبية ضد العثمانيين، غير ان هذه الدعوة صمتت تماماً بعد وفاته في ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م(١٠٣).

منذ القرن الثاني عشر وحتى القرن الرابع عشر الميلاديين، هاجر الاوربيون لاسيما الفرنسيين والايطاليين، الى سوريا البحرية وفلسطين (٤٩١ ـ ٦٩٠هـ / ١٠٩٨ ـ ١٢٩١م)، وقبرص (٥٩٢ ـ ٩٥٧هـ / ١١٩٦ ـ ١٥٧١م)، والقسطنطينية (٦٠٠ ـ ٦٥٩هـ ١٢٠٤/ ـ ١٢٦١م)، وأثــــينا (٦٠١ ـ ٨٦١هـ / ١٢٠٥ ـ ١٤٥٨م)، وبلوبونز (٦٠٢ ـ ٨٢٣هـ / ١٢٠٦ ـ ١٤٣٠م)، وجزر اليونان (القرن ١٣هـ / القرن ١٦م)، وأثرت آدابهم وثقافتهم الى حد ما على أرمينيا الصغرى او كيليكية (Cilicie) (٤٩١ ـ ٦٧٣هـ / ١٠٩٨ ـ ١٢٧٥م).

تعد تلك الهجرة، اولى مراحل الاستعمار الغربي، حيث يمكن ان يكون الدافع الاول لها هو الايمان والتعصب الديني، والسبب الذي يكمن خلفها هو الحروب الصليبية. غير ان العامل المؤثر والمستمر لتلك الهجرة هو رغبة النبلاء الفرنسيين

بالنصر والاستيلاء على أراض جديدة. كما كانت الجمهوريتان الايطاليتان جنوه والبندقية تتطلعان الى التجارة والربح. وكان ذلك الفكر الاستعماري يقوم على اساس تطلعات قوية ومثيرة مثل الاستيلاء على بيت المقدس والقضاء على الكفر والالحاد(١٠٤).

تم تطبيق هذا الفكر الاستعماري الى حد ما بحيث انتشرت اللغة الفرنسية في قبرص وأثينا، واللغة الايطالية في جزيرة كريت وشبه جزيرة القرم. كذلك تحقق لمهاجري سان لويس بقاء النفوذ المعنوي الفرنسي في البلدان المستعمرة الى الأبد. وكان لدى معاصري ماركوبولو اعتقاد بخلود هيمنتهم الاقتصادية في المناطق الخاضعة لهم.

ولكن على العكس من هذا التصور، لم تبق آثار مهمة من تأثير الغرب على الشرق، اذ اتى على تلك الآثار تأثير واتساع الحضارتين اليونانية والاسلامية. ففي عام ٦٥٩هـ ١٢٦١/م خضعت القسطنطينية لليونانيين ثانية، وحرر المسلمون عكا في عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م مقوضين بذلك آخر قاعدة للافرنج في فلسطين. كما استولى اليونانيون في عام ٨٢٣هـ / ١٤٣٠م، على آخر موقع للافرنج في مورة، ثم استولى عليه العثمانيون في ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م، فتم بذلك القضاء على تسلطهم الاستعماري.

ومن اهم عوامل فشل الحروب الصليبية:

١ ـ انفراد الافرنج في ادارة شؤون البلاد المحتلة لاسيما عدداً معدوداً من النبلاء وفرسان بعض الأسر، بينما معظم سكان سوريا كانوا من المسلمين او المسيحيين العرب، كما كان اليونانيون هم الأغلبية في قبرص ومورة. لذلك حينما استعاد المسلمون سوريا، والبيزنطيون مورة، لم تكن الحكومات الصليبية الافرنجية تحظى بأية جماهيرية.

٢ ـ اسلوب الحكم الاقطاعي والاضطراب الناجم عنه. حيث كشف مجموعة قوانين بيت المقدس عن ان الحكومة الافرنجية التي حكمت المناطق المحتلة كانت عبارة عن وحدة عسكرية عسكرت في الثغور والبلاد الاسلامية.

٣ ـ العداء بين المهاجرين والأجهزة الحكومية اللاتينية في الأراضي المحتلة. فالصراع في سوريا عام ٥١١هـ ١١١٧/م بين الجهاز الحكومي وريمون الثالث، والاشتباك بين القبارصة وأسرة انجو، والحقد الذي كان يكنه الفرسان الهيكليون ضد الفرسان المضيّفين، وكذلك الخصومة التي كانت قائمة في ايطاليا بين البندقيين والجنويين، من بين الأسباب التي عملت على انحدار الصليبيين واخفاقهم في تحقيق أهدافهم. معنى هذا ان الشرق اللاتيني قد انتفض ضد نفسه، فكانت المحصلة النهائية هو ذلك الثأر الذي أخذته آسيا من اوربا. ففي اعقاب الحملات الصليبية الاولى لاسيما في عام ٥١٢هـ / ١١١٨م اتصلت الحدود الاوربية بأدسا والموصل في وادي الرافدين، بينما انسحبت الحدود الاوربية عام ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م الى بوابة فينا(١٠٥).

لو بحثنا عن الهدف الأساس للحروب الصليبية من منظار البابا والمسيحيين لرأيناه تحرير الأرض المقدسة، وهو الهدف الذي اخفقوا في تحقيقه في نهاية المطاف، فضلاً عن تقوّض أركان الدولتين المسيحيتين في الشرق وهما بيت المقدس، والامبراطورية البيزنطية في القسطنطينية. ولكن لو نظرنا الى تلك الحروب من منظار آخر لرأينا ان لها نتائج وآثاراً كثيرة ومهمة جداً على شتى الأصعدة لاسيما اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً(١٠٦).

لاريب في ان الاوربيين كانوا على احتكاك بثقافة الحضارة الاسلامية منذ عهد الفتوحات لاسيما عن طريق الأندلس وصقلية والطرق البحرية التجارية بين الشرق والغرب. وسبق ان قلنا بأن ادلارد الباثي حمل معه اول نسخة لكتاب اقليدس من قرطبة الى اوربا. كما رجّح العلوم الاسلامية على العلوم المسيحية. ويعتقد بعض الباحثين الغربيين المعاصرين مثل هنري لوكاس ان التطورات

والتغييرات التي شهدتها اوربا خلال القرن الثاني عشر، منبثقة من تأثير العلوم والمعارف اليونانية ـ الاسلامية التي وصلت الى اوربا عن طريق بلاد الأندلس قبل الحروب الصليبية. بل وحتى يعتقدون انه لولا الحروب الصليبية لكان تأثير الثقافة الاسلامية على اوربا اكبر(١٠٧). ولكن لابد من القول بأن تقبّل الاوربيين للثقافة الاسلامية أصبح أشد في اعقاب الحروب الصليبية.

بل ان النهضة الاوربية قد تحققت بفضل تأثير ثقافة المسلمين وحضارتهم، وهو التأثير الذي كان على أشده بعد تلك الحروب. وقد قال بيرروسو: جمع المسلمون افضل اكتشافات البلدان ونقلوها الى الاوربيين(١٠٨).

في عام ٥٩٩هـ سافر الى مصر وسوريا ليونارد فيبوناتشي البيزي وكان تلميذاً لأستاذ مسلم. وكان اول اوربي ينشر، في كتاب الفه، الأعداد العربية في اوربا. وقد أهدى ذلك الكتاب الى فردريك الثاني. كما ترجم اصطفن الانطاكي كتاب الطب الملكي (كامل الصناعة) لعلي بن عباس المجوسي، عام ٥٢١هـ/١١٢٧م(١٠٩)

الافرازات الاقتصادية للحروب الصليبية، انعكست بالدرجة الاولى على تجارة البحر المتوسط الغربي. فعملت هذه الحروب على عملية التبادل التجاري بحرياً بين الغرب والشرق، فاغتنى من خلال ذلك بحارة وربابنة موانئ البندقية وجنوه ومارسية. وازدهر التعامل بالسلع والبضائع الشرقية في سوريا خلال احتلالها من قبل المسيحيين، لاسيما على يد التجار الفرنسيين والايطاليين.

من جانب آخر أدت الحملات الصليبية الى نشر التمدن في الغرب، لأن الغربيين قد افتتنوا بآثار ومظاهر التمدن في الشرق، فتعلموا من الشرقيين استخدام بعض الأدوات والوسائل مثل الأفرشة، والمرايا، وشتى انواع الأقمشة كالحريرية والمخملية وغيرها(١١٠).

ومن آثار الحروب الصليبية ايضاً، تغيير التركيبة الاجتماعية في اوربا. فأدت تلك الحروب الى اضعاف النظام الاقطاعي وتعزيز نفوذ الملوك والأباطرة، والتمهيد لظهور نظام الحكومة الوطنية. وقام سان لويس بخطوات قضائية مهمة على طريق

ترسيخ سيطرة الملك وزعزعة أركان الاقطاع(١١١)،وكان يدرس بنفسه الشكاوى المتعلقة بالاقطاعيين الكبار. كما اتخذ فيليب الرابع الذي اعتلى العرش الفرنسي بعد سان لويس بأربعة عشر عاماً، العديد من الاجراءات للحد من نفوذ كبار الاقطاعيين، ومنها اضافة أراض جديدة للأملاك الملكية(١١٢).

قبل الحروب الصليبية وكذلك حتى نهاية تلك الحروب، كان يعد البابا والكنيسة، القوة المطلقة في العالم المسيحي. وكانت اوقاف الكنيسة وأموال الاشخاص الذين لا وارث لهم، تعد من مصادر دخل البابا المهمة. في عام ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م كان دخل البابا لوحده اكبر بكثير من دخول جميع البلدان الاوربية. لذلك كان من النتائج المهمة للحروب الصليبية، اضعاف الكنيسة وأربابها على شتى الأصعدة. كما قضت هذه الحروب على سلطة رجال الكنيسة على الملوك. وقام سان لويس (لويس التاسع) بتحديد نفوذ الكنيسة وسلطتها، لاسيما من خلال المرسوم الذي أصدره عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م والذي منع فيه البابوات من فرض وأخذ الضرائب.

كذلك أعلن فردريك باربروس، وبالاستناد الى قوانين روما، ان القانون منبثق من ارادته. ورغم فشله في حربه ضد البابا، إلّا ان حفيده فردريك الثاني هب لشن حرب ضد البابا رغم تكفيره ولعنه من قبله، وطالب بتطبيق القانون بشكل متساو على جميع الطبقات والفئات بما فيهم كبار رجال الدين المسيحي.

من جانب آخر أثارت اموال البابوات الطائلة ودعم الكنيسة للنظام الطبقي، سخط الطبقات الدنيا في المجتمع، ودفعها للمطالبة بتخلي الكنيسة عن تلك الثروات وتغيير تعاليمها. وعملت حالة الاعتراض والاحتجاج هذه على ظهور العديد من التيارات والحركات الدينية والتي اهمها: Cathares, Vaudois(١١٣).

الدراسات التي قامت بها المراكز العلمية في فرنسا عام ١٢٢٢هـ / ١٨٠٨م اثبتت ان الحروب الصليبية كان لها دور كبير في الحرية السياسية للشعوب الاوربية وفي حضارتها وثقافتها وتجارتها وصناعتها. اي انها عملت على ايجاد

احتكاك مثمر ومفيد بين الثقافتين الاسلامية والمسيحية(١١٤).

كانت افكار المفكر المسلم ابن رشد، ذات تأثير كبير على تجديد الحياة الفكرية في اوربا. ففردريك الثاني الذي عرف بالتسامح الديني في عصر الصليبيين، كان على اتصال وتراسل مع تلاميذ ابن رشد، فتأثرت روحه الدينية بهم. ولذلك تعد الحرية الفكرية التي ظهرت في الغرب في اعقاب الحروب الصليبية، مدينة لتعرف الغرب على الفلسفة الاسلامية ـ اليونانية، سيما وأنه يعتبر ابن رشد المؤسس لاسلوب الفكر الحر.

في نهاية القرن الثالث عشر كانت جامعة بادوا في ايطاليا مركزاً لنشر نظريات ابن رشد وأفكاره. كما طالب لويس الحادي عشر في القرن الخامس عشر بتدريس فلسفة ابن رشد وأرسطو(١١٥).

التسامح الديني، تعلمه الاوربيون الصليبيون من المسلمين في نهاية الحروب الصليبية. فعلى سبيل المثال حينما علم صلاح الدين الايوبي بمرض ألد خصومه ـ اي ريتشارد قلب الأسد ـ بعث اليه طبيبه الخاص مع الدواء، وهو السلوك الذي أذهل اعداءه. ولاريب في ان تأثر الصليبيين بالمسلمين كان سريعاً جداً وكبيراً، وهو ما دفع بالكثيرين منهم الى البقاء في الشرق(١١٦).

في اعقاب الحروب الصليبية تأسست في اوربا جامعات عديدة مثل بولوني في روما وباريس، ونابولي وبادوا سالرنو في ايطاليا، ومون بليه في فرنسا، واكسفورد في انجلترا، واورليان وانجير وفالنسيا في أسبانيا. وعملت هذه الجامعات على توسيع الأفق الفكري عند الاوربيين. ويقول جورج سارتون:

عدا الجامعات الاوربية الاولى، لا يمكن ان يكون اي شيء آخر دليلاً على الثورة العقلية الحاصلة في الغرب المسيحي بفعل انتقال الثقافة اليونانية ـ الاسلامية اليها(١١٧).

من جهة اخرى، كانت الضربة التي وجهها الصليبيون والمغول للثقافة

الاسلامية، مؤلمة جداً وغير قابلة للتدارك، لأنهم أحرقوا معظم الكتب العلمية والمفيدة للبلدان الاسلامية. ورغم ذلك افتتنت بعض الأقوام المسيحية ومن ثم الصليبية بالعلم وحققت انجازات فيه وذلك بفضل مجاورتهم للمسلمين واختلاطهم بهم، حتى ان بعضهم انبرى لترجمة الكتب الاسلامية.

بالرغم من اتلاف واحراق الصليبيين والمغول للشطر الأعظم من الكتب الاسلامية، لاسيا في الأندلس، يمكن من خلال ملاحظة بعض المخطوطات المتبقية التي ترجمها الصليبيون في اوربا، الوقوف على أهميتها العلمية، وبالتالي على المكانة العلمية الرفيعة للمسلمين.

مع ان معظم المسيحيين الاوربيين، لم يكن لهم نصيب من العلم قبل الحروب الصليبية، سعى بعض طلاب العلم المسيحيين والذين تأثروا خلال تلك الحروب بما كان لدى المسلمين من أدب وفن وفلسفة وفلك وطب ورياضيات وغيرها، لترجمة الكتب التي الفها المسلمون في هذه الحقول، ومنهم ارمون ـ اسقف طليطلة ـ الذي اسس داراً للترجمة عام ١١٢٠م انبرى فيها لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية ونشرها. وقد ترجم في هذه الدار ما يربو عن ٣٠٠ كتاب في مجال الطب فقط.

يعد الامبراطور الألماني فردريك الثاني ـ وكان قائد الحملة الصليبية السادسة ـ يميل جداً لترجمة كتب المسلمين من العربية الى اللاتينية. وقد فوّض هذه المهمة لفريق يهودي. ولاشك في ان التبادلات الثقافية ذات أهمية للاوربيين اكثر من أهميتها لدى الشرقيين. غير ان هذه الحروب ذات آثار سلبية على كافة منطقة الشرق الأدنى، وعملت على زرع بذور العداء والحقد بين المسلمين والمسيحيين والتي لازالت ـ وللأسف الشديد ـ الى يومنا هذا(١١٨).

اضف الى ذلك، أصبحت فرنسا ذات نفوذ سياسي وتجاري مهم في الشرق بفعل الحروب الصليبية. ولازالت شعوب الشرق الأوسط تطلق لفظة الافرنج على الشعوب الغربية، والتي هي ترجمة لمفردة «Frank». ونرى كذلك تداول اللغة الفرنسية في سوريا، وقبرص، وأرمينيا، ومورة (بيلوبونيز)، بل لازالت الفرنسية

اكثر تداولاً في الشام من سائر اللغات الاوربية، وباتت تعد اللغة الثانية في هذه المنطقة. والهدف من الحفاظ على المدارس الفرنسية في الشرق الأدنى، هو الحفاظ على التفوق الفرنسي في هذه المنطقة والذي بدأ منذ ايام الحرب الصليبية، والذي له انعكاسات مهمة على تعزيز الصناعة والتجارة والسياسة الخارجية الفرنسية(١١٩).

الرهبانية اليسوعية التي تأسست ـ لا سيما في منطقة الشام ـ في أعقاب التعرف الثقافي الاوربي على الشرق والتي تعد استمراراً للحركات التبشيرية، انهمكت حتى الحرب الكونية الاولى ومن بعدها، في تربية وانشاء القوى الفاعلة. وقد تأسست هذه الرهبانية في مطلع القرن السادس عشر (٩٤٤هـ / ١٥٣٨م) على يد قسيس أسباني يدعى اغناطيوس دي لويولا (Ignatius de loyola). وحينما أفتى الباب بشرعية هذه الرهبانية بعد سنتين من ذلك، أخذت تشق طريقها في سوريا ولبنان.

فضلاً عن الرهبانية اليسوعية، كانت فرنسا تمارس نشاطاً مستمراً في المنطقة من خلال ارسال اللجان والوفود التبشيرية والتربوية الاخرى التي تبلغ للدين المسيحي، وتشييد الجامعات والمدارس والمراكز ذات النشاط المسيحي التي من بينها جامعة القديس جوزيف في لبنان والتي تعد احدى اهم الجامعات اللبنانية وأقدمها(١٢٠).

بشأن تأثير الحروب الصليبية على العالم الاسلامي يمكن القول بأنها أدت الى حدوث تنوع عرقي وزيادة عدد نفوس المسيحيين في شرق البحر المتوسط، لاسيما في منطقة الشام، حيث أدى ذلك الى صمود الصليبيين خلال قرنين من الحروب من جهة، وزواج الصليبيين بالنساء المسيحيات السوريات، الأمر الذي عمل على اختلاط وزيادة عدد المسيحيين في منطقة الشام.

نظراً لسكنى معظم الصليبيين ـ عسكريين وغير عسكريين ـ في لبنان، وبما أن البلدان البحرية كانت تبيع عدداً كبيراً من النساء والأبناء الصليبيين الى المسلمين،

فما هي إلّا فترة قصيرة حتى شكل هؤلاء جزءاً كبيراً من نفوس لبنان، وظهرت العديد من الطوائف المسيحية أهمها الطائفة المارونية التي تنتسب الى قس مسيحي يدعى «مارمارون» كان يعيش في شمال غربي سوريا خلال القرنين الميلاديين الرابع والخامس(١٢١). والموارنة كانوا حلفاء للصليبيين في الحروب الصليبية. ونظراً لكون معظم الصليبيين، من الفرنسيين، فقد ابرموا معاهدة صداقة مع سان لويس في ٤٦٨هـ/١٢٥٠م. وكتب لويس كتاباً الى بطريقهم جاء فيه: «نتعهد بالدفاع عن الموارنة كدفاعنا عن الفرنسيين. فالموارنة جزء من الشعب الفرنسي»(١٢٢). ولازال هذا الاتحاد والتعاون بين الفرنسيين والموارنة مستمراً الى يومنا هذا، وله تأثير عميق على مسرح السياسةاللبنانية.

ومن العوامل الاخرى التي شجعت سكن المسيحيين في الشام، هو الدور الذي لعبته جمهوريات البندقية، وجنوه، وبيزا في الحرب. فنظراً للامتيازات التي حصل عليها تجار هذه الجمهوريات الثلاث من قبل السلاطين والأمراء الصليبيين، أخذ التجار الايطاليون يتقاطرون على الشرق، ويسكنون في الأماكن التي أعدت لهم. ويقول تومسون ان تلك المناطق الرومية كانت بمثابة دولة في أرض اجنبية، تدير شؤونها بشكل مستقل(١٢٣).

اضف الى ذلك، تركت الحروب الصليبية تأثيراً كبيراً على النظام الفكري والثقافي ـ الاجتماعي في الشرق الأوسط. وقد ظهرت بعد الحرب الصليبية الاولى واحتلال القدس حالة من اللامبالاة بين المسلمين، وهيمنت روح عدم الاكترات والانزوائية في المناطق المسلمة التي سيطر عليها الصليبيون، لاسيا في الشام.

وفي عهد الايوبيين والماليك، أنشئت في مصر، والشام، الخانقاهات والتكايا والزوايا، بحيث لم يشهد العالم الاسلامي نظير هذا الاقبال على تشييد هذه الأبنية قبل تلك الفترة. كما ظهرت فرق وطرق صوفية عديدة كالطريقة الأحمدية التي تنتسب الى أحمد بدوي (٥٩٦ ـ ٦٧٥هـ / ١١٩٩ ـ ١٢٧٦م) في مصر، والطريقة الرفاعية التي تنتسب الى أحمد الرفاعي (ت ٥٧٨هـ ١١٨٣/م) والطريقة الشاذلية

التي تنتسب الى أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٩م)، والطريقة القادرية التي تنتسب الى عبدالقادر الجيلاني (ت ٥٦١هـ / ١١٦٦م) في بغداد، والطريقة المولوية في القرن السابع الهجري في آسيا الصغرى(١٢٤).

بالرغم من قدم التصوف، ولكن تأثر اتساعه وتكامله في شرق البحر المتوسط بالحروب الصليبية. فهذه الحركات السلبية ادت الى ظهور حركة جديدة في العالم الاسلامي تمثلت في مناهضتها للتصوف. ويعد ابن تيمية(١٢٥) (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) وأمثاله، من قادة هذه الحركة(١٢٦).

من الآثار السلبية الاخرى التي خلفتها الحروب الصليبية، هو الفساد والفحشاء وسائر الأعمال المنكرة التي اوجدها الجنود والمقاتلون سواء كانوا من الافرنج او الترك او الكرد او العرب، وذلك لأن الانشغال في تلك الحروب الطويلة لم يسمح لهؤلاء بالزواج، الأمر الذي وفر تواجد النساء الفاسدات والبغايا. وقد استشرى البغاء الى درجة بحيث عينت دولة المماليك مسؤولاً للاشراف عليه(١٢٧).

هوامش الفصل الأول:

١ ـ غوستاف لوبون، تاريخ حضارة الاسلام والعرب، ترجمة هاشم الحسيني، طهران، ١٩٦٨، ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

٢ ـ حدثت هذه الاصلاحات عام ١٠٧٣م، ومنع البابا الملوك والاقطاعيين انتخاب الاساقفة.

٣ ـ البرت مالت وجول ايزاك، تاريخ القرون الوسطى، ج٢، ترجمة عبدالحسين هزبر، طهران، دار ابن سينا للنشر، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨.

٤ ـ رينه غروسه، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة ولي الله شادان، طهران، ١٩٩٨م، المقدمة، ص ١ ـ ٩.

٥ ـ نفس المصدر، المقدمة، ص ١٠ ـ ١١.

٦ ـ نفس المصدر، المقدمة، ص ١١ ـ ١٢.

٧ ـ نفس المصدر، المقدمة، ص ١٢ ـ ١٣.

٨ ـ البرت مالت، مصدر سابق، ص ٢٤٨؛ غوستاف لوبون، سابق، ص ٣٩٢.

٩ ـ رينة غروسه، سابق، ص ١٤ ـ ١٥؛ البرت مالت، سابق، ص ٢٥٢.

١٠ ـ رينه غروسه، سابق، ص ١٥؛ البرت مالت، سابق، ص ٣٣٨ ـ ٤٠٠.

١١ ـ رينه غروسه، سابق، ص ١٦ ـ ١٧.

١٢ ـ نفس المصدر، ص ١٧ ـ ١٨؛ البرت مالت، سابق، ص ٢٤٩.

١٣ ـ رينه غروسه، سابق، ص ١٨ ـ ١٩؛ جواهر لال نهرو، نظرة الى تاريخ العالم، ترجمة محمود تفضلي، طهران، ١٩٦٩، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٨.

١٤ ـ رينه غروسه، سابق، ص ٣ ـ ٤.

١٥ ـ نفس المصدر، ص ٥ ـ ٦؛ البرت مالت، سابق، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١؛ غوستاف لوبون، سابق، ص ٣٩٥.

١٦ ـ رينه غروسه، سابق، ص ٩ ـ ١٠، البرت مالت، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

١٧ ـ رينه غروسه، سابق، ص ١٠.

١٨ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٥٢.

١٩ ـ نفس المصدر، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ رينه غروسه، سابق، ص ١١.

٢٠ ـ غوستاف لولون، سابق، ص ٣٩٧.

٢١ ـ رينه غروسه، سابق، ص ١٣ ـ ١٥.

٢٢ ـ نفس المصدر، ص ١٦ ـ ٢٠.

٢٣ ـ ينتمي الى قوم هاجروا من النروج في اواخر القرن التاسع وسكنوا في نورماندي فاعتنقوا المسيحية وتحدثوا باللغة الفرنسية، ثم هاجروا الى جنوب ايطاليا (نابولي وصقلية).

٢٤ ـ رينه غروسي، سابق، ص ٢١ ـ ٢٥؛ غوستاف لوبون، سابق، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠.

٢٥ ـ تعد هذه الفترة، فترة انحطاط للسلاجقة، اذ تحققت خلالها انتصارات للصليبيين في سوريا، وللبيزنطيين في آسيا الصغرى.

٢٦ ـ رينه غروسي، سابق، ص ٢٥ ـ ٢٩؛ غوستاف لوبون، سابق، ص ٣٩٦ ـ ٤٠٤.

٢٧ ـ غوستاف لوبون، سابق، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

٢٨ ـ نفس المصدر؛ رينه غروسي، سابق، ص ٣٣.

٢٩ ـ غوستاف لوبون، سابق، ص ٤٠٠.

٣٠ ـ نفس المصدر، ص ٤٠١.

٣١ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

٣٢ ـ نفس المصدر، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨؛ رينه غروسه، سابق، ص ٣٣ ـ ٥٤.

٣٣ ـ غوستاف لوبون، سابق، ٤٠٣.

٣٤ ـ نفس المصدر، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤.

٣٥ ـ مدينة جنوبي تركيا الحالية.

٣٦ ـ غوستاف لوبون، سابق، ص ٤٠٤؛ رينه غروسي، سابق، ص ٤٤ ـ ١٠٩.

٣٧ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٥٩؛ محمد رشاد، الحروب الصليبية، طهران، ج ١، ص ١٩٠.

٣٨ ـ غوستاف لوبون، سابق، ص ٤٠٤.

٣٩ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠؛ عبدالله ناصري طاهري، اسباب وآثار الحروب الصليبية، مع ترجمة «اعلام التبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين»، طهران، ١٩٥٨، ص ٨٨ ـ ٨٩.

٤٠ ـ أخذت الدولة الفاطمية تفقد عظمتها شيئاً فشيئاً بعد وفاة المستنصر بالله، بحيث أصبح الوزراء أشد قوة من الخلفاء. وفي عام ٥٥٨ هـ أصبح مشاور بن مجير السعدي وزيراً، فقضى على خصمه ضرغام بن عامر اللخمي بمساعدة نور الدين زنكي. ثم خان نورالدين زنكي ايضاً واتحد مع الصليبيين ضده. فبعث نور الدين لقتاله اسد بن شيركوه ـ عم صلاح الدين ـ فاستطاع ان يقتله ويصبح وزيراً للعاضد الفاطمي بدلاً منه. فقاتل اسد بن شيركوه الصليبيين. ثم أصبح صلاح الدين الايوبي وزيراً للخليفة الفاطمي.راجع: عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ٨٥.

٤١ ـ كان عبارة عن قلعة كبرى وحصينة جنوبي الأردن الحالية، بالقرب من جزيرة العرب والبحر الأحمر. راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤.

٤٢ ـ مدينة جنوبي فلسطين وبالقرب من بحيرة طبرية.

٤٣ ـ عبدالله الناصري الطاهري، بيت المقدس، مدينة الانبياء، طهران، ١٩٨٨، ص ٥١ ـ ٥٣.

٤٤ ـ احمد بن علي الحريري، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عبدالله الناصري الطاهري، ص ٣٢.

٤٥ ـ في فلسطين وبالقرب من القدس.

٤٦ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ٣١ ـ ٣٢.

٤٧ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٠؛ غوستاف لوبون، سابق، ص ٤٠٥؛ جواهر لال نهرو، سابق، ص ٤٢٥ـ ٤٢٧.

٤٨ ـ يعرف هذا الصلح بصلح الرملة الذي أبرم في شعبان ٥٥٨/ ١١٩٢م.

٤٩ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٢؛ غوستاف لوبون، سابق، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

٥٠ ـ ويل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمةاحمد آرام، طهران، منظمة نشر الثورة الاسلامية، ١٩٨٦، ج ٤، ص ٨٠٨.

٥١ ـ نفس المصدر، ص ٨٠٩؛ البرت مالت، سابق، ص ٢٦١.

٥٢ ـ غوستاف لوبون، سابق، ص ٤٠٧.

٥٣ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٦.

٥٤ـ نفس المصدر؛ هانس ابرهارد ماير، الحروب الصليبية، ترجمة عبدالحسين شاهكار، شيراز، جامعة شيراز، ١٩٩٢، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

٥٥ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٦.

٥٦ ـ هانس ابرهارد ماير، سابق، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

٥٧ ـ نفس المصدر، ص ٢٤٥.

٥٨ ـ مدينة في ايطاليا الوسطى، ومركز ناحيةاومبريا.

٥٩ ـ الألبيجينيون، طائفة من مدينة البيجو جنوبي فرنسا، تم القضاء عليها بأمر من البابا في بداية القرن الثالث عشر.

٦٠ ـ زارا (دالماسي)، ميناء في ساحل البحر الأدرياتيكي، حيث يعد جزءاً من اسلوفينيا في يومنا هذا.

٦١ ـ نفس المصدر، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠؛ ش. دولاندلن، التاريخ العالمي، ترجمة احمد بهمنش، طهران، جامعة طهران،ج ٥، ١٩٨٩، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦.

٦٢ ـ نفس المصدر.

٦٣ ـ ابن الأثير،الكامل في التاريخ، تحقيق علي شيري، بيروت، ١٤٠٨هـ ج ٧، ص ٥٦٦؛ رينه غروسه، سابق، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٨.

٦٤ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ٨٩؛ هانس ابرهارد ماير، سابق، ص ٢٥١ ـ ٢٥٩؛ رينه غروسه، سابق، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٥؛ حسين علي ممتحن، كليات التاريخ العام، طهران، ج ٢، ١٩٧٨، ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩.

٦٥ ـ كانت الامبراطورية الجرمانية المقدسة تتألف من المانيا، وشمال ايطاليا، ومملكة آدل.

٦٦ ـ رينة غروسه، سابق، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.

٦٧ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

٦٨ ـ هانس ابرهارد ماير، سابق، ص ٢٦٩.

٦٩ ـ موضع بالقرب من غزة اقتسم فيه الأخوان الكامل والأشرف بلاد المعظم.

٧٠ ـ مدينة في فلسطين.

٧١ ـ هانس ابرهارد ماير، سابق، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.

٧٢ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ١٤٩ ـ ١٥٤؛ رينه غروسه، سابق، ص ٣١٧ ـ ٣١٨؛ صدرالدين الميراني، الحياة والمدنية في القرون الوسطى، ١٩٦٨، ص ٣٣؛ ويل ديورانت، سابق، ج ١٣، ص٤٦؛ ش دولاندلن، سابق، ص ٤٦٦.

٧٣ ـ جواهر لال نهرو، سابق، ص ٤٢٧.

٧٤ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٧؛ انطوني وست، الحروب الصليبية، ترجمة داريوش همايون، طهران، ١٩٧١، ص ١٠١.

٧٥ ـ محمد علي راد وترابي كيانفر، قرنان من الخوف، ١٩٨١، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩؛ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٧.

٧٦ ـ مجموعة مقالات عباس اقبال، تصحيح دبير ساقي،طهران،١٩٧١،ص ٦٥١ فما بعد.

٧٧ ـ كان البابا اينوقنتيوس الرابع قد بعث في عام ١٢٤٥م وفداً برئاسة القس جون بيان دل كاربين الى بلاط غيوك خان لانقاذ نصارى الشرق الأدنى واستحصال ود المغول، لكنه لم يحقق شيئاً. راجع: استيون رانسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ترجمة منوجهر كاشف، طهران، ١٩٧٩، ص ٣٠٩ ـ ٣٣٤.

٧٨ ـ رينه غروسه، الحروب الصليبية، ترجمة علي أصغر شميم، طهران، ١٩٥٩، ص ٨٣؛ محمد علي راد وترابي كيانفر، سابق، ص ٢١٣.

٧٩ ـ نفس المصدر، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

٨٠ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ٩٢ ـ ٩٣؛ محمد علي راد وترابي كيانفر، سابق، ص ٢١١.

٨١ ـ عباس اقبال آشتياني، تاريخ ايران، ج ١، ١٩٦٧، ص ١٩٣ ـ ١٩٤.

٨٢ ـ مدينة بين بيسان ونابلس في فلسطين.

٨٣ ـ عبدالحسين نوائي، ايران والعالم منذ المغول وحتى القاجارية، طهران، ١٩٨٥، ص ١٤ ـ ٣٠.

٨٤ ـ ترجع هذه التسمية الى مايلي: في عهد الملك الصالح الايوبي، كان المماليك البحريون يعسكرون في جزيرة على نهر النيل باسم البحر. بينما كان يقيم المماليك البرجيون في عهد السلطان قلاوون في برج يتولون فيه حماية السلطان وحمايته.

٨٥ ـ محمد علي راد وترابي كيانفر، سابق، ص ٢١٦.

٨٦ ـ من المدن الساحلية السورية التي كان يقطنها الصليبيون.

٨٧ ـ رينه غروسه، سابق، ص ٨٥ ـ ٨٦؛ رينه غروسه، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

٨٨ ـ رينه غروسه، الحروب الصليبية، ص ٨٦ ـ ٨٧؛ رينه غروسه، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٨٠.

٨٩ ـ محمدعلي راد وترابي كيانفر، سابق، ص ٢١٧ ـ ٢١٩.

٩٠ ـ نفس المصدر، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

٩١ ـ خواندمير، حبيب السير، طهران، مكتبةالخيام، ١٩٥٤، ج ٢، ص ٩٨؛ عباس اقبال آشتياني، سابق، ص ١٧١ و١٩٥.

٩٢ ـ ش. دولاندلن، سابق، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧؛ محمدعلي راد، سابق، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

٩٣ ـ هؤلاء عبارة عن ثلاث فرق دينية عسكرية نشأت خلال الحروب الصليبية وكان هدفها قمع المسلمين.

٩٤ ـ نفس المصدر، ص ٤٦٧؛ محمد رشاد، سابق، ج ٢، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٢.

٩٥ ـ محمدعلي راد، سابق، ص ٢٢٨.

٩٦ ـ رينه غروسه، الحروب الصليبية، ص ٨٦ ـ ٨٧.

٩٧ ـ نفس المؤلف، امبراطورية اهل الصحراء، ص ٦١١.

٩٨ ـ عباس اقبال آشتياني، تاريخ المغول، طهران، ١٩٨٦، ص ٢١٥.

٩٩ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ٥٩؛ رينه غروسي، سابق، ص ٨٨ ـ ٨٩.

١٠٠ ـ عباس اقبال آشتياني، ص ٢٧٧ ـ ٢٩٧.

١٠١ ـ هانس ابرهارد ماير، سابق، ص ٣٣١.

١٠٢ ـ بيوس الثاني (٨٦٢ ـ ٨٦٨هـ / ١٤٥٨ ـ ١٤٦٢م)، هو البابا العاشر بعد المئتين.

١٠٣ ـ هانس آبرهارد ماير، سابق، ص ٣٣١.

١٠٤ ـ رينه غروسي، سابق، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

١٠٥ ـ نفس المصدر، ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

١٠٦ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٨؛ غوستاف لوبون، سابق، ص ٤١١؛ حسين علي ممتحن، سابق، ص ٦٦٥.

١٠٧ ـ هنري لوكاس، تاريخ الحضارة منذ القدم وحتى عصرنا، ترجمة عبدالحسين آذرنك، ج ١،طهران، ١٩٨٧.

١٠٨ ـ بيرروسو، تاريخ العلوم، ترجمة حسن صفاري، طهران، ١٩٦١، ج ١، ص ١٤٦.

١٠٩ ـ ش. دولاندلن، سابق، ص ٤٦٧؛ فيليب حتي، تاريخ العرب، الطبعة الخامسة، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٤ م ـ ص ٧٥٤.

١١٠ ـ البرت مالت، سابق، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

١١١ ـ كاسمينسكي، تاريخ القرون الوسطي، ترجمة انصاري ومؤمني، طهران، ١٩٧٤،

ص ۱۱۷.

۱۱۲ ـ نفس المصدر.

۱۱۳ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ۱۱٤ ـ ۱۱٥.

۱۱٤ ـ هانس ابرهارد ماير، سابق، ص ۳۳۲.

۱۱٥ ـ غوستاف لوبون، سابق، ص ۷۳۲.

۱۱٦ ـ ويل ديورانت، سابق، ص ۸۱۸؛ البرت مالت، سابق، ص ٤٤۳.

۱۱۷ ـ مهدي نخستين، تاريخ المصادر الاسلامية لتعليم وتربية الغرب، ترجمة عبدالله ظهيري، ۱۹۸۸، ص ۱۹۸ ـ ۱۹۹.

۱۱۸ ـ محمدعلي راد وترابي كيانفر، سابق، ص ۲٤۸ ـ ۲٥۰.

۱۱۹ ـ علي اكبر دهخدا، موسوعة، ج ۹، ص ۱۳۲٦٤.

۱۲۰ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ۱۳۹ ـ ۱٤۱.

۱۲۱ ـ ويل ديورانت، سابق، ج ٤، ص ۷۹۸.

۱۲۲ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ۹۷ ـ ۹۸.

۱۲۳ ـ ابن بطوطة، تحفةالنظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص ٦۱؛ رحلةابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، بيروت،الشركة العالمية للكتاب، ص ۲٤۹.

۱۲٤ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ۹۹ ـ ۱۰۰.

۱۲٥ ـ نسبة الى مدينة تدعى تيا في الشام.

۱۲٦ ـ علي اكبر دهخدا، سابق، ج ۱، ص ۲٦٥.

۱۲۷ ـ عبدالله الناصري الطاهري، سابق، ص ۱۰۱.

الفصل الثاني

الغزو المغولي وافرازاته

لاريب في ان حالة غزو البلدان الاخرى ومهاجمة الأقوام والقبائل التي تعيش مترحلة ومهاجرة من مكان لآخر، للمدن والأمم الساكنة في مكان واحد او مستقرة في منطقة واحدة، امر كان مألوفاً في الماضي. وكان يرافق ذلك الغزو الكثير من الصور المأساوية كالقتل، والتخريب، والسلب، والنهب، والتطاول على الأعراض والأموال والقيم. لكن المغول كانوا يتميزون بروح تهاجمية عنيفة وطبع قبلي متأصل، ولذلك اختطفوا رهان السبق من الجميع، ففعلوا كل ما بمقدورهم فعله ودمروا كل ما كان بوسعهم تدميره، فكان نتاج افعالهم الوحشية الرهيبة: أراض خالية من السكان.

للمغول الحق في ان يفتخروا قائلين: لقد ساوينا المدن الكبرى مع التراب، ولم تعد تصطدم حوافر خيولنا حتى بالحصى والحجارة. وبهذه الطريقة من التعامل مع هذه الأرض وسكانها استطاعوا ان يشيدوا امبراطورية كبرى شملت آسيا بكاملها، وجزءاً من اوربا، ممتدةً من كوريا وحتى الحدود الألمانية وسواحل بحر الادرياتيك.

دراسة العوامل الأولى لظهور مثل هذه القوة، وكيفية تعاملها مع البلدان المجاورة، لاسيما خراسان وايران، بل والعالم الاسلامي، وان كانت تعكس جانباً من تاريخ المغول، إلّا ان بامكانها تقديم صورة للظروف التاريخية لظهور المغول في العالم آنذاك، وتعزز وجودهم، وتعاظم قوتهم.

اذن الدراسة الراهنة تؤكد من جانب على غزو المغول للبلدان الاسلامية وافرازات ونتائج ذلك الغزو على العالم الاسلامي، وتسعى من جانب آخر للاشارة الى كيفية استغلال النصارى الصليبيين لهذه الكارثة التي المت بالعالم الاسلامي، وتبيان كيف خرج الاسلام والثقافة الاسلامية بسلام من ذلك الاعصار المدمر بعد كفاح مرير وطويل خاضه المسلمون مع المغول والصليبيين وكافة القوى التي حاولت النيل منهم، وكيف قهر الاسلام اعداءه في نهاية المطاف وحوّلهم الى دعاة له.

عوامل ظهور المغول

تؤلف آسيا الوسطى والشرقية بلاداً مترامية الأطراف تمتد من بحر أختسك حتى بحر الخزر، وذات تضاريس مختلفة كالجبال والسهول والصحارى والوديان والأراضي الخصبة. غير ان الصحارى والمرتفعات الوعرة، تؤلف الجانب الاكبر منها.

هذه المنطقة الموازية لدول اوربا الوسطى والبحر المتوسط، يحدها من الشرق مرتفعات منشوريا وجبال خينجان وجدار الصين، ومن الغرب بحر الخزر، ومن الشمال سهول سيبريا، ومن الجنوب هضبة التبت وسلسلة جبال هيمالايا.

تعد ناحية منغوليا، اهم نواحي هذه المنطقة، إلّا ان بعدها عن البحار ووجود الجبال والمرتفعات، جعلاها تبدو وكأنها مرتع بدون أشجار. وتتميز بمناخها البري وطقسها المتغير، وصيفها الحار القصير، وشتائها البارد الطويل(١). وترك

الاختلاف في درجة الحرارة، والرياح السريعة القوية تأثيراً على وجوه سكان هذه المنطقة الصحراوية، لذلك نراهم يتميزون بعيون صغيرة وضيقة. وأجفان ممتدة، وخدود بارزة، وأجسام قليلة الشعر. كما منحتهم اكتافهم العريضة قوة كبيرة، وخلقت منهم ضروريات حياة التنقل والترحال في الصحراء، اناساً لا يعرفون الخوف.

ولد تموجين (جنكيزخان) في مثل هذه البيئة، وبين اناس يعيشون حالة الهجرة المستمرة بحثاً عن الكلأ والعشب، ويمتهنون الحرب والصيد ومهاجمة القوافل والأقوام الاخرى.

حينما ولد جنكيز كان ابوه «يسوكاي بهادر» قد خرج للاغارة على قبيلة تدعى تموجين، وقد نجح في تلك الغارة وعاد ومعه غنائم وأسرى. وحينما سمع بولادة هذا المولود، أطلق عليه اسم تموجين(٢).

فضلاً عن قبيلة «قيات» ـ اي السيل الهادر ـ التي ينتسب اليها جنكيزخان والتي تسمى دوجقين ـ اي الدموع ـ ايضاً ويبدأ نسبها من «يسوكاي بهادر»(٣)، هناك قبائل مغولية مهمة اخرى مثل: الاويغور، والأغاجر، والتتر، والكرايت، والنايمان، والبكرين، والقرقيز.

يعد الاويغور والتتر، من أشهر القبائل المغولية. فالتتر كانوا يجاورون الصين ولذلك كانوا في حرب مستمرة مع هذه الامبراطورية. كما كانوا في حالة نزاع دائم مع القبائل المغولية الاخرى بما فيها قبيلة «قيات» التي ينتسب اليها جنكيزخان. وقد اشتهر التتر بالشجاعة والروح القتالية خلال القرنين الهجريين الخامس والسادس، بحيث راحت مفردة التتر او التاتار تطلق على جميع الغزاة المغول. وقد استخدمت هذه التسمية من قبل عطاء الملك الجويني ايضاً(٤)، بينما لم يكن الأمر هكذا، اذ كان التتر في حالة حرب شديدة وعداء مستفحل مع يسوكاي بهادر ثم مع ابنه جنكيزخان، لذلك ما ان استتبت الامور لجنكيز خان حتى ضيّق الخناق عليهم وسحقهم، بحيث لم يعد بامكانهم العيش كقبيلة متميزة(٥).

الاويغور، هي القبيلةالمغولية المهمة الثانية، وتعني هذه اللفظة في اللغة التركية، الاعانة والاتصال. ويقال ان هذا الاسم أطلق عليها من قبل «اوغور»(٦).

الاويغور، كانوا يقطنون عادة في المناطق الشمالية الشرقية من تركستان، وشمالي بحيرة لبانور ونهر تاريم، لاسيما في مدن تورفان، وبشبالغ (بشباليغ)، وبرقول، وقره شهر. كما كانوا يسيطرون على جزء مهم من الطريق المعروف بالحريري، ولذلك كانوا أثرياء بسبب المبالغ الطائلة التي يحصلون عليها من التجارة.

كما كانت هذه القبيلة متفوقة ثقافياً على جميع القبائل المغولية الاخرى. ويقال ان المانويين هم الذين علموهم الفنون، كما عمل ممثلو الأديان المنافسة الاخرى كالنصارى والبوذيين على رفدهم بالثقافة.لذلك ارتفع مستوى الأدب الاويغوري خلال القرن السابع الميلادي بفضل ترجمة الأدعية والمواعظ البوذية، بحيث انخرط افراد منهم لتربية وتعليم الاتراك والمغول(٧). وينسب اليهم الخط الاويغوري المنبثق من الأبجدية السريانية.

يسوكاي بهادر الذي ينتسب الى قبيلة قيات، استطاع بكفاءته وكياسته الخاصة، ان يوحد القبائل المغولية المتنازعة المتحاربة فيما بينها. ولربما يعد هو اول من وضع اللبنات الاولى للدولة المغولية. لكنه سرعان ما قتل مسموماً على يد افراد القبيلة المنافسة، فحل محله ابنه تموجين الذي كان يبلغ ١٣ عاماً. وحدثت خلال تلك الفترة حادثة مهمة اخرى، اذ اجتمع رؤساء القبائل المهمة ثم قرر ثلثاهم الخروج من تحت لواء الخان والانضواء تحت ألوية امراء آخرين، وذلك لأنهم خافوا ان يضعوا انفسهم وأسرهم وقطعانهم تحت زعامة طفل غير مجرب(٨).

بذلت «اولون» زوجة يسوكاي بهادر وأم تموجين ـ وكانت امرأة عاقلة وشجاعة ـ مساع جمة للحيلولة دون تجزئة القبيلة وانقسامها، فرفعت بيرق زوجها الذي ربطت به أذناب تسع أبقار، وامتطت الجواد، وأخذت تلاحق

الهاربين، فاستطاعت اقناع البعض بالرجوع. وقدجلس تموجين آنذاك (٥٢٩هـ / ١١٧٥م) على جلد حصان أبيض وفق التقاليد المغولية.

كانت فترة صبا وشباب تموجين حافلة بالأحداث، لكنها رغم قسوتها وصعوبتها، كانت تعدّه لزعامة القبائل المغولية المشتتة. ولذلك اخذت تلك القبائل تنظر اليه وكأنه محمي من «السماء الزرقاء الخالدة»، وتعتقد بأنه الزعيم الذي لا يهزم.

كانت أعماله وممارساته تبدو وكأنها من الخوارق، وتبعث على الدهشة والحيرة، بحيث باتت تؤمن به حتى الشعوب التي غلبها، وذهب البعض لاضفاء النبوة عليه واعطائه صورةً ماوراء طبيعية. فيقول «شبانكارئي» ـ مؤرخ العهد الايلخاني فيه: لو ا نه كان قد تشرف بالاسلام لكان يمكن القول بأنه كان نبياً(٩).

استطاع تموجين (جنكيزخان) من خلال ذكائه الخاص وفطنته الذاتية، وفي أعقاب الجهود الكثيرة التي بذلها، ان يشغل في عقيدة المغول مقاماً سماوياً، بحيث بات الجميع يعتقد ان الاله الأوحد «تانغري» يساعده في توفيره السعادة والرفعة والمال لقومه(١٠).

والغريب في الأمر ان جنكيزخان كان يكشف في حالات الخطر والمواضع المهمة لأتباعه عن ارتباطه بالسماء والعالم العلوي. فكان يرمق الآفاق الأربعة بطرفه، ويفك حزامه، ويضعه على كتفه ويقول: «ايتها السماء اللامتناهية، حققي لي امنيتي،وأنزلي علي ملائكة العالم العلوي لتساعدني، وابعثي لي في الأرض رجالاً ينصرونني»(١١).

هذه الأساليب والأعمال دفعت بالرجال الى الاقبال عليه فوجاً فوجاً، فأخذت تتعاظم قوته ويكثر مقاتلوه الذين لابد له منهم في مشروعه لغزو العالم. ولم يكن يفهم السلطة على انها تفوق سياسي، وانما توفير الحاجات الاساسية ومتطلبات الحياة. ولذلك كان لديه بلاط في منتهى البساطة، وبلا حاجب، ورسميات، وبدون

مستشارين، وانما كان يغصّ بالرجال الشجعان والمقاتلين.

في ظل هذه الظروف كان لابد من قطع خطوة اخرى من اجل تنظيم الامور، وترتيب شؤون الملك، واعطاء الشرعية لخانية جنكيزخان الذي لازال يعرف بـ «تموجين». وعليه أمر في مطلع عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٩م بعقد اجتماع كبير للتشاور يضم جميع رؤساء القبائل والشخصيات المغولية المهمة، فتمت الموافقة فيه على تنصيب تموجين زعيماً لهم، ومنحه «كوكجو» الساحر والكاهن الكبير لقب «جنكيز» والذي يعني القوي والشديد، حسب ما ذهب اليه رشيد الدين فضل الله(١٢).

هذه الخطوة المهمة، عملت على تنظيم المغول اللامنظمين ووحدت قبائلهم وكياناتهم، وأجبرتهم جميعاً على احترام مقام الخان. ولكن كان لابد أيضاً من وجود بعض القواعد او القوانين من اجل استمرار ذلك النظام وتعزيز السلطة. ولم يكن مثل هذا الأمر خافياً على جنكيزخان، ولذلك تم في عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م وضع مجموعة من القوانين باسم «ياسا»، كانت خليطاً من الرغبات الخاصة والآداب والتقاليد القبلية، وألزم جميع المغول بمراعاتها والعمل بها.

كانت تلك المجموعة القانونيةتتألف من ٣٦ مادة، حرم فيها خان المغول الزنا، واللواط، والكذب، والتبول في المياه، ومساعدة الأسير، وكلمات الاطراء، والألقاب الفخرية(١٣). فكان ذلك عاملاً مهماً من عوامل تعزيز قوة المغول وتقوية شوكتهم تحت قيادة جنكيزخان.

لم يستمر الأمر طويلاً حتى وضعت تلكالقوة المنسجمة المتزايدة، أقدامها خارج حدود منغوليا وجعلت الأراضي الخضراء العامرة في الشرق والغرب ميداناً لخيولها. وهذا يدل على ان الأمم والشعوب اذا اتّحدت تحت قيادة زعيم قوي وذكي، بمقدورها ان تحدث تغييرات مهمة في التاريخ.

أسباب غزو المغول للبلاد الاسلامية

لربما اتخذ قرار غزو المناطق الواقعة الى الشرق والغرب من بلاد المغول ـ اي الصين وايران ـ خلال الاجتماع الاستشاري الكبير الذي صادق على تعيين جنكيز خاناً للمغول، اذ ان منصب الخان يعطى ـ حسب الثقافة المغولية ـ للشخص الذي يفكر بتأمين مصالح من يقودهم، ويلتزم بحفظ اموالهم وصيانة شرفهم وناموسهم. لذلك كان لابد لجنكيزخان ان ينهض بهذه المهمة التي لا يمكن تحقيقها إلّا عن طريق اشعال نار الحرب مع الجيران الأثرياء، ونهب أموالهم وثرواتهم، وهم الجيران الذين كانوا راقدين على سرير الرخاء وغارقين في النعمة، لكنهم أجبن من سكان البوادي واقل ثقة بأنفسهم(١٤).

وقرر المغول ان يكون غزوهم الأول، للصين التي باتت تعاني من الانقسام والتمزق خلال تلك الفترة، كما كان الوصول اليها اسهل من ايران، لأن ايران تقع في ذلك الجانب من السلاسل الجبلية التي تعرف بسد آسيا الوسطى والذي كان العرب يدعونه جبل قاف، والمغول يدونه «داغ دوباش».

زحف جنكيزخان الى جدار الصين الكبير، واجتاز ذلك السد الحصين بدون خسائر في الأرواح لأنه كان قبل ذلك قد خدع القبائل الحدودية وضمها الى جانبه، ففتحوا بوجهه بوابات ذلك الجدار. وما أن دخل الى داخل الأراضي الصينية حتى حطم اولى القوى الدفاعية الصينية بسرعة مذهلة. وأخذ المقاتلون المغول يرتكبون المجازر ويحتلون المدن، مثل مدينة لياوتونغ. وعاد جنكيزخان ـ وكما هي عادته ـ من الصين سريعاً وأمر بقطع رؤوس الأعداد الغفيرة من الاسرى في اطراف صحراء غوبي(١٥).

استمر الغزو المغولي للصين سنتين(١٦)، قام المغول خلالها بتدمير هذا البلد الغني وتحويل مدنه ومعالمه الى تراب، بحيث أخذوا يفتخرون ان خيولهم كانت تجري في مواقع المدن العظيمة دون ان ترتطم سنابكها بصخرة او حجر. وكان

منتهى طموح المغول اخلاء المناطق الآهلة بالسكان والأراضي الخصبة من سكانها وأهلها، لتحويلها الى مراع ومراتع لمواشيهم.

بعد التغلب على بلاد ختا او الصين الشمالية، وبلاد ايغور، وقراختاي، وقبيلة نايمان، تريّث جنكيزخان في الزحف نحو الغرب، اي العالم الاسلامي، اذ الأخبار كانت تصل اليه عن وجود مدن عامرة، وأنهار لاتنجمد، وبساتين غزيرة بالفاكهة، ومنتوجات صناعية متنوعة، وأمم لا تعد، وسلطان قوي ذي جيش عظيم يلتف حوله الترك والتاجيك. لذلك ليس من الحكمة ان يقوم بعملية عسكرية بدون ان تتوفر لديه معلومات وأخبار دقيقة وكافية عن الاوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية لمملكة خوارزمشاه المجاورة. كما كان ينتظر من جانب آخر الذريعة اللازمة من اجل شن الحملات والزحف نحو تلك البلاد.

في أعقاب الحروب الصليبية، حدث تحالف او اتحاد مؤقت بين الاتراك والاكراد والعرب المسلمين في مواجهة المسيحيين الذين كانوا يهاجمون الأراضي الاسلامية المقدسة، ولذلك هاجم السلاجقة وهم من الترك المسلمين، آسيا الصغرى وسيطروا على جزء من الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية). غير أن الخلافة الاسلامية التي كانت بمثابة قلب العالم الاسلامي ومركز ادارة شؤون المسلمين، تنحدر نحو الأنهيار من خلال تغلب البويهيين في نحو ٣٣٤هـ / ٩٤٦م، ثم استيلاء السلاجقة بقيادة طغرل بيك.

في تلك الفترة، حقق السلطان محمد خوارزمشاه انتصارات متلاحقة في خراسان وايران، وأسس دولة واحدة تمتد من الهند الى بغداد، ومن نهر اورال الى الخليج الفارسي. وكان يرمي الى استبدال الخليفة العباسي بخليفة آخر من احفاد الحسين بن علي (ع) يحظى بقبول عام، وقد حصل على فتوى بهذا الشأن من علماء عصره كفخرالدين الرازي(١٧).

وتعد هذه الخطوة خطأ فاحشاً ارتكبه السلطان محمد خوارزمشاه في تلك الظروف الحساسة، لأنه وجه انظار الخليفة العباسي ـ الناصرلدين الله ـ نحو القوة

الفتية المعادية للسلطان محمد، اي المغول، وأجبره على الاستعانة بهم لصده.

وبالرغم من ان جنكيزخان كان كافراً إلّا انه كان لديه مساعدون من المسلمين، ولذلك أمر الخليفة الناصر بكتابة رسالة الى محمود يلواج ـ مدير شؤون جنكيزخان ـ كي يحرض جنكيزخان ضد خوارزمشاه. وقد اعترض بعض المقربين من الخليفة على تلك الخطوة قائلين ان تسليط الكافرين على المسلمين امر لا يتفق مع العقل ولا ينطبق مع الشرع. ولو تسلط الكافرون على بلاد المسلمين فن المحتمل ألا يحترموا الخلافة ايضاً، ويهاجمون بغداد. فقال لهم الخليفة: هؤلاء ليس بمقدورهم السيطرة على بغداد الى ما بعد خمسين عاماً، بينما سيتحطم هيكل دولة خوارزمشاه في القريب العاجل. وحينما وصلت رسالة الخليفة الى محمود يلواج، وفاتح الأخير جنكيزخان بالأمر، وجد جنكيزخان في ذلك الموضوع ذريعة جيدة ومبرراً للزحف نحو الشرق(١٨).

الخطأ الاستراتيجي الآخر الذي ارتكبه السلطان محمد خوارزمشاه، والذي كان مؤثراً على تحريض القوات المغولية لغزو بلاده، هو قضاؤه على دولة قره ختائي البوذية، والتي كانت سداً في وجه الغزاة وخطاً دفاعياً مابين خوارزمشاه والمغول. فالبرغم من العهد الذي قطعه لزعمائهم بعدم مهاجمتهم وذلك خلال زحفه على خراسان، لاسيما اثناء محاصرة هراة(١٩)، إلّا انه هاجمهم أو هبَّ لجهادهم ـ حسب تعبيره ـ في ذلك الظرف الحرج، واستولى على مدن ماوراء نهر سيحون، وطاردهم حتى مدينة اوزكند.

هذه الحركة العسكرية التي تعبر في الظاهر عن انتصار السلطان محمد خوارزمشاه وتفوقه الحربي، افرزت نتائج وخيمة جداً أهمها ازالة ذلك السد او الخط الدفاعي الذي كان يحمي دولته من الخطر المغولي(٢٠).

اذن ارتكب السلطان محمد خطأين استراتيجيين، مهد بواسطتهما الطريق أمام المغول للزحف نحو بلاده ومن ثم نحو العالم الاسلامي، الأول هو مناهضته الخليفة العباسي، الأمر الذي أثار علامة استفهام حول مشروعية حكومته لدى المسلمين.

والثاني القضاء على دولة قره ختائي.

ومع ذلك كله فضل جنكيزخان عدم تعجل الأمر وضرورة القيام بمزيد من التحري ودراسة الاوضاع. ومن اجل ان يستحصل الأخبار عن كثب وترتسم لديه صورة اكثر وضوحاً ودقة عن الاوضاع الداخلية والحكومية لبلاد السلطان محمد، اوفد اليه محمود يلواج الخوارزمي، وعلي خواجه اكبر البخاري، ويوسف أتراري، وهم يحملون معهم الهدايا الثمينة والنفائس، وكذلك رسالة من جنكيزخان الى السلطان بالمضمون التالي:

«يبعث الخان الكبير سلامه اليك ويقول ان سعة بلادي وبلادكم في العالم اوضح من الشمس. ونظراً لقرابة الجوار والجنسية، ارى ان اقامة علاقة ودية معكم امر واجب ولازم. ولا يوجد لدي ابن في هذا اليوم أعز منك. وانت تعلم ان الله اعطاني بلاداً تمتد من الشرق وحتى حدود ولايتك. وجميع القبائل المغولية مطيعة لي وخاضعة. فنحن رجال حرب لا نحصى، ولدينا الكثير من الفضة والذهب...»(٢١).

وفهم السلطان محمد ان مخاطبته بالابن من قبل جنكيزخان، يعد لوناً من اساءة الادب، لأن هذا الخطاب كان يحكي في آسيا عن التبعية والضعف. كذلك استاء جداً من تبجح الخان المغولي بفتوحاته وسعة بلاده وانقياد المغول له. لكنه رغم هذا كله قرر كظم غيظه ومراقبة الأوضاع بدقة وترو. واخذت الامور بين الجانبين تجري بصورة طبيعية لمدة عام كامل. كما بعث السلطان محمد وفداً للبلاط المغولي برئاسة السيد بهاءالدين للتحقيق في قدرات الخان المغولي العسكرية وفتوحاته والطاقات التي يمتلكها. وحينما عاد الوفد أخذ يتحدث بكل ما شاهده، ومنها ذلك التل من جماجم وعظام الأناس الكثيرين الذين قتلهم جنود جنكيزخان، وأسر ابن التون خان، امبراطور الصين. ورغم ذلك كانت الرسالة الجوابية التي بعثها جنكيزخان لمحمد خوارزمشاه، تتحدث عن العلاقة الودية، والحث على التبادل التجاري ما بين البلدين(٢٢).

استمرت هذه العلاقة حتى عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م، حينما حدث الحدث التالي

الذي اتخذه جنكيزخان ذريعة اساسية كي يحقق الهدف الذي كان يخامر ذهنه منذ فترة طويلة: فقد تم نهب الأموال والبضائع التي كانت ضمن قافلة تجارية وقتل التجار الذين كانوا يرافقونها. ويقول الجوزجاني ان تلك القافلة كانت تتألف من ٥٠٠ جمل(٢٣)، بينما يقول الجويني ان رجال القافلة كان يبلغ عددهم ٤٥٠، وكانوا جميعاً من المسلمين(٢٤)، وقد قتلوا جميعاً عدا شخصاً واحداً ذهب الى جنكيزخان وأخبره بما جرى. وكان المسؤول عن عملية السلب والقتل تلك حاكم مدينة أُنزار الواقعة على الساحل الشرقي لبلاد خوارزمشاه وكان يدعى ينالجق (غايرخان)، وتربطه صلة رحم بوالدة السلطان محمد، تركان خاتون.

استاء جنكيزخان كثيراً حينما سمع ذلك النبأ، ولم يقر له قرار، فاعتزل الناس ـ كما هي عادته ـ وأخذ يدعو على تل ويتضرع للاله «تانغري» على مدى ثلاثة ايام بلياليها(٢٥). وحينما انهى دعاءه وتضرعه، أصدر اوامره لقواته بالهجوم وأوصاها ألا تبقي في اية مدينة تصل اليها على أي شخص، وأن تقتل الذكر والأنثى والشاب والكهل والطفل والبالغ والحر والعبد(٢٦). ويبدي الباحثون الشك في صحة وقوع حادثة مدينة انزار لأنها لم ترد إلّا في المصادر التي ألفت بعد سيطرة المغول على هذه المدينة.

امتداد الغزو المغولي الى ايران

بمثل هذه المقدمات، يبدو الغزو المغولي امراً لا مفر منه. وكانت جميع العلائم والأمارات تدل على أن غزو المغول للغرب (العالم الاسلامي) سيكون صعباً وطويلاً على عكس غزوهم للشرق (الصين)، ولربما لن تكون فيه رجعة للخان الكبير (جنكيز) الذي بلغ العام السادس والخمسين من عمره. لذلك أمرهم انه اذا توفي، عليهم ان يقرأوا القوانين المغولية (ياسا) بصوت مرتفع، وأوصاهم بالعمل بها جميعاً وتطبيقها بحذافيرها(٢٧).

مع ذلك كله، كان عليه القيام بأمرين: الأول التأكد من خلف الجبهة لاسيا بلاد الصين وكذلك البلاد الأصلية للمغول خاصة قره قروم، والثاني تجهيز الجيش الجرار الذي يقول فيه الجوزجاني ـ ولربما بشيء من المبالغة ـ انه كان يبلغ ٨٠٠ ألف مقاتل، و ٣٠٠ ألف جواد(٢٨)، او على رواية اخرى يزيد عن ٢٥٠ ألف مقاتل (٢٩).

فوّض جنكيزخان شؤون الصين الى أحد أمرائه ويدعى موفولي، كما أبقى امراء لياوتونغ على ولايتهم، ثم دعا جميع امراء المغول ورؤساء القبائل الذين كان يخشى من تمردهم، وحملهم معه في عسكره الذي كان يرافق المقاتلين فيه علماء بالنبات وأطباء صينيون ومنجمون وتجار، وقد استخدموا فيما بعد كعيون وجواسيس لاستحصال الأخبار(٣٠).

انطلق أحد جيوشه بقيادة تولي نحو الجنوب، وجيش آخر بقيادة اوكتاي وجغتاي ابني جنكيز نحو استرار، فيما زحف جنكيزخان في خريف ٦١٦هـ / ١٢٢٠م نحو بخارى عن طريق كاشغر وبلاسان اللذين تم الاستيلاء عليهما من قبل.

وتحرك السلطان محمد خوارزمشاه الذي لم يشتبك مع المغول بعد، نحو بخارى عبر سمرقند، ومنها الى سيحون، وأمر باحضار الجند من جميع الولايات، حتى قيل انه جمع ٤٠٠ الف فارس في تركستان وماوراء النهر، وقد أبقى ٢٠ ألف في مدينة انزار عند غايرخان، و ١٠ آلاف في ولاية بناكت (فناكت)، و ٣٠ الف في بخارى، و ١٠ آلاف في سمرقند(٣١)، وتقدم مع جيشه ليقف في طريق تلك الأفواج المغولية التي نزلت بمحاذاة نهر سيحون، وقد اتضح فيما بعد انهم قوات يترأسها جوجي بن جنكيزخان الذي سبق أباه في عبور الجبال.

رأى السلطان محمد لأول مرة جنوداً يلفّون انفسهم بالجلود وقد نزلوا الى الميدان بدون دروع، لذلك عقد العزم على شن الحرب كي يسلب من العدو أية فرصة للهرب، لكنّ ذلك لم يكن سوى تصوّر فحسب، اذ انه واجه مقاومة شديدة

جداً من اولئك الجنود المغول، بل وأخذوا يوجهون لجيشه ضربات قاصمة كادت تقضي عليه أيضاً لولا تضحية ولده الشجاع جلال الدين.

ويبدو ان هذه المعركة قد بعثت الخوف في قلب السلطان الذي بلغ من العمر ٧٠ عاماً، فترك ولايات ماوراء النهر وانهزم الى داخل ايران. والأسوأ من ذلك انه كلما وصل الى مدينة او قصبة ما، كان يحذّر اهلها من مواجهة المغول لتبرير هربه(٣٢). وقد هرب الى مازندران في نهاية المطاف واحتمى باحدى الجزر ومات فيها كمداً.

زحف المغول نحو ايران

ينبغي عد الغزو المغولي، اعظم زحف عسكري في تاريخ البشرية، لان تحرك ٢٥٠ ألف مقاتل في ظل اجواء البرد الآسيوي القاسي، تعد مهمة صعبة جداً حتى في ظل ظروف الوقت الراهن، ولكن المغول كانوا غير آبهين للصعوبات والظروف القاسية جداً فكانوا يغذون السير في تلك المناطق الجبلية الوعرة بالادوات والتجهيزات البدائية التي كانت تحت تصرفهم. وكانوا يحمون انفسهم من البرد بالجلود الحيوانية التي كانوا يلفّونها حول أجسامهم، بحيث كان باستطاعتهم ان يناموا تحت الصقيع. وحينما لا يحصلون على طعام، كانوا يجرحون شريان الحصان ويشربون شيئاً من دمه ثم يضمدون ذلك الجرح(٣٣). وبهذه الطريقة استطاعوا استكمال المرحلة الاولى من رحلتهم العسكرية التاريخية التي بلغت نحو ٢٠٠٠ كم، وأوصلتهم الى أبواب البلدان الاسلامية، وكان يقودهم فيها ابنا جنكيزخان، أي جغتاي، واوكتاي.

الهدف الاول، كان مدينة أنزار التي تعرضت فيها القافلة التجارية للقتل والنهب. فحاصر المغول هذه المدينة، فلم يجد غايرخان ـ المسبب الأصلي لذلك العمل الشنيع ـ طريقاً سوى المقاومة. وكان لديه خمسون الف مقاتل، كما عززه السلطان محمد بعشرة آلاف مقاتل بقيادة أحد خواصه الذي يدعى قراجه(٣٤).

لكنه لم يصمد سوى خمسة أشهر فقط، فسقطت المدينة بعد ذلك في يد المغول. فقاموا بقتل جميع سكان تلك المدينة، وألقوا القبض على غايرخان وبعثوه الى جنكيزخان في سمرقند، فقتله في منطقة كوك سران(٣٥).

انطلق المغول بعد ذلك نحو المدن الواقعة بمحاذاة نهر سيحون مثل شغنان، وبناكت (فناكت)، وخجند، ودمروها تماماً ولم يرحموا اي أحد قط، منطلقين نحو بخارى.

كانت ولاية سغد او سغديانة القديمة والتي كانت حدوداً للفرس والأتراك او بتعبير آخر حدود ايران وطوران، ذات مركزين سياسيين وثقافيين مهمين منذ القدم وهما: بخارى، وسمرقند. فكانت بخارى مركزاً ثقافياً ودينياً، وكانت سمرقند مركزاً سياسياً لذلك الاقليم، لكنهما كانتا متساويتين من حيث المقام والمكانة، ويُعدَّان عاصمة للولاية.

كان يطلق على بخارى اسم «نومجكث»(٣٦)، وكانت تعرف بقبة الاسلام، وتضج بالعلماء وكبار الشخصيات الدينية، وتستقطب العلماء والمفكرين(٣٧). ونظراً لهذه الأهمية التي تتمتع بها، زحف اليها جنكيزخان بنفسه، وحط رحاله عند بوابة قلعتها في مطلع محرم ٦١٧هـ / ١٢٢١م، وحاصرها.

كان يتولى الدفاع عن تلك المدينة، نحو ٢٠ ألف مقاتل. لكن هؤلاء المدافعين، حينما سمعوا بوصول العسكر المغولي، تركوا المدينة وسكانها وهربوا للالتحاق بالسلطان الهارب. وقد سمح لهم المغول بالهرب، ثم بعثوا خلفهم ثلاثين ألف مقاتل فلحقوا بهم وقتلوهم عن بكرة ابيهم عند ساحل جيحون، ولم يفلت من القتل اي أحد قط.

وحينما رأى سكان بخارى انفسهم بلا مدافع، فتحوا في صبيحة اليوم التالي بوابات المدينة بوجه الجيش المغولي، فانطلق هذا الجيش الى داخل المدينة، ودخل جنكيزخان الى مسجدها الجامع وارتقى المنبر وقال: الصحراء خالية من العشب، فاملأوا بطون خيولنا، وافتحوا ابواب مخازن المدينة.

وحمل الجنود المغول صناديق القرآن الى صحن المسجد، فمزّقوا المصاحف ورموا بها تحت حوافر الخيول، كما حوّلوا الصناديق الى معالف للمواشي. ثم دمروا المكتبات وحوّلوها الى اسطبلات لخيولهم. وجمع جنكيزخان جميع سكان المدينة، وخاطبهم قائلاً: لقد ارتكبتم خطيئة كبرى ولذلك انزلني الله عليكم لأنني عذاب الهي(٣٨). ثم امر بتدمير واحراق بخارى، فاحترقت هذه المدينة بأسرها عدا المسجد الجامع، وأسر جميع الأطفال والنساء. ولم يدع من الاتراك القنقليين أحداً حياً، فكان عدد القتلى يزيد عن ٣٠ ألف(٣٩). ثم اتخذ من شباب بخارى دروعاً بشرية لجيشه الذي انطلق نحو سمرقند.

تقع سمرقند بمحاذاة النهر وتبعد عن بخارى مسافة ١٥٠ ميل. وقد شيّد السلطان محمد حولها سوراً حصيناً ذا اثنتي عشرة بوابة حديدية وابراج عالية، مع وجود ١١٠ آلاف رجل مسلح، منهم ٦٠ ألف فارس، للدفاع عن المدينة(٤٠).

اخذ جنكيز خان يطوف حول المدينة لعدة ايام للبحث عن ثغرة في سورها. ولكن الجيوش المحاصرة في المدينة خرجت من المدينة وأخذت تقاتل. فواجهها المغول ببعض أساليبهم الخاصة فأوقعوها في الفخ وألحقوا بها خسائر فادحة. وبعثت كثرة الخسائر في صفوف القوات المدافعة، الهلع في قلوب سكان المدينة، ففتحوا ابوابها، وانطلق شيوخها ومشايخها نحو جنكيزخان وسلّموا المدينة اليه. فقاد جنكيزخان جميع سكان المدينة نحو العراء، بينما اخذت قواته تنهب وتسلب وتدمر المدينة، فلم يبق فيها مبنى او مسجد لم يدمّر قط. وقتل جنكيزخان من أقرباء السلطان محمد خوارزمشاه نحو ٣٠ ألف رجل. وحمل معه حوالي ٣٠ ألف من الحرفيين السمرقنديين لاستخدامهم في الأعمال التي تلزمه، بينما قتل الآخرين من اهل المدينة جميعاً، فحوّل تلك المدينة الجميلة الواسعة التي كانت بساتينها وفاكهتها مشتهرة في العالم، والتي كانت تستقطب بمعالمها السواح الأجانب، والميناء التجاري الكبير لبلاد ماوراء النهر(٤١)، الى خرائب، وأهلها الى قتلى وأسرى، وذلك في عام ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م.

بعد استيلاء المغول على سمرقند، تكون بلاد ماوراء النهر قد وقعت جميعاً في ايديهم، ولم تبق سوى خوارزم التي كانت تترقب ايضاً مشاهدة أسوأ ايامها. والتي يصف الجويني وضعها آنذاك بالخيمة التي تقطعت أطنابها(٤٢).

كانت اورغنج اوغرغانج، عاصمة لخوارزم، وتقع في مفترق الطريق التجاري بين شتى البلدان، وأعظم مركز للحضارة والثقافة والتجارة. وكان يقيم فيها التجار والقوافل التجارية القادمة من مختلف المناطق والبلدان. وكان يقال لخوارزم، الجرجانية ايضاً، وتقع على مسافة قصيرة من ذلك النهر الذي كانت تمخر فيه السفن والمتفرع عن نهر جيحون. وقد وصفها ياقوت الحموي الذي رآها قبل الغزو المغولي لها بأنها مدينة لا مثيل لها في غزارة الخيرات، ووفاء الناس للدين(٤٣). ووصفها الجويني ايضاً بأنها محل سرير ملوك العالم، وموضع المشاهير، وفيها الشرفاء، وتزخر بالكنوز ويختلط فيها الدين بالدنيا(٤٤).

انفذ اليها جنكيزخان اولاده تولي، واوغتاي، وجغتاي، وكانت تُدار آنذاك من قبل شخص من أقرباء السلطان محمد لأمه يدعى قمارتجين الذي كان لديه جيش يقدر عدد أفراده بنحو ٩٠ ألف جندي. وقاومت خوارزم نحو ٧ أشهر وقد صنعت تلاً من قتلى المغول. وحينما شاهد جنكيز ذلك، بعث ولده الأصغر الذي كان اكثر كفاءة من اخوته الثلاثة السابقين، فاستطاع ان يحسم أمر خوارزم.

وكتب صاحب جامع التواريخ بأن المغول أشعلوا النيران في المحلات، واخذ يدمرون المحلات ويحرقونها واحدة واحدة على مدى ٧ أيام متتالية، بينما أخرجوا أهلها جميعاً الى العراء. فاختاروا من ارباب الصنائع والحرف ١٠٠ ألف رجل بعثوا بهم الى البلاد الشرقية، وأسروا النساء والأطفال، ثم قسموا بقية سكان المدينة على افراد الجيش المغولي لقتلهم، فكان من نصيب كل جندي، ٢٤ مسلماً. علماً بأن عدد الجنود المغول كان يزيد عن ٥٠ ألف(٤٥). وهكذا ذبلت وماتت هذه الزهرة الجميلة التي كانت تزيّن بلاد ماوراء النهر(٤٦).

اذا كانت رواية رشيد الدين صحيحة، فلابد ان يكون قتلى هذه المدينة قد بلغ

مليون ومئتي الف قتيل، هذا عدا الحرفيين والصناعيين الذين أُخذوا للعمل القسري(٤٧).

بعد خوارزم، احتل المغول كلاً من ترمذ، ونخشب، ولم يبقوا أحداً حيّاً في هاتين المدينتين(٤٨).

مدن خراسان

بعد أن احتل المغول مدن وقصبات ماوراء النهر وتدميرها وقتل اهلها، وجّهوا اهتمامهم نحو مدن خراسان القديمة. فبعثوا في بادئ الأمر جيشاً لاحتلال ولاية تخارستان بدءاً ببدخشان وانتهاءاً بهندوكش، لكن هذا الجيش فوجئ بهجوم غير مترقب شنّه جلال الدين خوارزمشاه في بروان الواقعة شمال كابل، فلحقت بهم هزيمة نكراء بحيث وصفها البعض بأنها اول وآخر هزيمة كبرى للمغول(٤٩)، وهذا ما دفع بجنكيزخان للانطلاق بنفسه لمجابهة جلال الدين، فاضطر الاخير للانسحاب باتجاه الهند لعدم قدرته على المقاومة بسبب الاختلاف الداخلي الناشب في صفوف قواته. وانتهى به الأمر ان اصبح وحيداً فألقى بنفسه في نهر السند واجتازه بشكل اعجازي أثار حيرة ودهشة جنكيزخان(٥٠).

من اجل ان يقضي جنكيزخان على احتمال اي تحرك او عمل ضد القوات المغولية، أمر بتطهير أطراف المدن وضواحيها من الأعشاب والدواب والناس، كي لا تصل اية مساعدة او دعم الى اية مدينة. فأخذت كل مدينة من تلك المدن طابع الجزيرة العائمة في بحر الغضب والخوف والوحشة.

بمثل هذا الاسلوب، انطلق جنكيزخان نحو بلخ، تلك المدينة العامرة الخضراء التي فاقت جميع المدن بفضل كثرة المحاصيل والمنتوجات وزيادة الدخول، فكانت بين مدن الشرق، نظير مكة بين مدن الغرب(٥١).

حينما سمع سكان بلخ أخبار المذابح المرعبة التي حلّت بسكان مدن ماوراء

النهر، قرروا الاستسلام للجيش المغولي في مقابل صيانة المدينة واعطاء الأمان لأهلها. ووافق جنكيزخان على ذلك الشرط. ولكن ما ان فتحت المدينة ابوابها بوجه الجيش المغولي، حتى اخذ هذا الجيش يقود اهلها زرافات نحو العراء، ثم يقوم بقتلهم هناك، بحيث ظلت الوحوش تعيش على لحوم القتلى لفترة طويلة من الزمن، حسب الجويني(٥٢). ثم اخذوا يدمرون ويحرقون المكتبات، والقلاع، والقصور، ومنازل القوافل، وجميع الأبنية والدور، فحوّلوا تلك البلدة الزاهية الى تل من التراب والأنقاض.

زحف الجيش المغولي في اعقاب تدميره لبلخ، نحو جوزجان، وفارياب، وميمنة، وطالقان. وقاوم سكان طالقان مقاومة شجاعة على مدى ٧ أشهر او ١٠ أشهر(٥٣). وحينما رأى جنكيز فشل جميع محاولاته، استنجد بأبنائه جغتاي، واوغتاي، وتولي، فاستطاع ان يقتحم المدينة بصعوبة بالغة بعد أن قُتل أحد أبناء جنكيز خان. وقد انتقم لابنه انتقاماً فظيعاً، فأمر بقتل جميع من في المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً، بل وحتى الكلاب والقطط والطيور(٥٤).

في أعقاب المقاومة الشجاعة التي أبداها سكان طالقان، أصدر جنكيز خان امراً بالقتل الجماعي وأمر ان تُقطع رؤوس القتلى، واستخدم هذا الاسلوب مع جميع مدن خراسان.

مرو

تقع مرو في امتداد مرغاب او نهر مرو وفي مسير طريق خراسان الكبير، وهو الطريق الذي يوصل الى بخارى. وكانت تُعد من اكثر المدن عمراناً، وكانت مركزاً لخلافة المأمون العباسي وعاصمة السلطان سنجر، وكان يسكنها عدد كبير من الناس لكنهم كانوا جميعاً يتمتعون بكثرة النعمة ووفرة الخير(٥٥).

زحف تولي ابن جنكيز خان نحو مرو في جيش عظيم، لكنها كانت ذات

دفاعات حصينة. فأخذ يتفحص ذلك السد الدفاعي على مدى ٦ أيام. وكان يتصور ان المدينة ستصمد لفترة طويلة نظراً لما كانت تتميز به من اسوار عالية وقلاع حصينة(٥٦)، إلّا انها سرعان ما اعلنت عن استسلامها لتولي بسبب ما كانت تعانيه من اختلاف طائفي كان قد نشب بين الحنفيين والشوافع.

حينما دخل الجيش المغولي الى المدينة، دفع جميع اهلها نحو العراء واستمر في عملية اخلائها من اهلها على مدى ٤ أيام، ثم قام بقتل الجميع عدا ٤٠٠ من الحرفيين، ومجموعة من الأطفال الذين أبقاهم كأسرى، فبلغ عدد القتلى نحو مليون وثلاثمائة الف شخص(٥٧).

وقد يكون هذا الرقم مبالغاً فيه، لكنه يدل على اية حال على المجزرة الرهيبة التي ارتكبها المغول في ثاني مدن خراسان العامرة. وأشعل المغول بعد تلك المجزرة النار في المدينة على مدى ثلاثة أيام(٥٨). وهدّموا جميع أبراجها وأسوارها ومبانيها وكذلك تفرعات نهر مرغاب التي كانت تروي سهل مرو. فتحولت مرو الى تلول من الخرائب.

نيشابور

يطلق عليها العرب اسم نيسابور. وكانت تسمى في بداية العهد الاسلامي «ابرشهر»، وتُعد احدى اشهر مدن خراسان. وكان الامبراطور الساساني شابور قد أعاد بناءها قبل الاسلام. وكانت تتألف من ٤٢ محلة، تبلغ مساحة بعض محلاتها نصف مساحة مدينة شيراز، ولديها أربع أبواب(٥٩). وكانت ذات مناخ معتدل ومن اكثر المدن ازدهاراً في الحقل التجاري، وذات مخازن تُخزَن فيها شتى انواع البضائع، ويقطن فيها كبار التجار، بحيث وصفها الجويني بكوكب الزهرة في السماء، او كالعين في جسم الانسان(٦٠).

حينما فرغ تولي ابن جنكيز خان من تدمير مدينة مرو، زحف باتجاه نيشابور

الواقعة الى الجنوب الغربي من مرو، كي يفعل بها عين الفعلة التي فعلها في مـرو. وكان سكان مدينة نيشابور قد سمعوا من السلطان محمد خـوارزمشـاه بهـمجية المغول ووحشيتهم وأخبرهم اثناء هربه ان المغول اذا وصلوا الى مدينتهم فانهم لن يرحموا أي مخلوق فيها(٦١). لذلك فكّروا في بادئ الأمر في التصالح مع المغول توقياً للبلاء المتوقع. لكنهم غيّروا فكرتهم وعقدوا العزم على المقاومة في اعـقاب سماع الانتصارات التي حققها جلال الدين خوارزمشاه.

وصلت طلائع القوات المغولية الى بوابات نيشابور بقيادة صهر جنكيزخان في رمضان ٦١٧ هـ / تشرين الثاني ١٢٢٠ م لكنها جوبهت بمقاومة عنيفة من قبل أهالي نيشابور ومقتل تغاجار صهر جنكيز خان. وسرعان ما وصلت تعزيزات لتلك القوات، حيث انضم اليها تولي ابن جنكيز خان محملاً بآلات المنجنيق وذلك في ربيع ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م. فقاتل سكان نيشابور بشجاعة، لكنهم فقدوا القدرة على المقاومة في نهاية المطاف، فاقتحم الجيش المغولي مدينتهم. وصدر الأمر بقتل جميع سكان المدينة صغيراً وكبيراً بل وحتى حيواناتها بما فيها الكـلاب والقـطط عقاباً لهم على مقتل صهر جنكيز خان، فضلاً عن تخريب المدينة وتدميرها تماماً ومساواتها بالأرض بحيث يمكن استخدامها للزراعة. ودخلت بنت جنكيزخان ـ أرملة تغاجار ـ الى المدينة بنفسها فأخذت تقتل من بقي حياً فيها(٦٢)، فدُمرت نيشابور برمتها بحيث لم يبق فيها أي دار او مبنى(٦٣).

هراة

كانت هراة آخر مدينة في خراسان تستعد لاستقبال الموت والدم. وكانت ذات سور وأبراج، ويعسكر فيها نحو ١٧٠ ألف(٦٤) أو ١٩٠ ألف مـقاتل تحت إمـرة شمس الدين محمد الجوزجاني، الحاكم المحلي الموالي للخوارزمشاهيين(٦٥).

قام تولي بعد زحفه من نيشابور الى هراة بتخريب طوس وتدمير مرقد الامام الرضا (ع) وقبر هارون الرشيد(٦٦). وكان يدمر كل منطقة او قصبة يمر بهـا. ثم

عسكر بجيشه الجرار بالقرب من هراة وبعث رسولاً يدعى نينو الى المدينة يدعو أهلها الى الطاعة. وقام حاكم هرات بقتل الرسول المغولي واستعد للحرب. ودارت حرب حامية الوطيس بين العسكرين فقُتل حاكم هرات في اليوم الثامن للحرب، فاقترب المغول من بوابات المدينة التي يحيط بها خندق. فاقترب تولي مع مئتين من مقاتليه من الخندق وخاطب الهراتيين قائلاً: «أنا تولي ابن جنكيز خان. ادعوكم الى الاستسلام اذا كنتم تريدون الحفاظ على ارواحكم ونسائكم وأبنائكم، على ان تدفعوا من الخراج نصف ما كنتم تدفعونه لجلال الدين»(٦٧).

أثارت تلك الدعوة خلافاً بين سكان المدينة والمدافعين عنها. ورأى بعض أعيان المدينة الاستسلام، بينما طالب البعض الآخر بالجهاد والمقاومة(٦٨). وتغلب اصحاب الرأي الاول في نهاية الأمر، وفتحت المدينة بواباتها. فعفا تولي عن سكان المدينة لكنه أمر بقتل ١٢ ألف من جنود جلال الدين خوارزمشاه. ثم عيّن شخصاً مسلماً اسمه أبو بكر حاكماً عليها، وآخر مغولياً يدعى منكتاي شحنةً لها، وخرج منها للالتحاق بأبيه في طالقان(٦٩).

ولم يمض سوى وقت قصير حتى اضطرب الوضع في المدينة اذ قام البعض من اهل كاليون الواقعة الى الشمال الشرقي من هراة بقتل حاكم المدينة وشحنتها(٧٠)، وتمرد الهرويون ايضاً فحصّنوا المدينة واستعدوا للدفاع عنها(٧١).

حينما وصل نبأ تمرد هراة الى جنكيز خان، أخذ يلوم ابنه لصفحه عن سكانها. وبعث اليها جيشاً يتألف من ٨٠ ألف مقاتل بقيادة ايلجيغداي، وأمره ألا يبقي أحداً حياً فيها(٧٢). وزحف هذا القائد المغولي الى هراة في شوال ٦١٨هـ / ١٢٢١ م فحاصرها، فقاوم الهرويون هذه المرة ستة أشهر وسبعة عشر يوماً، ونجح المغول بعد ذلك في الدخول اليها بعد فتح أحد ابراجها(٧٣). فاقترفوا مجزرة رهيبة ولم يدعوا احداً حياً فيها واحتزوا الرؤوس وجرت الدماء انهاراً في كل مكان. وهدّموا كافة البيوت والمباني. ولم يكن لديهم خلال الايام السبعة الاولى من عمل سوى القتل والذبح والاحراق والتدمير، فاستشهد جميع سكان هراة

الذين كان يبلغ عددهم اكثر من مليون وستمائة الف نسمة(٧٤).

حينما ابتعد الجيش المغولي عن هراة بعث ايلجيغداري الفي فارس الى المدينة لقتل من كان مختبئاً او هارباً، فقتل هذا الفوج المغولي نحو الفي شخص خلال يومين(٧٥). فتحولت هراة على غرار نيشابور ومرو وبلخ، الى رماد، ولم ينجح من سكانها سوى ١٦ شخصاً، احدهم مولانا شرف الدين جغرتان الذي كان قد اختبأ في قبة المسجد الجامع.

تعرضت سائر المدن الايرانية الاخرى مثل خبوشان (قوجان)، واسفراين، ودامغان، وسمنان، وآمل، وعراق العجم، الى الغزو على يد القائدين المغوليين جبه، وسوبتاي بهادر وذلك في عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م، وتم قتل معظم سكانها(٧٦).

كانت الري هي المدينة الاكثر تضرراً بين هذه المدن، لأنها كانت ذات أسواق وحوانيت مليئة بالبضائع والسلع لاسيما دار الطبيخ او سوق الفواكه، ودار الكتب، فضلاً عن القرى والقصبات الزراعية المحيطة بها التي تشتهر بانتاج زراعي وفير، مثل قرى الروذة، وورامين، وفشابويه(٧٧). ويقال ان المغول قتلوا وأسروا نحو سبعمائة الف من سكان الري(٧٧)، ثم دمّروها، بحيث لم تستطع ان ترفع رأسها منذ ذلك الحين.

خلفاء جنكيزخان واستمرار غزو العالم الاسلامي

عاد جنكيز خان الى منغوليا في عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م، ثم توفي في رمضان ٦٢٤ / آب ١٢٢٧ بينما كان لازال لديه خصمان قويان أحدهما اقليم هيا بالقرب من هضبة التبت، والآخر بلاد سونغ القديمة في الصين الجنوبية. وكان قبل ذلك قد جعل ابنه تولي على البلاد الشرقية، وابنه جغتاي على البلاد الغربية.

منذ ذلك الحين وحتى عام ٦٥١ هـ / ١٢٥٣ م، حيث عيّن منكوقا آن، أخاه هولاكو ـ حفيد جنكيز خان، لاستقصاء الأوضاع في آسيا. تُعد هذه الفترة، فترة

مظلمة في تاريخ ايران وخراسان. فارتكب اربعة من زعماء المغول ـ وهم كوركوز، وواصال، وجن تيمور، وأرغون ـ مع الأُسر المحلية المتنفذة، انواع الظلم والجور بحق الناس. وقد كلّف منكوقا آن اخاه هولاكو ان ينفذ المهام التالية:

١ ـ القضاء على الحكومات المحلية وتأسيس دولة مغولية واحدة في ايران.

٢ ـ القضاء على الاسماعيلية.

٣ ـ القضاء على الخلافة العباسية.

فزحف هولاكو بجيش مغولي كبير نحو الغرب في ٢٤ شعبان ٦٥١ / تشرين الاول ١٢٥٣ لتنفيذ تلك المهام الموكلة اليه، فمكث في ماوراء النهر في صيف ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م، ثم عسكر شرقي سمرقند في ٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م، فهرع اليه شمس الدين محمد كرت حاكم هراة، وأعلن طاعته له. ثم وصل الى كش فبعث منها رسالة للحكام الايرانيين المحليين يطالبهم فيها بمؤازرته في تحقيق أهدافه(٧٩).

بعد دخوله الى ايران، استولى على القلاع الاسماعيلية ودمرها، وكان القاضي السنّي المعروف شمس الدين أحمد الماكي قد طالب بذلك(٨٠). فقضى هولاكو بذلك على الحكم الاسماعيلي الذي دام نحو ١٧٠ عاماً، وأسّر الحاكم الاسماعيلي ركن الدين محمد خوارزمشاه(٨١) الذي قُتل فيما بعد. وقد قال وصاف أن هولاكو قدّم خدمة لمسلمي العالم لأنه خلّصهم من الرعب الذي كان يثيره ارهابيو تلك الطائفة(٨٢).

وكان احتلال بغداد واسقاط مركز الخلافة الاسلامية يمثل أهم الأهداف التي كان هولاكو يسعى لتحقيقها، لذلك أمر بالزحف عليها من أربع جهات، فقاومت بغداد لمدة ستة أيام، ثم سقطت في ٤ صفر ٦٥٥ / ١٢٥٧ م(٨٣). فحضر بين يديه الخليفة العباسي المستعصم بالله مع ثلاثة آلاف من العلماء والقضاء والولاة. وقد نُهبت بغداد ودُمِّرت خلال اسبوع واحد، وقُتل جميع سكانها عدا عدة معدودة. وقال وصاف ان نهراً من الدم جرى بسبب تلك المجزرة الرهيبة(٨٤). وذكر حمد الله

المستوفي ان عدد القتلى بلغ ثمانمائة الف شخص(٨٥)، والاحتمال الذي يقرب من اليقين ان عدد القتلى لا يقل عن مائة الف(٨٦).

فضلاً عن تلك المجازر، تم احراق جميع مكتبات بغداد التي كانت تضم مئات الآلاف من الكتب. ويقول ابن خلدون ان الكتب التي القاها المغول في نهر دجلة كانت كثيرة الى درجة بحيث اتخذها القرويون جسراً للعبور من ضفة الى اخرى(٨٧).

أدى سقوط بغداد الى سهولة سقوط المدن الاخرى، ولم تقاوم سائر مدن العراق الاخرى عدا واسط وأربيل. وأمنت الحلة والكوفة والنجف والمدن الشيعية من القتل والتدمير بفضل حسن تدبير نصير الدين الطوسي(٨٨).

بالرغم من لجوء مدينة واسط الى المقاومة لكنها سقطت في اعقاب اسبوع من المقاومة، فقتل المغول اربعمائة الف من أهلها(٨٩). كذلك حل نفس المصير بمدينة أربيل رغم المقاومة التي أبدتها والخسائر الفادحة التي ألحقتها بالمغول.

بعد ان احتل هولاكو بغداد، انطلق نحو اذربايجان وسكن في مدينة مراغة. ثم نقل عاصمته الى تبريز التي كانت اكثر اشتهاراً. والسبب في ذلك كي يكون قريباً من المراتع الايرانية المهمة في ناحية اران، ولقرب هذه المنطقة من البلدين المسيحيين جورجيا وأرمينيا التي قاتل منها جنود مع المغول ضد الاسماعيليين ثم في احتلال بغداد(٩٠).

منذ ذلك الحين فقد العراق ومدينته الاسطورية بغداد التي كانت عاصمة الامبراطورية والخلافة الاسلامية، اهميتها السياسية والادارية، وتحوّل العراق الى ولاية من الدرجة الثانية، واحتفظ المغول بسيطرتهم عليه حتى نهاية حكمهم في ٧٣٤ هـ / ١٣٣٥ م.

نهاية الزحف المغولي وتأسيس الدولة الايلخانية

لم تستمر استراحة القوات المغولية تحت قيادة هولاكو في مناطق آذربايجان ومراغة لأكثر من عام. فكان يحلم خلال هذه الفترة بالاستيلاء على امبراطورية تمتد من امودريا في ماوراء النهر والى شرق البحر المتوسط ومصر. لذلك ومن اجل تحقيق هذا الهدف زحف نحو الشام وسوريا. ويقال ان من العوامل الاخرى التي دفعت هولاكو بهذا الاتجاه، كان هايتون الأرمني الذي أوفده هتوم الأول ملك ارمينيا الصغرى الى هولاكو لتحريضه على احتلال حلب لأن احتلالها يسهّل احتلال المدن الاخرى(٩١).

زحف هولاكو نحو الشام وسوريا من دون ان ينتظر سقوط دفاعات وتحصينات شمال ما بين النهرين. فألحق الهزيمة بالجيش المصري في منبيع، ثم عبر نهر الفرات وضرب طوق الحصار حول حلب. فالتحق به في ذلك الموضع حليفاه الملك هتوم وصهره بوهموند السادس صاحب انطاكية(٩٢). واستسلمت المدينة بعد اسبوع، فيما ظلت قلعة حلب تقاوم على مدى اربعين يوماً(٩٣). وشرع المغول في قتل الناس قتلاً جماعياً على مدى ستة أيام. وعبّر الملك هتوم عن حقده على الاسلام والمسلمين باشعاله النار في المسجد الجامع بالمدينة(٩٤).

وسرعان ما استسلمت المدن السورية الاخرى، وخرج وجهاء دمشق لاستقبال الجيش المغولي خوفاً منه على مدينتهم. وعيّن هولاكو آمراً نصرانياً من امرائه يدعى كيت بوقا حاكماً عليها(٩٥).

في تلك الأثناء، سمع هولاكو نبأ وفاة اخيه منكوقا آن امبراطور الصين، فكان لذلك النبأ وقع مؤلم جداً عليه(٩٦)، دفعه لاتخاذ قرار العودة من الشام. ويعتقد ساندرز ان تلك الوفاة انقذت آسيا(٩٧).

حل قوبيلاي محل منكوقا آن، ولكن اريق بوقا ـ وهو ابن آخر لـ «تولي»

وكان يشرف على شؤون منغوليا ـ سارع الى عقد اجتماع في قراقروم لرؤساء المغول، ونصب نفسه خاناً كبيراً على البلاد، فحدثت صراعات بين الشخصيات المغولية المتنافسة على هذا المنصب. ورأى هولاكو ان من الحكمة أن يبقي على الشطر الأعظم من قواته في اذربايجان مع وضع جزء صغير منها في الشام بقيادة كيت بوقا.

على صعيد آخر، كانت مصر خاضعة آنذاك للمماليك، وشعر هؤلاء ان مهمة الدفاع عن العالم الاسلامي قد أُلقيت على عاتقهم بعد تقوّض صرح الخلافة الاسلامية في بغداد وما حل من دمار بالعالم الاسلامي على يد المغول. وكان هولاكو قد بعث الى السلطان قطز يطالبه باختيار واحد من ثلاثة: الصلح، او الاستسلام، او القتال. فاختار القتال(٩٨)، وألحق بالجيش المغولي هزيمة نكراء في القتال الذي حدث بين الجانبين في عين جالوت، وتم أسر القائد المغولي كيت بوقا ومن ثم قتله(٩٩)، فتحطمت اسطورة الجيش المغولي الذي لا يُهزَم والتي كان قد نشرها جنكيز خان في العالم.

أخذ المغول يفقدون الحصون السورية بنفس السرعة التي حصلوا فيها عليها. كما رفعوا الحصار عن البيرة، واستعاد مماليك مصر سيطرتهم على سوريا ثانية. بعد ذلك بقليل بعث هولاكو جيشاً آخر للشام للثأر لتلك الهزيمة التي لحقت به. فدخل الجيش المغولي الى الشام واستولى على حلب ونهبها للمرة الثانية. لكنه انسحب من الفرات في محرم عام ٦٥٨ / كانون الأول ١٢٦٠. ويُعد هذا الفشل نقطة نهاية الزحف المغولي في الشام. وأصبح نهر الفرات، الحدود الدائمية بين المغول الذين كانوا يحكمون ايران وبين مماليك مصر(١٠٠).

بعد هذا الانتصار، عقد المماليك العزم على الثأر للمسلمين من الروم والأرمن الذين لعبوا دوراً في الضربات التي تلقاها الاسلام والمسلمون. وكان من افرازات ذلك الثأر: سقوط انطاكية في يد الملك الظاهر بيبرس عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م، والاغارة على ارمينيا ونهبها، وتنحية الملك هتوم عن الملك عام ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩

م، والاستيلاء على المراكز العسكرية الصليبية في الشام الواحدة تلو الاخرى، والقضاء على الحكومة الصليبية في القدس التي اسسها غودوفروا دي بويون والتي استمرت نحو قرنين من الزمن(١٠١).

بالرغم من تلك الهزائم، كان لدى هولاكو اصرار على ترسيخ دعائم امبراطوريته. وكان محصلة دعمه الضمني لقوبيلاي كامبراطور وخان كبير (قاآن)، تعيينه من قبل قوبيلاي ايلخاناً على منطقة تمتد من امودريا في الشرق وحتى الحدود المصرية في الغرب ومن القفقاس في الشمال وحتى الخليج الفارسي في الجنوب. ورغم ذلك كان من الصعب جداً تحديد الخطوط الحدودية مع المخيم الذهبي في الغرب وخوانين جغتاي في الشرق.

كان المغول لا يحكمون مباشرة في ايران إلّا في خراسان وبعض المناطق الشمالية عدا جيلان. كما كان من الصعب على المغول الوصول الى بعض الولايات الايرانية الجنوبية مثل فارس التي مركزها شيراز، وكرمان، وتلك المناطق المجاورة للخليج الفارسي وهرمز. وقد استطاعت هذه الولايات الاحتفاظ باستقلالها ضمن دائرة الاراضي الملحقة بالامبراطورية المغولية.

كان لهراة في الشرق نفس هذا الوضع ايضاً اذ كانت تُحكم من قبل ملوك كرت. كما تحولت مصر الى تهديد للايلخانيين بعد النصر الذي حققته في عين جالوت وتعزز قوة الملك الظاهر بيبرس.

منذ ذلك الحين، اصبحت مهمة المغول الدفاع عن الثغور التي تدعى ايران، وباتوا يحكمون تلك المناطق التي كانت جزءاً من دولة ايران سواء كان ذلك قبل العهد الايلخاني او ما بعده.

وفاة هولاكو عام ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م عن ٤٨ عاماً، لم تؤثر على ذلك المنحى، فحكم ايران من بعده ثمانية من الايلخانيين على مدى ٨٢ عاماً وهم: أباقا (٦٦٣ ـ ٦٨٢ هـ)، وتغودار (احمد) (٦٨٢ ـ ٦٨٤ هـ)، وأرغون (٦٨٤ ـ ٦٩١ هـ)، وكيخاتو (٦٩١ ـ ٦٩٤ هـ)، وبايدو (ستة اشهر)، وغازان (٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ)،

واولجايتو (٧٠٤ ـ ٧١٦ هـ)، وأبو سعيد (٧١٦ ـ ٧٣٦ هـ)، وقد توفي آخر ايلخان مغولي عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م بسبب الاسراف في الشهوات والملذات ولم يكن لديه ولد يخلفه، فحدث صراع على السلطة بين الامراء المغول وتجزأت الدولة الايلخانية، وظهر خلال عشرين عاماً ـ اي منذ ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م وحتى عام ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م ثمانية حكام آخرين، كان لكل منهم حكم اسمي على جزء من الولايات الايلخانية خلال فترة وجيزة.

العلاقات المسيحية المغولية

لم يبد جنكيز خان والمغول في فترة تأسيس الامبراطورية المغولية أي رغبة للانتماء الى الأديان العالمية الكبرى، اي البوذية، والاسلام، والمسيحية. ورغم ان هذه الأديان الثلاثة كان لها أتباع في شرق آسيا، إلّا انهم ظلوا كأجدادهم مرتبطين بدينهم البدوي البسيط الذي يخلو من المعتقدات الصريحة الواضحة، لكنهم كانوا يؤمنون بالله الواحد، وينسبون اليه خلق السماوات والأرض، ويعتبرونه مصدر الخير والسعادة، وان كان لديهم اعتقاد في بعض الأحيان بوجود آلهة ثانويين(١٠٢).

جنكيز خان كان يعتقد بسياسة مداراة جميع الأديان وينادي بضرورة احترامها جميعاً وعدم ترجيح بعضها على البعض الآخر(١٠٣). وسار ابناؤه وأحفاده على هذا المبدأ أيضاً. ويتحدث الجويني عن تلك السياسة قائلاً: بما ان جنكيز خان لم يكن ملتزماً بأي دين ومذهب، لذلك كان بعيداً عن التعصب الديني، ولا يفضّل ديناً على آخر. وكان يحترم رجال الدين جميعاً مهما كان دينهم، ويعتبر الاديان واسطة للتقرب من الله(١٠٤).

عدم انتماء المغول الى دين معين، أثار ردة فعل لدى العالم المسيحي، فقرر ان يستثمر تلك الحالة، فكان المسيحيون هم الأمة الاولى التي تقربت الى المغول من اجل القضاء على الاسلام والمسلمين، وسعت لايجاد تحالف معهم لتحقيق هذا

الغرض. ولم يكن من الصعب ادراك هذا الدافع، اذ خلال تلك الفترة بالذات حققت الحملة الصليبية الخامسة التي دعا لها البابا هونوريوس الثالث منذ عام ٦١٢ هـ / ١٢١٦ م لاحتلال القدس. وانتهز الصليبيون فرصة وفاة الملك العادل في جُمادى الثانية ٦١٥ / ١٢١٩ م، لمهاجمة مصر واحتلال دمياط في ٢٥ شعبان ٦١٦ / ١٢٢٠ م. واضطر الأيوبيون لمواصلة جهودهم في مدينة المنصورة بمصر(١٠٥).

وبالرغم من انسحاب الصليبيين من دمياط في رجب ٦١٨ / ١٢٢١ م بفعل مقاومة الايوبيين وفيضان نهر النيل(١٠٦)، إلّا انهم لم ييأسوا وبشّر هونوريوس الثالث المسيحيين بتحرير الأرض المقدسة من المسلمين، لاسيما في أعقاب سماع أخبار الهجمات التي كان يشنها جنكيز خان على البلاد الاسلامية والانتصارات التي كان يحققها(١٠٧).

حينما حل اوغتاي قاآن، محل جنكيز خان امبراطوراً للامبراطورية المغولية الحديثة، حقق المسيحيون نجاحات اكبر في بلاطه رغم بقائه وفياً لدين أجداده. وكان الوزير المسيحي تشنيقاي يعمل جاهداً لاقصاء المسلمين والبوذيين عن مركز الحكم.

كان جرماغون ـ قائد الجيش المغولي في ايران ـ يميل الى الديانة المسيحية، لذلك سعى للحفاظ على مصالح المسيحيين في ايران. وقدم على ايران، بأمر اوغتاي، كاهن مسيحي سرياني من سوريا يدعى شمعون ويُعرف بـ رابان ـ عطا، وسكن في تبريز منذ ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م وحتى ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م، بهدف دراسة ورعاية شؤون المسيحيين في ولاية أذربايجان. وحمل هذا الكاهن المسيحي معه أمراً الى جرماغون يمنع قتل المسيحيين غير المسلحين. وشيّد في مدن المسلمين، التي لم يكن يجرؤ فيها أحد على ذكر اسم عيسى المسيح، لاسيما في تبريز ونخجوان، كنائس وعلّق الصلبان(١٠٨).

في تلك الفترة، أخذ يتطلع اوغتاي للاستيلاء على اوربا، وبات يعد العدة لذلك من خلال استقطاب المزيد من المقاتلين الجدد. وأدرك النصارى ان المغول ليسوا

بالأناس الذين يمكن الوثوق بهم او يمكن التعاون معهم للقضاء على الاسلام(١٠٩). وبالرغم من ان وفاة اوغتاي أنقذت اوربا من التدمير على يد الجيش المغولي(١١٠)، لكنها لم تتخلص من الخطر نهائياً. لذلك دعا البابا اينوقنتيوس الرابع الى عقد اجتماع لآباء الكنيسة في ليون عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م، وتشاور معهم في كيفية التعامل مع المغول، وكيف يمكن تنصيرهم ومن ثم إستخدامهم في حرب المسلمين(١١١).

في أعقاب ذلك الاجتماع بعث البابا وفداً لمغول ايران حاملاً منه رسالة اليهم، فسافر ذلك الوفد عبر آسيا الصغرى ووصل في آب ١٢٤٧ م الى معسكر بايجو في قلعة سيستانس الواقعة في ارمينيا. وحينما دخل الوفد على الزعيم المغولي بايجو، رفض السجود له، فغضب غضباً شديداً، وكاد يقتلهم لولا أن تدخلت زوجته.

تأخر الوفد المسيحي كثيراً قبل ان يستلم الاجابة على الرسالة التي بعثها البابا. وجاء في تلك الاجابة التي كُتبت بالمغولية ثم تُرجمت الى الفارسية، ثم الى اللاتينية:

«بأمر الخان المقدس، يبعث اليك بايجو الجواب التالي: اعلم أيها البابا ان رسلك أتوا حاملين كتابك. وقد تحدثوا بلهجة مقززة. ولا ندري هل كان هذا بأمرك ام لا. انهم يعترضون لأننا قتلنا الكثير من الناس، ولكن عليكم ملاحظة أمر الله وأمر ذلك الذي يحكم الأرض: من يطعنا يبق مالكاً لأرضه، ويهلك كل من يقف في وجهنا. ايها البابا نحن نبعث اليك هذا الأمر كي تعلم انك اذا اردت الاحتفاظ بأرضك فعليك ان تأتي الينا بنفسك ثم تذهب من هنا لذلك الشخص الذي يحكم الأرض قاطبة. فاذا لم تفعل ذلك فنحن لا نعلم ماذا سيحدث، الله وحده يعلم»(١١٢).

كان المغول غالباً ما يستخدمون في كتبهم التي يهددون فيها معارضيهم وأعداءهم عبارة «نحن لا نعلم ماذا سيحدث الله وحده يعلم». وتنم هذه الرسالة التي بعثها المغول الى البابا عن انهم لا يميزون بين المسلمين والنصارى، وأن ما يحظى بالأهمية لديهم هو حكمهم للأرض الذي يتصورونه مهمةً ألقاها الله على

عواتقهم.

لم يستمر هاجس الخوف لدى العالم الغربي والبابا والكنيسة كثيراً، اذ ان المغول صرفوا انظارهم عن اوربا الى ايران حينما بدأ عهد الخان الجديد، سيما وان اخبار التمردات في ايران، دفعت غيوك خان ـ وكان تقليدياً وحاقداً ـ الى تركيز اهتمامه على ايران وشؤونها.

ورأى العالم المسيحي ان عليه ان يعيد ارتباطه بالمغول، فأخذت القوافل التجارية والوفود الدينية ـ السياسية تتقاطر من البلدان الاوربية والفاتيكان على قراقروم(١١٣). وفي تلك الفترة بالذات بعث البابا بواسطة كاربيني عدة رسائل لهذا المغولي المتعصب يطالبه فيها ان يغتسل غسل التعميد ويكف عن عمليات القتل العام في بولندا وهنغاريا، فشعر الخان بالامتعاض والاضطراب، فبعث اليه الرسالة الجوابية التالية:

«انا لا افهم كلامك. فالله (تانغري) هو الذي قتل هذه الامم وأهلكها لأنها لم تطع لا جنكيز خان ولا الخاقان، وكلاهما بُعث لابلاغ أمر الله للناس... بما انك بابا كبير ولديك كل هؤلاء الأمراء، عليك ان تأتي شخصياً لخدمتنا، وحينذاك سأُعرِّفك على تعاليم الياسا... فاذا لم تراع امر الله ولو تتجاهل امري، سأعتبركم أعدائي وأُفهمكم هكذا أيضاً. فلو فعلتم غير هذا، فالله يعلم أية فكرة لديّ»(١١٤).

هكذا ندرك ان زعيم المغول يعتبر نفسه مُلزماً بفتح العالم والامم ملزمة بالاستسلام او الهلاك.

توفي هذا الخان في الطريق حين زحفه نحو ايران، فحل محله منغو، ولم يكن لديه ذات التعصب الذي كان عند سلفه، واتخذ سياسة الحياد ازاء الأديان، بل أعلن في احدى المرات ان جميع الأديان مثل أصابع اليد الواحدة(١١٥).

ورغم ذلك لم يقر للمسيحيين قرار. وحينما علموا بنصرانية أُمّ الخان الكبير «سورقوقتيني» بيكي، وبعض أزواجه، وأحد اولاده، وبعض بناته، وأحد اخوته،

وبلقاي الوزير الكبير وصاحب النفوذ ومربي ولده الاكبر، قرروا التحرك عـليه لاستخدامه لصالحهم ضد الاسلام. فبعث لويس التـاسع الذي هُـزِم في الحـرب الصليبية وأُسر في احدى الحملات، وفداً الى منغوليا كي يقيّم مدى امكانية الغرب في استخدام المغول في الحملات الصليبية القادمة ضد المسلمين. وكان يرأس ذلك الوفد القس الفرنسي غيوم روبروكي. وبالرغم من ان جواب منغو كان اخفّ لهجة من غيوك، الا انه اكد للوفد على ان الامبراطورية المغولية في حالة اتساع، وغير مستعدة للتهادن مع اي أحد.

بعد شهر واحد من عودة روبروكي، قام هتوم امبراطور ارمينيا بزيارة لبلاط منغو وعبّر عن رغبة الحكومات المسـيحية في الشرق الأوسـط والشرق الأدنى للاتحاد مع المغول ضد المسلمين. فأبلغه الخان الكبير منغو انه سيبعث جيشاً كبيراً بقيادة اخيه هولاكو لغزو بغداد والاطاحة بـالخلافة العـباسية، واعـادة الأرض المقدسة للنصارى(١١٦). وأفرزت تلك الزيارة اعلان ارمينيا عن وفائها للمغول واتحادها معهم، فحارب الأرمن مع الجيش المغولي ضد المسلمين، وساهموا معهم في الزحف نحو بغداد وفلسطين ولم يبخلوا عليهم بشيء(١٠٧). ويمثل عملهم هذا في حقيقة الأمر تحالف العالم المسيحي مع المغول لمجابهة الاسلام وضربه.

زحف هولاكو، يعبّر عن اهم تطلعات العالم المسيحي. وكانت امه مسـيحية، ولديه زوجة مسيحية اسمها دوقوز خاتون. اما هو فقد عاش ومات كافراً بلا دين، واحتفظ بوفائه للياسا التي شرّعها جنكيز خان. ومع ذلك انتهج سياسة المداراة مع المسيحيين، وسمح لهم بقرع أجراس الكنائس وكان يشارك في طقوسهم، لاسيما في الكنائس التي شيّدتها زوجته دوقوز خاتون(١١٨).

طريقة هولاكو هذه، شجعت البابا الكساندر الرابع كي يبعث اليه كتاباً في عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م يطلب منه باصرار ان يغتسل غسل التعميد(١١٩)، لكنه لم يصغ لهذا الطلب ولا للمساعي المسيحية الاخرى، الى ان هـزم المـغول امـام المـماليك المسلمين. ففي اعقاب تلك الهـزيمة فكر هولاكو في اقامة علاقات مع البابا، فبعث

رسولاً الى الاسقف الاعظم في عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م. وبعث اليه البابا اوربانوس الرابع رسالة جوابية في عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م، فنشطت سياسة التعاون بين البابا والايلخان من جديد(١٢٠).

السنوات التي أعقبت وفاة هولاكو، مرت هادئة على المسيحيين، ولم تظهر لهم فيها توترات مع المغول، رغم انهم عجزوا عن اقامة علاقة معنوية مع البلاط الايلخاني، وأخذ أملهم في انتماء الايلخانيين الى الديانة المسيحية يتضاءل تدريجياً، حتى تحوّل الى يأس تام في عهد خازان غازان الذي اعتبر الاسلام ديناً رسمياً للبلاد الايلخانية، فتم خلال ذلك تدمير الكنائس والصوامع المسيحية في ايران،او تحويلها الى مساجد(١٢١). وفرض على المسيحيين دفع الجزية كما كان حالهم في بداية العهد الاسلامي. وبذلك يكون الاسلام قد انتصر في ميدان الصراع بين الديانتين الكبريين، اي الاسلام والمسيحية، واعتنق جميع المغول في ايران، الدين الاسلامي وأشرقت عليهم شمس الاسلام(١٢٢).

وفقدت المسيحية بالمقابل نفوذها واعتبارها في ايران، عدا أقلية صغيرة ظلت تعيش مبعثرة هناك وهناك، تحت حماية الحكومات.

الثقافة والحضارة الاسلاميتين في العهد المغولي

يمكن مشاهدة ارتباط المسلمين بالمغول منذ عام ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م، وهو العام الذي انفصل فيه الكثيرون عن جنكيزخان بتحريض من خصمه جمغا، ولم يبق معه سوى ١٩ من انصاره، كان من بينهم بعض المسلمين مثل جعفر خوجه، وحسن حاجي، ودانشمند الحاجب(١٢٣). وظل مقام الاسلام والمسلمين محفوظاً الى حد ما بفعل اتباع سياسة المداراة الدينية التي اتبعها جنكيزخان. لكن الضربات التي وجهها هؤلاء الوحشيون للاسلام والمسلمين خلال غزوهم للعالم الاسلامي، كانت ثقيلة وموجعة جداً.

فضلاً عن تدمير المدن والقصبات، واحراق المكتبات والمراكز العلمية، وقتل وأسر العلماء والمفكرين، احتل المغول بغداد وقوّضوا صرح الخلافة الاسلامية، فهبطت مكانة الدين الاسلامي وتدنى مقامه عن الديانتين المسيحية واليهودية. وتهدمت الأماكن الاسلامية المقدسة، والمساجد، والمدارس والمؤسسات العلمية. ولولا الجذور العميقة التي كان يمدها الاسلام في أعماق الضمائر وقلوب الأمم، لأصبح الاسلام أثراً بعد عين. ولكن سرعان ما رفع الاسلام رأسه ثانية من أعماق الخرائب والأنقاض والرماد، وأخذ يؤثر على الغزاة وينفذ الى أفكارهم وضمائرهم، وحوّلهم الى حماة له ومتحمسين لأفكاره. ولم يمر وقت طويل حتى اصبح الاسلام ديناً رسمياً للمغول، وأصبحوا دعاة له. لقد عمل الاسلام على تهذيب نفوس المغول المتوحشة وتذليلها، وتلطيف سلوكياتهم الخشنة، الأمر الذي أعدهم لقبول الثقافة الاسلامية العليا. كما لعب علماء الاسلام ومفكروه دوراً بارزاً ايضاً في جعلهم يتفهمون الاسلام ويقبلون عليه ويتعايشون معه.

يمكن تقسيم العلماء والمفكرين المسلمين من حيث الموقف الذي اتخذوه ازاء العدوان المغولي على البلاد الاسلامية الى مايلي:

١ ـ فريق كان يعتبر العدوان المغولي على البلاد الاسلامية، غزواً يقوم به الكافرون لحياض الاسلام. ولابد في مقاومة هذا العدوان والتصدي له. وقد حرّض هؤلاء العلماء، المسلمين على القتال، ولبسوا هم ايضاً لامة الحرب والجهاد، وصمدوا في ميادين المواجهة.

٢ ـ فريق آخر، لاسيما الأدباء والشعراء، رأى ان الأجواء لا تساعد على الانطلاق مع الخيال، وأدرك خطورة الاوضاع، لذلك اختار طريق النجاة والسلامة فالتجأ اما الى البلاطات التي رضيت بالحكم غير المباشر للمغول كبلاط سعد زنكي في فارس، او التحق بالبلدان البعيدة كالهند، ومصر، وآسيا الصغرى، وأخذ يتطلع في هذه البلدان لتحقيق آماله.

٣ ـ فريق آخر كان مستاءاً من ملوك خوارزم وداعماً للخلافة العباسية، سعى

للتخلص من ملوك خوارزم بجربة المغول، وهي عين السياسة العباسية الخاطئة التي سبق أن أشرنا اليها، من دون التفكير بعواقب الامور.

هناك بعض العلماء كانت لديهم اهداف اخرى منها ارشاد المغول الى طريق الاسلام الصحيح، فأصبحوا جزءًا من مساعديهم. ويبدو أن هؤلاء هم الذين نجحوا الى حد ما في الحد من عنف المغول ووحشيتهم، فقدموا بالتالي خدمات جليلة للمجتمع الاسلامي والاسلام. ومن هؤلاء: محمود يلواج، وابنه برهان الدين مسعود بيك، اللذان استطاعا الحيلولة دون الكثير من أعمال التدمير والتخريب، وابطال مفعول العديد من مكائد الأمم الاخرى. كما نجحا من خلال استحصال ثقة الامبراطور، في دفعه لاعادة بناء وترميم الخرائب في المدن الشرقية بايران. وحقق هذان الشخصان، لاسيما مسعود بيك الذي عمَّر طويلاً، انجازات كثيرة في مجال العمران(١٢٤).

في تلك الفترة التي كانت المدن الايرانية تحترق بنيران غزو الجيش المغولي، نفذ بعض الايرانيين الى قلب حكومة العدو، بحيث دفعوا الامبراطور المغولي ان ينتخب ختماً حفر عليه اسم الرسول محمد (ص)، وأفهموه انه لا يمكن لعجلة الامبراطورية المغولية ان تدور بشكل سريع وصحيح من دون استقطاب الايرانيين، وهذا لا يتحقق الا من خلال احترام الاسلام(١٢٥).

تابع فريق آخر من العلماء والمفكرين، عين هذا الاسلوب فيما بعد، لاسيما الخواجه نصيرالدين الطوسي الذي كان له دور متميز وحساس بهذا الشأن، بحيث يمكن القول بجرأة ان دوره في اعادة الحياة الى ثقافة الاسلام وحضارته، اكبر من جميع اولئكالذين كانوا يريدون حتى تلك الفترة ان يلعبوا دوراً على هذا الصعيد.

فضلاً عن النشاطات الاجتماعية والعلمية التي مارسها نصيرالدين الطوسي، كان تأثيره على هولاكو كبيراً جداً بحيث كان يخرج ويسافر ويمارس عملاً ما طبقاً للزمان الذي يعينه الطوسي(١٢٦).

لربما هذه الأعمال والخطوات المدروسة للمفكرين المسلمين ـ لاسيما نصيرالدين

الطوسي ـ هي التي أخرجت الاسلام والثقافة الاسلامية قوية من جديد، من بين عواصف المغول العاتية، وحوّلت المغول الذين خرجوا من ديارهم يوماً للقضاء على الاسلام والمسلمين الى حماة ودعاة لهذا الدين. وبفضل تلك الجهود نفذ الاسلام وكذلك اللغة الفارسية الى الصين، وانتشرت الثقافة الاسلامية والايرانية في هذا الجزءالمهم من العالم. وبالمقابل انتشرت العلوم والمعارف الصينية في ايران، واستقبل المنجمون الصينيون بحفاوة في ايران، وأفيد منهم كثيراً.

صحيح ان العصر المغولي الذي دام قرنين من الزمن، كان يعتبر من أحلك العصور في تاريخ البلدان الاسلامية نظراً لما ارتكبت فيه من أعمال همجية ومجازر وانتهاكات خطيرة في حق الاسلام والمسلمين وثقافتهم وحضارتهم وعلومهم، إلّا انه يحظى بأهمية ايضاً من حيث ظهور شخصيات فاضلة وعالمة في العالم الاسلامي كمولانا جلال الدين البلخي، والشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي، والخواجه شمس الدين محمد حافظ الشيرازي، وعلاءالدين عطاء الملك الجويني، ورشيد الدين فضل الله الهمداني، ونصيرالدين الطوسي، وحمدالله المستوفي، وقد لعب كل منهم دوراً مهماً في احياء ثقافة المسلمين وحضارتهم.

فبعد عصر هؤلاء العلماء والمفكرين، ظهرت مرحلة انحطاط العلوم والأدب التي بلغت ذروتها في عهد الدولة الافشارية. ففي هذه المرحلة بالذات اخذت تظهر الآثار المخربة للسلاطين المغول(١٢٧). وعليه من الضروري الاشارة ولو بشكل موجز الى بعض جوانب الاسلام الثقافية والحضارية خلال هذا العصر:

١ ـ الأدب

رغم الحروب الدموية والكوارث العامة واضطراب اوضاع الناس وتردي أحوالهم لاسيما في المناطق الخاضعة لحكم المغول المباشر في خراسان وايران، لربما يعد هذا العصر من أغنى عصور تاريخ الأدب الايراني، وذلك لظهور شعراء فطاحل كمولانا جلال الدين البلخيّ، والشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي،

ولسان الغيب حافظ الشيرازي، ونورالدين عبدالرحمن الجامي.

من جانب اخر، أخذت اللغة الفارسية تشق طريق الرقي في أعقاب سقوط بغداد ونهاية تفوق اللغة العربية. فانطلقت مع المغول الى آسيا الصغرى التي تَترَّكَت حديثاً وأثّرت على العثمانيين، فتأثر أدبهم بأساليب الأدب الفارسي. كما حملت هذه اللغة الى الهند على يد اولئك الذين هربوا اليها خوفاً من جنكيزخان وهولاكو.

في بلاط المغول، أصبحت اللغة الفارسية رسمية ايضاً. فقد كانت الرسالة الجوابية التي بعثها غيوك خان الى اينوقنتيوس الرابع، ورسالة منغو الى لويس التاسع، مكتوبتين باللغة الفارسية. كما كان التجار المسلمون في الصين يستخدمون هذه اللغة في صفقاتهم التجارية.ثم أصبحت الفارسية لغة عامة في آسيا خلال عصر الايلخانيين(١٢٨).

انطبع الشعر بطابع عام بعد أن فقد حماته الحكوميين(١٢٩)، وأصبح الشعر الفارسي محمَّلاً بالأفكار التي تدعو الخلق الى الزهد في الدنيا وتركها. والسبب في ذلك هو تلك الأوضاع القاسية التي ظهرت بظهور الغزو المغولي، واستمرت باستمرار الظلم الذي مارسه حكام العصر المغولي، فاتجه الشعراء على هذا الأساس الى القضايا الدينية والخيالات الصوفية المتطرفة، والانعزالية، والتصورات الدقيقة. وانفتح الباب بشكل اكبر بوجه الشعر الغزلي والعرفاني الرقيق. وكثرت المنظومات القصصية والعرفانية، وكذلك ذلك اللون من المنظومات التي تحفل بالأفكار الاجتماعية والحكايات والقصص القصيرة، مثل «بوستان» لسعدي الشيرازي(١٣٠).

الاسلوب الشعري في هذا العصر، يعد امتداداً للاسلوب الشعري الذي كان سائداً في النصف الثاني من القرن السادس والذي كان يعرف بالعراقي. والسبب في اهتمام الشعراء بهذا الاسلوب يعود الى ان اللهجة العامة لشعراء مناطق ايران الوسطى والجنوبية كانت منسجمة مع هذا الاسلوب(١٣١).

ومن أشهر شعراء هذا العصر:

سعدي الشيرازي: تخلص الشيخ مصلح الدين الشيرازي بسعدي اما لولادته واشتهاره في عهد سعد بن زنكي والي فارس، او لملازمته لسعد بن ابي بكر بن سعد زنكي. ويعد من كبار الفصحاء والبلغاء والخطباء في تاريخ الأدب الفارسي(١٣٢).

بدأ دراسته في شيراز، ثم سافر الى بغداد فأخذ العلوم الظاهرية عن ابن الجوزي، والفنون والطريقة عن الشيخ شهاب الدين السهروردي والشيخ عبدالقادر الجيلاني، فأنهى ثلاثين عاماً من عمره في تحصيل الادب والمعارف، وأمضى ثلاثين عاماً اخرى في السياحة، فالتقى خلال ذلك بجلال الدين الرومي في بلاد الروم، والأمير خسرو الدهلوي في الهند فضلاً عن كثير من الأكابر والمشايخ، وأفرغ نفسه في الثلاثين سنة الأخيرة من حياته للطاعة والعبادة والعزلة، فتوفي بشيراز عام ٦٩٠هـ / ١٢٩٢م ودفن فيها(١٣٣).

وصلت إلينا منه بعض الرسائل فضلاً عن الذي كتبه بنثر فارسي رائع. ومن تلك الرسائل: نصيحة الملوك، رسالة العشق والعقل؛ رسالة مجالس الشيخ.

فضلاً عن ديوانه الرائع الشهير الذي يحمل اسم «بوستان»، يعّد كتاب «غولستان»، اهم الكتب التي خلفها حيث يمتزج فيه النثر بالشعر في أحلى صورة متطرقاً من خلال ذلك الى العديد من المواضيع التربوية والاجتماعية.

بلغت قابليته في الغزل وبيان المضامين العالية في قالب غزلي او عرفاني ومن خلال تعابير وكلمات فصيحة وسلسة، حد الاعجاز، ولم يكن لها مثيل من قبل(١٣٤). وهذه الخصوصية هي التي جعلت من كتاب «غولستان»، كتاباً دراسياً في البلدان المتحدثة باللغة الفارسية(١٣٥).

مولوي: يعد مولانا جلال الدين محمد بن سلطان العلماء بهاء الدين محمد البلخي، والذي يعرف بجلال الدين الرومي ايضاً، من أعظم شعراء المتصوفة، وكوكباً لامعاً في سماء الأدب الفارسي. ولد في بلخ بخراسان في ٦ ربيع الاول عام ٦٠٤ / ١٢٠٨م. رافق اباه في الهجرة من بلخ عام ٦١٠هـ / ١٢١٤م وذلك بسبب

اختلاف وقع بين ابيه والسلطان محمد خوارزمشاه، فذهب الى بغداد اولاً، ثم الى مكة والشام، ثم الى ارزنجان وملاية ولارندة. واستقر به المقام في قونية بعد أن دعاه اليها علاءالدين كيقباد السلجوقي (٦١٦ ـ ٦٣٤هـ)، الى ان توفي عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م(١٣٦).

ظل مولوي منهمكاً في تدريس العلوم الشرعية حتى عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م، وهو العام الذي التق فيه بالشمس التبريزي.فانصرف بعد هذا اللقاء عن الدنيا، ولازم شمس الدين محمد بن علي بن ملك داد التبريزي وأخذ يسترشد به الى ان توفي شمس الدين في ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م. ومنذ هذا العام بدأت الحياة الحقيقية لمولانا كشاعر عاشق(١٣٧).

يُعدّ «المثنوي»، أهم آثاره المنظومة، ويتألف هذا الديوان من ستة أجزاء من بحر الرمل المسدس المقصور او المحذوف، ويبلغ عدد أبياته نحو ٢٦ ألف بيت شعري.وينبغي ان يعد بحق أحد أعظم النتاجات الفكرية البشرية. وقد طرح فيه الشاعر العارف قضايا وأفكار عرفانية ودينية وأخلاقية مهمة.

الأثر المهم الآخر هو ديوانه الكبير المعروف بديوان غزليات الشمس التبريزي. وسمي بهذا الاسم لأن مولوي أورد فيه اسم مرشده شمس الدين التبريزي بدلاً من تخلصه في نهاية اغلب الغزليات. وأثره المهم الثالث هو رباعياته التي تتألف من ١٩٨٣ رباعياً. ولديه آثار اخرى مثل: مجموعة مكاتيب، مجالس، فيه ما فيه(١٣٨).

لسان الغيب حافظ الشيرازي: شمس الدين محمد بن الشيخ كمال الدين الشيرازي المعروف بخواجه حافظ، يعد من أشهر شعراء العالم في العصر المغولي. وتزامنت نهاية حياته مع مطلع العهد التيموري. ولد بمدينة شيراز عام ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، وكانت انذاك مركزاً لتجمع كبار الشعراء والعرفاء ومجمعاً للعلماء والأدباء. فقد أباه وهو طفل، فعاش مع امه في شيراز حياة قاسية وألجأه الفقر الى العمل في أحد المخابز. ثم قاده حب تحصيل الكمالات لاحدى حلقات الدرس،

فانخرط في صفوف طلبة العلم. وقد قرأ على السيد الشريف الجرجاني الكثير من العلوم فأصبح نادرة زمانه في العرفان وقراءة القرآن. وحفظ القرآن الكريم في ١٤ قراءة. وكان يعتقد انه لم يجمع أحد مثله لطائف الحكمة مع لطائف الحقائق القرآنية. ولذلك أخذ يتخلص في شعره بـ «حافظ»(١٣٩).

كان شعره العرفاني ممتزجاً بخيالات دقيقة جداً. ولم تتح له فرصة كتابة أشعاره وترتيبها لكثرة اهتمامه بتدريس القرآن. وقام السيد قاسم انوار بكتابة اشعاره ووضعها في ديوان، بعد وفاته عام ٧٩١هـ / ١٣٩٠م. وثمة رواية اخرى تقول ان الذي كتب شعره ودونه هو محمد غل اندام الذي كان زميله في التتلمذ على قوام الدين(١٤٠).

من خصائص كلام حافظ انه يصب المعاني العرفانية والحكمية الدقيقة في اوجز العبارات وأوضح الكلمات وأصحها. وأخذ الشعراء الآخرون الذي اتوا من بعده يقلدون هذا الاسلوب، والذي ادى الى ظهور نمط شعري راح يُعرف بالهندي(١٤١).

اذن يعد شعر حافظ من افضل نماذج الشعر الفارسي، ويعبر عن علو فكر وطبع ادباء هذه اللغة في احلك الظروف التي عاشتها البلدان الناطقة بالفارسية في ظل الغزو المغولي.

فضلاً عن الشعراء أعلاه، ظهر شعراء آخرون في هذا العصر ومنهم: فريد الدين محمد بن ابراهيم النيشابوري المتخلص بالعطار، وملك الشعراء نظام الدين محمود القمري الاصفهاني، وملك الشعراء بهاءالدين احمد بن محمود القانعي الطوسي، والخواجه مجدالدين بن همغر المعروف بمجد همغر، والشيخ فخرالدين ابراهيم الهمداني المعروف بالعراقي، ومولانا سيف الفرغاني، ومولانا سراج الدين القمري، وبهاءالدين محمد المعروف بسلطان ولد، والحكيم سعدالدين محمد النزاري البيرجندي المشهور بالنزاري القهستاني، والأمير مختار السادات السيد ركن الدين الحسيني الهروي، والأمير ناصر الدين ابوالحسن خسرو الدهلوي والذي كان ابوه

قد هاجر من بلخ الى الهند هرباً من المغول(١٤٢)، والشيخ ابوالمكارم ركن الدين علاءالدولة السمناني، وفخر الزمان بدرالدين محمد الجاجي المعروف بالبدر الجاجي، والخواجوي الكرماني، وركن الدين صائن الهروي، والأمير فخرالدين محمود بن الأمير يمين الدين البيهقي المشهور بابن اليمين، وعبيدالزاكاني، وسلمان الساوي، وعربشاه اليزدي، والشيخ كمال الدين مسعود الخجندي.

٢ ـ التاريخ والنجوم

حظي التاريخ، وعلم النجوم بأهميةاكبر من سائر العلوم عند المغول. وقامت أعمال قيمة في هذين الحقلين بدعم من المغول. فالمغول الذي قاموا بأعمال تاريخية كبيرة كالاستيلاء على بلاد ذات رقعة جغرافية واسعة جداً. واسقاط العديد من الدول والسلالات، كالدولة العباسية التي استمرت ٥٢٥ عاماً، كانوا يرغبون جداً في كتابة تلك الأحداث، والأعمال التي انجزوها، والفتوحات التي حققوها. ولذلك تدخلوا مباشرة في تأييد علم التاريخ. وكان غازان والجايتو، يوليان أهمية خاصة للتاريخ ولذلك اوكلا لرشيد الدين فضل الله مهمة كتابة تاريخ مفصل واسع في فتوحاتهم وحروبهم(١٤٣). ومن الآثار التي ظهرت في التاريخ خلال تلكالفترة:

١ ـ تاريخ الفتوحات لعلاءالدين عطا ملك الجونيي (٦٢٣ ـ ٦٨١هـ / ١٢٢٦ ـ ١٢٨٣م).

٢ ـ جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله الهمداني (٦٤٥ ـ ٧١٨هـ / ١٢٤٧ ـ ١٣١٨م).

٣ ـ تجزية الأمصار وتزجية الأعصار لشرف الدين عبدالله الشيرازي المعروف بوصاف الحضرة (٦٦٣ ـ ٧٣٥هـ / ١٢٦٤ ـ ١٣٣٤م).

٤ ـ التاريخ المختار، لحمدالله المستوفي القزويني (٦٨٠ ـ ٧٥٠هـ / ١٢٨١ ـ ١٣٤٩م).

٥ ـ مجمع الأنساب لمحمد بن علي شبانكارئي (اواسط القرن ٨هـ).

فضلاً عن التاريخ، اهتم المغول بالعلوم التي كانت مهمة في حياتهم وأعمالهم وممارساتهم، وسعوا لتقويتها واستثمارها بما ينفعهم، كعلم النجوم. فكانوا يستخدمونه لمعرفة الأوقات المفضلة للقيام بهجماتهم وغزواتهم وأعمالهم، كما حدث في غزوهم لبغداد وقتل الخليفة العباسي(١٤٤). ويأتي علم الطب بعد علم النجوم في الاهتمام المغولي، فكانوا يستعينون به في معظم الأحيان رغم اسلوبهم غير السليم في الحياة.

كان ميل منغوقا آن نحو الرياضيات وهولاكو نحو الجبر، نابعاً من ميلهما لعلم النجوم. فبعد فشل الجهود التي بذلها جمال الدين في عهد منغو، وافق هولاكو وأباقا على قيام نصيرالدين الطوسي بتشييد مرصد مراغة رغم الأموال الطائلة التي تلزم لذلك(١٤٥).

استقدم نصيرالدين الطوسي الحكماء والمنجمين من سائر بقاع العالم الاسلامي، كما استعان بعالم صيني كان موجوداً في مراغة آنذاك ولديه يد في تنظيم تاريخ الصينيين. وتم خلال ذلك اكمال آلات الرصد القديمة واختراع آلات اخرى مع استخدام دقائق الحكمة في اصول النجوم والفلك(١٤٦).

على صعيد علم الطب، كان أشهر الاطباء آنذاك اما نصارى او يهود. ولم يكن للأطباء المسلمين الايرانيين والاطباء الصينيين نفوذ كبير في البلاط المغولي. ومع ذلك نفذ رشيد الدين وغيره الى البلاط كأطباء في بادئ الأمر(١٤٧).

٣ ـ الفن

الدمار المغولي كان واسعاً وفظيعاً الى درجة بحيث كان لابد من مرور فترة زمنية طويلة كي تستعيد الحياة مسارها الطبيعي والعادي. وقد تحسنت العلاقات منذ عهد هولاكو بين البلدان الاسلامية والصين، وأخذ الايرانيون والصينيون

يتبادلون الزيارات فيما بينهم، فيتم خلال تلك الزيارات تبادل المعلومات والمعارف والفنون.

وان لم يكن العصر المغولي ـ كما هو حال عصر السلجوقي ـ عصر اختراع وابداع، ولكن حصلت تطورات في بعض الفنون، لاسيما في مجال الهندسة المعمارية، حيث أثر الاسلوب الصيني على معظم المسلمين، لاسيما على صعيد التزيين والزخرفة واستعمال اللون الأزرق الشفاف في القاشي، وتغطية الأسطح الخارجية للقباب بالقاشي الأزرق البراق(١٤٨).

وكان الايرانيون قد استحسنوا آثار الرسم الصينية، واختاروا لأنفسهم اسلوباً خاصاً في الرسم بعد الانصراف عن اسلوب المذهب السلجوقي، عرف بالاسلوب الايراني المغولي(١٤٩). ولربما كان هذا الاسلوب اول اسلوب ايراني في الرسم، حيث ازدهر في تبريز، وسلطانية، وبغداد. ورغم ذلك يلاحظ في هذا الاسلوب، تأثير الأساليب الفنية الصينية كرسم بعض الحيوانات الخرافية، فضلاً عن انعكاس مناظر الحرب وميادين القتال، في معظم آثار هذا العصر، وهو الأمر الذي ينسجم مع ذوق المغول(١٥٠).

يعترف الباحثون أن التطور الذي شهده فن المنمنمات الايراني، بدأ مع بداية العصر المغولي، فتألّق هذا الفن في سماء الفنون الايرانية، وبلغ ذروته في نهاية هذا العصر(١٥١). وأول كتاب مخطوط رُسمت صُوره على يد بعض الرسامين، هو كتاب منافع الحيوانات لابن بختيشوع الذي يوجد اليوم في مكتبة بيربونت مورغان. ويُحتمل انه كُتب بمراغة عام ٦٧٢ هـ / ١٢٩٤ م(١٥٢).

اسلوب الرسم في هذا الكتاب، قريب من اسلوب المذهب البغدادي. ومن المحتمل ان يكون صاحبه قد تعلّم في ما بين النهرين، وأفلت من القتل الذي ارتكبه المغول. ومع ذلك تُلاحظ صبغة صينية على بعض صور الكتاب الاخرى بحيث يمكن أن تُنسب الى فنّاني الشرق المهاجرين(١٥٣).

وصلت الى أيدينا ايضاً نسخ مصوَّرة لشاهنامة الفردوسي، وجامع التواريخ

الذي صنّفه رشيد الدين فضل الله. ويقال ان هذا المصنف استقدم لفيفاً من الفنانين والرسامين الى تبريز وأوكل اليهم مهمة كتابة وتصوير نسخ عديدة من هذا الكتاب. والملاحظ في تلك الصور أنّها ذات نمط صيني، لكن اشخاصها ذوو أشكال وأزياء وأسلحة مغولية. واستُخدمت في هذه الصور ألوان شتى، لكنها كانت تركز على اللون الاحمر(١٥٤).

في اعقاب تدمير المغول لمدينة الري المشتهرة بصناعة الفخار والخزف في ايران، تحوّلت سلطان آباد الى مركز مهم لهذه الصناعة. وتُلاحظ على اغلب الأواني التي عُثر عليها هناك، تزيينات بارزة. كما يتميّز بعضها بملامح فنية رائعة من حيث الجمال والشكل. وتُلاحظ على الأباريق، والجرار، والأصص وغيرها، أشكال الحيوانات والأزهار وكثير من الصور الجميلة الاخرى التي تنسجم مع شكل كل اناء وحجمه. ويلاحظ كذلك ان جميع الجرار مطلية بالمينا الزرقاء الغامقة عادة او الارجوانية وغيرها أحياناً.

كلمة أخيرة

في أعقاب الغزو المغولي للعالم الاسلامي، حدث دمار كبير في حياة المسلمين المادية والمعنوية، وظهر بسبب ذلك انحطاط علمي واجتماعي، ومنيت البلاد الاسلامية بكوارث ومصائب لا نظير لها. ووجِّهت للاسلام ضربات عنيفة فتراجع في الوهلة الاولى وأصبح بمستوى سائر الأديان الاخرى. واستولى الحكام الكافرون على مقدرات المسلمين للمرة الاولى وأمسكوا بزمام الامور في بلاد المسلمين، وحلّت الياسا الجنكيزية محل القوانين الاسلامية.

ولم يهدأ الصليبيون النصارى الذين تغلي قلوبهم حقداً على الاسلام، وعملوا كل ما بوسعهم للقضاء على الدين الاسلامي. فكانت الأخطار تتفاقم، وكانت جميع انجازات الاسلام ومكاسبه تتعرض للزوال والاندثار.

في ظل مثل تلك الأوضاع هبّ المفكرون والعلماء المسلمون المضحّون للدفاع عن حياض الدين الاسلامي، وأدوا هذه الوظيفة الخطيرة على أحسن وجه. واستطاعوا النفوذ الى البلاط المغولي والتأثير على السلاطين المغول ونجحوا في تذليل عناصر الوحشية والعنف وتليين طباعهم، فحصلوا بالقلم والفكر على ما فقدوه بالسيف في ميادين القتال. فانتصر القلم على السيف في تلك المعركة الشرسة البربرية، ولم يبق من جنكيز خان وقوانينه، سوى الخواطر، اما الذي انتصر فهو القرآن والشريعة المحمدية التي نفذت في نهاية المطاف الى وجدان المغول وضميرهم. فغلبت الثقافة الاسلامية وامتدت الى قلب بلاد العدو في الصين ومنغوليا، وأخذ نداء التوحيد يلعلع في أجواء هذه البلاد.

هوامش الفصل الثاني:

١ ـ رينه غروسي، امبراطورية سكان الصحراء، ترجمة عبد الحسين ميكده، طهران، ١٩٨٣، ص ١٠؛ عباس اقبال اشتياني، تاريخ المغول في ايران، طهران، ١٩٩٧، ص ١ ـ ٢.

٢ ـ هارولد لومب، جنكيز خان، ترجمة رشيد ياسمي، طهران، ج ٤، ٢٠٠٢، ص ١٠.

٣ ـ رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، طهران، ج ٤، ١٩٩٥؛ ج ١، ص ٢٨.

٤ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، تاريخ الفتوحات، ج ١، ص ١٥.

٥ ـ ديفيد مورجان، المغول، ترجمة مخبر، ١٩٩٢، ص ٧٠.

٦ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، سابق، ص ٣٣.

٧ ـ شيرين بياني، المغول والحكومة الايلخانية في ايران، طهران، ٢٠٠٠، ص ١٢.

٨ ـ هارولد لومب، سابق، ص ١٥.

٩ ـ محمد بن علي شبانكارئي، مجمع الأنساب، تصحيح مير هاشم محدث، طهران، ج ٢، ١٩٩٧، ص ٢٢٣.

١٠ ـ شيرين بياني، سابق، ص ١٧.

١١ ـ هارولد لومب، سابق، ص ٣٤.

١٢ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٣٠٧.

١٣ ـ رشيدو، سقوط بغداد، ترجمة أسد الله آزاد، مشهد، ١٩٨٩، ص ٢٩١ ـ ٢٩٥.

١٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون المغربي، مقدمة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر)، طبعة ثانية، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٨٨٦م ـ ص ١٠٩.

١٥ ـ هارولد لومب، سابق، ص ٨٤.

١٦ ـ مير خواند، روضة الصفا، تهذيب وتلخيص عباس زرياب، طهران، ج ٢، ١٩٩٦، ج ٥، ص ٨٣١.

١٧ ـ راجع: رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٣٤١.

١٨ ـ مير خواند، سابق، ص ٨٤١ ـ ٨٤٢.

١٩ ـ ابن الأثير عز الدين علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ ق. ج ١٢ ص ٢٦٠.

٢٠ ـ محمد بن علي شبانكارئي، سابق، ص ١٣٩.

٢١ ـ مير خواند، ص ٨٤٠ ـ ٨٤١.

٢٢ ـ الجوزجاني، منهاج السراج، تصحيح عبد الحي حبيبي، طهران، ١٩٨٤، ج ٢، ص ١٠٨.

٢٣ ـ نفس المصدر، ص ١٠٣.

٢٤ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، سابق، ص ٨٢.

٢٥ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٣٤٤.

٢٦ ـ محمد بن علي شبانكارئي، سابق، ص ٢٣٤.

٢٧ ـ هارولد لومب، سابق، ص ١١١.

٢٨ ـ الجوزجاني، سابق، ص ١٠٤.

٢٩ ـ هارولد لومب، سابق، ص ٢٠٢.

٣٠ ـ نفس المصدر، ص ١١٢ ـ ١١٤.

٣١ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٣٤٦.

٣٢ ـ محمد علي شبانكارئي، سابق، ص ١٤١.

٣٣ ـ هارولد لومب، سابق، ص ١١٦.

٣٤ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، سابق، ص ٨٣.

٣٥ ـ نفس المصدر، ص ٨٤.

٣٦ ـ جي، لسترنج، الجغرافيا التاريخية لبلاد الخلافة الشرقية، ترجمة محمود عرفان، طهران، ج ٤، ص ٤٩٠.

٣٧ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، سابق، ص ٩.

٣٨ ـ نفس المصدر، ص ٩٢ ـ ٩٣.

٣٩ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١؛ الجوزجاني، سابق، ص ١٠٦.

٤٠ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، سابق، ص ٩٤.

٤١ ـ جي. لسترنج، سابق، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

٤٢ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، سابق، ص ١٠٤.

٤٣ ـ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، طهران، ص ٤٨٦.

٤٤ ـ الجويني، سابق، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

٤٥ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٣٧٣.

٤٦ ـ الجويني، سابق، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

٤٧ ـ محمد علي شبانكارئي، سابق، ص ٢٣٨.

٤٨ ـ نفس المصدر.

٤٩ ـ شيرين بياني، سابق، ص ٤٩.

٥٠ ـ علاء الدين عطا ملك الجويني، سابق، ص ١١٠ ـ ١١١.

٥١ ـ نفس المصدر، ص ١٠٩.

٥٢ ـ نفس المصدر.

٥٣ ـ ابن الأثير، سابق، ج ١٢، ص ٣٩٠.

٥٤ ـ محمد علي شبانكارئي، سابق، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

٥٥ ـ الجويني، سابق، ص ١٢٠.

٥٦ ـ نفس المصدر، ص ١٢٤.

٥٧ ـ نفس المصدر، ص ١٢٥.

٥٨ ـ ابن الأثير، سابق، ج ١٢، ص ٣٩٢.

٥٩ ـ جي. لسترنج، سابق، ص ٤١٠ ـ ٤١١.

٦٠ ـ الجويني، سابق، ص ١٢٩.

٦١ ـ نفس المصدر، ص ١٣١.

٦٢ ـ نفس المصدر.

٦٣ ـ الجوزجاني، سابق، ص ٢٣.

٦٤ ـ مير خواند، سابق، ص ٨٥٤.

٦٥ ـ سيف الهروي، تاريخ هراة، تصحيح محمد زبير صديقي، طهران، ج ٢، ١٩٧٣، ص ٦٩.

٦٦ ـ ابن الأثير، سابق، ج ١٢، ص ٣٩٣.

٦٧ ـ مير خواند، سابق، ص ٨٥٥.

٦٨ ـ سيف الهروي، سابق، ص ٨٥٥.

٦٩ ـ مير خواند، سابق.

٧٠ ـ سيف الهروي، سابق.

٧١ ـ ابن الأثير، سابق، ج ١٢، ص ٣٩٣.

٧٢ ـ مير خواند، سابق، ص ٨٥٦.

٧٣ ـ نفس المصدر.

٧٤ ـ الجوزجاني، سابق، ج ٢، ص ١٢١.

٧٥ ـ سيف الهروي، سابق، ص ٨١ ـ ٨٢.

٧٦ ـ الجويني، سابق، ص ١١٥ ـ ١١٧.

٧٧ ـ جي. لسترنج، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣.

٧٨ ـ شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي (وصاف الحضرة)، تجزية الأمصار وتزجية الأعصار المشهور بتاريخ وصاف الحضرة، طهران، ج ٢، ١٩٩٣، ص ٣٠٤.

٧٩ ـ تاريخ ايران كيمبريج منذ مجيء السلاجقة وحتى سقوط الدولة الايلخانية، ج ٥، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

٨٠ ـ حمد الله المستوفي، التاريخ المختار، بجهود عبد الحسين نوائي، طهران، ج ٤، ٢٠٠٢، ص ٥٨٩.

٨١ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ج ٢، ص ٦٩٧.

٨٢ ـ شرف الدين الشيرازي، سابق، ص ٢٤.

٨٣ ـ نفس المصدر، ص ٢٨.

٨٤ ـ نفس المصدر، ص ٢٩.

٨٥ ـ حمد الله المستوفي، سابق، ص ٥٨٩.

٨٦ ـ رشيدوف، سابق، ص ٩٥ و ٨٤ ـ ٨٥.

٨٧ ـ نفس المصدر، ص ٩٦ ـ ٩٧.

٨٨ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٧١٥؛ برتولد اشبولر، تاريخ المغول في ايران، ترجمة محمود مير افتاب، طهران، ج ٧، ٢٠٠١، ص ٥٩.

٨٩ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٧١٥.

٩٠ ـ رشيدوف، سابق، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

٩١ ـ تاريخ ايران كيمبريج، ص ٣٢٩.

٩٢ ـ نفس المصدر، ص ٣٣٠.

٩٣ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٧١٥.

٩٤ ـ تاريخ ايران كيمبريج، ص ٣٢٩.

٩٥ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٧٢٠.

٩٦ ـ نفس المصدر.

٩٧ ـ ج. ج. ساندرز، تاريخ فتوحات المغول، ترجمة ابي القاسم حالت، طهران، ج ٢، ١٩٨٤، ص ١١٤.

٩٨ ـ رشيد الدين فضل الله، سابق، ص ٧٢٢.

٩٩ ـ نفس المصدر، ص ٧٢٤.

١٠٠ ـ رشيدوف، سابق، ص ١١٠.
١٠١ ـ ج. ج. ساندرز، سابق، ص ١١١ ـ ١١٢.
١٠٢ ـ برتولد اشبولر، سابق، ص ١٧٤.
١٠٣ ـ رشيدوف، سابق، ص ٢٩٢.
١٠٤ ـ الجويني، سابق، ج ١، ص ٤٨.
١٠٥ ـ عبد الله الناصري الطاهري، عوامل وآثار الحروب الصليبية، مع ترجمة اعلام التبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، طهران، ١٩٩٤، ص ٨٨ ـ ٨٩.
١٠٦ ـ نفس المصدر، ص ٨٩.
١٠٧ ـ شيرين بياني، الدين والدولة في ايران في عهد المغول، طهران، مركز النشر الجامعي، ج ١، ص ١٧٦.
١٠٨ ـ نفس المصدر، ص ١١٧.
١٠٩ ـ ج. ج. ساندرز، سابق، ص ٩٣.
١١٠ ـ رشيدوف، سابق، ص ٥٧.
١١١ ـ برتولد اشبولر، سابق، ص ٢٣٠.
١١٢ ـ ج. ج. ساندرز، سابق، ص ٩٧.
١١٣ ـ شيرين بياني، سابق، ص ٨٨ ـ ٨٩.
١١٤ ـ ج. ج. ساندرز، سابق، ص ٩٦.
١١٥ ـ رشيدوف، سابق، ص ٢٠٥؛ اشبولر، سابق، ص ٢٠٦.
١١٦ ـ شيرين بياني، سابق، ص ٩٣.
١١٧ ـ تاريخ ايران كيمبريج، ص ٢٣٩؛ رشيدوف، سابق، ص ١٤٢؛ برتولد اشبولر، سابق، ص ٢٠٩.
١١٨ ـ برتولد اشبولر، سابق، ص ٢١٤.
١١٩ ـ رشيدوف، سابق، ص ١٨٥.

۱۲۰ ـ نفس المصدر، ص ۱۹۵.

۱۲۱ ـ حمد الله المستوفي، سابق، ص ۶۰۲.

۱۲۲ ـ نفس المصدر، ص ۶۰۲ ـ ۶۰۳.

۱۲۳ ـ رشيدوف، سابق، ص ۱۸۱.

۱۲۴ ـ شيرين بياني، سابق، ص ۶۸.

۱۲۵ ـ نفس المصدر، ص ۶۹.

۱۲۶ ـ نفس المصدر، ص ۳۵۱.

۱۲۷ ـ عباس اقبال، سابق، ص ۴۷۹.

۱۲۸ ـ ج. ج. ساندرز، سابق، ص ۴۷۹.

۱۲۹ ـ ذبيح الله صفا، تاريخ الأدب في ايران، تلخيص محمد ترابي، طهران، ۱۹۸۹، ج ۲، ص ۸۴.

۱۳۰ ـ نفس المؤلف، موجز في تاريخ تطور الشعر والنثر في اللغة الفارسية، طهران، ص ۴۸.

۱۳۱ ـ نفس المصدر.

۱۳۲ ـ محمد علي مدرس، ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب، طهران، ج ۳، ص ۳۳ ـ ۳۴.

۱۳۳ ـ نفس المصدر، ص ۳۴ ـ ۳۵.

۱۳۴ ـ ذبيح الله صفا، سابق، ص ۴۹.

۱۳۵ ـ نفس المصدر، ۱۹۸۹، ج ۲، ص ۱۳۱.

۱۳۶ ـ نفس المصدر، ج ۲، ص ۱۰۵ ـ ۱۰۸.

۱۳۷ ـ نفس المصدر، ص ۱۰۷.

۱۳۸ ـ نفس المصدر، ص ۱۰۸ ـ ۱۰۹.

۱۳۹ ـ محمد علي مدرس، سابق، ج ۲، ص ۱۲.

١٤٠ ـ نفس المصدر.

١٤١ ـ ذبيح الله صفا، سابق، ص ٢١٨.

١٤٢ ـ ادوارد براون، من سعدي والى جامي، ترجمة علي أصغر حكمت، طهران، ١٩٤٨، ص ١٣٢.

١٤٣ ـ من مقدمة ادوارد براون على جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله، ص ١٠.

١٤٤ ـ راجع: رشيد الدين فضل الله، سابق، ج ٢، ص ٧٠٦.

١٤٥ ـ نفس المصدر، ص ٧٧٢.

١٤٦ ـ محمد علي مدرس، سابق، ج ٢، ص ١٧٥.

١٤٧ ـ عباس اقبال، سابق، ص ٤٣٩.

١٤٨ ـ نفس المصدر، ص ٥٦٤.

١٤٩ ـ محمد حسن زكي، تاريخ الصنائع الايرانية بعد الاسلام، ترجمة محمد علي الخليلي، طهران، ج ٢، ١٩٨٤، ص ٩٢ ـ ٩٤.

١٥٠ ـ راجع: كريستي ويلسون، تاريخ الصنائع الايرانية، ترجمة عبد الله فرياد، طهران، ١٩٣٨.

١٥١ ـ نفس المصدر.

١٥٢ ـ ديفيد تالبوت روبس، الفن الاسلامي، ترجمة ماه ملك بهار، طهران، ج ٢، ٢٠٠٢، ص ١٢٦.

١٥٣ ـ نفس المصدر.

١٥٤ ـ كريستي ويلسون، سابق، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

الفصل الثالث

المسلمون في الأندلس

أسبانيا تذكّر المسلمين بالكثير من الخواطر الحلوة والمرة والتي ترافقها التجارب والعبر الكثيرة. ودراسة هذا الجزء من تاريخ الاسلام يكشف عن سر رقي المسلمين من جانب وعن سر انحطاطهم وتقهقرهم من جانب آخر ويمكن ان يُعد تجربة تاريخية مهمة للعالم الاسلامي الكبير.

تتجلى عظمة فتح الأندلس حينما نلقي نظرة على الخريطة السياسية لاوربا آنذاك، أي في القرن الثامن الميلادي. فبينما كانت اوربا المسكونة والمتحضرة محدودة بالمنطقة المحيطة بالبحر المتوسط وفرنسا واجزاء من اوربا الوسطى وشبه جزيرة البلقان، وعدم وجود أية آثار للحياة المدنية في انجلترا، وألمانيا، والنمسا، وروسيا، واوربا الشرقية، والاقاليم الاسكندنافية، كان المسلمون يزحفون نحو قلب اوربا من محورين: كانوا يزحفون ببطء تدريجياً من الجنوب الشرقي في شبه جزيرة الاناضول ثم شبه جزيرة البلقان، ويزحفون من الجنوب الغربي في شبه جزيرة ايبيريا وصولاً الى حدود فرنسا الجنوبية.

واستطاع المسلمون خلال ذلك التقدم الذي حصل لهم، تربية علماء ومفكرين

كبار كابن حزم الأندلسي، وأطباء وحكماء عظماء كأبي القاسم الزهراوي، وابـن طفيل، وابن رشد القرطبي، ومفسرين معروفين كبقي بن مخلد القرطبي، ومؤرخين بارزين كابن عبد البر الأندلسي، وأدباء فطاحل كابن بسّام، وغـيرهم، وعـملوا ايضاً على نقل جوانب من الثقافة الاسلامية العظيمة الى الغرب. فالمعمارية والآثار الرائعة الخالدة التي خلّفها المسلمون في اسبانيا، تتطلب حديثاً مسهباً سنشير اليه بايجاز.

نظراً لتعذر تحليل ودراسة أي حدث تاريخي وظاهرة اجتماعية من دون توفر الاطار التحليلي والفكري، فلابد لنا من السعي لتقديم اجابة شافية ومستدلة على السؤال التالي: لماذا سرى الضعف الى المجتمع الاسلامي في الأندلس الذي كان قد ازدهر ازدهاراً رائعاً علمياً ومعمارياً وثقافياً وفنياً منذ القرن الثامن وحتى القرن الخامس عشر الميلادي، الى ان التحق بالتاريخ في نهاية المطاف وانمحى من ميدان الجغرافيا السياسية والثقافية للعالم؟

الموقع الجغرافي للأندلس

الاندلس اسم أطلقه المسلمون على جزء من جزيرة ايـبيريا بمـحاذاة البـحر المتوسط وتقع في جنوب اسبانيا وجنوب شرقي البرتغال، وقد يُطلق عـلى شـبه الجزيرة بتمامها. وهذا الاسم مشتق من اسم الفاندال، وهي قبيلة جرمانية سكنت في جنوب اسبانيا بعد تجزئة الامبراطـورية الرومـانية الغـربية في مـطلع القـرن الخامس الميلادي.

الأندلس التي يقال لهـا بـالأسبانية «انـدالوسـيه» (Andalucia)، تـعد اكـبر المحافظات الاسبانية في هذا اليوم وتتألف من ثمانية أقضية هي: المـريا، كـارس، كوردوبا، غراناذا، ملاغا، خـاين، سـويل، اويـلو[1]*. وورد اسم الأنـدلس في

* الأسماء العربية لهذه المدن هي: المريّة، قادش، قرطبة، غرناطة، مالقة، جيّان، اشبيلية، ولبة.

المسكوكات ذات اللغتين بتاريخ ٩٨ هـ / ٧١٧ م الى جانب اسم أسبانيا. كما أطلقت المصادر الاسلامية هذا الاسم على اسبانيا المسلمة بعد الفتح الاسلامي لهذا البلد. وظل هذا الاسم متداولاً ايضاً في هذا البلد حتى بعد ان أخذت حكومة المسلمين فيه تنزع نحو الضعف(١).

الأندلس كانت تشمل جميع اسبانيا والبرتغال الحاليتين عدا منطقة غاليسيا (Galicia) شمال غربي شبه جزيرة ايبيريا. وتفصلها عن فرنسا سلسلة جبال بيرنه. وتوجد في بلاد الأندلس ثلاث سلاسل جبلية تمتد بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي هي: سيرامورنا (جبال قرطبة)، وبرانس، وسلسلة الجبال الوسطى لشبه جزيرة ايبريا التي تمتد من تورتوسا (طرطوشه) الى ليسبون (لشبونه / اشبونه). وكان الادريسي قد أطلق على هذه السلاسل الجبلية اسم الشارات وقال بأنها تشرف على طليطلة (تولدوي الحالية)(٢).

يُعد نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) أو النهر العظيم او نهر قرطبة والذي يُدعى باسمه القديم بيطي (باتيكا) في بعض الأحيان، أهم أنهار هذه البلاد، ويبلغ طوله ٥٠٠ كم. وينبع هذا النهر من سلسلة جبال سيرامورنا جنوب شرقي ميزيتا (Meseta)، ويصب في المحيط الأطلسي بعد أن يروي قرطبة واشبيلية(٣). ويُعد هذا النهر، هو النهر الوحيد في جزيرة ايبيريا الذي يمكن الملاحة في الجزء السفلي منه.

اشتهرت بلاد الاندلس بوجود مراكز حضارية طوال التاريخ الاسلامي. فبقيت جميع المدن الرومانية على حالها تقريباً بعد الفتح الاسلامي، واستمرت في ازدهارها. كما ظلت الأسماء اللاتينية القديمة لمدن هذه البلاد على حالها أيضاً مثل قرطبة (كوردوبا)، واشبيلية (سويل)، وبلنسية (والنسيا)، وسرقسطة (ساراغوسا). وشيدت في العصر الاسلامي مدن جديدة كقواعد للدفاع عن البلد وصدّ هجمات الفاطميين، مثل مُرسيا (Murcia) محل مدينة ايلو (Ello) القديمة. كما ان المرية (آلمريا) التي كانت في بادئ الأمر عبارة عن قاعدة لرصد حركة العدو، تحوّلت في القرن ٤ هـ / ١٠ م الى قاعدة بحرية ومستودع اندلسي. ومن المدن الاخرى التي

شيدت في العصر الاسلامي: اقليش (Ucles)، والزهراء، وقلعة رباح (Calatrava)، ومرج الأمير، ومنية نصر(٤).

في حوالي القرن ٤ هـ / ١٠ م، كانت هناك ثلاثة خطوط حدودية تفصل الأندلس الاسلامية عن أسبانيا المسيحية تنطبق مع مسير نهر ايبرو (Ebro)، ونهر دورو (Douro) او دُويرة(٥).

كانت الأندلس تقسم الى عدة نواح أوكُور كانت تدعى بالجُند او الأجناد او الكُوَر المجنّدة. ويتحدث أحمد بن محمد الرازي عن تقسيم الأندلس الى كور وأقاليم ويصفه بأنه تقسيم ثابت ومعروف منذ القدم. وقد استخدمه مؤلفو القرون اللاحقة بدون تغيير. وتقوم تلك الكُوَر على اساس النظام الروماني والقوطي. وكان نظام المدن الكبرى ذات الولاية الواسعة يشمل المدن الأصغر، والقرى، والحصون. وكانت تلك المدن الكبرى ـ ليس بالمعنى المصطلح للمدن الكبرى اليوم ـ بمثابة «الكورة» في الشرق الاسلامي. وكان لكل مدينة كبرى، مدن صغرى، وعدة حصون ومعاقل. وكانت المدن الأندلسية الكبرى او الكور في القرن ٤ هـ / ١٠ م عبارة عن:

قرطبة، فحص البلوط، قبرة، استجّة، اشبيلية، قرمونة، لَبلَة، اكشونبة / أُخشُنُبه، شِلب، باجه، مورو، شذونة قلسانة، الجزيرة الخضراء، لاكرنا (رُندة)، رَيّة، مالقة، البيرة، جيّان، بجانة، تدمير (مرسيا)، شاطبة، بلنسية، طليطلة، طلبيرة، اقليش، سارده، بطليوس، شنترين، لشبونة، وقلمرية. وكانت قرطبة أهم وأكبر مدن الأندلس وعاصمة الخلفاء الأمويين، وقد حلّت محل طليطلة عاصمة القوط(٦).

في أعقاب الفتح الاسلامي وما بعده، قدمت على الأندلس طوائف من المسلمين العرب والبربر. وأوائل المهاجرين العرب كان يتألف من جيش موسى بن نصير الذي يبلغ عدده ١٨ ألف رجل، وقد انطلق نحو الأندلس في رجب عام ٩٣. ثم قدم اليها من افريقيا ٤٠٠ شخص برفقة الحر بن عبد الرحمن الثقفي، والي الأندلس، وذلك في شهر ذي الحجة عام ٩٧. ورغم انهم كانوا اقلية ازاء ساكنيها

الأوائل، إلّا انهم أدّوا الى ظهور نواة لارستقراطية جديدة حلت محل الرومان والقوط. ويبدو ان الكثير من الأحداث اللاحقة ومن بينها انحطاط المسلمين وتقهقرهم في اسبانيا، يعود لهذه الارستقراطية التي ظهرت بعد الفتح واستمرت حتى نهاية الدولة الاسلامية في الأندلس. ورغم ان مقاليد الحكم كانت في يد الأمويين والعرب العدنانيين، غير ان العرب اليمنيين كانوا اكثر عدداً وعدة(٧).

لعب البربر دوراً مهماً في فتح الأندلس ومن بعده أيضاً وكانوا يتقاطرون عليها من المغرب للحصول على الغنائم او الاقامة فيها. وكانت هجرتهم الى شبه جزيرة الأندلس اسرع وأعدادهم اكبر من العرب. وكان بربر الأندلس ينتمون الى العديد من القبائل مثل: نفزة، مكناسة، هوارة، مديونة، كتامة، زناتة، مصمودة، مليلة، وصنهاجة، حيث تُعد الأربع الأولى أشهرها(٨).

كان المسيحيون القوط أو الاسبان، من العناصر المهمة في المجتمع الأندلسي، وقد اعتنقوا الاسلام في بداية الفتح وأخذ المؤرخون يطلقون عليهم اسم المسالمة او الأسالمة، بينما أطلقوا على ابنائهم الذين وُلدوا في حجر الاسلام اسم «المولدين». وظل هذا الاسم يُطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري، ثم اختفى هذا الاصطلاح بعد ذلك لامتزاج الناس فراح يُشار لجميع سكان الأندلس بالأندلسيين، ولم يعد ثمة تمايز بينهم(٩).

يعتقد بعض الباحثين ان اوائل الأسالمة، كانوا من بين العبيد في ذلك البلد، لأنهم رأوا في الاسلام محرراً لهم من العبودية، وعقيدة تضمن لهم المساواة مع الآخرين(١٠). وأصبح للأسالمة نفوذ كبير في بعض المدن مثل طليطلة، وأخذت تظهر عليهم بعض النزعات الانفصالية. وكانت اشبيلية مركزاً لهم أيضاً، غير ان المولدين كان لديهم منحى سلمي مع الحكومة في قرطبة لانهماكهم بالتجارة(١١).

بات المسيحيون يتعايشون مع المسلمين في الأندلس، وأخذوا يتحدثون باللغة العربية مع الاحتفاظ بدينهم. ويعتقد البعض ان مفردة «المستعربين» أخذت تُطلق على هؤلاء منذ دخول المسلمين الى الاندلس، بينما يرى آخرون انهادخلت المتون

والكتابات منذ مطلع القرن ٥ هـ / ١١ م(١٢). وكان يُطلق اسم «المعاهدين» على تلك الفئة من المستعربين التي كان لديها عهد مع المسلمين(١٣). وكان المستعربون يحظون بحماية الدولة الاسلامية لاسيما في المدن الكبرى كقرطبة، واشبيلية، وطليطلة(١٤). وكان اليهود يعانون كثيراً في عهد الرومان والقوط وتُفرض عليهم قيود مشددة، غير ان المسلمين تعاملوا معهم باسلوب انساني، وتمتعت الأقليات اليهودية في المدن الأندلسية الكبرى بحماية الحكومة الاسلامية. وكانوا يكثرون في مدينة غرناطة(١٥).

تاريخ بلاد الأندلس

قبل الاسلام

يبدأ تاريخ الأندلس منذ القرن الثاني قبل الميلاد. فقد وصل التجار الفينيقيون وبحارة الساحل الغربي للبحر المتوسط الى شبه جزيرة ايبيريا عن طريق المحيط الأطلسي وذلك في نحو عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، وشيّدوا فيها مدناً للمهاجرين مثل مالاغا (مالقة)، وكادس (قادش). ثم استولى عليها اليونانيون، ثم القرطاجيون الذين انطلقوا من قرطاجة في تونس عام ٨٥٠ ق. م. ونشبت خلال الفترة ٢٦٤ ـ ١٤٩ ق. م معارك ضارية بين القرطاجيين والرومان عُرفت بالحروب الفونية (Puniques)، وأدت الى سيطرة الرومان وزوال دولة قرطاجة. ومنذ ذلك الحين وقعت الأندلس في يد الرومان الذين حكموها على مدى ستة قرون، اي حتى عام ٤٠٦ م(١٦).

أخذت الامبراطورية الرومانية تضعف في هذه المنطقة منذ اواخر القرن الرابع الميلادي بفعل الأزمات العسكرية والاقتصادية وغزو القبائل البربرية الزاحفة من شمال أفريقيا. وفي مطلع القرن الخامس الميلادي غزا الفاندال والقوط (Visigoths) بلاد الأندلس بعد اجتياز جبال بيرنه. واستطاع الفاندال السيطرة على المغرب،

والقوط السيطرة على الأندلس بعد أعوام من الحروب الدموية(١٧). واستمر الحكم القوطي لبلاد الأندلس نحو ثلاثة قرون، الى ان أسقط المسلمون دولتهم وفتحوا هذه البلاد في مطلع القرن الثامن الميلادي.

عند أبواب الفتح الاسلامي

ضعفت أسبانيا قبيل الفتح الاسلامي الى درجة كبيرة جداً. لذلك من الضروري معرفة ظروف شبه جزيرة اسبانيا خلال السنوات الاولى من القرن الثامن الميلادي ليس من اجل ادراك فتوحات المسلمين فيها فحسب، وانما من اجل التوصل الى تقييم صحيح للازدهار الثقافي الاسلامي فيها ايضاً.

دخل القوط الى اسبانيا عام ٤١٤ م واستولوا على ولاية تاراكونينسيس (Tarraconensis) عام ٤١٤ م. واحتفظوا بحكمهم لهذا البلد من خلال شتى الاجراءات السياسية، دون ان تكون هناك وحدة حقيقية لأن القوط كانوا تابعين للفرقة المسيحية المعروفة بالآريوسية (Ariansism)، بينما كان معظم السكان المحليين على المذهب الكاثوليكي.

في عام ٥٨٩م، طرأت تغييرات جوهرية، فتخلى القوط عن المذهب الآريوسي وانتمو الى المذهب الكاثوليكي. فكان ذلك سبباً في ظهور حكومة موحدة في سائر أرجاء شبه الجزيرة الاسبانية(١٨).

وفي مطلع القرن الثامن ظهرت في الأندلس طبقة الأعيان المؤلفة من القوط والاسبان من اصل روماني. واقتصرت المناصب الكنسية على الأعيان. وأخذ الأسقف الأعظم والأساقفة يلعبون دوراً مهماً في ادارة شؤون البلد، رغم ان السلطة الحقيقية كانت في يد الملك ومستشاريه(١٩).

لم يكن لدى الملك ولي للعهد، وكانت طبقة الأعيان تنتخب الملك من بين صفوفها. وكانت تحاك المكائد عادة حين انتخاب خليفة للملك. ويبدو ان الملك

واجه مشاكل كبرى في عملية تعبئة الجيش والحصول على قوات كافية وذلك في اواخر القرن السابع الميلادي(٢٠).

الوضع الاجتماعي للمجتمع الاسباني لم يتغير كثيراً في العهد القوطي عما كان عليه في العهد الروماني. وقد تحالفت الارستقراطية الرومانية مع القوط من اجل الاحتفاظ بثرواتها وهيمنتها. فأصبحت تلك المجموعة من سكان المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة، والتي كانت حرة فيما سبق، تقضي حياتها تحت نفوذ الأقوياء في حالة وسطى ما بين الحرية والعبودية. اما سائر الناس فكانوا اما عبيداً للأرض او عبيداً للأقلية الغنية والطبقة النبيلة(٢١).

بسبب تلك الظروف، حدث تذمر عميق لدى مختلف الناس، فأخذ كثير منهم يتطلع الى قوة تحررهم. ولربما كان من الصعب جداً على القوط الذين كانوا يعانون من تخلف فكري، ادراك مصالح الناس ومصلحة الحياة المدنية والتجارة. ولربما كان ذلك أحد عوامل التعامل القاسي مع اليهود في اسبانيا، لأن معظم اليهود كانوا تجاراً.

على صعيد آخر، يُعد نفوذ الكنيسة والأساقفة وتأثيرهم على اتخاذ القرارات السياسية، وقربهم من الملك، ومعاداتهم لليهود، من بين العوامل التي عملت على اساءة التعامل مع اليهود وتضييق الخناق عليهم، لاسيما القرارات المتخذة عام ٦٩٣ م التي اغلقت على اليهود جميع الطرق التي تسمح لهم بممارسة التجارة(٢٢).

هناك احتمال كبير في ان القساوسة الكاثوليك، كانوا المحرض الأول على التعامل بقسوة مع اليهود والضغط عليهم. لذلك يُعد اليهود من اوائل الناقمين على القوط.

على ضوء ما سبق يمكن تلخيص عوامل ضعف الدولة القوطية وانهيارها في آخر الأمر، في أربعة:

١ ـ الاختلاف بين الأعيان على خليفة الملك؛ ٢ ـ تذمر المجتمع من الامتيازات التي تعطى للأعيان؛ ٣ ـ محاكم التفتيش واعتقال وتعذيب اليهود؛ ٤ ـ الوضع

الاقتصادي المتدهور(٢٣).

في عهد الفتح الاسلامي

الضعف الذي آل اليه القوط شجع موسى بن نصير الذي كان والياً للخلفاء الامويين على افريقية والمغرب، على احتلال شبه جزيرة ايبيريا، وقد ساعده في ذلك أهل أسبانيا الذين ضاقوا ذرعاً بالظلم القوطي. فبعث مولاه طارق بن زياد على رأس سبعة آلاف مقاتل الى شواطئ اوربا في رجب او شعبان ٩٢ / نيسان او مايس ٧١١، فعبر مضيقاً عُرف فيما بعد بمضيق جبل طارق، ووصل الى اسبانيا فانتصر على رودريك ملك القوط وزحف نحو قلب اسبانيا(٢٤).

كانت الأندلس آنذاك تعاني من حروب وصراعات داخلية، وكان ملكها رودريك ـ او لذريق كما هو في بعض المصادر الاسلامية ـ يقاتل بعض المتمردين في الولايات الشمالية. وأفلح طارق بدعم من الحاكم المتمرد ويدعى خوليان (يوليان) والذي يقال أنه هو الذي دعا المسلمين لفتح الأندلس، في عبور المضيق المذكور ومن ثم احتلال مدن استجة، ومالقة، وغرناطة، وقرطبة، والبيرة، وطليطلة خلال فترة قصيرة. ثم زحف نحو الشمال فاجتاز كلاً من قشتالة، وليون، وجبال استورياس (Asturias) حتى وصل الى السواحل الجنوبية لخليج بيسكاي (Bay of Biscay)، اي الى اقصى نقطة في الشمال، وبذلك يكون قد سيطر على الأندلس من الشمال الى الجنوب خلال عام واحد(٢٥).

من جانب آخر، تقدم موسى بن نصير في جيش كبير فاجتاز مضيق جبل طارق في رمضان ٩٣، ففتح شذونة، وقرمونة، واشبيلية التي تُعد من اكبر مدن الأندلس، واتجه نحو طليطلة، فخرج اليه طارق مستقبلاً(٢٦). ثم انطلق القائدان نحو الشمال الشرقي ففتحا مدن وحصون تلك المنطقة مثل سرقسطة، وبرشلونة. ثم اتجه طارق نحو الغرب لفتح اراضي الشمال الغربي فيما زحف موسى بن نصير نحو جبال بيرنه للقضاء على فلول القوط وبقاياهم.

كان موسى بن نصير ـ وكما أشار الى ذلك ابن خلدون ـ ينوي الدخـول الى فرنسا من شمال الأندلس، ثم يعود الى الشام عن طريق القسطنطينية بعد فتح اوربا بأسرها، غير أن الوليد بن عبد الملك طلب منه ومن طارق بن زياد الحضور بين يديه فوراً(٢٧). واتخذ موسى قبل عودته مدينة اشبيلية عاصمة للأندلس وعـيّن ابنه عبد العزيز والياً عليها، ثم عاد مع طارق الى دمشق عام ٩٥ هـ(٢٨).

انبرى عبد العزيز بن موسى بن نصير لادارة شؤون الأندلس وتنظيم اوضاعها المضطربة بكفاءة، إلّا انه قُتل في مسجد اشبيلية في ٩٧ أو ٩٨ هـ / آذار ٧١٦، ربما بمكيدة دبّرها له الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي خشي نفوذه المتزايد في هـذه الولاية(٢٩). واتّسع الفتح الاسلامي في هذه المنطقة من خلال الاستيلاء على كل من بنبلونه (بامبلونا) (Pamplona) بالقرب من الحافة الغربية لجبال بـيرنه وطـرّكونه (تاراغونا) (Tarragona)، وخرونا (Gerona)، واحتمالاً اربونه (ناربن) عـلى ساحل البحر المتوسط. ويمكن القول ان الفتوحات الاسلامية قـد انـتهت بمـقتل عبدالعزيز. والحقيقة هي ان شبه جزيرة ايبيريا لم تفتح تماماً من قبل المسـلمين، وكانت هناك منطقة واسعة في الشمال الغربي لم يبلغها المسلمون. ومع ذلك فالوحدة الادارية للأندلس قد تحققت بعد القضاء على القوط، وأقيم نظام اداري استوعب شبه الجزيرة تقريباً مدعماً باسناد عسكري مؤثر، فكان فرض النظام عليها من قبل المسلمين اقوى بكثير مما كان عليه الحال في عـهد مـلوك القـوط الغـربيين المتأخرين(٣٠).

معظم المؤرخين يعتقدون ان العرب لم يكونوا يفكرون في فتح الأندلس وانمـا كانوا ينوون الحصول على بعض الغنائم ثم العودة الى افريقيا. لكن الانتصار الباهر وغير المتوقع الذي حققه طارق بن زياد، جعل حرب المسلمين في أسبانيا تنطبع بطابع آخر. ويستند هذا الفريق من المؤرخين الى ما جاء في المصادر العربية بشأن غضب موسى بن نصير على طارق بـن زيـاد ومـعاقبته له لتمـرده عـلى اوامـره واستمراره في الفتح(٣١). وتجمع الأخبار العربية على ان موسى تحدث مع طارق

كلاماً يدرك منه انه أرسله لأسبانيا للحصول على الغنائم ثم العودة منها(٣٢). وسعى المستشرقون لاسيما الأسبان من خلال التمسك بذلك الكلام، ان يصوروا قتال المسلمين في اسبانيا مجرد مغامرة لا غير.

لربما يبدو هذا الرأي صائباً، لأن زحف طارق نحو الأندلس بسبعة آلاف مقاتل، لا يحمل معه شارة الفتح الكامل لتلك البلاد، ولكن لو أخذنا اسلوب المسلمين المتداول في فتح مصر وبلاد المغرب بنظر الاعتبار، لرأينا ان ارسال قوات صغيرة للفتح ومن ثم ارسال قوات مساعدة ومساندة في اعقابها، كان اسلوباً مستخدماً من قبل العرب في فتوحاتهم(٣٣). وقد عمل بهذا الاسلوب ايضاً في فتح الأندلس لأن موسى بن نصير قد أمد طارق بن زياد بخمسة آلاف مقاتل مباشرة. اما غضب موسى على طارق فلربما يعود لأنه كان في قلق من ان يزحف طارق اكثر مما ينبغي فيعرض حياة المقاتلين المسلمين للخطر. ولربما أثارت الانتصارات التي حققها طارق والغنائم التي حصل عليها، حسد موسى وحفيظته.

اذن لا يُعدُّ فتح الأندلس مغامرة تحقق لها النجاح صدفة، وانما كانت عملية مدروسة تمت وفق الخطة التي اعتاد المسلمون عليها في فتح البلدان والدول. والدليل على ذلك، تلك الرسالة التي بعثها موسى بن نصير الى الوليد بن عبدالملك ويخبره فيها بدعوة جوليان ـ حاكم سيوتا ـ له بفتح الأندلس. وقد طلب منه الوليد ان يبعث جيشاً الى هناك لاستقصاء الأوضاع(٣٤).

التاريخ السياسي للأندلس في العصر الاسلامي

امتد العصر الاسلامي في الأندلس نحو ٨٠٠ عام، حيث يمكن تقسيم التاريخ السياسي للأندلس خلال هذا العصر الى ثلاث مراحل(٣٥): ١ ـ الأندلس كجزء من الدولة الاموية في دمشق ٩٨ ـ ١٣٢هـ / ٧١٦ ـ ٧٥٥م؛ ٢ ـ الدولة الأموية في الأندلس ١٣٨ ـ ٤٢٢هـ / ٧٥٥ ـ ١٠٣١م؛ ٣ ـ ملوك الطوائف ٤٢٢ ـ ٨٩٨هـ / ١٠٣١ ـ ١٤٩٢م.

الاندلس، جزء من الدولة الاموية في دمشق

كانت الاندلس خلال هذه الفترة جزءاً من ولاية افريقيا التابعة للدولة الاموية في الشام. وكان عمالها يعينون من قبل ولاة افريقيا (تونس الحالية) الذين كانوا يقيمون في القيروان. وقد بلغ عمالها خلال الفترة ٩٨ ـ ١٣٢هـ / ٧١٦ ـ ٧٥٥م حوالي ٢٠ شخصاً، عُيِّن بعضهم اكثر من مرة، بينما استمر حكم ثلاثة منهم نحو خمس سنوات او اكثر. وفي عام ١٠٠ هـ جعل الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز تعيين عمال الأندلس جزءاً من صلاحياته، فعين عليها سمح بن مالك الخولاني. وكان بارعاً في القتال وادارة الامور، لذلك هبّ للقيام باصلاحات مالية وعمرانية جديدة، وواصل الفتوحات بعد قمعه للبغاة والمتمردين، واستولى على مدن شمالي الأندلس مثل قرقشونة، وسبتمانيا، وأربونه. ومدّ رقعة الأرض الاسلامية الى جنوب فرنسا. وعمل على تشييد القلاع والحصون والمعسكرات. ثم زحف في اعقاب ذلك نحو تولوز (تولوشه) عاصمة اراغون (Aragon) للاستيلاء عليها لكنه قُتل في تلك المعركة في ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م(٣٦).

خلال الفترة ١٠٧ ـ ١١٢ هـ / ٧٢٥ ـ ٧٣٠ م واجه المسلمون في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا صمود المسيحيين، فتوقفت الفتوحات الاسلامية لبعض الوقت. وحينما عُيِّن عبد الرحمن الغافقي أميراً على الأندلس، قام باصلاحات في شتى مدنها، ورتّب الامور فيها، ثم زحف بجيش عظيم نحو جنوب فرنسا، ففتح بوردو، ثم تحرك نحو نهر رون ففتح مدينتي ليون، وبزانسون، واقتربت طلائع جيشه من باريس بحيث لم تبعد عنها سوى مائة ميل. وانطلق الغافقي لفتح باريس عبر ضفاف نهر لوار فاستطاع خلال فترة قصيرة ان يفتح نصف فرنسا من الشرق الى الغرب، فامتد خط النصر ـ حسب قول ادوارد غيبون ـ من صخور جبل طارق الى ضفاف نهر لوار، فأصبح العرب عند أبواب بولندا واسكتلندا، ولو كانوا قد استولوا على هذه البلاد فلربما يدرّس القرآن هذا اليوم في كليات جامعة اكسفورد،

وتنطق المنابر العلمية فيها برسالة الاسلام ونبوة الرسول محمد (ص)(٣٧). لكن يد التقدير كانت قد كتبت نهاية اللقاء المصيري بين الشرق والغرب، او الاسلام والمسيحية على الارض الفرنسية. فواجه الجيش المسيحي بقيادة شارل مارتل الجيش العربي في موضع بين مدينتي تورو وبواتية وذلك في رمضان ١١٤ / تشرين الأول ٧٣٢، فدارت معركة بين الجانبين عُرفت بمعركة بواتية(٣٨). ورغم النصر الذي حققه المسلمون في الوهلة الاولى في تلك المعركة، إلّا ان مقتل عبد الرحمن الغافقي المفاجئ بعث التشتت في الجيش الاسلامي وهزيمته في نهاية المطاف. وتعبّر المصادر الاسلامية عن تلك المعركة بمعركة بلاط الشهداء(٣٩).

حل عبد الملك بن قطن محل عبد الرحمن الغافقي إلّا انه عُزل في عام ١١٦ هـ / ٧٣٤، وعُيِّن عقبة بن الحجاج السلولي بدلاً منه. ونشبت خلال تلك الفترة صراعات في افريقيا بين العرب والبربر، بحيث امتدت رقعة تلك الاختلافات الى الأندلس. واصبح ابو الخطار بن ضرار الكلبي أميراً على الاندلس. وكانت الصراعات بين العرب القحطانيين والعرب العدنانيين على الحكم قد امتدت الى الأندلس وأدت الى ظهور الاضطرابات. ومال ابو الخطار نحو القبائل اليمنية فاشتدت حدة الصراعات والانقسامات. وانتهز النصارى تلك الاوضاع والاضطرابات، فأخذوا يستعيدون الكثير من مدن شمالي الأندلس(٤٠).

وصلت إمارة الاندلس الى يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكان آخر عامل يعيّن من قبل والي أفريقيا. وكانت الدولة الاموية في الشام تتدحرج آنذاك في منحدر السقوط حيث سقطت نهائياً عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م. وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، من بين الأمويين القلائل الذين نجوا من المجزرة التي طالت الأسرة الأموية، فهرب الى المغرب، ثم تمكن بدعم من بعض قبائل البربر من بلوغ السواحل الغربية للأندلس عن طريق مضيق جبل طارق عام ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م. فألحق عبد الرحمن الذي تلقّب بالداخل الهزيمة بجيش يوسف بن عبد الرحمن الفهري، واستولى على قرطبة، وشيّد فيها الدولة الأموية في الأندلس(٤١).

الدولة الاموية في الأندلس

استمرت الدولة الأموية في الأندلس منذ عام ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م وحتى عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م، وتزعمها خلال هذه القرون الثلاثة، ١٦ من الحكام الأمويين أولهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (١٣٨ ـ ١٧٢ هـ / ٧٥٥ ـ ٧٨٨ م) وآخرهم هشام بن محمد (٤١٨ ـ ٤٢٢ هـ / ١٠٢٧ ـ ١٠٣١ م). وانشغل عبد الرحمن الداخل منذ الأيام الاولى لدخوله الى قرطبة، في الحروب الداخلية وقمع المتمردين، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري قد هرب بعد هزيمته امام عبد الرحمن الداخل الى طليطلة فحوّل مع صميل بن حاتم، هذه المدينة الى اكبر قاعدة معادية للدولة الأموية الجديدة. واستطاع الداخل ان يهزم هذين الاثنين في ١٤٢ هـ / ٥٧٩ م ويستولي على طليطلة ويطفئ نار الفتنة الى حد ما، لكنها لم تنطفىء نهائياً إلّا بعد وفاة عبد الرحمن الفهري في ١٦٨ هـ / ٧٨٤ م. وتوفي عبد الرحمن الداخل في ١٧٢ هـ / ٧٨٨ بعد فترة حكم استمرت ٣٢ عاماً. وكان الحكام الامويون يطلقون على أنفسهم لقب الأمير حتى عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ / ٩١٢ ـ ٩٦١ م)، حيث اخذوا يتلقبون منذ ذلك الحين وحتى نهاية الدولة الاموية في الأندلس، بلقب الخليفة(٤٢).

خضعت الحدود الشمالية للأندلس لتغييرات عديدة خلال عصر الدولة الاموية. فقد استولى هشام بن عبد الرحمن خلال الفترة ١٧٦ ـ ١٧٩ هـ على بعض المدن التي كانت قد سقطت في يد المسيحيين، غير ان شارلمان استطاع في عهد ولده (الحَكَم) اقتطاع بعض المدن المهمة من الأندلس مثل برشلونه وطليطلة، ففقد المسلمون بفقدها أعظم قواعدهم في شمال الأندلس.

حدثت خلال العصر الأموي ثورات عديدة تعبيراً عن رفض الظلم الذي كان يمارسه الحاكمون، مثل ثورة الفقهاء عام ١٨٩هـ / ٨٠٥م، وثورة الخندق عام ١٩١هـ/ ٨٠٧م، وثورةالربض ٢٠٢هـ / ٨١٨م. وقد تم قمع تلك الثورات

والاعتراضات بقسوة وعنف، حتى بلغ عدد قتلى واقعة الخندق نحو ٧ آلاف قتيل(٤٣).

حافظت الدولة الأموية في الأندلس على عظمتها وقوتها بعد عبدالرحمن الثالث رغم عدم كفاءة بعض الخلفاء كهشام الملقب بالمؤيد بالله (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ / ٩٧٦ ـ ١٠٠٩م) وذلك بفضل بعض الوزراء الأقوياء. غير ان الاختلافات ما بين الاسرة الاموية التي اخذت تتفاقم وتنعكس على الأوضاع الداخلية، اخذت تعمل على وضع النهاية لهذا العصر. فهوت بلاد الأندلس من ذروة الغنى والقوة والتقدم الى مستنقع الحرب الأهلية الطاحنة. وتقوّضت اركان الدولة الاموية الأندلسية آخر المطاف بخلع هشام المعتمدبالله، فكان ذلك نهاية لعصر امتد لما يقرب من ثلاثة قرون(٤٤).

ملوك الطوائف في الأندلس

في أعقاب سقوط الدولة الأموية في الأندلس، تمزقت الوحدة السياسية للجزء الأعظم من هذه البلاد، واستولى بنو حمود على معظم المدن الجنوبية في الوادي الكبير وامتداده حتى نهر شنيل. كما سيطرت سلالات عربية متعددة على اكبر المدن الأندلسية مثل قرطبة، واشبيلية، وسرقسطة، وبلنسية ومرسيا، والمرية. كما سيطر غلمان بني عامر على العديد من المناطق الشرقية. وبدأ بذلك عصر عرف في تاريخ الأندلس بعصر ملوك الطوائف. وأهم تلك الأسر التي حكمت الأندلس:

١ ـ بنوجهور في قرطبة: يدعى مؤسس هذه السلالة جهور بن محمد بن جهور. وقد انتخبه اهل قرطبة حاكماً عليهم بعد سقوط الامويين. ونجح في توسيع رقعة دولته حتى جبال الشارات في الشمال، وحتى منابع الوادي الكبير في الشرق، وحتى حدود استجة في الغرب، وحتى اطراف غرناطة في الجنوب. وسقطت هذه الدولة في ايام عبدالملك واستولى جيش اشبيلية على قرطبة، وذلك في ٤٦٢هـ

٢ ـ بنوعباد في اشبيلية: استولى أبوالقاسم بن اسماعيل بن عباد ـ قاضي اشبيلية ـ على مقاليد الامور في هذه المدينة عام ٤١٤هـ مؤسساً بذلك احدى أقوى دول ملوك الطوائف. ورغم ان نزعته التوسعية دفعت بالأمراء المجاورين للاتحاد فيما بينهم والحاق الهزيمة به في ٤٣١هـ غير ان خليفته المعتضد عباد بن محمد، استولى على جميع الامارات الصغيرة والكبيرة الواقعة غربي الأندلس وجنوبها. كما اطاح بدولة البربر في الشرق والجنوب الشرقي.

انتزع ابنه محمد المعتمد قرطبة من بني جهور. وأدى غزو الفونسو للأراضي الاشبيلية عام ٤٧٤هـ وسقوط طليطلة في ٤٧٨هـ الى زعزعة اركان دولة بني العباد. فاستدعى المعتمد ايضاً يوسف بن تاشفين من المغرب الى الاندلس، فاستطاع ابن تاشفين الأطاحة بدولة بني عباد في الخطوات الاولى، وشيد دولة المرابطين في الأندلس. وظهرت خلال الفترة بين سقوط بني عباد وتأسس دولة المرابطين في الأندلس، العديد من الدول الصغرى التي لا تحظى بأهمية كبيرة، أهمها:

١ ـ بنوزيري او بنومناد في غرناطة، وقد اطاح بهم يوسف بن تاشفين عام ٤٨٨هـ ٢ ـ بنوذي النون في طليطلة، وأطاح بهم الفونسو السادس عام ٤٧٨هـ؛ ٣ ـ بنوعامر في بلنسية، وأطاح بهم الفونسو السادس ايضاً؛ ٤ ـ بنوالأفطس في بطليوس، وكاد يقضي عليهم الفونسو السادس لولا المرابطون؛ ٥ ـ بنوتُجيب وبنوهود في سرقسطة، وقد حكموا منذ نهاية القرن الثالث وحتى مطلع القرن السادس الهجري. وأطاح بهم المرابطون عام ٥٠٣هـ؛ ٦ ـ بنوصمادح في المرية، واستمر حكمهم منذ عام ٤٠٣هـ وحتى عام ٤٨٤هـ ثم سقطت دولتهم على يد يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في الأندلس؛ ٧ ـ بنورزين في شنت مرية الشرقية وهم من البربر وتأسست دولتهم عام ٤٠٣هـ وأطاح بها المرابطون عام ٤٩٧هـ(٤٥).

المرابطون في الأندلس

تأسست دولة المرابطين بالأندلس في اعقاب سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م واستمر عهدها بالأندلس نحو خمسين عاماً. كانت تمتد ـ فضلاً عن المغرب وموريتانيا ـ الى مصب نهر السنغال في الجنوب والجزء الغربي لمراكش في‌الشمال. وبدأت هذه الدولة على شكل تحرك في صفوف قبيلة بدوية كانت تربي الجمال يطلق عليها اسم صنهاجة.

كان موطنها الأصلي، رمال الصحراء، غير أن بعضهم هاجر الى مصب نهر السنغال والنيجر. ويعد هؤلاء اجداداً للطوارق الحاليين. ولربما يكون اسم «السنغال» قد اشتق من اسم هذه القبيلة، اي «صنهاجة»(٤٦). وبدأت قصة هذه الحركة حينما توجه بعض نجباء هذه القبيلة وزعيمها يحيى بن ابراهيم الى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج. فحينما عاد هؤلاء، توقفوا في القيروان التي كانت تعد المركز الفكري لأفريقيا الشمالية، عدا مصر، ووقفوا على تعاليم الفقيه المالكي ابي عمران الناسي. وقد توفي ابوعمران بعد ذلك بأشهر، لكنه ترك عليهم تأثيراً عميقاً. لذلك رافقهم الى بلادهم أحد تلامذة ابي عمران ويدعى ابن ياسين، كي يقوم بتعليم القبيلة التعاليم الدينية والعرفانية(٤٧).

لم تستقبل احدى بطون صنهاجة، تعاليم ابن ياسين، الأمر الذي دفعه مع عدد من تلامذته للذهاب الى جزيرة في نهر النيجر، والانصراف الى المطالعة، والزهد، والعبادة في رباط هناك. ولذلك عرف اتباع ابن ياسين بالمرابطين. ودخلت هذه المفردة من اللغتين الأسبانية والفرنسية الى اللغة الانجليزية في صيغة «المراويد».

في عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م فتح المرابطون دولة صغيرة عاصمتها واحة سجلماسة. وكان زعيمها العسكري يحيى بن عمر، وزعيمها المعنوي ابن ياسين. وحينما قتل يحيى بن عمر عام ٤٤٨هـ عين ابن ياسين أخاه ابابكر بن عمر بدلاً منه. وأصبح ابوبكر زعيماً للحركة حتى آخر عمره في أعقاب مقتل ابن ياسين

عام ٤٥٠. وفي عام ٤٥٣هـ فوض ابوبكر الى ابن عمه يوسف بن تاشفين قيادة المناطق الشمالية بصورة شبه مستقلة، بينما انصرف هو الى ادارة المناطق الجنوبية. وعمل ابن تاشفين على توسيع رقعة دولة المرابطين من العاصمة الجديدة «مراكش» باتجاه المناطق الخصبة في المغرب والشطر الغربي من الجزائر. ويدين تنامي قوة دولة المرابطين الى الحقيقة التالية وهي ان المناطق التي استولت عليها كانت عبارة عن دويلات ضعيفة جداً، فضلاً عن التمازج بين أهداف هذه الدولة الدينية والسياسية والتي ادت الى ظهور اتحاد بين عشائر صنهاجة(٤٨).

الوضع المؤسف الذي واجهه المعتمد ـ أمير اشبيلية ـ وسائر أمراء الأندلس في أعقاب سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، دفعهم الى دعوة يوسف بن تاشفين للقدوم الى أسبانيا. وقد اشترطوا عليه ان يعود الى افريقيا في أعقاب الانتصار على النصارى، فوافق على ذلك. وانطلق في نهاية صيف عام ٤٧٩هـ ١٠٨٦م لمواجهة الفونسو السادس. فالتقى الجيشان في موضع يدعى زلاقة بالقرب من بطليوس. ودارت بينهما معركة قاسية، غير ان جيش المسلمين نجح في الحاق هزيمة نكراء بالقوات المسيحية. فعاد يوسف مع قواته الى أفريقيا طبقاً للتعهد الذي قدمه.

مع ان النصر الذي حققه المسلمون في زلاقة، ألحق هزيمة قاسية جداً بقوات الفونسو السادس، لكنه لم يترك تأثيراً مهماً على الوضع الذي كان قائماً في أسبانيا. فالمسلمون كانوا اضعف بكثير من النصارى بسبب الصراعات الناشبة فيما بينهم، لذلك لم تكن لديهم القابلية على التصدي للهجمات النصرانية. وانطلاقاً من هذا الواقع استنجد الفقهاء المالكيون وكذلك المعتمد وسائر الامراء المسلمون بيوسف بن تاشفين ثانيةً. فدخلت قوات المرابطين الى الأندلس في ربيع ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م لاسترجاع قلعة (الدو) من يد الفونسو. فحاصرها المرابطون عدة اشهر، فانسحبت منها قوات الفونسو بعد أن دمرتها تماماً.

خلال ذلك الحصار للقلعة، كان يوسف بن تاشفين يقيّم الوضع العام لأسبانيا.

فأدرك أن الدويلات الصغيرة تدار من قبل الأعيان العرب الأندلسيين الذين لم يكن لديهم اعتقاد راسخ بالدين الاسلامي رغم انتمائهم اليه، وأنهم كانوا يميلون نحو الشعر والأدب والفن. واتضح له انه لا يستطيع العودة الى افريقيا لأن حكام تلك الدويلات كان بعضهم يسيء الظن بالبعض الآخر، لذلك ليس باستطاعتهم الوقوف بوجه الفونسو. وكان المسلمون يرغبون في ان ينهض يوسف بن تاشفين بتوحيد الأندلس تحت زعامته. وتحرك ابن تاشفين بهذا الاتجاه فقضى على ملوك الطوائف وانتزع المدن الكبرى من ايديهم، ثم استولى على الأندلس برمتها تدريجياً. وبعد وفاة يوسف، حكم بعده علي بن يوسف بن تاشفين، ثم ابراهيم بن تاشفين(٤٩).

لم تستمر فترة حكم المرابطين للأندلس طويلاً، اذ سقطت هذه الدولة على يد دولة اخرى من البربر تدعى بدولة الموحدين وذلك في ٥٤١هـ / ١١٤٥م. وكان جنود وضباط دولة المرابطين وسائر قادتها وزعمائها، قد غرقوا في ترف الحياة الأندلسية ولم يعد أحد منهم يفكر سوى في مصالحه الخاصة. وفقدت الجهات العليا سيطرتها على الجهات الدنيا، وانفصمت عرى المؤسسات الحاكمة، وتفاقمت المشاكل المالية، وتعالى التذمر الشعبي بفعل سوء تعامل الجيش. فكانت جميع هذه العوامل وغيرها من اسباب سقوط دولة المرابطين(٥٠).

الموحدون

تنسب حركة الموحدين عموماً الى ابن تومرت. وتومرت هو تصغير لاسم عمر بين البربر. وقد ولد ابن تومرت في قرية في جبال أطلس. وسافر الى قرطبة للتعلم، ثم شد الرحال الى المشرق فزار الاسكندرية ومكة وبغداد. فرسخت في نفسه خلال تلك الأسفار فكرة الاصلاح الديني. وكان التوحيد يحظى بمكانة خاصة في تلك الفكرة ولذلك عرف اتباعه بالموحدين. ولم يتم التفاعل كثيراً مع أفكاره الاصلاحية الى ان التقى بشخص يدعى عبدالمؤمن عمل على انجاح حركته

سياسياً. واختار ابن تومرت هذا الرجل خلفاً له(٥١).

بعد ان اطاح الموحدون بالمرابطين واحتلوا مراكش، زحفوا في عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م على الفور نحو الأندلس، ونجحوا خلال ذلك العام بالاستيلاء على اشبيلية، وقرطبة، وغرناطة وغيرها من المدن الاندلسية الكبرى. جاء بعد عبدالمؤمن (٥٤١ ـ ٥٥٨هـ / ١١٤٦ ـ ١١٦٢م) كل من: ابويعقوب يوسف الأول (٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ / ١١٦٢ ـ ١١٨٤م، وابويوسف يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن (المنصور) (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ / ١١٨٤ ـ ١١٩٨م)، ومحمدالناصر (٥٩٥ ـ ٦١١هـ / ١١٩٨ ـ ١٢١٣م)، وأخيراً ابويعقوب يوسف الثاني (٦١٠ ـ ٦٢٠هـ / ١٢١٣ ـ ١٢٢٣م)(٥٢).

خلال الفترة التي حكم فيها الموحدون الاندلس، تعرضت هذه البلاد لأمواج من الهجمات والحملات المسيحية، وأخذت البقاع الاسلامية في الشرق والغرب تسقط الواحدة تلو الاخرى في ايدي المسيحيين. وهذا يدل على ان الموحدين لم تكن لديهم المصادر الكافية لاحداث تغييرات أساسية في عملية موازنة القوى بين اسبانيا المسيحية والأندلس المسلمة(٥٣).

من جانب آخر، كان المسيحيون يزدادون حماساً في نشاطاتهم المناهضة للمسلمين في أعقاب الانكسارات المتتالية التي حلت بالمسلمين. وفي عام ٦٠٩هـ ١٢١٢م اشتبك الجيش المسيحي الذي ساهم فيه جنود من ليون، وقشتالة، وناوار، وطليطلة مع جيش الموحدين في منطقة لاس نافاس ديتولوسا (Las Navas Detolosa)، فحلت بالموحدين هزيمة قوّضت اركان دولتهم في اسبانيا الى الأبد. غير أن آثار تلك الهزيمة لم تتضح حتى عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م بفعل انهماك الحكام المسيحيين بمشاكلهم الداخلية. وفي عام ٦١٠هـ / ١٢١٣م توفي محمدالناصر، فخلفه ابنه يوسف الثاني الذي كان عمره ١٥ عاماً، فلم يستطع تثبيت اركان الدولة المتأرجحة. ولم يكد القرن السابع الهجري يبلغ منتصفه حتى وقعت جميع مدن بلاد الأندلس في الشمال والغرب والشرق في يد المسيحيين، ولم

يبق في يد المسلمين سوى غرناطة وبعض المدن الصغيرة الاخرى(٥٤).

غرناطة ودولة بني الأحمر

في اواخر حكم الموحدين للأندلس، اعلن محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر استقلال غرناطة في عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م، وكان قد تمرد على الموحدين. وكان المسيحيون قد شنوا هجمات عديدة على غرناطة في اعقاب سيطرتهم على مدن الأندلس الكبرى، لكنهم كانوا يجابهون بمقاومة شديدة من قبل بني الأحمر او بني نصر. وحكم بنوالأحمر منطقة جنوب الأندلس وغرناطة لما يزيد عن قرنين ونصف الى ان سقطت دولتهم على يد فرديناند الخامس في ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م. فخرجت الأندلس بأسرها من قبضة المسلمين بهرب أبي عبدالله، آخر امراء اسرة بني نصر(٥٥).

الأوضاع العلمية والثقافية

العلوم النقلية

الأندلس ومثل اية بلاد اخرى واجهت منعطفات عديدة خلال مرحلة تطوراتها الثقافية، لا تخرج عن الحركات الاجتماعية والسياسية. فحين فتح الأندلس على يد طارق بن زياد، اوجب أن يكون للمحيط الاسلامي في الاندلس وضع شبيه بالشام، غير ان الثقافة الخاصة بهذه الأرض اخذت تنمو شيئاً فشيئاً بعد فترة من الزمن.

من جانب آخر، لم تكن لدى الاندلس ـ وعلى العكس من بعض الثغور الاسلامية كالمغرب الأقصى ـ نزعة نحو العزلة عن مركز العالم الاسلامي، اذ لم تكن المرتكزات الثقافية ولا الموقع الاستراتيجي، تسمح بنمو مثل هذه النزعة. وعليه تُعدّ ثقافة الأندلس نتاج وثمرة لديالكتيكية الثقافة العربية والقومية. اذن على ضوء

هذه الخصوصية المزدوجة يمكن فهم حركة الثقافة الاسلامية في الأندلس ونزعتها نحو العلوم الرسمية التي تحظى بالاهتمام في مركز العالم الاسلامي. فقد تطور العلماء الأندلسيون في شتى المجالات العلمية ـ لاسيما علوم القراءة والحديث ـ حتى اصبح الشرقيون بحاجة اليهم.

العلوم القرآنية

كانت الاندلس تتبع في القراءة لمصر وأفريقيا. لذلك كانت متأثرة في القرون الاولى كثيراً برواية الراوي المصري وَرْش عن نافع. وكانت قراءة نافع هي الغالبة على بلاد الاندلس ـ كما هو حال أفريقيا ـ حتى نهاية القرن ٤هـ / ١٠م. ومنذ اوائل القرن الخامس الهجري، حصلت الاندلس على موقع مهم في علم القرآن، وراحت تؤلف مع مصر وأفريقيا مثلثاً كان يعرف بمذهب القراءة الغربي، وذلك بفضل دراسة بعض الطلبة الأندلسيين في مصر مثل ابي عمر الطلمنكي، وهو الشخص الذي قيل فيه انه اول من نقل علم القراءة الى الأندلس. ولذلك يُعد كتابه «الروضة» اول حلقة في سلسلة الكتب القرائية الأندلسية(٥٦).

على صعيد كتابة التفسير، يُعد تفسير بقي بن مخلد القرطبي (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) الذي أثنى عليه ابن حزم، التفسير الأندلسي الوحيد القابل للذكر خلال القرون الهجرية الاولى. كما يمكن الاشارة الى جانبه، الى تفسير المحدِّث الأفريقي الشهير يحيى بن سلام، الذي حظي اثره في الأندلس باهتمام كبير.

وفي ظل ازدهار تفاسير الدراية خلال القرون الوسطى، ظهر في الأندلس مفسرون في هذا المجال مثل ابن برّجان، وابن عطية، حيث يُعد تفسير ابن عطية منافساً لكشاف الزمخشري. واتخذ بعض المفسرون الأندلسيون اسلوب المقايسة بين التفسيرين المشرقي والمغربي(٥٧).

الحديث

في القرن الثالث الهجري، وتزامناً مع الكتابة الوثائقية في الأوساط المشرقية، لوحظ في الاندلس تيار ضعيف في هذا المجال على صعيد تدوين الحديث. ويُعد بقي بن مخلد القرطبي، ابرز نماذج محدثي هذا العصر، وقد اورد في مصنفه أسماء ما يزيد عن ١٣٠٠ من صحابة الحديث.

الى جانب الاهتمام العام بعلم الحديث، كان من اهم النشاطات الحديثية في بلاد الاندلس وشمال افريقيا، ايجاد تحريرات لموطأ مالك او كتابة دراسات حوله، نظراً لغلبة مذهب مالك بن انس على المغرب الاسلامي. ويُعد يحيى بن يحيى الليثي، اول شخصية اندلسية تستحق الذكر في هذا المجال.

من النشاطات ذات الخلفية البعيدة في حقل الحديث بالأندلس، يمكن الاشارة الى موضوع غريب الحديث الذي يُعد بمثابة مرحلة وسطى بين الحديث واللغة. ومن اهم المؤلفات في مجال النصوص الحديثية خلال القرنين الهجريين الرابع والخامس والتي قُدِّمت في صيغة بحوث ودراسات، هي: الصحيحان، وسنن ابي داود(٥٨).

الفقه

يُعد الفقه مركز النشاطات الفكرية للمسلمين دائماً. وينطبق هذا الأمر على بلاد الأندلس ايضاً. فكان يبلَّغ فيها للفقه الاوزاعي في بادئ الأمر على يد أشخاص من قبيل صعصعة بن سلام، حتى أصبح هذا المذهب هو الغالب في الاندلس حتى عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م. اما بعد هذا التاريخ فقد حل محله الفقه المالكي.

آراء مالك بن انس في اصول الفقه شبيهة بنظريات الاوزاعي إلّا انها اكثر تطوراً منها، رغم ان آراء هذين الفقيهين، آراء بسيطة بالقياس الى الفقه الشافعي

والحنبلي في العراق. وقد عمل الطلاب والفقهاء الذين درسوا في العراق، على نشر الفقه المالكي في اسبانيا. ثم أُعطيت له الرسمية من قبل الأمير الأموي في الأندلس هشام بن عبد الرحمن (حكم ١٧٢ ـ ١٨٠ هـ / ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م)(٥٩).

ويُعد يحيى بن يحيى الليثي، اكثر الأفراد تأثيراً في نشر المذهب المالكي في الأندلس، اذ اصبح النظام القضائي الأندلسي قائماً بجهوده على الفقه المالكي. وعليه يمكن القول انه حتى القرن الرابع الهجري، كان الفقه المالكي قد تفوق على سائر المذاهب والفروع في الاندلس.

من خلال القاء نظرة سريعة على الأوساط غير المالكية في الفقه الأندلسي، فلابد من الاشارة اولاً الى فقه أصحاب الحديث وعلى رأسهم بقي بن مخلد القرطبي كمجتهد مستقل أفتى على اساس «الأثر». واستمرت هذه الحركة حتى القرن الرابع الهجري لكنها ذابت في التيار المالكي فيما بعد. ولم يحصل المذهبان الحنفي والشافعي على أرضية في الاندلس، بينما استطاع المذهب الظاهري ان ينافس المذهب المالكي لعدة قرون رغم انه لم يحقق نجاحاً عليه.

ويُعد ابن حزم ابرز ممثلي هذا المذهب لكنه لم يقلّد قط وانما اوجد فيه مدرسة تميزت بملامحها الخاصة(٦٠).

العلوم التجريبية

بظهور العباسيين في بغداد ودخول عبد الرحمن الداخل الى الأندلس عام ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م، انفصلت هذه البلاد عن الخلافة الاسلامية، كما انقطع الارتباط الثقافي بين الاثنين، بحيث ان حركة الترجمة في شرق العالم الاسلامي لم تترك سوى تأثير بسيط على الأندلس.

من جانب آخر عملت الصراعات والانقسامات الداخلية على عدم توفير ارضية ملائمة لتطور العلوم حتى القرن ٤ هـ / ١٠ م. وفي ايام الحَكَم الثاني (٣٥٠

ـ ٣٦٦ هـ) دُعي عدد من مشاهير علماء بغداد والقاهرة الى الأندلس، فظهرت الى الوجود آثار علمية رائعة في شتى الحقول. وسعى الحَكَم الثاني لنشر شتى انواع العلوم، وقرّب العلماء والفضلاء وأنعم عليهم. وكان يرغب كثيراً في جمع الكتب. وقيل ان فهرس كتب مكتبته كان يتألف من ٢٤٠ جزءاً، وقد انفردت ٢٠ ورقة من كل جزء لاستعراض أسماء الدواوين. ويُعتَقد ان كتب مكتبة قرطبة كانت تبلغ نحو اربعمائة الف كتاب. والذي يسترعي الانتباه في بعض تلك الكتب ان الحَكَم الثاني كتب حاشية عليها(٦١).

حينما حل عهد هشام في اعقاب الحَكَم الثاني، كان الحاجب ابو عامر هو الذي يدير امور البلاد في حقيقة الامر. ولذلك امر باتلاف جميع كتب مكتبة قرطبة المتعلقة بالعلوم المحضة(٦٢). وحينما وقع بنو عامر في صراع مع ملوك الطوائف، وأخذوا يعانون من مشاكل مالية، قاموا ببيع مكتبة الحَكَم، وما بقي فيها من الكتب تعرض للنهب حينما هاجم البربر قرطبة(٦٣). وحينما انتشرت كتب الحَكَم في الاندلس، تعاظمت رغبة طلاب العلم بالعلوم وظهر في الأندلس عصر الازدهار الثقافي. وعليه يُعد عهد الحَكَم الثاني، منعطفاً في ازدهار الثقافة الأندلسية(٦٤).

الطب والعلوم الطبيعية

للعلوم الطبية في الأندلس، جذور في دراسات واكتشافات العلماء والأطباء الايرانيين والشرقيين. وكان معظم الفلاسفة والعلماء في الاندلس يهتمون في علم الطب على سبيل التسلية والتفنن(٦٥). وهناك طبيبان اندلسيان يحظيان بالاهتمام هما:

وليد المذحجي الذي قدم من الشام مع عبد الرحمن الداخل، وعبد الملك بن حبيب السلمي البيري الذي ألّف اول كتاب طبي في الأندلس يدعى «طب العرب». غير أن كلاً من ابن جلجل وصاعد الأندلسي يشيران الى حمدين بن أبا ـ المعاصر لعبد الرحمن الثاني ـ كأول طبيب اندلسي شهير. ويقول هذان المؤرخان

ان سكان الأندلس كانوا قبل ذلك يرجعون في طبهم الى بعض المسيحيين الذين تقوم معلوماتهم الطبية على كتاب الابريسم، معرب «افوريسم»(٦٦).

يقول صاعد الأندلسي، انه لم يكن يوجد بين متقدمي الأندلس من بحث في علم الطب بشكل اصولي، لأن معظمهم كان يسعى فقط للتمرس على جوانبه العملية والاستخدامية للانخراط في خدمة الملوك في نهاية الأمر.

يُعد أبو القاسم الزهراوي أعظم جراح ظهر في الأندلس الاسلامي وترك تأثيراً عميقاً على الجراحة الاوربية حتى نهاية العصور الوسطى. اسمه ابوالقاسم خلف بن عباس الزهراوي، وقد عاش في عهد الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ) وخليفته الحَكَم الثاني (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ)، وكانت لديه علاقة ودية مع ابن حزم، وتوفي عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م. ويكشف كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» عن براعته وقابليته العلمية. وكان من اهم المراجع في الجراحة والطب بأوربا. لفترة طويلة من الزمن(٦٧).

قدمت أُسرة ابن زُهر خلال القرون ٤ ـ ٧ هـ / ١٠ ـ ١٣ م، اطباء معروفين الى المجتمع العلمي في الأندلس، منهم: ابو العلاء زُهر بن عبد الملك (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م)، وابو مروان عبد الملك بن زُهر (ت ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م). وكان هذا الاخير حظي كالزهراوي بشهرة ومكانة عظيمة في عالم الطب. ولربما يعد اعظم طبيب في الطب السريري بعد الرازي(٦٨). ويمتاز على سائر علماء الأندلس وأطبائها في انه بذل معظم جهوده في الدراسة والتحقيق في علم الطب، بينما خلّف سائر العلماء الأندلسيين كابن رشد، وابن باجة، آثاراً خالدة في الطب، والفلسفة، وسائر العلوم.

جمع ابن زهرة حصيلة جهوده ودراساته في ستة كتب أهمها:

التيسير في المداواة والتدبير. كما يمكن الاشارة الى كتاب آخر له يحمل عنوان «الكليات». ويُعد اول طبيب شخّص الأمراض الجلدية لاسيما امراض الجرب، وله كتاب بهذا الشأن اسمه «صعوبات الجرب». تُرجم كتاب «التيسير» الى اللغة

العبرية في فينيسيا الايطالية، ثم قام طبيب يهودي بترجمته من العبرية الى اللاتينية وذلك في عام ١٢٨٠ م، وطُبع في تلك المدينة تكراراً(٦٩).

على صعيد العلوم الطبيعية، قدّمت الأندلس علماء كبار الى عالم العلم؛ كأبي عبد الله شريف الادريسي (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) الذي يُعد جغرافياً شهيراً ولديه كتاب «الجامع لشتات النبات» الذي درس فيه النباتات من منظار علم النبات وليس من منظار الدواء.

كما يعد أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي (ت ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م) من علماء علم النبات ومن الأطباء النشطين واصحاب التجربة في الأندلس، وقد جاب جميع ارجاء الاندلس لمعرفة نباتاتها واستحصل خلال ذلك على نماذج لتلك النباتات، ثم سافر الى شمال افريقيا فجاب ايضاً جميع مناطقها جبالاً وسهولاً، وتعرّف على نباتاتها. اهم كتبه كتاب «جامع المفردات» الذي لم يصل الى ايدينا منه سوى اجزاء متفرقة، فضلاً عن مختارات منه باللغة العبرية. واعتمد على هذا الكتاب الطبيب والصيدلاني الاندلسي الشهير، ابن البيطار(٧٠).

ابن العوام الاشبيلي، ألّف اهم الآثار في العلوم الزراعية خلال القرون الوسطى، وهو كتاب «الفلاحة» الذي يتناول منه ٣٠ فصلاً موضوع الزراعة، بينما تتناول الفصول الباقية حقول تربية المواشي، والدواجن، والنحل.

كذلك لأبي العباس النباتي المشهور بابن الرومية كتاب «الرحلة النباتية» الذي هو عبارة عن مجموعة مشاهداته في علم النبات والتي سجلها خلال أسفاره البعيدة الى الأندلس، والمغرب، ومصر، والسعودية. وقد أعد تقريراً في بعض نباتات سواحل البحر الأحمر لأول مرة(٧١).

يُعد عبد الله بن احمد بن البيطار، اشهر صيدلاني وعالم نباتي مسلم، ليس على صعيد الأندلس وحدها، وانما على صعيد العالم الاسلامي بأسره. وينبغي ان يُعد خليفة لديوسكوريدس، اول عالم نباتي يوناني ظهر قبل الميلاد بخمسين عاماً. وقد وُلد ابن البيطار في مالقة، فتلقى فيها تعليمه الابتدائي، ثم قدم الى قرطبة فأتمّ فيها

دراسته. جاب شمال افريقيا ومصر للقيام بدراسات نباتية. وانخرط بالقاهرة في خدمة الملك الكامل كصيدلاني. ثم سافر الى الشام وآسيا الصغرى للقيام بمزيد من الدراسات. خلّف أثرين قيمين هما «المغني في الأدوية المفيدة»، و«الجامع في الأدوية المفردة». ويُعد كتابه الأخير، أهم وأعظم كتاب طبي وصيدلاني منذ عهد ديوسكوريدس وحتى القرن ١٠ هـ / ١٦ م(٧٢).

الرياضيات والنجوم

لم تزدهر العلوم الرياضية في الأندلس بمستوى ازدهار العلوم الطبيعية، وقلما يوجد عالم اندلسي يستحق ان يعبّر عنه بعالم رياضي لأن معظم علمائها كانوا يهتمون بحساب المعاملات والفرائض فقط من بين مختلف حقول الرياضيات. لذلك كان يلقّب معظم المهتمين بالرياضيات بلقب الفرائضي او الفرضي، كأبي غالب حباب بن عبادة الفرائضي.

من جانب آخر، معظم العلماء الذين كانوا يهتمون بالرياضيات المحضة او الموسيقى، كانوا قد اضطروا للهجرة من الأندلس مثل عبد الرحمن بن اسماعيل بن بدر المعروف بالاقليديسي، الذي سافر الى الشرق في عهد محمد منصور بن ابي عامر، وتوفي هناك.

في المقابل، اخذ علم الفلك ينتشر في الأندلس، وتبلورت في هذه البلاد بعض النظريات الفلكية المتطورة على يد علمائها. وسرعان ما انتقلت تلك النظريات الى الاوربيين وشاعت بينهم، وأثرت تأثيراً كبيراً على الفلكيين الغربيين، على اعتبار ان الاندلس كانت تمثل بوابة انتقال العلوم الاسلامية الى الغرب.

كان الكثير من فلكيي الأندلس، من المعترضين على الفلك البطليموسي. وكان ابن باجة وجابر بن أفلح على رأس هؤلاء المعترضين. وقد هاجم جابر «المجسطي» بعنف، لكنه لم يقدم نظرية أفضل. وعمل ابن طفيل وتلميذه البطروجي

على تشديد النزعة المضادة للبطليموسية. ويُعد المجريطي والكرماني، وأمية بن عبد العزيز ابو الصلت، والزرقالي، ونور الدين البطروجي، من أهم فلكيي الأندلس الاسلامية.

الفلسفة والكلام

انطبع مسار الفلسفة والكلام في الأندلس ببعض الملامح الخاصة التي ميزته عن مسار الفلسفة والكلام في سائر البلاد الاسلامية. فبالرغم من انتقال هذين العلمين الى الأندلس عن طريق المشرق الاسلامي، إلّا ان الأوضاع التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية في الأندلس، ادت الى ظهور أرضية خاصة لنشوء واتساع العلوم العقلية في هذه البلاد لاسيما الفلسفة والكلام.

اضف الى ذلك الى ان الأندلس قد لعبت ـ من خلال موقعها الجغرافي وعظمتها الثقافية في القارة الأوربية ـ دوراً كبيراً في استقطاب الكثير من طلاب العلم الاوربيين، وانتقال العلوم الاسلامية الى الغرب، وترجمة مؤلفات العلماء والمفكرين المسلمين الى شتى اللغات الاوربية. ولهذا السبب ينبغي عدّ الأندلس أهم بوّابة للتبادل الثقافي خلال القرون الوسطى بين البلاد الاسلامية واوربا. ومن اهم فلاسفة الأندلس المسلمين: ابن حزم، وابن رشد، وابن سبعين، وابن عربي.

الأدب والشعر

دراسة الآثار الأدبية ومسارها في الأندلس، ترسم أمام أعيننا العديد من المراحل والعهود، مثل: مرحلة البداية في ايام الدولة الأموية، والأجواء الحرة لملوك الطوائف، والالتزام الديني في عصر المرابطين والموحدين، وعصر الجمع، ومن ثم عصر الافول الثقافي ـ الأدبي(٧٣).

في بداية فتح الأندلس والى حوالي القرن ٣ هـ / ٩ م، لم يحصل ابداع وتجديد

في مضمار الأدب والثقافة. فالعرب الذين قدموا الى هذه البلاد من جزيرة العرب، وجدوا انفسهم في ارض لا تشبه الارض التي ولدوا وترعرعوا فيها، ويختلف دينها وطباع أهلها عن دينهم وطباعهم تماماً، وتأطروا باطار الثقافة التي حملوها معهم من الشرق في بادئ الأمر، ولذلك كانت عيونهم تتطلع الى بغداد ودمشق، مع سعيهم الجاد أيضاً للاطلاع على الظواهر الحديثة التي تطرأ في هاتين المدينتين. فكانت معظم الآثار والمصنفات الهامة لاسيا في مجال الأدب، تصل الى الأندلس من الشرق. وأورد ابن الخير في فهرسه، أسماء الكثير من تلك الآثار.

ظهر خلال الحكم العربي لبلاد الأندلس العديد من المشاهير في حقل الادب، فعكست حياتهم أوضاع تلك الفترة وأحوالها في احسن وجه. ويُعد ابن هاني (ت ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م) اول شاعر اندلسي اشتهر بعد فتح الاندلس على يد المسلمين بثلثمائة عام. لكنه اتهم بالارتداد نظراً لحمله لبعض الأفكار الاسماعيلية، الأمر الذي اجبره على الهجرة من الاندلس وله من العمر ٢٧ عاماً. وقد لُقِّب بمتنبي المغرب. وكان مقلداً اكثر من كونه مبدعاً ويمضي الكثير من اوقاته في مطالعة ديوان ابي الطيب المتنبي وأشعاره. وتلاحظ في شعره حالة الاسهاب في الوصف. ولربما اهم فائدة يمكن الحصول عليها من ديوانه، تلك الأبيات التي يستعرض فيها الأحداث التاريخية التي شهدها عصره. وحظي باهتمام الكتّاب الشيعة نظراً لما امتاز به من نزعة امامية. ويمكن الاشارة فضلاً عنه، الى شعراء آخرين مثل ابن عبد ربه، وابن شُهيد الأشجعي، وابن درّاج(٧٤).

كان عصر الفتنة ـ وهو العصر الذي تقوّض به الامويون ـ قاسياً جداً على الشعراء والكتّاب الذين كانوا يعيشون على الرواتب التي كانوا يتقاضونها من الامويين. فتفرقوا في شتى مدن الاندلس، ولجأ بعضهم الى المغرب. وأصبح عصر ملوك الطوائف الذي امتد في بعض المناطق الى ما يزيد عن مائة عام، عصراً للازدهار الأدبي على عكس ما كان يتوقع البعض(٧٥).

حياة الأدباء والشعراء الاندلسيين الحافلة بالاضطراب والتلاطم، تعبّر عن

الوضع الذي كانت عليه الأندلس آنذاك. فأولئك الشعراء الذين كان بعضهم امراء او وزراء في يوم ثم أُلقي بهم في غياهب السجون، او كانوا وضعاء وأذلاء ثم اصبحوا ملوكاً وامراء تحدثوا في شعرهم عن العواطف الفردية والاجتماعية التي كانت سائدة في عصرهم وعن طباع ذلك العصر وعادات أهله وتقاليدهم. فحياة ابن زيدون ـ على سبيل المثال ـ وهيامه بالأميرة ولاّدة بنت المستكفي، ترسم في واقع الأمر لوحة واضحة عن اوضاع الأندلس. فحياة ابن زيدون التي لم تكن على وتيرة واحدة، ووزارته، وسفارته، وامارته، وأسره، وهربه من أحدهم واحتماؤه بآخر، ورحلته السرية الى قرطبة، وشعره الغرامي المثير في حبيبته وأوصافها، تكشف عن عصر مضطرب وحافل بالأحداث. ومع ذلك فقد اصطبغ شعره بصبغة محددة، وتميز بالاصالة بفضل تجاربه السياسية والاجتماعية لاسيما قصته الغرامية، التي كانت مشفوعة بوصف الأندلس دائماً(٧٦).

الاعتقاد السائد هو ان العصر الذهبي لشعر الاندلس قد انتهى في القرن ٥ هـ / ١١م. ورغم ظهور شعراء كبار لكنهم لم يكن لديهم ذلك الابداع الذي يسمح بمقارنتهم بشعراء الشرق(٧٧).

لم يكن قليلاً دور الأندلس في العلوم ذات الصلة بالأدب. فظهر كتّاب معروفون في الاندلس في حقول القصص الشعرية، والنحو، والصنائع الأدبية، مثل ابن هشام (ت ٥٧٧هـ / ١١٨١م) الذي عرف من خلال مصنفه «المدخل»، في سائر أرجاء العالم الاسلامي.

على صعيد القصة، هناك أثران مهمان،الاول هو «رسالة التوابع والزوابع» لابن شُهَيد الأشجعي، فانبرى المؤلف في هذا الأثر لشرح سفرة في الفضاء فوق الطبيعي. والثاني هو «قصة حي بن يقظان» لابن طفيل (ت ٥٨١هـ / ١١٨٥م).

لابد من الاشارة هنا الى ان ابن طفيل قد اقتبس قصته هذه ومحتواها الذي هو عبارة عن بلوغ نهاية الحقيقة عن طريق الأعمال والاستعدادات الانسانية، من أثر أقدم لابن سينا. فبينما كان كتاب ابن سينا ذا طابع فلسفي، ولم يكن حي بن يقظان

فيه سوى رمز فحسب، لجأابن طفيل الى مزج هذه الفكرة بقصة شائعة تتحدث عن طفل ربته ظبية وأرضعته من لبنها، ليسجل لنا كيف يمكن للانسان ان ينشأ فكرياً وعقائدياً في جزيرة خالية من الناس وبعيداً عن تأثير الأفكار والعقائد والتقاليد التي طالما يتعرض لها المولودون في المجتمعات البشرية. ويعد هذا الأثر طليعة لأثر جان جاك روسو الذي يحمل عنوان «أميل»، وأثر دانته الذي يحمل عنوان «الكوميديا الالهية».

الفن الاسلامي في الأندلس

لاريب ان الفن الاسلامي في الاندلس، لاسيما الآثار المعمارية، يعد من مفاخر الفن الاسلامي وروائع الحضارة الاسلامية. ويرى بعض الباحثين ان خصوصيات الفن الاسلامي قد انتقلت من سوريا الى الأندلس. ويمكن من خلال الآثار الفنية الموجودة، وعلى اساس الأخبار التي نقلها المؤرخون المسلمون، التحدث عن الوان الفن الاسلامي بالأندلس ولو بشكل موجز، كالتالي:

أ ـ الهندسة المعمارية

في العصر الاموي (١٣٨ ـ ٤٢٢هـ / ٧٥٥ ـ ١٠٣١م)

مسجد قرطبة: يعد هذا المسجد من أعظم وأجمل آثار العصر الاموي في الاندلس. وقد شيد في عهد عبدالرحمن الاول، ثم توسع على يد خلفائه. وحدثت فيه تغييرات بعد سقوط قرطبة في ايدي المسيحيين في القرن ٧هـ / ١٣م. وهذا المسجد مستطيل الشكل وتبلغ مساحته ٢٢٢٥٠م^2، وله ٢٠ باباً، ويقع بابه الرئيس في الضلع الشمالي ويدعى باب الغفران. والصحن الشمالي للمسجد مستطيل الشكل أيضاً طوله ٧٣م وعرضه ٦٠م. وتوجد في زوايا الصحن الثلاث اروقة على غرار اروقة المسجد الاموي بدمشق، لكنه على العكس من مسجد دمشق، مؤلف من

طابق واحد، وذو سقف مسطح(٧٨).

هناك ٣ طيقان: طاق على شكل حذاء الفرس في الطابق الاول، وطاق نصف دائري، وطاق مدبب في الطابق العلوي. وكانت هذه الأنواع من الطيقان، معروفة قبل ذلك. ولكن الجديد في معمارية مسجد قرطبة هو تلك الزخرفة والنحت على الأحجار. ويعد المحراب والمقصورة من أجمل أجزاء المسجد. وقد ازدان المحراب بالفسيفساء الذهبية المعرقة، ولذلك تتميز بتألق خاص بين سائر الألوان. ويقال ان تلك الفسيفساء كانت هدية من قيصر الروم(٧٩).

هدمت منارة المسجد الاولى بأمر من عبدالرحمن الثالث في ٣٤٠هـ / ٩٥١م وشيدت بدلاً منها المنارة الحالية في الضلع الشمالي من الصحن الى جانب الباب الرئيس. وهذه المنارة مربعة الشكل ومشيدة من الحجر على غرار منارة مسجد دمشق. ويوجد على جانبيها سُلَّمان. ولم يبق في هذا اليوم من ابواب المسجد العشرين سوى أبواب الغفران، والنخيل، وسان استبان او باب الوزراء في الضْلع الغربي من المصلى، وتشاهد فيها كثير من ملامح الهندسة المعمارية الاسلامية(٨٠).

مدينة الزهراء: في اعقاب نجاح الخليفة الاموي الناصر في قمع المعارضين والمتمردين وخصومه في الداخل والخارج، اتخذ قراراً بنقل قصره ومركز حكمه الى مدينة جديدة سيما بعد الاتساع المفاجئ لمدينة قرطبة وزيادة عدد سكانها الذي بلغ نحو ٥٠٠ ألف نسمة. فاختار لهذا الغرض موضعاً شمال غربي قرطبة يبعد عنها نحو ١٠ كم ويقع عند سفح جبل العروس. وبدأ العمل بتشييد تلك المدينة في غرة محرم ٣٢٥ / ٩٣٦م، وعين الناصر ابنه الاكبر وولي عهده للاشراف على عملية تشييدها. وتعد هذه المدينة الى جانب الحمراء، من بين المدن التي كانت مقراً للسلاطين المسلمين في الاندلس، ومركزاً تدار منه شؤون البلد. وقد هجرت الزهراء فيما بعد وأخذ الدمار يدب اليها شيئاً فشيئاً. وقداكتشف علماء الأثار في عام ١٩١٠م بعض آثارها ولازالت عمليات التنقيب مستمرة الى اليوم. وتكشف الصور الجوية عن ان هذه المدينة مستطيلة الشكل طولها نحو ١٥٠٦م وعرضها

نحو ٧٤٥م، وقد أحيطت بالأسوار من الجنوب والشرق والغرب، اما من الشمال فمحاطة بالجبال(٨١).

تعد مدينة الزهراء، أحد المباني العظيمة، ومن عجائب فن المعمارية الاسلامية في سائر اوربا آنذاك. وتحدث المؤرخون الغربيون والمسلمون كثيراً في وصف شتى اجزاء ومرافق هذه المدينة مثل قصورها، وقصور الضيافة، ودور الوزراء، وحدائقها. ويقول ابن خلدون ان الخليفة الناصر استقدم لبناء هذه المدينة الفنانين والنحاتين، والخطاطين، والرسامين ليس من سائر ارجاء الأندلس فحسب، وانما من القسطنطينية، وبغداد، والقاهرة ايضاً، بينما استورد موادها الانشائية كالرخام الابيض والأخضر والوردي، من تونس، وبلاد الروم، والشام فضلاً عن سائر مناطق الأندلس. وكان النحاتون البارعون ينحتون في كل يوم ستة آلاف قطعة حجرية باستخدام ١٠ آلاف عامل. وتم في بناء هذه المدينة استخدام آلاف القطع من الرخام الابيض والملون، و١٥ ألف باب حديدي ونحاسي وبرونزي. واستمر العمل في بناء هذ المدينة نحو ٢٥ عاماً وكان الخليفة الناصر ينفق على بنائها في كل عام ما يعادل ثلث ايرادات الاندلس السنوية، او ما يعادل ٣٠٠ ألف دينار(٨٢).

يقال في قاعة الاستقبال فيقصر الزهراء والتي كان يستقبل فيها الملوك والسفراء وممثلو الدول الاخرى، أنها كانت مبنية تحت قبة مرتفعة ذات جدران رخامية مزدانة بالذهب. وفي وسطها حوض كبير فيه تمثال جميل قلما له نظير، كان الماء ينقذف منه الى الخارج. وقد أهدي ذلك التمثال من قبل امبراطور الروم للخليفة الناصر. وقد استخدم الزئبق في ذلك الحوض بدلاً من الماء. فكان يتحرك ذلك الزئبق عند هبوب الهواء او مع اية حركة فيعكس كالمرآة النور فيما حوله. وهذا القصر بجماله وزينته وغرائبه، اشبه بأساطير ألف ليلةوليلة. واتفق معظم المؤرخين على ان هذا القصر لا نظير له في العالم(٨٣).

شيد في الضلع الشرقي للمدينة مسجد شبيه بمسجد قرطبة، كما لا تختلف العناصر المعمارية والزخرفية فيه عن عناصر ذلك المسجد مع فارق واحد هو ان

المعمارية الاسلامية في مسجد الزهراء قد بلغت ذروتها، كما تم من خلاله خلق ظاهرة جديدة في فن الهندسة المعمارية(٨٤).

في عصر ملوك الطوائف ٤٠٠ـ ٥٣٦هـ/١٠١٠ـ ١١٤٢م

اندثرت معظم الآثار المعمارية لعصر ملوك الطوائف ولم يبق منها سوى بقايا بعض الأبنية. ولربما أهم أثر بقي من تلك الفترة، هي بقايا قصر الجعفرية في سرقسطة الذي كان قد بناه المقتدر من اسرة بني هود (٤٣٢ ـ ٥٠٤هـ / ١٠٤١ ـ ١١١٠م). وكان هذا القصر مربع الشكل وذا ابراج واسوار عديدة، ويظهر شبيهاً بالقصور الأموية في سوريا والأردن. والى جانبه مسجد صغير مستوحاة عناصره المعمارية من مسجدي قرطبة ومدينة الزهراء، لكنه استعيض فيه عن الأقواس المشبكة بأشكال وزخارف على سطح الجدران الداخلية، وعن القباب التي تعلو المحراب، بأترجات على سقف المحراب.

في عصر المرابطين (٤٤٨ـ ٥٤٢هـ / ١٠٥٦ـ ١١٣٧م)

اندثرت معظم الآثار المعمارية لعصر المرابطين في بلاد الاندلس،على العكس من تلك التي في شمال أفريقيا. ومع ذلك تلاحظ بعض الآثار المبعثرة في هذه الزاوية اوتلك من أسبانيا. وأبرز تلك الآثار، قصر كاستيليجو (Castillejo) بالقرب من مرسية. وهو قصر ذو شكل مستطيل وذو ابراج ذات شكل مربع. ويميل الفن المعماري فيه نحو البساطة على العكس مما كان عليه الحال في العصر الاموي، وعصر ملوك الطوائف.

في عصر الموحدين (٥٢٤ـ٦٦٧هـ /١٢٦٩ـ ١١٣٠م)

اهم الآثار التي وصلت الينا من معمارية عصر الموحدين، بقايا مسجد اشبيلية

الكبير، وأجزاء من القصر السلطاني وبرج الذهب. وشيد مسجد اشبيلية خلال الفترة ٥٦٨ ـ ٥٧٢هـ / ١١٧٢ ـ ١١٧٦م على شكل مستطيل طوله ١٠٠ م وعرضه ٥٠ م. ويتألف مصلى المسجد من ١٧ رواقاً و١٢ باباً. وتقع منارته الشهيرة، في الضلع الغربي وتتألف من طبقتين مربعتي الشكل، وفي داخلها ١٧ غرفة متداخلة. ولم يبق من القصر السلطاني الذي أصبح قصراً للملوك المسيحيين فيما بعد، سوى قاعة واحدة. اما برج الذهب الذي يقع في مقابل سور المدينة، فيتألف من ١٢ ظلعاً. وقد ازدان من الخارج بالقاشي الاخضر والأبيض والذهبي.

خصوصيات الفن المعماري في هذا العصر: حلول الأعمدة الآجرية المربعة الشكل محل الأعمدة الاسطوانية، وتجنب الاكثار من استخدام الزخارف والتزيينات، ووجود الابراج المضلعة خارج الأسوار، واستخدام القاشي الملون في الاسطح الخارجية للابراج.

عصر بني نصر ٦٣٥ ـ ٨٩٨هـ / ١٢٣٨ ـ ١٤٩٢م

بنونصر سلالة عربية حكمت غرناطة أسسها محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر. ولاشك في ان مدينة الحمراء، تعد أعظم اثر معماري لهذا العصر. وقد بنيت بالقرب من غرناطة على هضبة مشرفة على الساحل الايسر لنهر حدرة. ومع ذلك لا يعد هذا الأثر، هو المنتوج الوحيد للنشاطات الفنية لدولة بني نصر. ويمكن ان تشاهد في قصر الحمراء كيفية تأثير الخصائص العامة لتلك الدولة على الفن. فالمجتمع الغرناطي كان يعلم انه يعيش حالة الدفاع عن الاسلام في عالم كان يناصبه العداء. كما كان مجتمعاً ذا عزيمة راسخة على الاحتفاظ بتراثه.

الحمراء، كانت مجموعة من الأبنية التي شيدت على منطقة جبلية في الشمال الشرقي من غرناطة. فكانت حصناً منيعاً ومركزاً للحكومة والدوائر الادارية. ويحظى القصر الرئيس للحمراء بأهمية فنية خاصة، ويتألف من بعض الغرف والقاعات التي تحيط بباحة كبيرة وعدة ساحات صغيرة. وتم استخدام المياه التي

تجري من تلك الجبال في اضفاء طابع الجمال والسحر على القصر، لاسيما في النافورات، والأحواض، فضلاً عن تلطيف حرارة القصر. وأهم أبوابه: باب الشريعة في الجنوب الغربي، وباب السلاح المزدان باللون الاحمر.

مدينة الحمراء تتألف من ثلاثة اجزاء: عام، وعسكري، وبلاطي، ولديها سور مشترك وشبكة من الطرق والابواب التي تربط فيما بينها. وتبلغ من الزخرفة والتزيين ذروتها في هذه المدينة. وأهم ملامح معمارية الحمراء قياساً بباقي الآثار والأبنية الاندلسية الاسلامية: استخدام الآجر بدلاً من الحجر، واستخدام فن الخط كعنصر أساسي في الزخرفة ككتابة الآيات القرآنية، والدعاء، والشعر في الأروقة، والقاعات، واستخدام التجصيص، واستخدام الأعمدة الحجرية بدلاً من الأعمدة الخشبية، الاهتمام المفرط بالجمال الظاهري بدلاً من الاهتمام باستحكام البناء، ولذلك ادى الافراط في هذا الأمر الى فقدان العناصر المعمارية لجوهرها المادي والحقيقي، والتحول الى غطاء رقيق مزين. فالحمراء تعبِّر عن فن يقدّم تألقاً جمالياً عابراً، ولم يفكر بجمال طويل او مستمر(٨٥).

ب ـ الخط

يُعدُّ الخط الأندلسي جزءاً من الخط المغربي. ومن خصوصيات هذا الخط انه ابدل الحروف الكوفية ذات الشكل المربع الى حروف دائريةاو شبه دائرية. فتكتب القاف في الخط الأندلسي بوضع نقطة في الأعلى، وتكتب الفاء بوضع نقطة في الاسفل. وتلاحظ براعة خاصة في هذا الخط لايجاد التوازن بين الحروف العمودية والأفقية. وتميل الحروف المدورة نحو اليسار وقريبة جداً من الحروف اللاحقة. ويؤكد الخطاطون الاندلسيون والمغاربة على وضع الحركات الثلاثية والهمزه. ويكتبون همزة القطع على شكل نقطة ذات لون برتقالي، وهمزة الوصل على شكل نقطة ذات لون أخضر وأحياناً اصفر. وكان خط النسخ الشرقي منتشراً في الأندلس ايضاً ويكتبون حروفه في صورة دائرية منسجمة جميلة. اما استخدامه

فكان يكثر في المخطوطات ويقل في الفن المعماري.

ج ـ الصناعة الخزفية

الادوات الخزفية الذهبية، تُعدُّ من ابداعات الفن الاسلامي. وظهر هذا الفن في ايران، والعراق، ومصر، ومدينة الزهراء منذ القرن ٣ هـ / ٩م، ولا يمكن أن ينسب الى بلد بحد ذاته.

واستمرت صناعة الخزف والفخار في الأندلس الى حين خروج المسلمين من أسبانيا. وتعد صناعة الفخار الذهبي المزدان بصور الطيور والحيوانات، من خصوصيات الفن الأندلسي.

بلغت صناعة الخزف ذروتها في الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف وازدادت مراكز صناعته مع توسع رقعة بلاد المماليك، وأخذت تظهر الى جانب الخزف الذهبي الممتزج بالألوان الخضراء والسوداء الغامقة، انواع جديدة من الآنية الخزفية التي تعرف بـ «كوير داسكا» والتي كانت ذات نقوش وألوان متنوعة وخطوط محدبة تميز بين تلك النقوش.

قلت اهمية هذا اللون من الخزف في عصر المرابطين خلال القرن ٦هـ / ١٢م، وانخفض مستوى الاهتمام بتنوع النقوش. اما في عهد الموحدين فازداد الاهتمام بتزيين الادوات والأواني الخزفية، وأصبح متداولاً ذلك اللون من الخزف ذو الرسوم الهندسية والنباتية والزهرية مع كتابات بالخط الكوفي والنسخ. وظهرت بعض الخزفيات التي أخذت تلعب دور الحرز والتعويذة مثل تلك التي كانت تعرف بكف الزهراء وخاتم سليمان.

بلغت صناعة الخزف ذروتها في عصر بني الأحمر، لاسيما الأخزاف الذهبية والزرقاء. وكانت مدينة مالقة تعد من أشهر مراكز انتاج تلك الأخزاف. وعرفت الآنية من هذا النوع بالآنية المالقية. ولازال السوريون يطلقون على هذا اللون من الآنية بالآنية المالقية.

د ـ الفنون الاخرى

من الفنون الاخرى التي كانت سائدة في الأندلس، حياكة الأقمشة، والسجاد والنقش او الحفر على العاج والمعادن. وتعود أقدم الأقمشة والمنسوجات الأندلسية الى عهد المرابطين (القرن ٦هـ / ١٢م) والتي توجد اليوم في بعض الكنائس الاوربية وبعض متاحف العالم. وهناك سجاد يعود لعهد بني الاحمر، أشهره السجاد المعروف بسجاد الكنيسة. وحول الحفر على العاج يمكن القول بأن افضل انواع هذا الفن في الأندلس ترجع الى العصر الأموي، والتي تؤخذ في معظم الأحيان شكل الصناديق الاسطوانية او البوق. ويلاحظ على معظمها تاريخ صناعتها واسم صاحبها، وأحياناً اسم صانعها ايضاً.

معظم الآثار المعدنية المصنوعة من النحاس، والذهب، والفضة والتي تصنع لأغراض جمالية، ترجع الى العصر الاموي ثم الى ملوك الطوائف بالدرجة الثانية. واهمها صناديق مغلفة بأغلفة فضية وذهبية، والتي تلاحظ عليها جميعاً زخرفة نباتية ذات طراز واحد منظم مع خطوط كوفية ذات تاريخ.

وازدهرت صناعة السيوف في عصر بني الأحمر، وتمتاز سيوف هذا العصر بأنها مطلية بشتى انواع المعادن وبمختلف الألوان. وغالباً ما كانت تصنع من الفولاذ وتطلى بالذهب والمينا والعاج، وذات جمال رائع ودقة خاصة.

في اعقاب خروج المسلمين من الأندلس، احتفظت مختلف فروع الفن بصبغتها الاسلامية، واشتهر بفن المدجَّنين. والمرجَّنون هم اولئك المسلمون الذين فضلوا الاقامة في الأندلس المسيحية على الهجرة منها. وتم الحفاظ على الآثار الفنية والمعمارية الاسلامية تقريباً في اعقاب سقوط الأندلس. ورغم ان تحويل الكثير من المساجد الى كنائس، قد أساء الى هذه الآثار وغيّر الكثير من معالمها، لكن هذا العمل يحكي عن الحقيقة التالية وهي اعتراف المسيحية في أسبانيا بتفوق الحضارة الاسلامية واعتمادها على كثير من عناصر الفن الاسلامي.

عوامل سقوط الأندلس في يد المسيحيين

خضعت الأندلس للحكم الاسلامي وتحت ظل الثقافة الاسلامية، على مدى ٨ قرون. فلماذا انفصلت هذه الأرض عن كيان العالم الاسلامي، ولم يبق من عظمتها وحضارتها ومجدها سوى بعض الأبنية وبعض الخواطر الشبيهة بالأساطير في كتب التاريخ؟ لقد احدث سقوط الاندلس وأفول ثقافة الاسلام عن هذا البلد، جرحاً عميقاً في قلب العالم الاسلامي. ولكن عمل هذا الحدث المر على ايقاظ ضمير المسلمين واتعاظهم.

دراسة الحوادث التاريخية لا تكون نافعة اذا اكتفينا بذكر الحوادث وسردها، وكذلك اذا لم يتم تحليلها في اطار علمي نظري. وهذا ما يمكن ملاحظته وللأسف عند الكثير من الكتاب والمؤرخين الأندلسيين، اذ انهم قلما يعنون النظر في العوامل الحقيقية لسقوط الاندلس، ويحصرونها في معظم الأحيان ضمن اطار حفلات شرب الخمرة، والعلاقات الغرامية ما بين السلاطين والجواري، او يسهبون في التحدث عن قصص حب بعض الشعراء لبنات السلاطين الخ. ويعزون سقوط الاندلس في افضل الاحوال الى انجرار الشباب المسلم نحو الفساد والفحشاء ومعاقرة الخمر. ولا نريد التقليل من اهمية هذه العوامل، وانما نريد التأكيد على ان تلك العوامل عميقة ومتعددة ومعقدة، وما فساد المجتمع المسلم في الاندلس إلّا نتيجة من نتائج تلك العوامل. ولاريب في ان الاكتفاء ببعض الموضوعات السطحية لا يمكن ان يقدم الدرس اللازم من اجل الاعتبار والاتعاظ.

الاطار النظري

لابد لكل تحليل، ان يقدم في قالب نظري، والا فقد مثل ذلك التحليل انتظامه وانسجامه، وأبعدنا عن التوصل الى النتيجة الحقيقية. فسقوط الأندلس وطرد

المسلمين من تلك البلاد بواسطة المسيحيين الاوربيين لا يمكن ان يكون بعيداً عن هذا المنحى. ولربما يمكن القول بجرأة ان نظرية ابن خلدون تمثل افضل قالب نظري لتحليل سقوط الأندلس في ايدي المسيحيين. والذي يبعث على الدهشة هو ان المسلمين قد تعرّفوا على ابن خلدون وعلى اثره الكبير المعروف بالمقدمة، من خلال الدراسات والبحوث الغربية عموماً.

ينتمي ابن خلدون الى اسرة اصلها من اليمن. وكان جده الاكبر من اوائل الذين اتوا الى الاندلس اثناء الفتوحات الاسلامية. ثم هاجرت اسرته الى شمال افريقيا بعد اضطراب الاوضاع في الأندلس، فولد ابن خلدون في تونس. ويتبين من مراجعة تاريخ الاندلس ان حياته، كانت في عهد بني الأحمر (٦٣٥ ـ ٨٩٨هـ)، آخر سلالة مسلمة حكمت غرناطة.

نظراً لانتسابه لأسرة كانت تقيم في الأندلس، وارتباطها المباشر بمصير المسلمين في ذلك البلد، وولادته وحياته في شمال غربي أفريقيا، وهي المنطقة المجاورة للأندلس، لذلك يمكن القول بأنه متأثر في نظرياته المعروفة بدرجة كبيرة بالتاريخ السياسي والاجتماعي للمسلمين في الأندلس. كما ترك قرب عصره من عصور ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين تأثيراً عميقاً على أفكاره.

وعمل ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية وامتداده الى البلدان المجاورة وشمال افريقيا ووصوله الى الأندلس في نهاية المطاف، على بلورة ذهنيته في مضمار السلوك الاجتماعي ـ السياسي للمجتمعات الانسانية لاسيما الأنظمة القبلية. وقد اورد ابن خلدون نظريته الاجتماعية في مقدمة كتاب العبر. هذا الكتاب يتألف من ثلاث أقسام: مقدمة الكتاب والتي حظيت باهتمام الباحثين والاجتماعيين، والتاريخ العام للعرب والمسلمين، وتاريخ شمال افريقيا. والقسم الأخير يقدم معلومات كثيرة ومهمة عن افريقيا.

ينبري ابن خلدون في ديباجة مقدمته للحديث عن أسباب تأسيس علم العمران. ويعتقد بأن علم العمران يرتبط بحياة الانسان الاجتماعية. ويرى ان

العمران او علم الاجتماع نوعان: عمران بدوي ويتجلى بشكل واضح في مجتمع البادية؛ وعمران حضري. ويرى ابن خلدون ان سكان البادية متأثرون بطريقتهم في الحياة ولهذا فهم اشد طبعاً من سكان المدن، لكنهم اقرب الى الخير لقربهم من الفطرة.

أهم مفهوم يطرحه ابن خلدون على صعيد سكان البوادي، هو مفهوم العصبية التي يصفها بأنها نوع من التضامن الاجتماعي القائم على صلة القربى والدفاع عنها. ويستنتج من خلال استخدام هذا المفهوم وارتباطه بالحياة البدوية ان البدوية او العمران البدوي بحاجة الى عصبية. والمجتمع الذي لا يشعر افراده بالالتحام فيما بينهم، يضمحل ويزول في مواجهة اخطار الحياة البدوية.

ابن خلدون يعتقد ان تأسيس الدول يعتمد على وجود العصبية، لكن استمرارها لا يحتاج الى العصبية. وتبقى هذه الدول مستمرة مالم تظهر عصبية اقوى تطالب بالملك. ويضع ابن خلدون الدين الى جانب العصبية، كأحد العوامل المؤثرة في تكوين الدول، لكنه يؤكد في نفس الوقت على ان نجاح الدعوة الدينية قرين بالتعصب للأنبياء وأئمة الدين.

يرى كذلك ان الدول لديها عمر طبيعي كالانسان، ويبلغ عادة ١٢٠ عاماً او ثلاثة أجيال، وكل جيل فيها يبلغ نحو ٤٠ عاماً. ويعتمد في هذا التخمين او التقدير على مشاهداته التاريخية المتصلة بتاريخ الأندلس عادة، فضلاً عن استناده الى بعض الاشارات الدينية كالآية «حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة» (الأحقاف، ١٥) التي تؤكد على ان الأربعين عاماً تدل على بلوغ حالة الكمال. وهذه الأجيال كما يراها ابن خلدون تمر في المراحل التالية: الخشونة والغلبة، والانغماس في النعمة مع الاحتفاظ بالملك، ثم الزوال بسبب الشيخوخة والضعف.

يشرح ابن خلدون كذلك حالات الدول ومراحلها، ويرى ان الدول تقطع منذ بدء تأسيسها والى سقوطها خمس مراحل عادة: في المرحلة الاولى التي هي مرحلة الانتصار، يستند الفرد الحاكم على العصبية. وفي المرحلة الثانية والتي تتثبت

سيطرة الحاكم، ينفرد الحاكم بالسلطة ويصبح صاحب اختيار مطلق. وفي المرحلة الثالثة يبدأ بقطف ثمار حكمه وسلطته، فيحل أوان التجمل والفراغ، فينفق الاموال الطائلة في تشييد الأبنية العامة وتجميل المدن. ويلجأ المرتبطون بالحكومة ورجالها خلال ذلك الى جمع الأموال واكتنازها وينزعون نحو حياة الرخاء. فيحل الازدهار الاقتصادي، وتتطور الصنائع، والفنون الجميلة، والعلوم في ظل اهتمامات الطبقة الحاكمة.

في المرحلة الرابعة يحل أوان القناعة والرضا بعد بلوغ الدولة الذروة. فتحصل القناعة للحكام والرعايا معاً. ويقلدون الأسلاف في التمتع بلذائذ الحياة غافلين عن مدى الجهد الذي بذله الأسلاف من اجل استحصال هذه اللذات. فهؤلاء يتصورون ان حياة الرخاء والعيش الهنيء الذي لديهم ومزايا التحضر التي يتميزون بها، موجودة دائماً وستبقى الى الأبد. فيصبح التمتع والالتذاذ واشباع أهوائهم النفسية، عادةً لهم، فيستندون الى وجود اشياء استحصلها القدماء، دون التفكير بالأشياء التي من الممكن ان تحصل فتؤدي الى ايجاد خلل في حياتهم تلك وتعكر عليهم صفوها.

في المرحلة الخامسة، تنحدر الدولة نحو الانحطاط والاضمحلال، وتبدأ آخر الأشواط، أي شوط الاسراف والتبذير، فتبلغ الدولة سن الشيخوخة ويحكم عليها اما بالموت التدريجي او الموت المفاجئ. فالاعتياد على الاسترخاء والرفاهية، يبعث على الضعف الجسماني والفساد الأخلاقي.

في ظل هذه المرحلة ينسى الحاكمون الأساليب الشجاعة الخاصة بالحياة البدوية ويفقدون القابلية على مجابهة العدوان الأجنبي. وتعمل الضرائب الطائلة والخوف من العدوان القادم من الخارج، على تثبيط آمال الناس والرعية، وتتوقف النشاطات الاقتصادية تماماً. فلا يقبل الناس على وضع المشاريع طويلة الأمد، وتخلو المدن من الناس، الامر الذي يؤدي اضطراب شؤون الدولة، ويختار الامراء والقادة وأقرباء السلطان المتذمرون السكن في نواح نائية، ثم تنقسم الدولة الى

ولايات صغيرة. ويشرع الجنود المرتزقة في العاصمة بالتآمر لانتزاع الحكم من الحاكم، فلا يبقى للحكومة سوى اسمها. فتسقط تلك الدولة والحكومة في آخر المطاف اما عن طريق الغزو الأجنبي او الاضمحلال الداخلي او عن طريق كلا العاملين، وتنطفئ كانطفاء السراج الذي نفد زيته تماماً. توفي ابن خلدون قبل ان تسقط الأندلس تماماً على يد الاوربيين المسيحيين. واقترنت حياته مع عصر بني الأحمر، آخر سلالة حكمت الأندلس. ولاريب في ان الأحداث ومجريات الامور السياسية ـ الاجتماعية التي شهدتها تلك البلاد، كان لها تأثير كبير على صياغة نظرياته وبلورتها. والملاحظة المهمة في نظرياته هي انه يعطي الاصالة للعوامل الداخلية في انقراض الدول وسقوطها، رغم انه يولي اهمية للعوامل الخارجية ايضاً فيشير اليها كثيراً بعناوين من قبيل العصبية المنافسة او الهجوم الخارجي.

من خلال تحليل جامع وعلى ضوء العوامل الداخلية والخارجية المتداخلة في سقوط الأندلس، يمكن تقسيم عوامل فشل المسلمين وسقوط دولتهم في الأندلس الى مايلي:

١ ـ العوامل الداخلية

تم فتح الاندلس في عهد الدولة الاموية. غير ان هذه الدولة عملت من خلال البدع والانحرافات التي اوجدتها في المجتمع الاسلامي الأصيل، على ظهور العديد من المشاكل والأزمات في ذلك المجتمع، والتي من بينها توارث الحكم والخلافة، والتمييز العنصري، وطلب الدنيا، والانغماس في اللذائذ، واكتناز الثروات، والتنافس العشائري على الحكم. فانتقلت جميع هذه الانحرافات الى الاندلس بعد فتحها. ولذلك يمكن القول بجرأة ان الكثير من مشاكل المسلمين في الأندلس لها جذور في تركيبة وشكل الحكم الأموي وأزمات المجتمعات الاسلامية آنذاك.

٢ ـ العوامل الخارجية وضغوط النصارى

تحمل النصارى المسيحيون ضربات سياسية وجيو سياسية قاسية في اعقاب خروج الاندلس من أيديهم. ولذلك حاولوا تدارك تلك الهزيمة منذ ان دخل المسلمون الى بلاد الأندلس. فلم يدع هؤلاء اسلوباً إلّا واتخذوه من اجل بلوغ ذلك الهدف. وقاموا باتخاذ سياسات في هذا المجال بما يتناسب مع قوة المسلمين وضعفهم، منها ايجاد الفرقة والعداء بين المسلمين، وكذلك نشر الفساد الاخلاقي لاسيما بين الشباب.

٣ ـ العوامل الجيوسياسية

الى جانب العاملين السابقين، لابد من أخذ الأمر التالي بنظر الاعتبار ايضاً وهو ان هزيمة المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس)، ناشئ الى حد ما عن عدم اخضاع تلك البلاد بشكل كامل وعدم تطهير بعض المدن والمناطق المسيحية لاسيما في الشمال والشمال الغربي. كما كانت بعض المدن والمناطق في مركز الأندلس على شكل جزر بين مناطق المسلمين، وقد استخدمها المهاجمون النصارى بشكل تدريجي، وكانت في الواقع جيوباً مسيحية تحاك فيها المكائد والمؤامرات ضد المسلمين.

أ ـ العوامل الداخلية لسقوط الاندلس

فتحت الأندلس من قبل المسلمين عام ٩٢هـ / ٧١١م. وكانت هذه الفترة تمثل ذروة الاقتدار الاموي. وتحقق ذلك الفتح في عهد عبدالملك بن مروان. ويحظى العصر الاموي من حيث التأثير في تاريخ الاسلام ومستقبل المسلمين بالأهمية على صعيدين:

١ ـ من حيث الفتح وتعاظم المقدرة السياسية لزعماء هذه الأسرة.

٢ ـ من حيث التغييرات الاساسية التي طرأت على اصول الدين وفروعه.

بالنسبة للصعيد الأول، يمكن القول ان رقعة الدولة الأموية قد ازدادت زيادة كبرى منذ عام ٤١ وحتى عام ١٣٢هـ بحيث انها كانت اوسع من الدولة العباسية.

اما الموضوع الثاني فيتسم بأهمية اكبر لأن اتساع مساحة الدولة الاسلامية في ظل مثل تلك الأجواء السياسية، لابد وأن يخلف آثاراً سيئة على المجتمعات الاسلامية الجديدة، ومن بينها الأندلس، ويصبح في نهاية المطاف من عوامل سقوط بعض الدول الاسلامية كالأندلس. ويمكن تلخيص التغييرات الأساسية التي أحدثتها هذه الاسرة في العالم الاسلامي بما يلي:

١ ـ استبدل نظام الحكم الاسلامي الذي يتم وفق اعتقاد أهل السنة على أساس المبايعة، بنظام حكم وراثي استبدادي. فتقوم الحكومة في ظل هذا الاسلوب الجديد بتحقيق أهواء السلطان ورغباته بدلاً من تنفيذ القوانين الالهية. ولذلك شاعت الانحرافات والبدع باسم الدين بين المسلمين. واتخذت الأسرة الاموية التي حكمت الأندلس عين هذا الاسلوب ايضاً.

٢ ـ عدم العمل بالمساواة التي تعد ركناً مهماً من أركان النظام الاسلامي، بينما ألغى القرآن والسنة النبوية الامتيازات كافة وعدَّ التقوى ملاك الامتياز والتكريم عند الله تعالى. واعتبر الأمويون العرق العربي أفضل الأعراق نظراً لانتماء الرسول محمد (ص) اليهم، واعتبروا قريشاً افضل من سائر العرب لأن الرسول (ص)منها. فنشأت معظم الاختلافات السياسية والاجتماعية في الأندلس عن هذا الانحراف لاسيما تلك الاختلافات التي كانت قائمة بين العرب القحطانيين والعرب العدنانيين في الأندلس.كما نشأ عن مثل هذه النظرة ايضاً النزاعات بين العرب والبربر، وكذلك بين المسلمين الفاتحين والمسلمين الجدد.

يقول الباحث الغربي مونتغمري وات بهذا الشأن: «الاحتلال السريع لشبه

جزيرة اسبانيا والسعي للامتداد الى فرنسا، لابد ان يكون لديه انعكاسات على العرب وحلفائهم البربر». فمعظم الصراعات بين العرب منبثقة عن التنافس بين القبائل والطوائف القبلية لاسيما بين آل قيس وآل كلب. فالخصومة بين هاتين القبيلتين، انما كانت استمراراً للخصومة والنزاع بين العرب العدنانيين والعرب القحطانيين في شبه الجزيرة العربية. وكان هذا العداء والتخاصم يسري أحياناً الى مجاميع اكبر قريبة نسبياً من هذه المجاميع، حتى ساهمت جميع القبائل العربية المتواجدة في الأندلس في ذلك التخاصم والصراع. وبعد عام ١٢١هـ / ٧٤٠م أصبح التنافس بين القبائل عاملاً سياسياً مهماً في الأندلس. فكان آل قيس وآل كلب يعملان كعمل الأحزاب الراهنة. فحينما كان الخليفة يستند الى احدى هاتين القبيلتين، تتعلق معظم المناصب بأفراد من تلك القبيلة».

٣ ـ انفاق ايرادات الدولة ودخولها على الحكام والمتنفذين بدلاً من انفاقها على الشؤون العامة. فكان اولئك الحكام يبددون تلك الأموال على ملذاتهم وشهواتهم، الأمر الذي خلق حالة التذمر بين صفوف المسلمين. وقد برزت تلك الحالة في الأندلس بشكل اكبر لأنها كانت خطاً متقدماً في المواجهة مابين الاسلام والمسيحية، الأمر الذي يجعل منها أرضية ملائمة للاستغلال من قبل المسيحيين.

٤ ـ استخدام اساليب القمع والسجن والتعذيب والقتل من قبل الحكام والولاة الامويين. فحادثة كربلاء عام ٦١هـ والمجزرةالتي ارتكبت في المدينة، وضرب الكعبة بالمنجنيق، وتنصيب الشخصيات الدموية السفاحة كولاة على المسلمين كالحجاج بن يوسف الثقفي، تعد جزءاً من الأعمال الاجرامية التي ارتكبها الامويون. ومارس الامويون الذين حكموا الاندلس نفس هذه الممارسات ايضاً واعتبروها أعمالاً عادية. لذلك كانوا يجيزون استخدام القوة في ابشع صورها من اجل فرض الأمن والثبات وحفظ الوحدة الظاهرية. ومنها ما يعرف في تاريخ الأندلس بيوم الفس. فهذه المجزرة وقعت في طليطلة عام ١٨١هـ / ٧٩٧م. ففيها دعا الحَكَم الأول جميع فضلاء طليطلة وكان معظمهم من المسلمين الأسبان والذين

سبق ان اعلنوا عن تذمرهم من حكومته ـ الى قصره بحجة الاشتراك في مراسم تكريم ولي العهد، لكنهم ما ان دخلو الى القصر حتى تم قطع رؤوسهم جميعاً، ثم القيت أجسادهم في خندق او فس. وفي عهد هذا الأمير الاموي ايضاً ارتكبت مجزرة اخرى في قرطبة عام ٢٠١هـ / ٨١٨م. وأدت اعماله القمعية الى تمرد سكان جنوب الوادي الكبير. وحينما انتصر عليهم جنود الأمير، قاموا بنهب منطقتهم واعدام ٣٠٠ من وجهائهم، بينما أجبر الباقون على الخروج من قرطبة، وتم حرث تلك المنطقة تماماً ومساواتها بالتراب.

٥ ـ تداول أشعار المدح والاطراء، وهي الطريقة التي كانت متداولة في العصر الجاهلي، ثم أصبحت مذمومة في عصر الرسول الاكرم (ص).

من جانب آخر شاعت الأشعار الغرامية، لاسيما ذلك الشعر الذي يصف محاسن النساء وأجسادهن. وقد بلغت هذه الظاهرة ذروتها في الأندلس. فكان هذا اللون من الشعر الذي بلغ حد المجون في بعض الاحيان يستنزف وقت الشعراء من جهة، ويحرض الشباب والرجال على الانغماس في الشهوة ويسوقهم نحو الاستغراق في اللذة، ويبعدهم عن الاهتمام بقضاياهم الاجتماعية والسياسية وما يتعرض له البلد من أخطار ومكائد.

٦ ـ تعاظم النزعة نحو التجمل في الحياة، والطعام، واللباس، والسكن، والأثاث، خلال العصر الاموي. فأخذت تُشيَّد القصور الفخمة الجميلة على الطراز الروماني، والمنتجعات الصيفية والشتوية، والحمامات الفخمة في مقر الحكومة بل وحتى في اماكن الصيد. فحينما تقوت شوكة الامويين، اخذوا يستخدمون قوتهم لاشباع شهواتهم، ويقطفون ثمار سلطانهم. ونشاهد مثل هذه السلوكيات في تاريخ الاندلس في عهد جميع الدول والسلالات كالامويين، وملوك الطوائف، والمرابطين، والموحدين، وبني الاحمر. فالزهراء التي شيدها عبدالرحمن الثالث والحَكَم الثاني خلال الفترة ٣٢٤ ـ ٣٥٠هـ / ٩٣٦ ـ ٩٦١م، تعد مصداقاً بارزاً للاسراف والتبذير والترف.

٧ ـ شرب الخمر وشراء الجواري المغنيات، كان امراً متداولاً في العصر الاموي. وقد انتقل هذا السلوك غير الاسلامي مع الفاتحين الى البلاد المفتوحة حديثاً ومنها الأندلس. لذلك لابد من الاعتراف بأن مثل هذه السلوكيات غير الاسلامية شاعت في الاندلس الاسلامية منذ البداية، لأن الثقافة المنحرفة المنبثقة من قلب الحكم الأموي، استمرت في بلاد الاندلس باستمرار ذلك الحكم فيها بعد سقوطه في دمشق.

أرضية الفساد الأخلاقي والاجتماعي التي ترسخت في العصر الاموي، دخلت الى بلاد الأندلس ايضاً. وعمل الاوربيون المسيحيون على ترسيخ هذه الثقافة.

ما سبق يؤكد على ان خط الانحراف قد دخل الى الأندلس عن طريق حكومة الامويين. فبما ان سكان الأندلس لم يكن لديهم ادراك للاسلام الحقيقي، لذلك فان ما ادركوه من الاسلام لم يكن سوى قراءة ناقصة ومحرفة للاسلام. والحقيقة هي ان وضع الانحرافات والبدع التي كانت منتشرة في ايام بني امية، الى جانب القيم الاسلامية الأصيلة ومسخ الكثير من التعاليم الاسلامية، تعد العامل الاساس الذي يقف خلف الضعف التدريجي لمسلمي الأندلس، وهو الأمر الذي وفر الأرضية المناسبة للعدو الخارجي.

ب ـ العوامل الخارجية وضغوط المسيحيين

الانتصار السريع الصاعق الذي حققه المسلحون في فتح الاندلس، وبعد اقل من خمسين عاماً على فتح بيت المقدس وفلسطين، كان بمثابة ضربة قاصمة للنصارى. وكان المسلمون في حالة زحف في بلاد النصارى من جهتين: ففي الشرق كان زحف المسلمين في شبه جزيرة الأناضول وآسيا الصغرى، بطيئاً، ثم توقف تماماً بسبب مقاومة الامبراطورية البيزنطية. وفي القرن ٥هـ / ١١م نجح الاتراك السلاجقة في الحاق الهزيمة بالمسيحيين في معركة ملازجرت، ومن ثم الاستيلاء على كل شبه جزيرة الأناضول. ولم تتوقف هذه العملية حتى مع نشوب الحروب

الصليبية. اذ استطاع المسلمون الدخول الى شبه جزيرة البلقان جنوب شرقي اوربا وذلك في القرن ٨هـ / ١٤م.

وفي الشرق نجح المسلمون منذ القرن ٢هـ / ٨م في الدخول الى اوربا من جنوبها الغربي والاستيلاء على الجزء الأعظم من شبه جزيرة ايبيريا. وبعثت هذه الأوضاع القلق الشديد لدى مسيحيي اوربا لذلك هبوا لتنفيذ مخططين:

قاموا في الجنوب الشرقي بشن الحروب الصليبية فضلاً عن اتخاذ الخطوات اللازمة للحيلولة دون زحف المسلمين في اوربا. وقد فشل مخطط الحروب الصليبية وتمكن المسلمون من الدخول الى اوربا من هذا الجانب. اما في اسبانيا فقد قاموا بوضع مشروع طويل الأمد، فوضعوا الزحف خطوة خطوة استراتيجية لهم. وقد توخى الاوربيون من هذه الاستراتيجية هدفين: الاول هو الاستعادة التدريجية لأسبانيا من خلال استخدام القوة العسكرية واستغلال نقاط الضعف السياسي والعسكري للمسلمين. والثاني هو القيام بغزو ثقافي للمجتمع الاسلامي في الاندلس وافراغه من محتواه الاسلامي من خلال استغلال الأزمات الفكرية والثقافية التي كانت تعاني منها الدول التي ظهرت في الاندلس، كالامويين، وملوكالطوائف، والمرابطين، والموحدين.

الاستعادة التدريجية لأسبانيا

منذ ان وقعت الأندلس في يد المسلمين بدأ التخطيط لاستعادتها، وذلك حينما اعتبر البابا استعادتها واجباً دينياً. وكانت المرحلة الاولى عبارة عن الاحتفاظ بالأراضي الصغيرة التي لم تخضع للمسلمين في شبه جزيرةايبيريا. فبالرغم من فتح المسلمين لشبه جزيرة ايبيريا او الاندلس حسب تسمية المسلمين، إلّا ان المسيحيين احتفظوا بشريط ضيق عند السفح الشمالي لجبال بيرنه على امتداد سواحل خليج بيسكي الحالي. وكان هذا الشريط يقسم الى منطقتين هما: استورياس، وباسك (Basque)(٨٦).

وكانت المرحلة الثانيةعبارة عن زحف المسيحيين نحو الجنوب في اعقاب المعارك التي نشبت بين العرب والبربر. فالاختلاف بين العرب والبربر الذي له جذور في البدع التي ظهرت في العصر الأموي، ناجم عن الشعور بالتفوق العربي على البربر، الامر الذي أدى الى وقوع حروب دموية بين هذين الفريقين المسلمين. كما وقع المسلمون في أزمة خانقة في اعقاب هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء التي وقعت في فرنسا الحالية. وفي تلك الفترة بالذات بلغ تمرد البربر ذروته في افريقيا. ويبدو ان بعض متمردي البربر دخلوا الى الأندلس لتحريض البربر فيها بالتمرد على العرب. فبالرغم من ان البربر هم الذين فتحوا الاندلس لكن العرب استولوا على مقاليد الحكم فيها(٨٧).

كذلك يعتقد بعض المؤرخين ان العرب قد اختاروا أفضل مناطق الأندلس، بينما تركوا للبربر البراري والجبال في الشمال والشمال الغربي. غير ان هذا الرأي رفضه مؤرخون آخرون(٨٨).

لربما يكون امساك الامويين وكذلك العرب القيسيين بزمام الامور في الأندلس، العامل الأهم في تمرد البربر وثورتهم. فالقيسيون كانوا متعصبين الى حد بعيد، وكانوا ينظرون الى الآخرين ـ ولاسيما الى البربر ـ بعين الاحتقار. فهؤلاء لم يكونوا على وئام حتى مع العرب اليمنيين، بينما كان هناك تعاطف مشترك بين البربر واليمنيين، لأن اليمنيين يتعرضون كالبربر للضغوط والاجحاف(٨٩). وعلى هذا الضوء من الطبيعي ان يثور بربر الأندلس حينما تترامى الى مسامعهم انباء تمرد ابناء قوميتهم في افريقيا.

انشغال العرب والبربر بتلك الصراعات والحروب، منعهم عن القيام باعمار الأندلس وبنائها. ومن جانب آخر ادى تشدد العرب الى شعور البربر بالقلق من وجودهم في الاندلس، لذلك اخذوا يهاجرون منها زرافات زرافات الى شمال افريقيا. فخلت القرى والمناطق الزراعية من البربر ثم من العرب الى حدما، وانخفض انتاج المحصولات الزراعية بشكل كبير، ثم حلت مجاعة كبرى بالأندلس.

كان عدد البربر المهاجرين الى افريقيا كبيراً جداً، اذ خلت المناطق الشمالية والغربية في الأندلس من سكانها تقريباً، وهلك الكثير من العرب والبربر بسبب المجاعة، بينما هاجر البعض الى جنوب وشرق الأندلس، فيما خرج الكثيرون من الاندلس. وانتهزت الدولة المسيحية التي كانت محصورة في الشريط الساحلي لخليج بيسكاي، فرصة خلو تلك المناطق من المسلمين، فبسطت نفوذها عليها وأصبحت مساحتها أضعاف المساحة الاولى.

خلال تلك الفترة كانت بعض نواحي غاليسيا تُحكم من قبل شخص يدعى الفونسو بدرو المعروف بألفونسو الأول. وكان حاكماً نشطاً وطموحاً. واستطاع ان يضم الى امارته الصغيرة منطقة كانتابريا، فوسع تلك الامارة الى خارج الصحراء القاحلة التي لجأ اليها خوفاً من الحروب التي شنها عقبة بن الحجاج. وقد أمسك بزمام الامور خلال فترة الحروب الداخلية بين المسلمين، فانتهز تلك الفرصة لتوسيع الأرض الخاضعة له. لذلك حينما أمسك خليفته من بعده بزمام الامور، كانت تلك الامارة الصغيرة قد تحولت الى بلد لديه القابلية على الاستمرار. وليس من باب الاعتباط ان يعتبر الأسبان حكومة الفونسو الأول (٧٣٩ ـ ٧٥٧م)، هي الولادة الحقيقية لأسبانيا المسيحية(٩٠).

بعض المؤرخين ـ ومنهم هركولند ـ يعتبرونه زعيم عصابات كانت تغير على القرى والقصبات وتمارس عمليات السطو والسلب. وليس من المستبعد أن تكون بعض الدوافع الدينية قد لعبت دوراً مهماً في بعض ممارساته وأعماله. ومهما يكن من أمر، فقد كانت لهذا الأمير فتوحات وحروب، واتسعت في عهده دولة استورياس الفتية بشكل غير متوقع، وانضم اليها من بعده نحو خمس شبه جزيرة ايبيريا(٩١).

بعد أن استتبت الامور لألفونسو، شاهد هجرة البربر القاطنين في مناطق استورياس، وكانتابريا، وغاليسيا، من تلك المناطق والانطلاق نحو الجنوب. كما ادرك ان تلك الهجرة لم تقتصر على البربر فقط، وانما شملت العرب ايضاً، اذ ان

هؤلاء العرب اخذوا ينزحون من تلك المناطق النائية الى المناطق الوسطى والجنوبية، فضلاً عن مقتل الكثيرين منهم بفعل الحروب والثورات العرقية والقبلية. لذلك تعد هجرة المسلمين ـ عرباً كانوا ام بربر ـ من تلك المناطق، حدثاً مهماً ومصيرياً. فبالرغم من الجهود والمشاق التي بذلت لفتح تلك المناطق النائية واستقرار المسلمين فيها، إلّا ان المسلمين فرطوا بها، وتركوها لرحمة القدر.

وجد الفونسو الأول ان الفرصة قد سنحت له تماماً لتوجيه ضربة قاصمة للمسلمين في الاندلس. فكانت خطوته الاولى على هذا الطريق تحريض المسيحيين القاطنين في المناطق الشمالية على الخروج عن طاعة المسلمين والتمرد عليهم. فتمرد المسيحيون في غاليسيا والمناطق المجاورة واستخدموا جميع الوسائل لتوجيه الضربات للمسلمين.

لابد من الاشارة هنا الى التاريخ المحرف الذي كتبه المؤرخون المسيحيون. فقد سعى هؤلاء الى تضخيم الفونسو الاول والتبجح بفتوحاته، بينما حقيقة الأمر هي انه دخل الى غرب الاندلس وشمال غربها بدون قتال لخلو تلك المناطق ليس من المقاتلين فحسب وانما حتى من السكان ايضاً. ويتبجح المؤرخون النصارى انهم استولوا على هذه المناطق بقوة السيف، وانهم حرروا مدن براغا، بورتو، ويزيو، ليون، زامورا، ليدسما، سالامانكا، سالدانا، سيمانكاس، سغوفيا، اويلا، اوكا، اوسما.

جميع هذه المدن والمناطق، كان المسلمون قد فتحوها بعد ان قدموا التضحيات وتحملوا العناء والمشقة والمكابدة، لكن العرب والبربر قدموها لقمة سائغة للمسيحيين بفعل الحروب القبلية والعرقية العمياء. وفقدت الأندلس ما يقرب من ربعها قبل دخول عبدالرحمن الداخل اليها بقليل.

قطعت الدولة المسيحية الكائنة شمال الأندلس مساراً دام مئات السنين من اجل السيطرة الكاملة على شبه جزيرة ايبيريا وبلاد الأندلس. فهذه الدولة التي كانت في يوم ما امارة لعقبة بن الحجاج السلولي وكادت تسقط قبل الحرب بين العرب والبربر، اخذت تتسع وتكبر منتهزة الأجواء التي وفرتها الصراعات الأهلية.

وتحولت الى نواة مقاومة ومركز خطر يهدد المسلمين والدولة الاسلامية في الأندلس.

الامتداد الجغرافي للمسيحيين في شبه جزيرة ايبيريا، حدث من بعد الفونسو الأول على مرحلتين: المرحلة الاولى منذ عام ١٤٠هـ / ٧٥٨م وحتى عام ٥٤٠هـ / ١٠٣٠م. والمرحلة الثانية منذ عام ٥٤٠هـ / ١٠٣٠م وحتى الاستيلاء الكامل على شبه جزيرة ايبيريا في عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م. فخلال هذه الفترة التي استمرت نحو ٦٥٠ عاماً، كان المسيحيون يزحفون في هذه البلاد شيئاً فشيئاً انطلاقاً من الشمال باتجاه الجنوب مستغلين مشاكل المسلمين وصراعاتهم وفقدان الانسجام فيما بينهم.

حتى عام ١٩٦هـ / ٨١٤م استطاع المسيحيون انتزاع جميع الاراضي الواقعة على الضفاف الشمالية لنهر ابرو الكائن في شمال شرقي الأندلس. وكان زمام المبادرة خلال هذه المرحلة في يدالحكومة الفرنسية بزعامة شارلمان. وفي المقابل نجح المسلمون في الاستيلاء على جزء من الأراضي التي سيطر عليها الفونسو والممتدة حتى الضفة الجنوبية لنهر دوفرة(٩٢). غير ان هذا الأمر لم يترك تأثيراً مصيرياً على الجغرافيا السياسية للأندلس وشبه جزيرة ايبيريا. لذلك حتى عام ٢٩٨هـ / ٩١٠م نجح المسيحيون ثانية في الاستيلاء على جزء من الأراضي الواقعة بين نهري دويره (دورو) وتاجة. وفي المقابل نجح المسلمون في عبور نهر ابرو والاستيلاء على مدينة سرقسطة والمناطق المحيطة بها والوصول الى سفوح جبال بيرنه.

حتى عام ١٠٩٥م تبادل المسلمون والمسيحيون مرتين السيطرة على المناطق الوسطى من الأندلس. وفي هذه المرحلة التي تعرف بعصر ملوك الطوائف في الأندلس، كانت الاندلس قد تقاسمتها سلالات مختلفة، فكان المسيحيون يزحفون خلال ذلك بهدوء نحو الجنوب، حتى استطاعوا الاستيلاء على نصف بلاد الاندلس حتى عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، ومن بينها مدينة طليطلة الاستراتيجية التي تعتبر مركز الثقل الجغرافي في الأندلس.

استمر زحف المسيحيين نحو الجنوب بحيث كانوا قد استولوا على ٦٠٪ من بلاد الأندلس في عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م. وفي هذا العام تم تقسيم الجزء المسيحي من شبه جزيرة ايبيريا بين حكومات البرتغال، وليون، وقشتاله (Castile)، وأرغون، ونباره (نافارا Navarra). بينما ظل الجزء المسلم تحت سيطرة الموحدين حتى عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م. ففي هذا العام توفي آخر خليفة في السلالة الموحدية ولم يكن لديه ولد يخلفه، فنشبت صراعات بين افراد هذه السلالة على خلافته، فأنهت هذه الصراعات حالة المجابهة التي كانت لدى المسلمين للزحف المسيحي. فقاد فرديناند الثالث ـ ملك قشتالة ـ سلسلة من الغزوات منذ عام ١٢٣١م حتى نجح في فتح قلب الأندلس، اذ استولى على قرطبة عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م، واشبيلية عام ٦٤٥هـ / ١٢٤٨م. ثم أتبع المسيحيون تلك الفتوحات بسلسلة من العمليات في الشرق استمرت نحو عشرين عاماً أنهت في آخر المطاف حكم المسلمين لبلاد الأندلس عدا غرناطة(٩٣).

كانت بارقة الأمل الوحيدة للمسلمين، ظهور دولة بني الأحمر في غرناطة. ففي عام ٦٢٨هـ / ١٢٣١م أسس محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر دولة في غرناطة. وقد اتخذ سياسة ذكية جداً فاستخدم المسيحيين ضد خصومه المسلمين، ثم استخدم مسلمي افريقيا الشمالية للوقوف بوجه المسيحيين.

لربما يقف خلف العمر الطويل نسبياً لهذه الدولة عاملان جغرافيان هما: الأول هو الطبيعة الجبلية التي تتميز بها غرناطة، والثاني هو قربها من أفريقيا. وتتكون معظم أراضي غرناطة من جبال مرتفعة الى حد ما، فكان ذلك سبباً لتحويلها الى حصن طبيعي. وفضلاً عن هذا الحصن الطبيعي كانت توجد قلاع وحصون اخرى تزيد من قابليتها الدفاعية كثيراً. فحينما كانت الأوضاع هادئة، لم يكن لدى نصارى الشمال لاسيما حكام قشتالة، اي مبرر منطقي لمهاجمة غرناطة، رغم انهم كانوا يتحينون الفرص المناسبة للانقضاض عليها، ويحرصون على عدم انضمامها الى دول شمال افريقيا.

كانت المشاكل الداخلية التي تعاني منها غرناطة، كثيرة جداً. فالاسراف والنفقات الطائلة التي لا مبرر لها لاسيا على القصور الفخمة، عملت على اضعاف الدولة مالياً. كما حصل لون من الصراع على السلطة بين امراء الاسرة الحاكمة لاسيا منذ نهاية القرن ٧هـ / ١٤م. فكما كان لهذه العوامل الداخلية وغيرها تأثير على اسقاط بني الاحمر، كان لتعاظم الدول المسيحية في شبه جزيرةايبيريا وضغوطها المتزايدة تأثير ايضاً. وكانت قوة المسيحيين قد تعاظمت كثيراً بفعل الاتحاد الذي حصل ما بين ارغوان وقشتالة عن طريق زواج فرديناند وايزابيلا. وكانت ايزابيلا قد صارت ملكة على قشتالة عام ١٤٧٤م، بينما تولى فرديناند الثاني مقاليد الحكم في ارغوان عام ١٤٧٩م. وكان استيلاء المسيحيين على جبل طارق في عام ١٤٦٢م. تعبيراً عن الموقف القوي الذي أخذ يتبلور لدى المسيحيين.

في عام ١٤٨١م قام بعض المسلمين بانتزاع قصر الزهراء من المسيحيين، فكان ذلك العمل ذريعة لمهاجمة غرناطة من قبل فرديناند وايزابيلا، ووضع نهاية للوجود الاسلامي في غرناطة.

تجنب الحكام المسيحيون القيام بحملة عسكرية شاملة ومتكاملة، وانما وضعوا خطة لتأجيج الاختلاف بين المسلمين ودق اسفين الفرقة بينهم من خلال الوقوف الى جانب فريق منهم، ومهاجمة الفريق الآخر. فاستطاعوا من خلال ذلك محاصرة غرناطة خلال عدة مراحل. وبدأ الزحف المسيحي النهائي نحو غرناطة في عام ٨٩٧هـ / ١٤٩١م. وأدرك المدافعون عن غرناطة في ظل تلك الظروف القاهرة ان الدفاع عنها غير ممكن، فوافقوا على تسليمها ضمن شروط سرية وافق عليها الجانبان. وحينما ودع ابوعبدالله ـ آخر سلاطين بني الأحمر ـ الاندلس من هضبة مشرفة على غرناطة، تكون الاندلس قد خرجت من ايدي المسلمين بصورة مؤلمة وحزينة الى الأبد.

المسلمون والمسيحيون ينظرون الى سقوط الاندلس الاسلامية من زاويتين

مختلفتين: فالمسيحيون يشعرون بضرورة احياء اسبانيا المسيحية وانتزاعها من المسلمين، لأن ذلك قد أعاد لأسبانيا عظمتها وجعلها بعد سبعمائة عام من السيطرة العربية، ارضا مسيحية لها وجود على الخريطة العالمية. والمسلمون يعتقدون ان المسيحيين الغربيين كانوا يخططون منذ البداية للقضاء على الثقافة الاسلامية وحضارة المسلمين في الاندلس، ومارسوا شتى النشاطات التخريبية في المجتمع الاسلامي لتحقيق هذا الغرض، وقادوا المجتمع الاسلامي الاندلسي نحو الانحطاط والانهيار من خلال خطة تدريجية مستغلين حسن نية المسلمين وتسامحهم مع اتباع الأديان الاخرى.

قلنا قبل الآن، ان ارضية انحطاط المسلمين وانحرافهم فكرياً وثقافياً قد توافرت من خلال ممارسات الدولة الاموية في الأندلس. وقد بلغ الغزو الثقافي المسيحي ذروته في عهد ملوك الطوائف ولاسيما في عهد بني الأحمر. والحقيقة هي ان معظم النشاطات المسيحية المضادة للثقافة الاسلامية والتي سجلها المؤرخون المسلمون، كانت قد جرت خلال الفترة التي حكم بها بنو الأحمر غرناطة، اي تتصل بآخر قرنين ونصف من حضور المسلمين في الأندلس.

كانت غرناطة قلعة حصينة وملجأً آمناً للمهاجرين الذين هاجروا من المناطق الخاضعة للسيطرة المسيحية، وذلك في نهاية دولة الموحدين، وفيما كان المسلمون على مشارف السقوط النهائي. قام خلال تلك الفترة رجل يدعى ابن الأحمر فاستولى على مدن جيان، وبسطة، ووادي آش والقلاع المحيطة به، ثم سيطر على شريش، ومالقة، وقرمونه، ثم استولى في المرحلة الأخيرة على غرناطة. فأصبحت غرناطة منذ ذلك الحين (٦٣٥هـ) وحتى سقوط الأندلس نهائياً في عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م، عاصمة لدولة بني الأحمر.

حين ظهور بني الأحمر، كانت جميع مدن الأندلس ومراكزها قد سقطت في يد المسيحيين ولم تبق في يد المسلمين سوى غرناطة. ومما يجدر ذكره هو انه ابرم مع فرديناند ـ ملك قشتالة ـ معاهدة تعاون وصداقة. وحينما حاصرت قوات فرديناند

مدينة اشبيلية، بعث ابن الاحمر جنوداً لدعم فرديناند، وفاءً منه لبنود تلك المعاهدة، وللثأر من سكان اشبيلية المسلمين الذين كانوا قد تمردوا عليه. وتوفي ابن الاحمر عن ٨٠ عاماً وخلف حكومة تحمل معها بذور الاختلاف الذي أفسد جميع مدن الاندلس وأضاعها.

في أعقاب انتصار المسلمين في حرب زلاقة عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وهزيمة الفونسو السادس، وظهور دولة المرابطين، اشتدت عند المسيحين سياسة القضاء على الاسلام في الأندلس. وتدخل البابا شخصياً في هذا الأمر واستخدم نفوذه الديني الذي كان له تأثير كبير على روح الحكام الغربيين والنصارى، للقضاء على المسلمين في الأندلس. فأصبح هناك تأكيد على استغلال الاختلافات بين الزعماء والحكام المسلمين. ففي اجتماع ضم الفونسو ودوق البندقية طلب الفونسو من القائد العربي برّاق بن عمار ان ينصر النصارى في استئصال الاسلام من الأندلس. فكان جواب براق كالتالي: اعلم ان الأسد لا يصاد إلّا بالمكر والحيلة. فالصيادون يسقون الاسد الغاضب القوي خمراً يأخذ بقوته كي يسهل أسره. وانت تعلم بأن الحديد لا يطرق إلّا بالحديد(٩٤).

زعم دوق البندقية خلال ذلك اللقاء ان الجيش المسيحي الجرار قادر على ابادة المسلمين خلال فترة قصيرة. فأكد له براق ان الأمر ليس بهذه السهولة. فالمسلمون ملتزمون بدينهم، ويدافعون عن شرفهم بأرواحهم. لكنه أشار من جانب اخر الى ان المسلمين يتميزون بنقطة ضعف كبيرة وهي انهم اناس يحسنون الظن بكل أحد، ولذلك يمكن استغلال نقطة الضعف هذه(٩٥).

أوصى براق بن عمار المسيحيين بالاحجام عن المجابهة المباشرة مع المسلمين، واللجوء الى عقد اتفاقية معهم تفرض عليهم الالتزام بثلاثة اشياء: الاول الحرية في نشر الدين، والثاني الحرية في تعليم المسلمين، والثالث الحرية في التجارة معهم. واكد لهم ان النصر سيكون حليفاً لهم لو استطاعوا استحصال هذه الامتيازات الثلاثة من المسلمين(٩٦).

وأعجب الفونس باقتراحات براق وعقد العزم على العمل بها لأنه كان يعلم علماً جيداً أن تحقيق النصر العسكري على المسلمين في ظل تلك الظروف أمراً متعذراً، ولذلك وجه شكره لذلك القائد الخائن(٩٧).

اتفاقية المكر

بعد ذلك عقد اجتماع سري موسع حضره البابا، ودوق البندقية، والنبلاء الاوربيون ومعهم براق بن عمار. وجرت فيه مداولات كثيرة تمخضت عن كتابة مسودة اتفاقية وفق الشروط التي اشار اليها براق بن عمار. وحمل مسودة تلك الاتفاقية اثنان من المعتمدين لدى المسيحيين، الى الحكام المسلمين في الأندلس. فاستلم تلك المسودة مالك بن عباد زعيم المسلمين وأمير قرطبة. وكان قد استعد وتأهب لقتال جيش البابا وبارونات اوربا المسيحية.

استدعى مالك قادة الجيش وكبار رجال الدولة وحكام المدن مثل اشبيلية، وطليطلة، وبلنسية، ومالقة، وغرناطة، والجزيرة الخضراء من اجل التشاور ودراسة مسودة اتفاقية السلام. فحضر الجميع الى قرطبة خلال عدة ايام وكان بعضهم يمتطي الجياد الأصيلة في منتهى الغرور. وكان احدهم ويدعى عدي بن أبي عامر ـ حاكم بلنسية ـ قد أتى وخلفه ٢٠٠ فارس كانت سنابك خيولهم من الذهب الخالص. وكان مالك بن عباد شيّد في قرطبة قصراً عظيماً لاستقبال كبار الضيوف، تحيط به البساتين والحدائق. وفي ذلك القصر تماثيل فضية في صور الطيور والحيوانات التي تخرج المياه من افواهها. وقد قال الشاعر ابن زيدون في ذلك القصر:

قصرٌ يُقر العينَ منه ناظرٌ   بهجُ الجوانب، لو مشى لاختالا

وانخدع المسلمون الأندلسيون بالمسيحيين، فوافقوا على تلك المسودة والشروط التي وردت فيها، ولم يعارضها سوى امير يدعى قيس بن مصعب، لكنه لم يؤخذ

برأيه. وأمضى اولئك الامراء شهراً كاملاً في ضيافة مالك بن عباد مستغرقين في اللذائذ والأفراح في غفلة عما كان يحوكه العدو لهم من مؤامرات ودسائس. وقد قال الشاعر العربي في ذلك:

ومن رعى غنماً في أرضٍ مسبعةٍ ونامَ عنها، تولّى رعيه الأسدُ

بداية الانحطاط

في اعقاب ابرام معاهدة الصلح مع المسيحيين، اخذت اخلاق مسلمي الأندلس وسلوكياتهم تنزع نحو الفساد والانحطاط. وتوزع القساوسة والمبشرون المسيحيون في المدن الاسلامية، واخذوا يشيّدون المدارس ويدعون للديانة المسيحية. ومن اولى الخطوات التي خطاها رجال الدين المسيحي انهم انشأوا بستاناً ومتنزهاً على ضفاف نهر قرطبة وشيّدوا فيه مبنى جميلاً خاصاً بنزهة الحكام وكبار الشخصيات المسلمة. فأخذ يرتاده المسلمون ـ لاسيما في يوم الأحد ـ للنزهة وكذلك للتمتع برؤية الفتيات المسيحيات.

يذكر عبدالواحد المراكشي في كتاب تاريخه المسمى «المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب» ان دوق البندقية شيّد في نفس ذلك العام الذي تم فيه ابرام تلك الاتفاقية، اربع مدارس كبرى، كان التعليم فيها عاماً ومجانياً بحيث يتاح لأبناء المسلمين التعلّم فيها(٩٨).

خلال تلك الفترة، كانت مدارس المسلمين في قرطبة وسائر مدن الأندلس الاخرى مغلقة تقريباً، الأمر الذي أجبر أبناء المسلمين على التسجيل في المدارس المسيحية، وتلقيهم فيها للتعاليم والأخلاق والخصوصيات المسيحية، لاسيما في بلنسية التي كان فيها للقساوسةالنصارى نفوذ كبير.

ابن ذي النون الغافري الذي خلف عدي بن ابي عامر، فسح المجال لرجال الدين المسيحي والمبشرين النصارى للعمل كيفما يشاؤون بحيث باتوا يتدخلون في

جميع الامور والأعمال، حتى قيل ان ابن ذي النون كان على علاقة خفية بـالبابا ويتقاضى منه الرشاوي.

لعب جندل بن حمود ـ امير أشبيلية ـ دوراً مهماً في تلك التغييرات. في تلك الفترة التي قَدِمَ فيها مع سائر الامراء المسلمين الى قرطبة للتشاور بشأن معاهدة الصلح مع المسيحيين، تلقى رسالة سرية من البابا وعده فيه بتنصيبه ملكاً عـلى الأندلس بأسرها، وطمأنه على ان جميع البارونات والنبلاء المسيحيين موافـقون على ذلك. وعلى هذا الأساس عاد مسرعاً الى اشبيلية بانتظار الفرصة اللازمـة لبلوغ ذلك الهدف.

وطبقاً للاقتراح الذي قدمه براق بن عمار أخذت الخمور الاوربية تتدفق على الاندلس لافساد الشباب المسلمين. وقام قس نصراني بشراء جميع الأعـناب في قرطبة وأقسم انه لن يبيع الخمر الذي سيستحصله منها إلّا على الطلاب المسلمين لاسيا اولئك الذين يدرسون في المدارس المسيحية. فنتج عن كل تلك المخـططات التي حيكت للمسلمين بدقة مايلي:

١ ـ اصـبح شرب الخـمر الذي كـان المسـلمون في الأنـدلس يمـتنعون عـنه ويعتبرونه عملاً محرماً ومقززاً وعاراً، ممارسة عادية وشائعة لاسيا بين الشـباب المسلمين المتخرجين من المدارس المسيحية، حتى اصبح شربه من خـصوصيات المثقفين والتجديديين!

٢ ـ عمل الادمان على شرب الخمر وتحوله الى ممارسة عادية، على خلع لباس الوقار والحياء عن المسلمين، فصار السكر جزءاً من سلوكياتهم وأخلاقهم.

٣ ـ أخذ الشباب المدمنون على الخمر، يحتقرون اخلاق وسلوكيات آبـائهم، ويصفون آباءهم وأجدادهم بانهم متخلفون ورجعيون.

٤ ـ خلع المسلمون ثياب الصوف والشعر ـ وهو زِي مجاهدي الاسلام ولباس الصبر والعمل ـ وارتدوا بدلاً منها ثياب الحرير والديباج.

٥ ـ تجاهل الناس تعاليم الاسلام وأشاحوا عنها لاسيما القدوم الى المساجد وأداء الصلاة التي تعد عمود الدين والمدافع عن معنويات المسلمين وسلوكياتهم. فأصبحت المساجد مهجورة ووسخة ولا تجد فيها سوى الشيوخ والطاعنين في السن.

٦ ـ انشغل الشباب المسلمون في النوادي ودور البغاء والمراقص التي كان يديرها النصارى، وتعمل فيها الفتيات المسيحيات التي جاء بهن القساوسة لافساد المسلمين. فكان أبناء المسلمين يسهرون في تلك الأماكن حتى وقت متأخر من الليل.

٧ ـ شاعت في المجتمع الاسلامي حالة الاسترخاء والاستغراق في اللذائذ والميل الى التجمل وارتداء الملابس الفاخرة، بحيث اخذ الناس يتنافسون فيما بينهم على السكن في القصور والخروج بثياب ثمينة والتزين. ولما كان من الصعب توفير المال لتغطية مثل هذه النفقات الباهضة، ظهرت حالات الحصول على المال بطرق غير مشروعة كالرشوة والاختلاس والفساد الاداري. كما باتت الطبقات المنتجة للثروة كالمزارعين والعمال، في حالة يرثى لها وأخذت تزداد فقراً ومسكنة في كل يوم. وكان رجال الدين المسيحي يعملون بكل مالديهم من قوى وامكانات على تفاقم تلك الظواهر وتعميقها(٩٩).

سقوط مدينة بلنسية

استشرى الفساد الأخلاقي بين الحكام المسلمين الى درجة بحيث وقع المعتصم بن صمادح ـ أمير المرية ـ في غرام فتاة مسيحية، وانتزعها من ابيها بالقوة فلجأ والدها الى جندل بن حمود أمير اشبيلية. فبعث الأخير جيشاً نحو المرية لمعاقبة المعتصم، لكنه كان يسعى في حقيقة الأمر لاسترضاء البابا. ووجد المسيحيون في الحرب بين أميرين مسلمين، أمراً يصب في اهدافهم ويحقق لهم طموحاتهم القديمة، فأمدوا جندل بن حمود بالكثير من المقاتلين، فلحقت الهزيمة بابن صمادح وسقطت

المرية بيد ابن حمود، لكنها في الحقيقة قد سقطت بيد المسيحين. وتعد هـذه، اول ضربة عسكرية توجه للمسلمين في الانـدلس بـعد اتـفاقية السـلام مـع البـابا والنصارى.

في ٤ جُمادى الثانية ٤٨٦ / ١٠٩٤ سمع الحصين بن جعفر ـ قائد الجـيش في بلنسية ـ ان ابن ذي النون ـ وزير عدي بن عبد العزيز ـ لديه مكاتبات واتصالات مع المسيحيين، ووعدهم سراً بتسليم قلاع بلنسية اليهم. فأسرع للالتقاء به، لكنه لم ينجح في ثنيه عن عزمه وخيانة المسلمين. فـقام بـتسليم تـلك القـلاع للـجيش المسيحي واستولى المسيحيون على بلنسية، وقاموا بعمليات قـتل ونهب وسـلب واعتداء على الأعراض حتى انهم اخذوا يغتصبون الفتيات والنساء المسلمات امام اعين آبائهن وامهاتهن وأزواجهن. وقام الجيش المسـيحي بـقتل ١٣ ألف رجـل مسلم بتهمة الدفاع عن شرفهم وأزواجهم وأبـنائهم، كـما قـتلوا ٣٠ ألف رجـل وإمرأة من المسلمين لأنهم رفضوا اعتناق الدين النصراني. وأحرقوا مسجد المدينة ومدرستها الكبرى. وتم احتلال مدينة بلنسية بسرعة مذهلة بحيث لم تتح الفرصة لحكام وأمراء المـدن الاخرى ارسال قوات للدفاع عن تـلك المـدينة والتـصدي للهجوم المسيحي.

بينما تأهب عدي بن العزيز للزحف نحو بلنسية واسـتعادتها مـن المسـيحيين، طرق سمعه خبر مفاجئ يقول ان جيوش العدو قد ترجلت في جزيرتي مـيورقة (Majorka)، ومنورقة (Minorka) التي تدعى بالجزيرة الخضراء ايضاً، لذلك قرر الاحتفاظ بقواته للدفاع عن قرطبة.

في أعقاب استيلاء المسيحيين على مدينة بلنسية، استولوا على مدينة طليطلة ايضاً في عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م. وقد أمر الفـونسو في اعـقاب انـتصاره عـلى المسلمين باحراق ابن ذي النون الذي خان ابناء ديـنه وسـاعد النـصارى عـلى احتلال بلاد المسلمين. وبهذه الطريقة استطاع هؤلاء ومن خلال افسـاد المجـتمع الاسلامي السيطرة على مدن الأندلس واحدة بعد الاخرى بشكل تدريجي.

ج ـ العوامل الجيوسياسية

بدأ فتح المسلمين لبلاد الاندلس في عام ٩٢ هـ / ٧١١ م وانتهى في عام ٩٧ هـ / ٧١٦ م. واستطاع المسلمون خلال هذه الفترة القصيرة الاستيلاء على الجزء الأعظم من شبه جزيرة ايبيريا ضمن سلسلة من الانتصارات المتلاحقة. وبوفاة عبد العزيز بن موسى عام ٩٧ هـ / ٧١٦ م، انتهت مرحلة فتح البلدان غير الاسلامية.

الأمر الذي يستحق الاهتمام من الزاوية الجيوسياسية في تلك الفتوحات هو ان شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس)، لم تُفتح بشكل كامل، ولم يسيطر المسلمون عليها تماماً، اذ ظلت بعض الجيوب، لاسيما تلك المنطقة الكائنة في الشمال الغربي، خارجة عن سيطرتهم. كما كانت توجد أماكن اخرى هنا وهناك لم تكن لدى المسلمين سيطرة مؤثرة عليها.

اتخذ النصارى من الشريط الضيق في السواحل الشمالية لاسبانيا بمحاذاة خليج بيسكي، رأس جسرٍ لاستخدامه ضد المسلمين عند الضرورة لاسيما حين تبرز الصراعات الداخلية فيما بينهم، وهو الأمر الذي كانوا يعوّلون عليه.

عدم اهتمام المسلمين بتلك المنطقة وابقاؤها في يد المسيحيين، كان يُعد خطأً استراتيجياً كبيراً ارتكبه المسلمون ويأتي من حيث الحجم بعد الصراعات بين العرب والبربر، والفساد الثقافي والأخلاقي الذي طال ابناء المسلمين.

وتتحدث بعض المراجع عن ذلك الخطأ الاستراتيجي قائلة: حينما وصل موسى بن نصير في الشمال الى البحر، شعر بأنه قد فتح شبه جزيرة ايبيريا بأسرها ولم يجد مبرراً كافياً للاستمرار في زحفه، فتفرق جيشه عنه. اما اولئك الذين ظلوا الى جانبه، كانوا يرغبون في العودة ايضاً بسبب المسافة الطويلة التي قطعوها والاعياء الذي باتوا يعانون منه. ووافق موسى على العودة ايضاً غافلاً عن ان هناك اعداداً

كبيرة من القوط قد انسحبوا خوفاً منه واحتموا في استورياس وغاليسيا عند ساحل خليج بيسكي.

كان المسلمون يتصورون انه لم يبق من القوط سوى ثلاثين شخصاً وأن الباقين قد هلكوا. والحقيقة هي ان بقايا القوط كانوا قليلين آنذاك. ولو لم ينهمك العرب فيما بعد بالصراعات والتناحرات الداخلية والقبلية، لأولوا اهتمامهم نحو الارض المتبقية من الأندلس وقوات العدو، لكنهم انشغلوا بأنفسهم، فاستطاعت حفنة من القوط الاستقرار في تلك المناطق النائية، وأخذوا يزدادون في العدد والعدة، ويتحينون الفرصة الملائمة لتوجيه الضربة للمسلمين(١٠٠).

وتبالغ المصادر العربية التقليل من عدد هؤلاء وشأنهم فيقول عيسى بن أحمد الرازي بأن ملك القوط ويدعى بلاي (بلايو) لجأ مع ٣٠٠ من أصحابه الى احد الكهوف خوفاً من الجيش الاسلامي الى ان هلك مع أصحابه من الجوع والظمأ. ولم يبق سوى ثلاثين رجلاً وعشر نساء كان طعامهم العسل الذي يجمعونه من شقوق الصخور. فعجز المسلمون عن الامساك بهم واستهانوا بشأنهم، اذ ماذا بامكان هذه الحفنة ان تفعل(١٠١)؟

ويقول ابن عذاري ايضاً ان المسلمين ضيقوا الخناق حتى لم يبق منهم سوى ثلاثين رجلاً كانوا يعيشون على العسل الموجود في شقوق الصخور التي يحتمون بها(١٠٢).

لاريب في انه كان على رأس هؤلاء القوط المحتمين بالصخور، عدد من الأسر المرتبطة برودريك ملك القوط، ومجموعة من الشخصيات القوطية وبعض رجال الدين والقساوسة، والذين فضلوا الهجرة والحياة في هذه المناطق النائية على العيش في المدن التي فتحها المسلمون. والنصر الذي حققه بلايو على العرب في معركة كوفادونغا (Covadonga)، ادى الى انسحاب العرب وتوسع الأراضي الخاضعة لسيطرته.

المصادر المسيحية تقدم وصفاً مبالغاً فيه لذلك الانتصار، وتعتبره فتحاً كبيراً.

كما طفق المؤرخون الأسبان في الاشادة به معتبرينه بداية المعركة لطرد المسلمين من اراضيهم، ويعبّر بعضهم عن معركة كوفادونغا بأنها ولادة جديدة لأسبانيا المسيحية.

ما يمكن ان يستشف من روايات المؤرخين المسلمين والنصارى هو ان بلايو قد تمرد على المسلمين في منطقة استورياس، واعلن استقلال هذه المنطقة في عهد عنبسة بن سُحَيم الكلبي. وبذل الجيش المسلم في استورياس جهوداً متلاحقة وأمضى فترة طويلة لاجباره على الاستسلام، لكنه لم يحقق نجاحاً في ذلك. فأخذت حركته تتعاظم لاسيما بعد فتنة ابي الخطار الذي اجبر المسلمين للاندفاع لقتاله الى جانب يوسف الفهري وصميل بن حاتم. فانتهز بلايو تلك الفرصة فضاعف من جهوده وألحق بالمسلمين هزيمة مرة أجبرتهم على الخروج من غاليسيا. وكان لتلك الهزيمة انعكاس في غاليسيا بأسرها، ودفعت ببعض اهلها الذين كانوا قد أسلموا على الرجوع الى المسيحية.

من الواضح ان كوفادونغا لم تكن اكثر من كونها مجابهة عسكرية بين المسلمين والمسيحيين، انتهت لصالح المسيحيين بسبب بعض العوامل الناجمة عن وجود رؤية استراتيجية من جهة، ولوجود الاختلافات والانقسامات الداخلية من جهة اخرى، وليس بسبب شجاعة بلايو وبطولته، كما يحاول ان يصوّر ذلك المؤرخون النصارى.

اصبحت غاليسيا واستورياس منذ معركة كوفادونغا، مهداً لدولة استورياس الفتية، وقد اخذت هذه الدولة تتقوى وتترسخ بحيث لم يعد باستطاعة المسلمين القضاء عليها. بتعبير آخر: كان هذا الحدث بمثابة اعلان لولادة استورياس وبداية جادة لحركة المقاومة المسيحية في بلاد الاندلس. لذلك تُعد أحد الأحداث المصيرية في تاريخ أسبانيا. والتفسير الصحيح لذلك الحدث هو اعتباره حركة توصل بين حلقات التاريخ الاسباني، وتعيد تلك الأرض الى أحضان المسيحية وميدان الحضارة الغربية تارة اخرى.

على اية حال، ان عدم فتح المسلمين لتلك البقعة النائية في منطقة غاليسيا، ليس بسبب هزيمتهم أمام بلايو او عدم الاكتراث بهذه الفئة المتبقية من المتمردين، وانما بسبب عدم ادراك اهميتها الجيوسياسية من جهة، وانشغال المسلمين بالصراعات العرقية والقبلية من جهة اخرى، الأمر الذي عمل على اضعاف المسلمين، وتوفير فرصة للنصارى المتمردين الذين هم بأمس الحاجة اليها. فانتهزوا تلك الفرصة الذهبية لترسيخ مواقعهم، فتحولوا من طائفة متمردة ملاحَقة الى دولة ذات هوية وكيان.

من الواضح ان تجاهل العرب لوضع حد لتلك الحركة واستمرارها، دفع بها الى خلق وضع جديد في شبه جزيرة ايبيريا، وحوّلها بعد فترة قصيرة الى أحد المحاور المهمة في تاريخ الأندلس. فمنذ ذلك التاريخ لم تعد بلاد الاندلس بلداً اسلامياً بشكل كامل، وانما انقسمت الى دولتين: اسلامية، ومسيحية. وقطعت كل دولة طريقاً خاصاً بها، واستمرت عملية الصراع والحرب بين الدولتين حتى انتهى الامر في نهاية المطاف الى رجحان كفة الدولة المسيحية وخروج الاسلام من بلاد الأندلس تماماً.

د ـ تأثير سقوط الأندلس على توازن القوى بين عالمي الاسلام والمسيحية

اكتمل فتح المسيحيين للأندلس، عام ١٤٩٢ م، وتم اخراج المسلمين من جنوب غرب قارة اوربا بشكل كامل. وفي هذا العام بالذات بدأت الرحلة التاريخية للرحالة الايطالي كريستوفر كولومبوس لاكتشاف الطرق البحرية، وقادته تلك الرحلة لاكتشاف قارة أمريكا. وقبل ذلك كان السلطان العثماني محمد الفاتح قد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م. فأدت هذه الأحداث وأمثالها الى اعتبار عام ١٥٠٠ م حداً فاصلاً بين العصرين الجديد والقديم.

مع انتصار الاوربيين المسيحيين في شبه جزيرة ايبيريا، واخراج المسلمين من آخر موضع لهم في غرناطة، لم يكن واضحاً للاوربيين ان قارتهم مستعدة للسيطرة

والهيمنة على الكرة الأرضية بأسرها، لأن الوجود القوي للامبراطورية العثمانية المسلمة في جنوب شرقي اوربا، كان بمثابة كابوس جاثم على فكر وقلب الزعماء الاوربيين لاسيما البابا.

القاء نظرة على الخريطة الجغرافية لاوربا ودراسة موقع هذه القارة قياساً الى القارتين المجاورتين ـ أي آسيا وأفريقيا ـ يكشف عن الحقيقة التالية وهي ان القارة الاوربية كانت ذات وضع مرتبك من حيث الجغرافية السياسية. فتحدّها من الشمال المياه المتجمدة، وتتعرّض من الشرق لغزو بري متكرر، ومن الممكن ان توجّه اليها ضربة قاصمة من الجنوب مع اية محاصرة استراتيجية.

هل يُعد سقوط غرناطة أمام جيوش فرديناند وايزابيلا نهاية للتنافس الاستراتيجي بين عالم الاسلام وعالم المسيحية؟ وهل تغيّر التوازن في القوى لصالح عالم المسيحية في أعقاب هزيمة المسلمين في أسبانيا ام انه نهاية للصراع في تلك المنطقة وليس نهاية لحرب اكبر بين عالمي المسيحية والاسلام؟

تكشف المؤشرات والقرائن على ان انتصار المسيحيين في اسبانيا لم يكن سوى حلقة في سلسلة التنافس والخصومة بين المسيحيين والمسلمين.

على ضوء قابلية اوربا على التعرّض لضربة استراتيجية من الجنوب رغم النصر الذي تحقق لها في الأندلس، لازالت اوربا منذهلة من الضربة التي تعرّضت لها بسبب سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م. ولم يكن قد ظهر الى الوجود آنذاك بلد باسم الولايات المتحدة الأمريكية كي تعتبره اوربا عمقاً استراتيجياً لها، لتقف بوجه الأعداء المحتملين في الشرق والجنوب.

من جانب آخر، نظراً لاقتصار التعامل التجاري الاوربي، على الشرق، ومرور الطرق البحرية المنتهية بالشرق من جنوب اوربا، باتت تتضح اكثر من ذي قبل قابلية اوربا على التعرض لضربة استراتيجية. وعلى هذا الضوء، يمكن ان يُعد انتصار المسيحيين في اوربا، ذا جانب تكتيكي فحسب وليس ذا بعد استراتيجي، لأن قوة العالم المسيحي آنذاك لم تكن بالمستوى الذي تستطيع معه التصدي للزحف

العثماني في اوربا وايقافه. فالأتراك العثمانيون كانوا يحتفظون باليونان، وجزر ايوني، والبوسنة، والبانيا، وجزء كبير من شبه جزيرة البلقان حتى نهاية القرن الخامس عشر. وكانوا يزحفون في العقد الثالث من القرن السادس عشر بقوة نحو بودا بيست، وفينا، ووصلت السفن العثمانية الى الموانئ الايطالية، فداخل البابوات الخوف، وباتوا يقلقون على روما، ويخشون ان يحلّ بها عين ما حل بالقسطنطينية.

دراسة التحولات الداخلية التي شهدها العالم الاسلامي، تكشف عن ان العد التنازلي للمسلمين من حيث القوى المادية وغير المادية، قد بدأ قبل ذلك بقرون. فضعف جهاز الخلافة، والصراعات الداخلية، والغزو المغولي وضرباته الماحقة، وغيرها، عملت على التسريع في تراجع المسلمين وتقهقرهم. بينما اخذ الاوربيون ينطلقون في صحوة فكرية وثقافية من خلال تعاملهم التجاري مع العالم الاسلامي، والحروب الصليبية، والأندلس الاسلامية. والمدهش في الأمر أن بداية الازدهار الفكري والثقافي الاوربي كانت عام ١٤٥٣ م، اي العام الذي اندحرت فيه الامبراطورية الرومانية الشرقية أمام المسلمين في القسطنطينية. بينما كان انكسار آخر دولة اسلامية في الاندلس عام ١٤٩٢ م، منعطفاً في حياة المسلمين وحركتهم التنازلية وتدهورهم السياسي.

طبعاً مر قرنان من الزمن تقريباً قبل ان يتضح ان التغيير في توازن القوى يتجه لصالح الاوربيين، اذ ان الفاصل الزمني بين فتح المسلمين للقسطنطينية، وسقوط اسبانيا على يد المسيحيين وبين هزيمة العثمانيين في محاصرة فينا، استغرق نحو قرنين من الزمن. وعليه فانكسار المسلمين في اسبانيا وان لم يترك تأثيرات آنية على تغيير توازن القوى لصالح المسيحيين، ولكن يمكن ان يكون من خلال نظرة عامة وتاريخية، مظهراً لمسار تنازلي للعالم الاسلامي بدأ قبل قرنين.

هوامش الفصل الثالث:

١ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، تحت اشراف كاظم الموسوي البجنوردي، ٢٠٠١، ج ١٠، «الأندلس»، (محمد رضا ناجي).

٢ ـ نفس المصدر، ص ٣٢٤.

3 - Hamunod Embassador World Atlas' U.S.A.' 2000'p.32.

4 - Ibid.

5 - The Atlas of European History' London' Time Book' edition' 1998' p.60. second

٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق.

٧ ـ نفس المصدر.

٨ ـ دكتور حسين مؤنس، فجر الأندلس. القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩م، ص ٣٦٦ ـ ٣٧٤.

٩ ـ نفس المصدر، ص ٤٠٧.

١٠ ـ نفس المصدر، ص ٣٢٥.

١١ ـ نفس المصدر، ص ١٢٩.

١٢ ـ نفس المصدر، ص ٤٠٨.

١٣ ـ نفس المصدر، ص ٣٢٥.

١٤ ـ نفس المصدر.

١٥ ـ نفس المصدر.

١٦ ـ نفس المصدر، ص ٣٢٦.

١٧ ـ دائرة المعارف الفارسية، باشراف غلام حسين مصاحب، ج ١، «الأندلس».

١٨ ـ مونتغمري وات، اسبانيا الاسلامية، ترجمة محمد علي الطالقاني، طهران، ١٩٨٠، ص ٧.

١٩ ـ نفس المصدر، ص ٨.

٢٠ ـ نفس المصدر، ص ٩.

٢١ ـ حسين مؤنس، مصدر سابق، ص ٤١.

٢٢ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ١١.

٢٣ ـ نفس المصدر.

٢٤ ـ دائرة المعارف الفارسية، سابق.

٢٥ ـ ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر، تاريخ افتتاح الاندلس، حقّقه: ابراهيم الأبياري، قاهرة، دار الكتاب المصري، ١٤١٠ هـ ق. ص ٣٥.

٢٦ ـ نفس المصدر، ص ٣٥.

٢٧ ـ نفس المصدر، ص ٣٦.

٢٨ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١، «الأندلس، تاريخها»، (عناية الله فاتحي نجاد).

٢٩ ـ مونتغمري وات، سابق،ص ١٥.

٣٠ ـ نفس المصدر، ص ١٦.

٣١ ـ حسين مؤنس، سابق، ص ٧٦.

٣٢ ـ نفس المصدر.

٣٣ ـ نفس المصدر، ص ٧٧.

٣٤ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أثراتها والحروب الواقعة بها بينهم، بجهود ابراهيم الأبياري، بيروت / القاهرة، دار الكتب الاسلامية، ١٤٠١ / ١٩٨١، ص ٢٢.

35 - Reinhart Dazy' Pieter Anne' Spanish Islam:

A History of The Moslems in Spain' London' 1988'p.75.

٣٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق.

٣٧ ـ نور الدين آل علي، الاسلام في الغرب، تاريخ الاسـلام في اوربـا الغـربية، طـهران، جامعة طهران، ١٩٩١، ص ٦١ ـ ٦٩.

٣٨ ـ نفس المصدر.

٣٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق، ص ٣٢٦.

٤٠ ـ نفس المصدر، ص ٣٢٧.

٤١ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ٢٢.

٤٢ ـ دائرة المعارف الفارسية، سابق، ص ٢٦٦.

٤٣ ـ نور الدين آل علي، سابق، ص ١٢١ ـ ١٢٧.

٤٤ ـ محمد ابراهيم آيتي، الاندلس أو تاريخ حكومة المسلمين في اوربا، طـهران، جـامعة طهران، ١٩٨٤، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

٤٥ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

٤٦ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ١١٢ ـ ١١٣.

٤٧ ـ نفس المصدر.

٤٨ ـ نفس المصدر، ص ١١٤.

٤٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق.

٥٠ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ١١٥ ـ ١٢٠.

٥١ ـ محمد ابراهيم آيتي، سابق، ص ١٦٠ ـ ١٦٥.

٥٢ ـ نفس المصدر، ص ١٦٧ ـ ١٨٠.

٥٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق.

٥٤ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

٥٥ ـ دائرة المعارف الاسلامية ا لكبرى، سابق.

٥٦ ـ نفس المصدر، ص ٣٣١.

٥٧ ـ نفس المصدر.

٥٨ ـ نفس المصدر، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

٥٩ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ٧٤.

٦٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١٠، «الاندلس، العلوم النقلية»، (احمد باكتجي).

٦١ ـ محمد ابراهيم آيتي، سابق، ص ٩٠ ـ ٩١.

٦٢ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١٠، «الاندلس، العلوم»، (يونس كرامتي).

٦٣ ـ محمد ابراهيم آيتي، سابق، ص ٩٢.

٦٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق.

٦٥ ـ نور الدين آل علي، سابق، ص ٣٤٠.

٦٦ ـ نفس المصدر.

٦٧ ـ نفس المصدر.

٦٨ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق، ص ٣٣٧.

٦٩ ـ نور الدين آل علي، سابق، ص ٣٣٩.

٧٠ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق.

٧١ ـ نفس المصدر.

٧٢ ـ نفس المصدر.

73 - Juan Vernet' Roman Masats' Alandalus - El Islam En Espana'Lunwerg' Barcelona' 1992' p.215.

٧٤ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ٨٥ ـ ٨٦.

٧٥ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١٠، «الاندلس، الأدب العربي»، (آذرتاس

آذرنوش).

۷٦ـ مونتغمري وات، سابق، ص ۱۳۲ ـ ۱۳۳.

۷۷ـ نفس المصدر.

۷۸ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، سابق.

۷۹ـ نفس المصدر.

۸۰ـ نفس المصدر.

۸۱ـ نور الدين آل علي، سابق، ص ۲۳۲.

82 - Francis Robinson' Islamic World' Cambridge University Press' 1998' p.26.

83 - Ibid.

۸٤ـ نور الدين آل علي، سابق، ص ۲۳۲ ـ ۲۳۷.

۸٥ـ لمزيد من المعلومات، راجع: دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ۱۰، «الاندلس»؛ مونتغمري وات، سابق؛ كذلك:

Francis Robinson' op.cit.' Juan Vernet' Ramon Masats' op.cit.

86 - Thomas' Cussans' The Atlas of Eurpean History' London: Time Books 1998' pp. 56 - 57.

۸۷ـ حسين مؤنس، سابق، ص ۲۰۷ ـ ۲۰۹.

۸۸ـ نفس المصدر، ص ۲۱۰.

89 - William L.' Langer' An Encyclopedia of World History' Boston: Houghton Mifflin Company' 1948' p.164.

۹۰ـ حسين مؤنس، سابق، ص ۳۳۷.

۹۱ـ نفس المصدر، ص ۳۳۷ ـ ۳٤۲.

92 - Thomas' Cassans' op. cit.' p.60.

٩٣ ـ مونتغمري وات، سابق، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

٩٤ ـ سيد محمد طنطاوي، غروب شمس الأندلس، طهران، دار الصادقين، ٢٠٠٢م، ص ١٦ ـ ١٧.

٩٥ ـ نفس المصدر، ص ١٧ ـ ١٨.

٩٦ ـ نفس المصدر.

٩٧ ـ نفس المصدر، ص ١٨ ـ ٢٢.

٩٨ ـ نفس المصدر، ص ٣٠ ـ ٣١.

٩٩ ـ نفس المصدر، ص ٣٧ ـ ٤٢.

١٠٠ ـ حسين مؤنس، سابق، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

١٠١ ـ نفس المصدر، ص ٣١٤.

١٠٢ ـ نفس المصدر، ص ٣١٤.

الباب الثاني

إحياء الحضارة الاسلامية

منذ القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر الهجري

الفصل الاول: العثمانيون

الفصل الثاني: الغوركانيون (مغول الهند)

الفصل الثالث: الصفويون

الفصل الاول

العثمانيون

ظهور العثمانيين ونشوء دولتهم

يلف الغموض طريقة ظهور الدولة العثمانية. وتصطبغ المعلومات المتوفرة عن الاعوام الاولى لنشوء هذه الدولة بصبغة اسطورية وملحمية. ويؤكد مؤرخ الباب العالي في القرن الخامس عشر الميلادي ـ عاشق باشا زاده ـ على عدم وجود رواية وثائقية متقنة حول بداية الدولة العثمانية. فطبقاً للقصة التي اوردها في تاريخه ان «أرطغرل» ـ والد عثمان ـ هاجر في زمن مجهول مع ولده سليمان شاه، وأخويه سنقورتكين وكوندوغدو، الى آسيا الصغرى. وبعد سنوات من العيش في هذه الأرض، قرر هؤلاء العودة الى موطنهم الأصلي. وفي طريق العودة غرق سليمان شاه في نهر الفرات، فواصل شقيقا أرطغرل طريقهما نحو تركستان، اما هو فقد أقام مع أربعمائة أسرة مهاجرة في آسيا الصغرى. ثم بعث ولده سار وياتي الى علاء الدين أحد سلاطين سلاجقة الروم، طالباً منه ان يقطعه مع أتباعه بعض الاقطاعات، فوافق السلطان على اعطائهم قلعة سيوط ومناطق دومانيج وأرمني يلي(١).

بعد وفاة أرطغرل، أقام ولده عثمان علاقات حميمة مع بعض كبار الشخصيات المسيحية في المناطق المجاورة، فاستطاع بذلك ان يصبح أحد الامراء المتنفذين في المنطقة. ومع ذلك كان بعض الامراء المسيحيين في آسيا الصغرى مثل حاكم آينه غول (او إينه غول، بالقرب من مدينة بورسة) ينظرون اليه بعين الشك. ولذلك حدثت عمليات مجابهة بين الجانبين قُتل فيها عدد من اتباعه، من بينهم ابن اخيه بيك خواجه. وكان من أعداء عثمان ايضاً، حاكم قراجه حصار وأخوه كالاخوز، حيث ادت الاشتباكات بينهما وبين عثمان وأتباعه الى مقتل شقيق عثمان المدعو ساروياتي(٢).

تلك الاشتباكات المتناوبة، تمثل في حقيقة الأمر نوعاً من التنازع على البقاء، والذي استطاع فيه عثمان وأتباعه من المهاجرين ان يؤسسوا لنفسهم كياناً يفرض نفسه على الواقع من خلال الغنائم والانجازات العسكرية.

بعد ان عجزت الأقلية المهاجرة التي يترأسها عثمان، ان تحقق نصراً على الأمراء النصارى الذين كانوا يناصبونها العداء، وجدت نفسها مرغمة على استجلاب دعم سلاجقة الروم. وحينما دخل عثمان في حرب مع الحكومة المسيحية في منطقة غرميان، حدثت خطوات للحصول على دعم عاجل من سلاجقة الروم ضد هذا العدو المشترك.

مع ذلك كان الغزو المغولي لمدينة ارغلي (هراقلة، الواقعة في كابادوكيا القديمة)، حائلاً دون استمرار زحف القوات السلجوقية في منطقة قراجه حصار لقمع النصارى. ورغم ذلك، نجح عثمان في فتح المدينة، وبعث رسالة مع ابن اخية آق تيمور، يعلن فيها عثمان عن تبعيته لسلاجقة الروم. فسرّ بلاط السلطان السلجوقي بذلك وبعث الى عثمان علماً ووساماً وخلعاً(٣).

الاستيلاء على قراجه حصار، سمح لعثمان ان يؤسس اللبنات الاولى لدولة عُرفت فيما بعد باسمه. ومن الاعمال الاولى التي قام بها منح منازل واموال المسيحيين الى اولئك الذين قَدِموا من امارة غرميان، وحوّل كنائس المدينة الى

مساجد، وأقام صلاة الجماعة، ساعياً من خلال هذه الخطوات وغيرها الى تحويل هذه المدينة الى مركز لنشاطاته القادمة. كما حاول من خلال ترميم سوق المدينة وتوسيعها، استقطاب اهتمام سكان بيله جك الواقعة ضمن حدود الدولة البيزنطية باتجاه هذا المركز.

مضافاً الى ذلك أقام عثمان علائق ودية مع الامير المسيحي كوسه ميخال ـ امير هارمانكايا ـ من اجل ان يسهل ذلك عليه عملية التطاول على المناطق والمدن المجاورة مثل غوينوك، وطراكلي، ويني جسي، الواقعة عند مصب نهر سقاريه. وكان الهدف من تلك الممارسات، تأمين وتلبية المتطلبات المادية للدولة العثمانية الفتية.

من الجدير بالذكر ان عثمان ـ وعلى العكس مما كان سائداً آنذاك ـ كان يتحاشى عمليات خطف الأفراد كي لا تبعث مثل هذه الأعمال على استياء الناس منه ومن أتباعه(٤).

واستمراراً للأعمال السابقة، استطاع عثمان مع كوسه ميخال، ومن خلال اسلوب الحيلة والمكيدة، احتلال مقر حكم والي بيله جق أثناء حفلة زواجه، وأن يعقد لولده اورخان على لؤلؤفر (نيلوفر)، وهي المرأة التي كان من المقرر أن تتزوج بالوالي السابق. وانتهت هذه المرحلة من التحرشات العسكرية بالاستيلاء على يار حصار وآينه غول. ويؤكد المؤرخ عاشق باشا زاده على ان جميع هذه الانتصارات الاولية قد تحققت خلال الفترة ١٢٨٣ ـ ١٢٩٩(٥).

في الربع الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي، كان نهر سانغاريوس (سقارية فيما بعد)، يمثل الحد الفاصل بين الامبراطورية البيزنطية وامارات آسيا الصغرى. وكان الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن (ت ١٢٨٢ م) قد شيّد عدة مواضع دفاعية عند ضفاف النهر المذكور، فضلاً عن بناء حصن حصين، وذلك للحيلولة دون الهجمات المحتملة لطوائف التركمان. ورغم ذلك لم تعمل تلك الاجراءات على استتباب الأمن في حدود الامبراطورية. فكان الامراء التركمان والسلاجقة ـ لاسيما

الملك المنصور ابن عز الدين كيكاوس الثاني السلجوقي ـ يهددون مصالح تلك الامبراطورية في المناطق الحدودية.

من اجل ان يحصل اندرونيكوس الثاني باليولوغوس (ت ١٣٣٢ م) على حليف عسكري، ولكي يحول دون سقوط دولته، وجد نفسه مرغماً على تزويج ابنته لسليمان باشا أمير تركمان بافلاغونيا، وهي منطقة ساحلية شمالي الاناضول وجنوبي البحر الأسود.

في مطلع القرن الرابع عشر، اخذ المهاجرون التركمان ينطلقون نحو الحدود الغربية لبلاد سلاجقة الروم من أجل الحصول على مراتع لأنعامهم. وكانوا قد هربوا الى داخل آسيا الوسطى خوفاً من المغول، لكنهم لم يجدوا فيها محلاً مناسباً لهم نظراً للكثافة السكانية العالية. وحينما أخذ الأمر يستتب لهم في المنطقة بعد حصولهم على المراتع، اخذوا يتعاملون مع المدن البيزنطية الحدودية. حيث كانت العلاقات بين الجانبين ودية، وذلك لوجود طائفة من الأتراك المسيحيين كانت تسكن في تلك المناطق منذ مدة طويلة. كما كانت العلاقات طيبة بين زعماء الجانبين وشخصياتها السياسية. فخلال تلك الفترة التقى ميخائيل الثامن بسلطان ايكونيوم (قونية). كما استقبل هذا الامبراطور البيزنطي في القسطنطينية عدداً من امراء السلاجقة الذي لجأوا الى الدولة البيزنطية لاختلافات نشأت بينهم وبين امراء أعلى مستوى منهم(٦). ولم تستمر هذه المرحلة من السلام طويلاً، اذ اخذت تنمو بذور الفتنة والصراع بين الجانبين مع تعاظم قوة الأتراك من جهة، وضعف الامبراطورية البيزنطية من جهة اخرى.

تزايد نفوس الاتراك وتضاؤل امكاناتهم المالية، كان يمثل الدافع الاكبر لديهم للقيام بعمليات عدوانية على المناطق الحدودية في الدولة البيزنطية. وكان النجاح العسكري الذي يحققه اي امير من الامراء يشجع عدداً اكبر من الأتراك للانضواء تحت لوائه. والحقيقة هي ان الانتصارات المتعاظمة التي كان يحققها عثمان، مدينة لتلك التحالفات المؤقتة والقائمة على اساس مصالح الجانبين.

العجز الذي كانت تعاني منه الامبراطورية البيزنطية، عمل على تعرض المناطق الحدودية لحالة من اللاثبات واللاأمن اكثر من أي وقت آخر. وعمل هذا الوضع على اتحاد عدد كبير من العاملين في الدواوين البيزنطية وكـذلك الأسرالثريـة في المدن الحدودية، مع الاتراك المهاجمين. وسمح هذا الوضع لعثمان ان يتحول الى أحد ابرز الامراء الاتراك بعد دحره لموزالون في بافوس في ٢٧ تموز ١٣٠٢، وان يصبح في مستوى امراء مناطق غرميان، ومنتشا، وآيدين(٧).

الهزيمة التي لحقت بموزالون، أقنعت الحكـومة البـيزنطية ان عـليها ان تـتخذ أساليب اخرى للـحيلولة دون زحـف الأتـراك. فـبعث الامـبراطـور البـيزنطي اندرونيكوس الثاني سفيراً لدى غازان خان يطلب منه اقامة علاقة ود وارتباط بين الدولتين(٨). وكان الامبراطور البيزنطي يأمل ان يصبح المغول القوة الأكـثر تفوقاً في آسيا الصغرى بعد الانتصار على السلاجقة في معركة كـوسه داغ عـام ١٢٤٣ م، وأن يعيدوا النظام والثبات الى المناطق الحدودية.

خلال هذه الفترة، كان ضغوط الاتراك على الحدود البيزنطية تـزداد بشكـل مطرد. وكانوا يهاجمون باستمرار العديد من مدن الامبراطـورية البـيزنطية مـثل نيكومديا، ونيسه (ازنيق فيما بعد) وبـلوكوميس، وانـغلوكوميس، وأنـاغوردس، وبلاتانيا، وملانجيا، وكرولا (غورله فيما بعد)، وكاتواكيا(٩).

الانجازات العسكرية التي حققها عثمان وأتباعه، كانت في ٣ محاور: في الشرق، زحفوا في السـاحل الأيسر لنهر ساكاريا، وانتهى ذلك الزحـف بـاحتلال مـدينة نيسه. في الغرب، زحفوا نحو لوباديون (اولوباد فيما بعد)، وادرانـوس في الطـرفين الشمالي والجنوبي لجبل اولمب (اولو داغ فيما بعد). واخيراً زحفوا نحو بورسة، التي كانت تعد من القلاع الحصينة في آسيا الصغرى. وقد جعلهم زحفهم نحو الجنوب الشرقي يجاورون شعباً مسلماً آخر يتكلم باللغة التركية ايضاً. ولم يتوقف اتساع رقعة الأراضي بموت عثمان في عام ١٣٢٣ او ١٣٢٤ م. وخلّف عثمان سـتة أولاد هم: اورخان، وجوبان، وملك، وحميد، وبازارلو، وعلاء الديـن. وكـانت له بـنت

تدعى فاطمة. وحل اورخان محل ابيه بعد فترة من المنافسة مع اخيه علاء الدين.

بتولي اورخان، خرجت الحكومة العثمانية من حالة المجهولية. وأهم انجاز عسكري حققه اورخان، كان فتح بورسة في عام ١٣٢٦ م، ثم تبعه فتح لوباديان. ومنذ ذلك العام وحتى عام ١٤٥٣ م أصبحت بورسة عاصمة للدولة العثمانية.

في عام ١٣٢٨ م حل اندرونيكوس الثالث محل ابيه امبراطوراً على الامبراطورية البيزنطية. فعقد العزم على التصدي لاورخان فدارت بين الجانبين معركة في بله كانون وذلك في عام ١٣٢٩ م، فلحقت بالامبراطور هزيمة نكراء، فانسحب الى فيلوكرنه ومنها الى القسطنطينية. وأكد هذا النصر لاورخان ان القوات البيزنطية وخلافاً لما هو متصور، قابلة للهزيمة والانكسار، فتهيأت بذلك الأرضية للهجوم المباشر على الامبراطورية البيزنطية.

في عام ١٣٣١ م حاصرت قوات اورخان مدينة نيكومديا، فاضطر اندرونيكوس الثالث الى عقد معاهدة سلام مع الأتراك العثمانيين في عام ١٣٣٣ م تعهد فيها بدفع مبلغ سنوي مقداره ١٢ ألف هيبرير للعثمانيين. ولم تستمر هذه المعاهدة طويلاً اذ ضمّ العثمانيون نيكومديا الى اراضيهم في عام ١٣٣٧ م(١٠).

زحفُ العثمانيين نحو الغرب، جعلهم يجاورون امارة كارسي(١١) التي ظهرت الى الوجود مع ولادة الدولة العثمانية.

هجمات ميخائيل التاسع ابن اندرونيكوس الثاني، ضد الاتراك المقيمين في سواحل مرمرة وايجه، مهّدت الطريق لنفوذ الاتراك الذين وصلوا لآسيا الصغرى حديثاً، الى المناطق الواقعة في الحد الفاصل بين برغاموم (برغمة) والدردنيل.

من جانب آخر، في هذه المرحلة ايضاً واجهت الامبراطورية البيزنطية بعض القوى المرتزقة مما سبب مزيداً من الضعف للقوة العسكرية البيزنطية. كما سمح التذمر الشعبي المتفاقم في ولاية كارسي، لاورخان بالاستيلاء على هذه الولاية بسهولة. فسكان هذه الولاية الذين لاقوا الويلات على يد اجلان بيك، سرعان ما

مالوا الى اخيه دورسون بيك بمجرد وفاة اجلان بيك. وكان دورسون بيك قد التحق قبل ذلك باورخان. ولكن نظراً للحرب المندلعة بين اورخان والدولة البيزنطية فقد تمّ انضمام هذه الولاية تدريجياً. وهذه العملية التي بدأت عام ١٣٤٥ م، اكتملت عام ١٣٤٩ م حينما تم زجّ آخر امراء كارسي في السجن ووفاته بمرض الطاعون الذي شاع آنذاك، فالتحقت كارسي بالدولة العثمانية(١٢).

استيلاء العثمانيين على كارسي، جعلهم يسيطرون على سواحل الدردنيل. ولما كان العبور من هناك الى اوربا، امراً ممكناً وحتمياً، فقد تم التسلل التركي الاول الى جزء من الأرض الاوربية في الجانب الآخر من الدردنيل عند مشارف القرن الرابع عشر الميلادي. فكانت مجاميع من القوى التركية المرتزقة التي انخرطت في خدمة الدولة البيزنطية، قد أمضت بعض الوقت في شبه جزيرة غاليبولي (غليبولي)، لقمع فئة اخرى من الاتراك معادية للدولة البيزنطية(١٣).

حينما توفي اندرونيكوس الثالث عام ١٣٤١ م، حل محله ولده الصغير في السن يوحنا الخامس بالايولوغوس، فالت الدولة البيزنطية في عهده الى الضعف عسكرياً وسياسياً. وكانت ادراة شؤون البلاد كافة آنذاك بيد يوحنا السادس كانتاكوزنوس الوصي على يوحنا الخامس. ومنذ ذلك الحين حدث شقاق في البلاط البيزنطي نتيجة العداء الذي نشب بين كانتاكوزنوس وأم يوحنا الخامس(١٤).

كان الهدف الأول في سياسة كانتاكوزنوس الخارجية، البحث عن حلفاء أقوياء للدولة البيزنطية. فكانت اولى نماذج ذلك التحالف اقامة علاقة حميمة مع «اومور» أمير ولاية آيدين، وقد انتهى ذلك التحالف بوفاة اومور عام ١٣٤٨ م في أعقاب هجوم اللاتينيين على اسميرنه (ازمير فيما بعد)(١٥).

اما الحليف الآخر، فكان اورخان. ففي اعقاب احتلال المدن الواقعة على ساحل البحر الأسود، زوّج كانتاكوزنوس ابنته «تيودورا» لاورخان. ومع ذلك لم تحل هذه المصاهرة دون دعم اورخان للدول المعادية للبيزنطيين مثل البندقية وجنوى.

كما نجح العثمانيون من جانب آخر في الاستيلاء على مدينة انقره اعتماداً على دعم كانتاكوزنوس(١٦).

التقارب الكبير بين العثمانيين وأسرة كانتاكوزنوس عام ١٣٥٢ م، سمح لسليمان ابن اورخان بالتدخل في الصراع بين يوحنا الخامس بالايولوغوس وماتيو ابن يوحنا السادس لصالح ماتيو. وألحق سليمان في المعركة المهمة التي اندلعت في امبيتيون هزيمة قاسية بالقوات الصربية والبلغارية التي قدمت لنصرة الامبراطور البيزنطي، فاستولى على مدينة اندرينوبل (ادرنه فيما بعد) المهمة الواقعة على الجانب الآخر من مضيق الدردنيل(١٧).

الهدف الآخر للفتوحات العثمانية، كان منطقة «تراس» الواقعة في شرق جزيرة البلقان التي اصبحت جزءاً من بلاد العثمانيين في عام ١٣٤٥ م، حينما توفي عدد كبير من القوات البيزنطية المرابطة في هذه المدينة مع عدد كبير من سكانها جراء الهزة الأرضية الشديدة التي ضربت المنطقة(١٨). وخلال تلك الفترة كان يوحنا السادس كانتاكوزنوس قد أمسك بزمام الامور في القسطنطينية بعد اقصائه ليوحنا الخامس. وفي عام ١٣٥٥ م حينما دخل يوحنا الخامس بالايولوغوس الى العاصمة البيزنطية، ازيحت اسرة كانتاكوزنوس عن السلطة مؤقتاً، واعتزل كانتاكوزنوس في احدى الصوامع ليمضي بقية عمره فيها(١٩).

في عام ١٣٥٦ م، طرأ حدث آخر عمل على الاسراع في ترسيخ دعائم الدولة العثمانية. فقد قام القراصنة المقيمون في جزيرة فوسة الواقعة في خليج ازميت باختطاف خليل ابن اورخان. ولم تكن لدى اورخان قوة بحرية يستعين بها لانقاذ ابنه، لذلك استنجد بالامبراطور البيزنطي يوحنا الخامس. فوجد الامبراطور البيزنطي في ذلك فرصة لتعزيز العلاقة مع العثمانيين فوافق على دعمه ولكن بشرط ان يتخلى عن مساندته لماتيو كانتاكوزنوس. ولحقت الهزيمة بالعثمانيين في الخطوة الاولى لتحرير خليل، وطلب حاكم فوس من اورخان ويوحنا الخامس مالاً في مقابل اطلاق سراح خليل. ووافق الامبراطور البيزنطي على دفع المال ولكن

بشرط ان يتزوج خليل من احدى بناته. فتزامنت عودة خليل الى القسطنطينية مع المهرجانات الكبرى بمناسبة زفاف الاميرة البيزنطية اليه(٢٠).

توفي اورخان فجأة قبل وصول خليل الى القسطنطينية. وكان قبل ذلك قد توفي ولده الآخر سليمان ـ وكان أقوى أولاده ـ اثر سقوطه من الفرس. أما اولاده الآخرون فهم: مراد، وخليل، وابراهيم. وكان مراد يتولى قبل ذلك حكم غاليبولي وامارة القوات العثمانية في اوربا. وقد استطاع في عام ١٣٦٢ م ان يخلف أباه دون اخوته بدعم من كبار رجال البورسة. ولا تتوفر لدينا تفاصيل عن كيفية استيلائه على العرش العثماني. ولربما سهّل عليه ذلك، مكانته كغازٍ بين القوات المرابطة في الاجزاء الشمالية ودعم علماء العاصمة له.

يُعدّ عهد عثمان واورخان، مرحلة تبلورت فيها سلطة العثمانيين. فاستطاعت هذه الدولة الفتية خلال مدة قصيرة ان تبعث الازدهار الاقتصادي وتوفر القوة العسكرية في آسيا الصغرى والأجزاء الغربية من العالم الاسلامي، وذلك بفعل انهيار الدولة الايلخانية في ايران، وظهور التمرد في الشرق الاسلامي. وأفلح حلفاء عثمان واورخان ان يحوّلوا دولتهم الى امبراطورية مزدهرة وذلك منذ منتصف القرن السابع عشر الميلادي.

أ ـ ترسيخ دعائم الامبراطورية وازدهارها

يمكن دراسة ترسيخ دعائم الامبراطورية العثمانية وازدهارها خلال مرحلتين زمنيتين: الاولى منذ وفاة اورخان وحتى بداية عهد السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح (١٣٦٢ ـ ١٤٥١ م). الثانية منذ بداية عهد محمد الفاتح وحتى نهاية عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٥١ ـ ١٥١٢ م).

حينما خلف مراد أباه كأمير للدولة العثمانية في عام ١٣٦٢ م، واجه اضطراب الاوضاع في الأناضول، فوجّه اهتمامه حتى عام ١٣٦٥ م نحو التصدي لحكام

سيواس المعروفين بـ «ارتنا اوغوللري» الذين كانوا يبيّتون لاحتلال انقرة. وحينما خيّم الهدوء على الحدود الشرقية، وجد مراد ضرورة استمرار الفتوحات في الحدود الغربية.

من الجدير بالذكر ان بعض الطوائف التركية بقيادة لا لا شاهين باشا وحاجي ايل بيكي وغيرهما، استطاعت التقدم داخل البلاد الاوربية خلال الفترة التي كان فيها مراد منهمكاً بالشرق. فانتهز مراد تلك الظروف فاستطاع خلال فترة قصيرة الاستيلاء على المناطق الكائنة بين اندرينوبل والقسطنطينية(٢١). وبهذا الفتح يكون العثمانيون قد هددوا الامبراطور البيزنطي يوحنا الخامس والامبراطورية البيزنطية تهديداً مباشراً.

في اعقاب وفاة ملك صرب شبه جزيرة البلقان ـ ويدعى استيفان دوشان ـ في عام ١٣٥٥ م، لم تعد في البلقان أية قوة بمقدورها مجابهة الأتراك. وتحالف قيصر بلغاريا جان الكساندر ـ الذي كان خائفاً من زحف العثمانيين نحو الغرب ـ مع ملك المجر وامبراطور بيزنطة. وكان يوحنا الخامس، يسعى ايضاً للحصول على حلفاء آخرين في اوربا خوفاً من التهديد العثماني المرتقب.

وعلى هذا الضوء، كان مستعداً للاعلان بشكل رسمي عن تبعيته للكنيسة في مقابل الحصول على مساعدات عسكرية. ومع ذلك لم يتحقق تحالف ديني نظراً للتشدد في مواقف الجانبين. ولم تسفر الجهود الدبلوماسية التي بذلها يوحنا الخامس عن نتيجة مؤثرة، عدا في حالة واحدة عندما وافق دوق البندقية على تعبئة القوات ضد العثمانيين من خلال اعلان الحرب الصليبية. وكان الهدف الرسمي لذلك الزحف الصليبي، الاستيلاء على الأراضي المقدسة في فلسطين. اما الهدف الحقيقي فكان الدفاع عن الحكومات اللاتينية، والأراضي التابعة للبندقية، واسميرنه، وبيزنطة. كما عبّأ ملك المجر لويس الكبير قواته لضرب العثمانيين في البلقان(٢٢).

العمليات العسكرية التي قام بها الدوق دوسافوا في عام ١٣٦٦ م على رأس اسطول بحري انطلق من البندقية نحو آسيا الصغرى وبيزنطة، انتهت باسترجاع

غاليبولي والدخول الى القسطنطينية واستعادة العديد من المستوطنات الواقعة عند سواحل البحر الأسود. وقد تخلّى عن جميع هذه الفتوحات ليوحنا الخامس. ومع ذلك استمر الاتراك ـ وليس العثمانيين ـ في تواجدهم في الروملي، الأمر الذي دفع يوحنا الخامس للتوسل بأساليب اخرى لاستحصال دعم الدول الاوربية. ومنها انتماؤه للمذهب الكاثوليكي خلال زيارته لايطاليا وذلك لانتزاع تأييد البابا، كما قطع على نفسه بعض الوعد للبندقيين في مقابل دعمه عسكرياً.

ومع هذا كله، لم تحقق تلك الخطوات أية نتيجة واضحة. وحينما عاد يوحنا الخامس الى القسطنطينية عام ١٣٧١ م، واجه تمرد ولده اندرونيكوس. كما تمرد خلال تلك الفترة ايضاً ساوجي ابن مراد على ابيه. واتحد هذان الابنان فيما بينهما، هادفين الى اقصاء ابويهما عن السلطة. وخاض مراد ويوحنا الخامس عمليات مشتركة ضدهما تم خلالها اعتقال اندرونيكوس الذي نجا من الموت بتدخل مراد الذي فكر في استخدامه لصالحه في الوقت المناسب. اما ساوجي ابن مراد فقد قُتل في تلك العمليات. وكان من نتائج تلك العمليات المشتركة تقديم يوحنا الخامس لبعض الامتيازات لمراد، منها اعطاؤه غاليبولي ومرابطة القوات العثمانية في الأراضي الاوربية(٢٣).

بعد فترة قصيرة، نجح اندرونيكوس في الهرب من السجن، فأزاح اباه وأخاه مانوئيل الملقب بمانوئيل الثاني، وأعلن نفسه ملكاً على البلاد باسم اندرونيكوس الرابع. ولم يكن الدعم الذي قدمه مراد لأندرونيكوس، غير مؤثر على تلك التطورات. ومن الذين دعموه ايضاً، كانت دولة جنوى التي كانت ترى في بيزنطة تهديداً لمصالحها بسبب تزايد تدخل البندقية في شؤون الدولة البيزنطية. وفي ظل ذلك التحول أصبحت سيطرة العثمانيين على غاليبولي ذات طابع رسمي، واحتفظ العثمانيون بوجود دائمي لهم في هذا الجزء من الأرض الاوربية. وحظي مراد من خلال تلك الانتصارات بمكانة خاصة بين الأتراك وأضفى على نفسه لقب امير امراء الاتراك، وهو عنوان لم يكن يشك أحد فيه.

فضلاً عن ذلك الانتصار الذي حققه العثمانيون في الغرب، حققوا انتصارات مهمة ايضاً في آسيا الصغرى، وهي انتصارات ناجمة عن الضعف المتزايد للدويلات المسلمة التركية في الاناضول. كما لعبت المساعدات العسكرية التي قدمتها الدول المسيحية للعثمانيين دوراً مهماً في نجاح العثمانيين وضرب أبناء دينهم وقوميتهم.

الاختلافات والصراعات داخل الامبراطورية البيزنطية، مهدت الطريق أمام العثمانيين لتثبيت وجودهم في الجزء الاوربي من الامبراطورية البيزنطية. وفي هذه المرة أفلح يوحنا الخامس وابنه مانوئيل بالهرب من سجن اندرونيكوس الرابع بدعم من البندقيين، والامساك بزمام الامور. وتدخل مراد في الأمر وتوسط بين الأطراف المتصارعة في محاولة منه لانقاذ اندرونيكوس. وتم التوصل الى الاتفاق التالي: يحكم يوحنا الخامس على القسطنطينية، واندرونيكوس الرابع على مرمرة، ومانوئيل على سالونيك، وتيودور ـ الابن الآخر ليوحنا الخامس ـ على مورة. وعرّض هذا التقسيم للسلطة الذي تم عام ١٣٨٢ م، الامبراطورية البيزنطية للانهيار اكثر من أي وقت مضى(٢٤).

واجه مانوئيل بعد ذلك تمرد الأتراك في سالونيك بفعل سياسته القمعية وأساليبه المناهضة للاتراك، فهرب من المدينة. فأحجم يوحنا الخامس عن منحه اللجوء، فاضطر الى تسليم نفسه للسلطان العثماني مراد الاول في بورسة عام ١٣٨٧ م، وانخرط في خدمته، فانضمت سالونيك بذلك الى الدولة العثمانية. ثم اعلن تيودور حاكم موره، وأخوه مانوئيل، خضوعهما لمراد الاول، للحفاظ على حكومتهما(٢٥).

في آسيا الصغرى، كان الخطر الذي يشكله علاء الدين القرماني، يقلق بال السلطان مراد، فجهز جيشاً كانت العناصر الأصلية فيه، من الصرب وبعض الطوائف المسيحية الاخرى. فانكسر علاء الدين في معركة قونيه وأعلن خضوعه للسلطان مراد. وبذلك يكون الجزء الأعظم من آسيا الصغرى قد خضع لسلطان الدولة العثمانية.

في شبه جزيرة البلقان، كان الصرب يمثلون اهم اعداء الاتراك لأسباب قومية

وعرقية. وتركزت جهود مراد ومساعيه على استخدامهم لابطال مفعول المشاعر المضادة للأتراك بين الصرب. وفي السنة الأخيرة من عهد مراد، تمرد نبيل صربي اسمه لازار بالتواطؤ مع ملك البوسنة ـ ويدعى تفيرتكو (Tvertko) ـ ضد العثمانيين. ورغم الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين في معركة بلوشنيك عام ١٣٨٨ م، لكن القائد العسكري العثماني جندرلي علي باشا، حقق انتصارات مهمة في بلغاريا وشبه جزيرة البلقان. واستسلم قيصر بلغاريا للعثمانيين ايضاً.

في حرب كوزوفو التي اندلعت في ١٥ حزيران ١٣٨٩، تغلب العثمانيون على الصرب، ووقع لازار اسيراً وتم اعدامه. وجُرح مراد في تلك الحرب وتوفي متأثراً بجراحه(٢٦). وحقق العثمانيون النصر في نهاية المعركة بقيادة بايزيد ابن مراد، الذي خلف اباه سلطاناً على البلاد.

يُعد عهد السلطان مراد، عهداً انتقلت فيه الدولة العثمانية من امارة عادية في آسيا الوسطى الى امبراطورية نامية. واستمرت خلال العهد الفتوحات التي بدأت منذ عهد اورفان. ولم يكن النصر العسكري هو العامل الوحيد الذي يقف خلف ظهور الامبراطورية العثمانية، وانما تُعد خطوة السلطان مراد في تهجير الكثير من أتراك الأناضول الى البلقان، من بين العوامل الأساسية في ترسيخ دعائم السلطة العثمانية في المناطق المفتوحة. كما يعد ظهور الجهاز الاداري الفاعل عاملاً مهماً آخر يقف خلف تعزز أركان الامبراطورية العثمانية. ولعب افراد اسرة قره خليل باشا الجندرلي الذين كانوا يتولون منصب الوزارة دوراً اساسياً في ظهور نظام اداري متمركز. ويُعد قره خليل باشا، المؤسس لمنصب قاضي العسكر ومؤسسات من قبيل الخزانة، ونظام التسجيل، وقد استخدم عدداً كبيراً من علماء العلوم الاسلامية لهذا الغرض. ويُعد كذلك أول صدر أعظم قوي في بلاط السلاطين العثمانيين.

في عهد مراد الأول تأسس منصب أمير الأمراء او حاكم الولاية، فكان لالا شاهين باشا، اول حاكم لولاية الروملي. والأهم من ذلك تأسست في عهده القوات التي تُعرف بالانكشارية والتي كانت في البداية عبارة عن أسرى الحرب، ثم طرأت

عليها تغييرات كبيرة من خلال ظهور نظام الـ «دوشيرمه»(٢٧).

بكلمة، فقدت الدولة العثمانية في عهد مراد ماهيتها الغازية وتحوّلت الى نموذج كامل للامبراطورية. واستمر خلفاؤه في الخطوات التي بدأها، لاسيما بايزيد الأول.

وفاة مراد في معركة كوزوفو، وانتصار العثمانيين فيها في آخر المطاف بقيادة ولده الأكبر بايزيد، وكذلك دعم مراد لولده بايزيد في خلافته، ادى الى اجراء مراسم الخلافة بدون اية صعوبات وتهديد.

ولا شك في ان الانتصارات المتلاحقة التي حققها بايزيد في قيادة القوات العثمانية في الاجزاء الشرقية من البلاد، والنصر الحاسم الذي حققه على القرمانيين عام ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م، ونجاحه في ضم مقاطعات جندرلي سليمان باشا وأحمد باشا الى الدولة العثمانية بدون حرب، سهلت له الامساك بزمام الامور بعد ابيه بدون خصم او منافس وذلك في منتصف ذي الحجة ٧٩١ / منتصف حزيران ١٣٨٩ م. ثم أمر بقتل اخوته كافة للحيلولة دون بروز أي منافس له في المستقبل(٢٨).

في بداية عهده سببت له عملية تمرد بعض امراء آسيا الصغرى ـ لاسيما علاء الدين علي القرماني ـ العديد من المشاكل والصعوبات. لكنه استطاع من خلال الدعم الصربي اعادة حكم العثمانيين الى الأناضول.

الانتصار في البلقان، أخضع البيزنطيين لنفوذ العثمانيين اكثر من أي وقت آخر. فكان بايزيد يلعب دوراً حاسماً في وصول السلاطين البيزنطيين الى سدة الحكم، لاسيما يوحنا السابع عام ١٣٩٠ م، ويوحنا الخامس وابنه مانوئيل عام ١٣٩١ م.

تزامن مع سيطرة بايزيد على الأناضول، تحقيق القوات العثمانية الاخرى انتصارات كبيرة في اوربا مثل الدخول الى تسالي، وفتح والاشي، واحتلال اجزاء من البانيا. وأدت الأعمال التي بذلها البندقيون في مورة وألبانيا وبيزنطة ضد القوات العثمانية وكذلك المحاولات التي بذلتها القوات المؤتمرة بأمر قيصر المجر لاعادة نفوذه في والاشي، وحول الدانوب، الى ان يركز بايزيد جميع جهوده لتوسيع بلاده في

البلقان. وتكللت هذه الحركة بنجاحات مهمة للعثمانيين في البلقان واوربا: فتح تسالي، اخضاع جميع امراء البلقان، اعادة احتلال سالونيك، الاستيلاء على البانيا، السيطرة على جزء كبير من المجر، وكذلك السيطرة على والاشي والمنطقة المحيطة بنهر الدانوب في بلغاريا(٢٩).

حينما عقد بايزيد العزم على فتح القسطنطينية والقضاء على الامبراطورية البيزنطية، كان البيزنطيون على ارتباط وثيق بالبندقية التي كانت تعد العدو رقم واحد للعثمانيين. كما كانت البندقية قد تحالفت مع المجر ضد الدولة العثمانية، وانطلقت قواتها لخوض حرب صليبية ضد العثمانيين بقيادة زيغموند ملك المجر بعد استحصال تأييد وموافقة من الكنيسة. وتمكن بايزيد ان يلحق هزيمة نكراء بالقوات الصليبية في نيكوبوليس وذلك في ذي الحجة ٧٩٨ / ايلول ١٣٩٦. ومهّد هذا الانتصار بشكل كبير لفتح العثمانين لبلغاريا، وتحول بايزيد الى حاكم مطلق للبلقان والقسطنطينية(٣٠).

انهماك بايزيد في الغرب، ادى ثانية الى ظهور تمرد في الأناضول بقيادة قرمان اوغلي. وكانت الأسرة القرمانية قد سقطت في معركة اقجاي، خلال زحف العثمانيين في الشرق، فانضوت العاصمة السابقة لسلاجقة الروم وقونية تحت لواء العثمانيين. كما زحف بايزيد نحو جنوب غرب الأناضول فألحق هزيمة ببرهان الدين الذي كان قد اتحد مع مماليك مصر ضد خطر تيمورلنك، وضم الى البلاد العثمانية كلاً من البستان، وملطية، والمناطق المجاورة(٣١).

وكان تيمور لنك الغوركاني قد زحف نحو شرق الأناضول في عام ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م بعد غزوه الأول للمناطق الشرقية من آسيا الصغرى عام ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م. وأخذ يطالب في هذه المرة جميع امراء الأناضول وحكامها بالخضوع لأسرة جنكيزخان التي ينتمي اليها. بينما كان بايزيد يعتبر نفسه الوارث لسلاجقة الروم. والتقى الجانبان في صحراء جوبوك بالقرب من انقرة وذلك في ٢٧ ذي الحجة ٨٠٤ / ٢٨ حزيران ١٤٠٢ فانكسر العثمانيون في تلك المعركة، وتأسر بايزيد ثم

مات في الأسر في آق شهر خلال عودة تيمورلنك من آسيا الصغرى وذلك في ١٣ شعبان ٨٠٤ / ٨ آذار ١٤٠٣.

بايزيد الذي يلقّب بـ «ايلدرم»، يعد المؤسس الحقيقي للامبراطورية العثمانية. فاذا كان مراد الأول قد وسّع بفتوحاته نطاق الدولة العثمانية وبلغ بها مستوى يصح ان يُطلق معه عليها اسم الامبراطورية، لكن بايزيد اسس النظام الاداري اللائق بتلك الامبراطورية. وقد أُنيطت مهمة ادارة ذلك النظام بالغلمان الذين انخرطوا في خدمة العثمانيين واعتنقوا الدين الاسلامي. ولربما بسبب ما تميز به بايزيد من تجديد، راح يُعرَف في حكايات التاريخ العثماني بالسلطان المتنكر للتقاليد القديمة.

بعد هزيمة العثمانيين في حرب جبق اواسي (أنقرة)، مرت عليهم عشر سنوات قاسية. فكان بايزيد قد خلّف أربعة اولاد كان بامكان كل أحد منهم الامساك بزمام الأمور بعد أبيه: سليمان المعروف بالشلبي، ومحمد، وعيسى، وموسى. ورغم ان تلك الهزيمة كانت ضربة قاصمة للعثمانيين إلّا انها لم تجهز على قوتهم العسكرية تماماً.

قام تيمورلنك بعد النصر الذي حققه، باعتقال سليمان ـ الابن الاكبر لبايزيد ـ لكنه نجح بدعم من جنوى في الهرب الى اوربا والتخلص من ملاحقة تيمورلنك. وقامت قوات الأخير باحراق بورسة ـ عاصمة العثمانيين ـ والاعتداء على مدينتي يني شهر وأزنيق ونهبهما واقتراف المجازر بحق سكان المناطق التي احتلتها.

فضلاً عن قتل الاتراك المسلمين، لم يسلم المسيحيون القاطنون في البلاد العثمانية من مجازر قوات تيمورلنك وأعمالها الوحشية. فأمر تيمورلنك بتدمير «اسميرنه»، وكانت المركز الرئيس للنصارى في الأناضول ومقر حكومة فرسان رودس، مع قتل جميع سكانها المسيحيين.

في أعقاب عودة تيمورلنك، استقر عيسى ابن بايزيد في بورسة، وفرض اخوه سليمان هيمنته على الروملي، بينما حكم اخوهما محمد آماسية وتوقات. وبذلك تكون الدولة الواسعة التي أوجدها مراد الاول وحوّلها بايزيد الى امبراطورية من

خلال النظام الاداري الذي وضعه لها، قد تمزقت وأصبحت معرضة للعدوان من قبل الامارات الصغرى في آسيا الوسطى.

كان تيمورلنك قد قوّى امارة القرمانيين قبل انسحابه من آسيا الصغرى للحيلولة دون عودة العثمانيين اليها. ولكن بالرغم من كل الافرازات السيئة التي نتجت عن غزو تيمورلنك لأسيا الصغرى، إلّا انها عملت على تسريع عملية تحوّل الأناضول الى منطقة ذات اغلبية تركية. كذلك برهنت المقاومة التي أبداها محمد ابن بايزيد أمام القوات التيمورية، على ان قوة العثمانيين ونفوذهم في آسيا الصغرى، حقيقة لا يمكن تجاهلها(٣٢).

كان سليمان يواجه في الروملي تهديداً من القوى المسيحية التي كانت تتحين الفرص كي تستثمر الاضطرابات القائمة في الأناضول من اجل تعزيز نفوذها في الشرق، لذلك وجد نفسه مضطراً لتقديم الكثير من التنازلات والامتيازات لتلك القوى التي من بينها الامبراطور البيزنطي يوحنا السابع بالايولوغوس، وجنوى، وناكسوس، ورودس، والزعيم الصربي استيفان لازارويتش، والقيصر الهنغاري. وكان من ضمن تلك الامتيازات السماح لسفر المواطنين والتجار المسيحيين الى بلاده بحرية، وحرية رسو السفن التجارية الجنوية في موانئ الروملي.

كان وضع محمد ـ الابن الثاني لبايزيد ـ في أماسية، افضل من وضع أخيه سليمان. وكان بايزيد باشا ـ الألباني الذي أسلم حديثاً ـ هو المدير والمدبر الحقيقي لشؤون هذه الولاية. وكانت سياسته الاولى هو اعادة وحدة واتحاد الامبراطورية العثمانية. ولذلك سعى محمد لتحقيق هذا الهدف ايضاً. فاستعاد بورسة من اخيه عيسى، واستولى على ولاية ساروخان، فاضطر أمراء الأناضول الغربية الى اعلان خضوعهم له(٣٣).

بالرغم من ذلك، ادى التدخل القوي لسليمان في شؤون الاناضول الى عزلة محمد ومنعه عن تحقيق طموحاته وأهدافه.

اما موسى، وكان اصغر ابناء بايزيد وتأسر مع ابيه وشاهد وفاته في الأسر عن

كثب، كان يُعد العدو الآخر لسليمان. وتعود نجاحاته الاولى الى استخدامه لعدد كبير من القوات المسيحية في جيشه لاسيما من صربيا وبلغاريا. واستطاع بهذا الجيش ان يلحق الهزيمة بأخيه سليمان في الروملي. لكنّ سليمان استعان بمانوئيل الثاني ـ من اسرة بالايولوغوس ـ فاستطاع تحقيق الانتصار على أخيه في معركتي كوسميديون، وأدرنة. وبعد سنتين من ذلك نجح موسى في مفاجأة اخيه سليمان، فحقق عليه نصراً قاطعاً وقتله في عام ١٤١١ م. فأصبح السلطان الذي لا ينازَع في الروملي. ثم استطاع بعد ذلك ان يهزم لازافيتش ومانوئيل الثاني ـ وكانا حليفين لسليمان ـ ويحاصر سالونيك والقسطنطينية. فعمل ذلك على اتحاد مانوئيل الثاني واسيتفان لازافيتش مع محمد ضد موسى. فنجم عن ذلك الاتحاد والتحالف هزيمة موسى وقتله في حرب صوفيا عام ١٤١٣ م. فحقق محمد بذلك الهدف الذي كان يسعى اليه منذ فترة طويلة وهو وحدة الامبراطورية العثمانية(٣٤).

بعد أن أصبح محمد الأول سلطاناً أوحداً للدولة العثمانية، ابرم معاهدات صلح مع الامراء المسيحيين المجاورين، بما فيهم الامبراطور البيزنطي مانوئيل الثاني، فساعد ذلك على ظهور الصلح والهدوء في الحدود الغربية للدولة العثمانية.

خلال هذه المرحلة، كان أهم اعداء الدولة العثمانية: البندقية، والمجر، ووالاشي الى حد ما. وكان التحدي الاكبر الذي يواجه محمد الأول، هو الأوضاع المتوترة في الأناضول والتمردات داخل البلاد. فزحف محمد نحو الأناضول عام ١٤١٤ م، لقمع عدوّيه الرئيسين وهما محمد القرماني الذي حاصر مدينة بورسة، وجنيد والي آيدين. فحقق نصراً في ذلك الزحف وأعلنت المناطق الواقعة في شرق الاناضول وجنوبها الشرقي ولاءها للسلطان محمد.

تحالف الدول المسيحية في البندقية، والمجر وغيرهما ضد الدولة العثمانية، وقيامها بتأسيس اسطول بحري مشترك لتهديد المصالح العثمانية في الدردنيل، دفع بالسلطان محمد الى وضع اسطول بحري عثماني في غاليبولي، وادراكه لضرورة مجابهة القوة البحرية المسيحية في الدردنيل.

فَشَلَ العثمانيون في بادئ الأمر في المجابهة البحرية مع خصومهم(٣٥). وفي عام ١٤١٥ ـ ١٤١٦ م، عصفت بالدولة العثمانية ازمة كبيرة عبّر عنها المؤرخون العثمانيون بواقعة «مصطفى الكذاب». ففي هذا العام ادعى شخص يدعى مصطفى انه ابن بايزيد الأول، وقد سكن في مقدونيا بعد نجاته من معركة جبق اواسي (انقرة). فحظي ذلك الادعاء بتصديق عدد كبير من امراء بلاط السلطان. واستطاع مصطفى ان يجهز جيشاً كبيراً بدعم من الدول المعادية للعثمانيين مثل البندقية، وبيزنطة، ووالاشي، وآيدين، لكنه انكسر امام السلطان محمد في سيزور، فلجأ الى الدولة البيزنطية. وتعهد مانوئيل الثاني للدولة العثمانية في مقابل استلام ثلاثمائة ألف أسير ان لا يسمح لمصطفى وجنيد بالخروج من حدود الدولة البيزنطية والتطاول على الدولة العثمانية(٢٦). وكان السلطان محمد مجبراً على قبول ذلك لانه كان يواجه تمرداً خطيراً للشيخ بدر الدين ابن قاضي سماونة.

كان الشيخ بدر الدين قد تربّى في اسرة تُعد من اولى الأسر المسلمة المقيمة في تركيا. وقد تعلّم فيها العلوم الدينية، ثم رحل الى بورسة، وقونية، وبيت المقدس، والقاهرة، فأكمل دراسته في الفقه والكلام الاسلامي. ولكنه تخلى عن الفقه والقضاء دفعة واحدة بمجرد عودته من مصر، وانخرط في صفوف الصوفية.

تتلخص تعاليمه في مبدأين: السعي للتوفيق بين المبادئ المسيحية والاسلامية بشقيها الشيعي والسني، والتأكيد على مبدأ المساواة بين الناس وحرمة الملكية الفردية، وضرورة التقسيم العادل للأملاك والثروات.

الوضع الاقتصادي المضطرب في آسيا الصغرى في أعقاب الهجمات والغزوات المدمرة الوحشية التي قام بها تيمورلنك، واستمرار حالة القلق واللاثبات التي تهدد الوضع الاقتصادي باستمرار، أمرٌ دفع بالكثيرين الى الالتفاف حول الشيخ بدر الدين. فكان معظم اتباعه قد ظهروا من مناطق تُعد مهداً للتشيع والعلوية في الأناضول.

بالرغم من ذلك استطاع السلطان محمد ان يعبّئ كل ما لديه من امكانات

وقوى، فألحق الهزيمة بالشيخ وانصاره في سيزور عام ١٤١٦ م، وألقى القبض على الشيخ وصلبه وفق فتوى أصدرها علماء البلاط. فأمضى السلطان محمد بعد ذلك بقية عهده في هدوء ودون خوض اية عمليات عسكرية اخرى(٣٧).

بعد وفاة محمد الأول في ٢١ مايس ١٤٢١، حل عهد ابنه الاكبر مراد الثاني الذي كان في اماسية خلال وفاة ابيه.

انجب محمد الأول ثلاثة اولاد صغار آخرين هم: مصطفى وعمره ١٢ عاماً، ويوسف ومحمود وكانا طفلين، وقد أراد أبوهما أن يودعهما قبل وفاته عند الامبراطور البيزنطي مانوئيل الثاني خوفاً على حياتهما من السلطان الذي سيخلفه. ولم يتحقق هدف السلطان هذا لتدخل ياخجي اوغلو وجلال الدين بايزيد باشا، وعدم رغبة هذين الطفلين في الحياة مع البيزنطيين، الأمر الذي ادى الى توتر العلاقة بين الجانبين.

خلال تلك الفترة بعث البلاط البيزنطي، رغم معارضة مانوئيل الثاني كلاً من مصطفى الكذاب وجنيد على رأس جيش كبير الى الروملي لمحاصرة غاليبولي. وكان الهدف من ذلك الاستيلاء على سواحل بحر مرمرة والبحر الأسود وتسالي.

في تلك الفترة بالذات واجه مراد الثاني في الأناضول تمرد يعقوب بيك الجرمياني الذي كان يدعو لسلطنة الصبي مصطفى شقيق مراد ولكي يكون وصياً عليه. كما أعلن بعض الامراء انفصالهم وضربوا النقود بأسمائهم، مثل جندرلي اسفنديار باشا، وأميري ايدين وساروخان(٣٨). وكان للجهود التي كان يبذلها شاهرخ التيموري الهادفة الى حفظ توازن القوى التي يرغب فيها التيموريون في آسيا الصغرى، تأثير غير مباشر على ظهور تلك الأوضاع. وفشلت المحاولات الاولى التي قام بها مراد الثاني لقمع مصطفى الكذاب فأصبح الجزء الاوربي من الدولة العثمانية تحت تصرفه.

بالرغم من جميع تلك المشاكل والأزمات، نجح مراد من خلال دبلوماسية ناجحة ان يتصالح ولو بشكل مؤقت مع الصرب والمجريين. كما افلح كذلك في

استحصال موافقة الجنويين المقيمين في يني فوجه، على استخدام اسطولهم البحري عند الضرورة. وانطلاقاً من ذلك هاجم في بادئ الأمر مصطفى الكذاب وحلفاءه في بداية عام ١٤٢٢ م، فأمسك بمصطفى وقتله في ادرنة. ثم فرض حصاراً حول القسطنطينية لتصفية حسابه مع البيزنطيين، لكن جيشه لم ينجح في تخريب برج المدينة وسورها، فكان ذلك فشلاً له في تلك العملية.

في اعقاب ذلك الفشل، اخذ مراد الثاني يركز جهوده على اعادة سيطرته على الأناضول والتخلص من اخيه الصبي مصطفى فحاصر بورسة بدعم من حلفائه في ازنيق، فهرب اخوه مصطفى مع اتباعه الى خوجه ايلي الواقعة بين اسطنبول وأنقرة. وتابعه مراد الى هناك وألقى عليه القبض مستعيناً بالشتاء القارص جداً في تلك المنطقة ثم قتله وذلك في عام ١٤٢٣ م. وحينما رأى الامراء الانفصاليون تعزز شوكة السلطان مراد، اعلنوا جميعاً ولاءهم وخضوعهم له(٣٩).

بعد ذلك، اتخذ مراد سياسة التصدي للامبراطورية البيزنطية من جديد. كما حاصر مركز حكم اندرونيكوس، أحد الامراء اليونانيين. وحينما ضيّق العثمانيون الخناق عليه، طلب من البندقيين ـ وهم الأعداء التقليديون للعثمانيين ـ الدخول الى المدينة وادارة شؤونها، فرابطت قوات البندقية في ميناء سالونيك، كما بذلت جهوداً كبيرة لتقوية سور المدينة.

خلال تلك الفترة ايضاً سعى الامبراطور البيزنطي لاقناع زعماء البندقية والمجر بالانضمام اليه في تشكيل تحالف مسيحي ضد العثمانيين، لكنه لم يصل الى نتيجة واضحة، فوجد نفسه مضطراً للتوقيع على معاهدة صلح مع العثمانيين أعطى بموجبها الجزء الأعظم من الأراضي البيزنطية الواقعة على ساحل بحر مرمرة والبحر الأسود الى العثمانيين، مع دفع خراج سنوي للسلطان العثماني(٤٠).

كانت الخطوة التالية للسلطان العثماني، التخلص من جنيد والي ايدين واسميرنة، وهي الولاية التي اعطاها له مراد الثاني في بداية عهده لمصلحة ارتآها. وكان جنيد يحرّض خلال تلك الفترة الامراء على التمرد ضد الدولة العثمانية، ويتعاون مع

المناهضين لمراد الثاني. لذلك قام باعتقاله في عام ١٤٢٥ م، وقتله مع جميع افراد اسرته(٤١).

خلال الفترة ١٤٢٣ ـ ١٤٣٠ م تطورت القوة البحرية العثمانية ونجحت في احتلال سالونيك، وهو الأمر الذي ارغم البندقية على التعهد بعدم التدخل المباشر ضد المصالح العثمانية في المنطقة.

موت الزعيم الصربي لازافيتش وفّر للعثمانيين امكانية فرض سيطرتهم على البلقان. واستمرت عمليه اتساع ممتلكاتهم منذ عام ١٤٣٠ وحتى عام ١٤٣٧ م على كثير من الاصعدة منها: احتلال يانيه (يانينا) في النصف الثاني من عام ١٤٣٠ م؛ استمرار النجاحات العسكرية في البانيا؛ تعزيز النفوذ في والاشي والتدخل في النزاع على السلطة؛ القضاء على الدولة القرمانية في الأناضول والتي كانت تحظى بدعم مماليك مصر؛ السعي لدعم دولة قره قوينلو في غرب ايران لمواجهة التيموريين؛ تقوية ودعم الدولة القدرية في شرق الاناضول وجنوبها لضمان النفوذ العثماني في تلك المناطق.

السنوات الأخيرة من عهد السلطان مراد الثاني انصرمت في متابعة النزاعات الجديدة مع قيصر المجر خلال الفترة ١٤٣٧ ـ ١٤٤٤ م. فمعاهدة الصلح التي وقعها مراد الثاني مع البندقية، وكذلك شعوره بارتفاع الخطر التيموري عن الشرق، أمر وفّر له الفرصة لمد رقعة الدولة العثمانية في بلاد المجر. فهاجمت القوات العثمانية المجر وترانسيلفاني في عام ١٤٣٨ م.

المقاومة الضعيفة التي أبداها المجريون شجعت السلطان العثماني على الاستمرار في الزحف بقوة اكبر. وبوفاة قيصر المجر ـ ويدعى البرت ـ في عام ١٤٤٠ م، اخذت تتبلور نواة مقاومة متفرقة في المجر بقيادة شخص يدعى يانوش هونيادي، الحاكم السابق لترانسيلفانيا. وكان معظم افراد تلك المقاومة من المزارعين المجريين، فحققت بعض النجاحات في تصديها للعثمانيين. فألحقت في عام ١٤٤٢ م هزيمة قاسية بقوات الآمر العثماني مزيد باشا، وتمكنت من قتل هذا الآمر ايضاً. وكانت

تلك المقاومة تحظى بدعم مباشر وغير مباشر من البابا اوغنيوس الرابع ورسوله في المجر، الكاردينال سزاريني، وجورج برانكوفيتش الذي أقاله العثمانيون عن حكومة صربيا.

هذه النجاحات وفّرت لهونيادي وملك المجر الجديد ـ لاديسلاوس ـ امكانية القيام بحملات ناجحة على البلاد العثمانية، فاستطاعت القوات المجرية الوصول قريباً من المناطق المركزية للسلطان العثماني في عام ١٤٤٤ م(٤٢).

تلك الانتصارات أقنعت السلطان مراد الثاني بسلوك طريق الصلح، فوقع على معاهدة بهذا الغرض مع لاديسلاوس، بوساطة من جورج برانكوفيتش الذي كان يعلق الآمال على عودته الى البلقان.

المحاور الأساسية لمعاهدة الصلح تلك كانت: الاعتراف بكون الدانوب خطاً حدودياً بين الدولة العثمانية والمجر؛ اعتراف المجر بسلطة الدولة العثمانية على بلغاريا ووالاشي؛ اعتراف العثمانيين بحكومة جورج برانكوفيتش في صربيا. وكانت مدة العمل بتلك الاتفاقية عشر سنوات، غير ان الأحداث اللاحقة اثبتت نقض خصوم الدولة العثمانية لها(٤٣).

في اعقاب توقيع مراد الثاني على تلك الاتفاقية، تنحى عن سلطنته في نهاية عام ١٤٤٤ في ظل ظروف غير معلومة، وأحلّ محله ابنه محمد الثاني. فأضرّ ذلك التنحي، وكذلك ازدياد الصراعات الداخلية، ورغبة السلطان في التصالح مع اعدائه التقليديين، بقوة العثمانيين وسلطانهم.

خلال عودة قوات مراد الثاني من الجزء الاوربي الى الأناضول، تشكلت جبهة تحالف ضد الدولة العثمانية مؤلفة من لاديسلاوس، والكاردينال سزاريني، وهونيادي، وويلاد دراكول، ناقضين بذلك معاهدة الصلح التي تم توقيعها مع مراد الثاني، وقد انضم الى هؤلاء الاسطول البحري البندقي. وقد سمحت الوفاة المفاجئة للاديسلاوس والكاردينال سزاريني، لمراد بالعودة الى الأناضول واجراء مراسم تتويج ولده محمد الثاني.

اهم حدث تحقق في المرحلة الاولى من عهد السلطان محمد الثاني، كان التوقيع على معاهدة سلام مع البندقية في مطلع عام ١٤٤٦ م، والتي تميزت بعمق اكبر بين سائر المعاهدات المنعقدة بين الجانبين. والاختلاف بين محمد الثاني والصدر الأعظم خليل باشا، زعزع من قوة السلطان في البلاط. ولم يكد يمر سوى عام ونصف على تتويج محمد الثاني حتى استدعى الصدر الأعظم، مراد الثاني من محل استجمامه في مغنيسيا الى العاصمة. ويبدو ان هناك ثلاثة احتمالات خلف اعادة مراد الثاني: الأول خشية خليل باشا من فقدانه للسلطة التي حصل عليها في عهد مراد الثاني، والثاني عبارة عن كونها خطوة استباقية في حالة تحقق طموحات محمد الثاني في فتح القسطنطينية، والثالث للحيلولة دون ظهور اضطرابات في الامبراطورية في أعقاب مطالبة داود أحد ابناء بايزيد الأول بالحكم، وكان يعيش تحت وصاية حكومة والاشي.

بعد عودة مراد الثاني الى الباب العالي، استطاع العثمانيون من خلال استخدام الضغوط العسكرية اخضاع قسطنطين حاكم موره لسلطانهم، والحاق هزيمة ماحقة بالمجريين بقيادة هونيادي في معركة كوزوفو، والزحف نحو البانيا لقمع اسكندر بيك زعيم التمرد المناهض للعثمانيين.

بوفاة مراد الثاني في ادرنة في ٣ شباط ١٤٥١، وامساك محمد الثاني من جديد بزمام الأمور في الدولة العثمانية، بدأت مرحلة جديدة في حياة الامبراطورية العثمانية، وبلغت هذه الامبراطورية ذروة اقتدارها وقوتها.

ذروة اقتدار الامبراطورية العثمانية

من خلال الخطوات التي اتخذت في عهد السلطان مراد الثاني، عادت الامبراطورية العثمانية الى سابق قوتها التي بلغتها على أبواب معركة أنقرة عام ١٤٠٢ م والحقيقة هي ان مراد الثاني اتخذ سياسات كانت المحصلة النهائية لها، ترسيخ دعائم الامبراطورية العثمانية، وقطف ثمار الانجازات التي حققها السلاطين

العثمانيون الأوائل. وشهدت هذه العملية سرعة كبيرة في عهد محمد الثاني، وتحولت الدولة العثمانية خلال فترة قصيرة الى احدى الدول العظمى في العالم خلال العصور الوسطى إنْ من الناحية السياسية وإنْ من الناحية العسكرية.

سعى محمد الثاني كي يقدم لنفسه صورة طالب للسلام والصلح، فأقام علاقات ودية مع الدول المسيحية المجاورة. ومع علمه بالمشاكل الكبيرة التي كانت تعاني منها الدول الاوربية، إلّا انه لم يتخذ قراراً بالزحف داخل القارة الاوربية. لكنه استخدم القوة في الاناضول ضد القرمانيين الذين تمردوا ثانية بزعامة ابراهيم باشا، ففرض السيطرة العثمانية على ذلك الاقليم بقوة السلاح.

في ظل مثل تلك الأوضاع أخذ الطريق يتمهد امام السلطان العثماني لفتح القسطنطينية. وكانت الامبراطورية العثمانية تُحكَم آنذاك من قبل الامبراطور قسطنطين الحادي عشر. وسعى محمد قبل ان ينفذ هجومه الرسمي، أنْ تكون لديه علاقات ودية مع الامبراطورية البيزنطية كي يوحي لزعمائها أنّ العثمانيين لا يشكلون خطراً عليها(٤٤).

انقسم البلاط العثماني الى جبهتين ازاء قرار السلطان محمد بفتح القسطنطينية: جبهة تقف مع السلطان، واخرى تعارض أية حرب مع الامبراطورية البيزنطية ويتزعمها خليل باشا، لأنها تعتقد ان مثل تلك العملية ستعبّىء ضدهم جميع الاوربيين المتحالفين مع الامبراطورية البيزنطية.

اضف الى ذلك ان السلطان العثماني سعى لتقديم امتيازات تجارية واقتصادية خاصة لأعدائه القدامى وأصدقاء الامبراطورية البيزنطية التقليديين، كالبندقية، والمجر، وجنوى، وغيرها، كي يحول بهذه الطريقة دون جهودهم لتشكيل قوة متحدة واحدة مضادة للعثمانيين. ويبدو ان تلك الخطة كانت مؤثرة بحيث ان الامبراطورية البيزنطية حينما استنجدت في ايامها الأخيرة بهذه البلدان المسيحية، لم تلق أذناً صاغية للحفاظ على الامتيازات التي حصلوا عليها في الدولة العثمانية(٤٥).

حينما اندلع القتال بين الجانبين، استطاع العثمانيون من خلال ثلاث معارك في ١٨

نيسان و٧ و١٢ مايس ١٤٥٣، الوصول الى الجزء الأعظم من أسوار المدينة. ومنذ العشرين من نيسان ضُرِب طوق كامل حـولها وقُـطع عـنها أي طـريق لمـدّها بمساعدات مؤثرة. ورغم اصرار الصدر الأعظم على فك الحصار عن المدينة، إلّا ان السلطان محمد كان يصر على فتحها. وفي ليلة ٢٨ مايس ١٤٥٣، وجد السلطان البيزنطي قسطنطين نفسه مرغماً على تسليم المدينة للعثمانيين. فـدخلتها القـوات العثمانية في ٢٩ مايس ١٤٥٣، منهيةً عصر الامبراطورية البيزنطية بشكل رسمي، وسيطرت على مدينة القسطنطينية تماماً.

كان عدد سكان القسطنطينية قبيل فتح العثمانيين لها يبلغ نحو ٤٠ ألف نسمة. ورغم الانتصار الذي حققه العثمانيون، إلّا انهم لم يرتكبوا أعمال القتل والنهب التي كانت متداولة آنذاك خلال دخول الجيوش الفاتحة للمدن. ولم يقتلوا سوى تلك الفئة من رجال الحكم في المدينة التي بامكانهـا ان تشكل خطراً على العثمانيين في المستقبل والتي هرب عدد كبير من افرادها. بينما أعطى السلطان العـثماني الأمـان لجميع المسيحيين هناك ووعدهم بأن الدولة العثمانية تضمن لهم ارواحهم وأديانهم. وبالرغم من التبديل التدريجي لمعظم كنائس المدينة الى مساجد، فقد أمر السلطان العثماني بالابقاء على بعض كنائس النصارى وأماكن عبادتهم. ولا شك في ان ذلك التسامح أمر كانت تقتضيه مصلحة العثمانيين آنذاك، وكان يراد منه اعادة الازدهار الاقتصادي الى تلك المدينة.

فضلاً عن السعي للحفاظ على نفوس المدينة، سعى السلطان من خلال اعطاء العديد من الامتيازات للأمراء، وتشجيعهم على تشييد مجاميع من الأبنية المؤلفة من مسجد ومدرسة ومكتبة وسوق ونُزُل، وما الى ذلك، والتي تُعد أشكالاً ابتدائية لما راح يُعرف بالأسواق القيصرية.

كان كل امير عثماني وطبقاً لتقليد قديم، يتمتع بالاعفاء من الضرائب والحصول على بعض المساعدات الخاصة من السلطان في مقابل احياء الأراضي البائرة عند ضواحي المدن لاسيما العاصمة(٤٦). كما كان السلطان العثماني يأمر في اعقاب كـل

نصر عسكري، بتهجير عدد كبير من الحرفيين والعلماء والفنيين من المناطق المفتوحة الى مراكز المدن في الامبراطورية العثمانية، لاسيما الى العاصمة، من اجل العمل على ازدهار تلك المدن. وقد هاجر عدد كبير من اليهود الى البلاد العثمانية ولاسيما الى استنبول، قادمين من البلدان الاوربية لاسيما اسبانيا والبرتغال بسبب الاضطهاد الذي كانوا يتعرضون له في تلك البلدان. وكان معظم هؤلاء اليهود المهاجرين متخصصين في الفنون الجميلة والصناعات المستظرفة، الأمر الذي ادى الى تسارع عملية الازدهار في استنبول خصوصاً(٤٧).

بفتح القسطنطينية، طرأ تغيير على اطار السياسة الخارجية للامبراطورية العثمانية. وأصبحت غالاتا (غلطة فيما بعد) ـ وكانت مستعمرة جنوية بالقرب من القسطنطينية، جزءاً من هذه المدينة مع بقاء سكانها فيها. كما عقد السلطان العثماني معاهدة مع البندقية تنص على حفظ حالة السلام بين الجانبين وتسمح للسفن التجارية التابعة للبندقية بالتردد الحر في مضيق الدردنيل وممارسة تجارها للأعمال التجارية في مقابل دفع رسوم جمركية مقدارها ٢٪ الى العثمانيين. وبعد ذلك بسنوات أبرمت الجمهوريات الايطالية من الدرجة الثانية مثل انكونة، وفلورنس، وراغوسة، معاهدة من هذا النوع مع السلطان العثماني. وبذل السلطان محمد الذي لُقِّب بالفاتح ـ لفتحه مدينة القسطنطينية ـ جهوداً حثيثة من اجل امتلاك قوة بحرية تحفظ للدولة العثمانية سيطرتها على البحر الأسود وبحر إيجة(٤٨).

رغم هذا كله، كان القلق الاكبر الذي يساور السلطان محمد الفاتح، ناشئاً عن الأوضاع في البلقان. وكان الهم الاكبر عنده مدّ الوجود العثماني الى المجر وحوض نهر الدانوب، والتي تعد العقبة الاولى في طريق زحف العثمانيين نحو البلقان. وبدأ اول زحف عثماني بهذا الاتجاه في مطلع عام ١٤٥٤ م، لكنه لم يحقق نجاحاً كبيراً. كما كانت قضية التمرد في صربيا والتي يدعمها حاكم المجر بشكل مباشر، تتطلب اتخاذ اجراءات آنية حاسمة. ونتيجةً لذلك استطاع السلطان في منتصف ذلك العام ان يضم الى بلاده منطقة نوفبرود التي كانت تتميز بأهمية خاصة نظراً لما فيها من

معادن عديدة كالذهب والأحجار الكريمة. وتم من خلال هذا الانتصار قمع الصرب أيضاً، واستعاد السلطان نفوذه في البلقان ولو بشكل مؤقت. لكنه بالرغم من ذلك لم يستطع ان يحسم موضوع المجر.

في عام ١٤٥٦ م هاجم العثمانيون مدينة بلغراد وحاصروها من اجل احتلالها. وطال أمد ذلك الحصار، كما استطاع يانوش هونيادي ان يمدّ سكان المدينة بالمساعدات ويوفّر الأرضية لظهور مقاومة على شكل حرب عصابات أخذت تلحق خسائر فادحة بالعثمانيين أجبرتهم على الانسحاب من بلغراد، وتكبّدوا أضراراً ايضاً خلال عملية الانسحاب كاصابة السلطان العثماني بجروح(٤٩). ومع ذلك لم يستطع المجريون استثمار ذلك الانتصار، لأن الموت المفاجئ لهونيادي في منتصف عام ١٤٥٦ م، ادى الى ظهور اضطرابات جديدة في هذا البلد.

في عام ١٤٥٨ م زحف محمد الثاني نحو مورة، ونجح في وضع نهاية للحكومة المحلية في هذه المنطقة، واخضاعها لسيطرة الدولة العثمانية المباشرة. كما بعث السلطان في نفس هذا العام جيشاً الى البلقان لقمع التمرد الذي قام به الصرب، فنجح الجيش في أداء هذه المهمة. وفي عام ١٤٦١ م زحف السلطان نحو الأناضول للقضاء على الحكومات المستقلة في طرابزون وسينوب.

كانت طرابزون آخر ولاية بيزنطية تدفع الخراج للباب العالي منذ عام ١٤٥٦ م. وكان يحكمها آنذاك كالو ـ يوآنس كومننوس، الذي زوّج ابنته لاوزون حسن آق قوينلو، العدو الشرقي للعثمانيين. لذلك كانت تُعد تهديداً قائماً ضد المصالح العثمانية في الشرق. وقد استطاع محمد الفاتح فتحها خلال فترة قصيرة. ونجحت القوات العثمانية في فتح سينوب عن طريق استخدام القوات البحرية. وبذلك يكون محمد الفاتح قد سيطر على جميع الساحل الجنوبي للبحر الأسود وسائر بلاد الأناضول باستثناء تلك المناطق الخاضعة لابراهيم بيك القرماني، واوزون حسن(٥٠).

أهم أحداث الفترة الأخيرة من عهد السلطان محمد الفاتح، كانت: الحرب مع

مسيحيي البندقية خلال الفترة ١٤٦٢ ـ ١٤٧٠؛ ضم قرمان الى الامبراطورية العثمانية ومحاربة دولة آق قوينلو خلال الفترة ١٤٦٣ ـ ١٤٧٤؛ الانتصار على الايطاليين وخوض الحرب في المجر ومولدافيا خلال الفترة ١٤٧٣ ـ ١٤٧٩ م.

حضور السلطان العثماني في الاناضول وما نجم عن ذلك من ضم طرابزون وسينوب الى اراضي الدولة العثمانية، أمر دفع بنيكولا غاتيلوزيو ـ حاكم لسبوس الواقعة غربي الدولة العثمانية ـ الى التمرد على الباب العالي وتشكيل حلف مناهض للعثمانيين يضم بين صفوفه حاكم والاشي والأمراء المجاورين. وجهز هذا الحلف جيشاً نحو حوض الدانوب واجزاء من بلغاريا. وارتكب «دراكول» الذي عُرِف باوربا بدراكولا فيما بعد، أفضع الجرائم والجنايات ضد العثمانيين. فجهز محمد الثاني جيشاً نحو والاشي عام ١٤٦١ م، فحقق انتصاراً عليه لكنه لم يستمر في زحفه وأبقاه على والاشي وألزمه بدفع الخراج مع احتفاظه بأخيه رادو رهينةً في استنبول. ثم انفد جيشاً الى لسبوس وأعاد اليها الهدوء(٥١).

على صعيد آخر، أخذت البندقية تعيد النظر في سياستها منذ عام ١٤٦٢ م. لذلك بادرت الى تهديد المصالح العثمانية في البلقان، الأمر الذي جعل من الضروري تجهيز جيش ضدها. ونجح جيش البندقية في بداية المواجهة احتلال البوسنة، لكن القوات العثمانية استعادت السيطرة عليها خلال فترة قصيرة، ثم الحقت هزيمة موجعة بالجيش البندقي في مورة. ورغم ذلك كانت القوة البحرية التابعة للجيش البندقي فعّالة في بحر ايجة ضد المصالح العثمانية. ولم تكن لدى العثمانيين القوة البحرية القادرة على وضع نهاية للتواجد البندقي في البحر.

في عام ١٤٦٦ م، جهّز السلطان العثماني جيشاً نحو البانيا وذلك لتمرد حاكمها المسيحي اسكندر بيك بدعم من البندقيين(٥٢). وتزامن زحف القوات العثمانية مع وفاة اسكندر بيك، فنجح العثمانيون في ضم البانيا الى الامبراطورية العثمانية.

بهذا الانتصار توفرت لدى السلطان الفرصة الكافية للاهتمام بأوضاع الحدود الشرقية. غير ان هذا الأمر قد تأخر بسبب تفشي الطاعون في الأناضول،

والمشاكل الاقتصادية الناجمة عن الاموال الطائلة التي انفقت على اعمار استنبول، والاعياء الذي المّ بالجيش العثماني.

في عام ١٤٦٤ حدث نزاع بين بير أحمد واسحاق ابني ابراهيم بيك الحاكم القرماني المرتبط بالسلطان العثماني. وكان بير أحمد حاكم قونية ـ تابعاً للسلطان العثماني بشكل صوري، بينما اندفع اسحاق متمرداً ضد هذا السلطان بدعم من اوزون حسن حاكم دولة آق قوينلو. كما كانت البندقية قد اقترحت على اسحاق القرماني واوزون حسن تشكيل حلف مضاد للدولة العثمانية، لكنه اقتراح لم يتحقق لبعد المسافة. ولم يستطع السلطان محمد ان يشجع بير أحمد الذي كان يسعى للانفصال، على قتل اسحاق والتعاون مع الباب العالي ضد دولة آق قوينلو، لذلك أصبحت ازاحة بير أحمد جزءاً من المهام التي لابد للدولة العثمانية ان تقوم بها. ولم تستطع القوات التي اوفدها السلطان العثماني الى شرق الأناضول، تحقيق نتيجة مهمة في هذا المضمار.

في عام ١٤٧٢ م، اندلعت المعركة الحقيقية حينما شنّت القوات المتحالفة التي يشترك فيها جنود القرمانيين، واوزون حسن، وقزل أحمد، هجوماً على بلاد العثمانيين. ونجح الأمير مصطفى ابن السلطان محمد الثاني في الحاق الهزيمة بهذه القوات المتحالفة.

في أعقاب تلك الهزيمة هرب الأمراء القرمانيون، والتجأ بير أحمد الى بلاط اوزون حسن الذي أصبح العدو الوحيد للسلطان العثماني في الشرق. ولكنه مني بهزيمة نكراء امام الجيش العثماني في ناحية اوتلوق بلي بالقرب من باشكند. فاكتملت بذلك سلطة السلطان محمد الثاني في الأناضول الشرقية، وتخلص العثمانيون في الشرق من معضلة القرمانيين ايضاً(٥٣).

بعد النجاح على الحدود الشرقية، اتجهت انظار السلطان محمد ثانية الى الأوضاع في الحدود الغربية للامبراطورية. وتمكنت القوات العثمانية في عام ١٤٧٥ م من وضع حد لنفوذ الجنويين في البحر الأسود والسيطرة على هذه المنطقة تماماً.

كما احتلت ميناء آزوف والتمهيد لنفوذهم الى شبه جزيرة القرم التي كانت تحت سيطرة منغلي غراي خان.

خلال تلك الفترة زحف العثمانيون ثانية نحو المجر ومولدافيا، وحققوا بعض الانتصارات خلال فترة قصيرة. كما نجحوا في عقد معاهدة سلام مع البندقية في مطلع عام ١٤٧٩ م، تضمنت سحب البندقية لقواتها البحرية من معظم قواعدها في بحر ايجة وأعلنت عن استعدادها لدفع خراج سنوي للباب العالي مقداره مائة الف دوكا. كما وافق مجلس الشيوخ البندقي على دفع مبلغ سنوي قدره عشرة آلاف دوس للسلطان العثماني للسماح لتجار البندقية بممارسة الأعمال التجارية في البلاد العثمانية(٥٤).

التحرشات المضادة للدولة العثمانية في بحر ايجة والتي كانت تجري بتحريض من الايطاليين، أجبرت السلطان العثماني في الأيام الأخيرة من حياته على اعداد مقدمات تجهيز جيش ضخم لفتح ايطاليا. وانطلق هذا الجيش من استنبول في مطلع عام ١٤٨١ م من دون ان تُعرف الوجهة التي كان يقصدها بالضبط. ولم تمهل المنية ذلك السلطان لتحقيق هدفه، اذ انه توفي خلال زحف ذلك الجيش في مطلع عام ١٤٨١ م(٥٥).

عظمة الدولة العثمانية، مَدينة للجهود التي بذلها السلطان محمد الفاتح. ويمكن تلخيص الخطوط العريضة لسياسته بالشكل التالي: تقوية الجيش العثماني وتطويره من قوة تعتمد على السلاح الأبيض الى قوة مجهزة بالسلاح الناري مع تقوية القوة البحرية العثمانية الفتية؛ تعزيز قوة الدولة العثمانية واعدادها للقيام بفتوحات في اوربا، اي ان ظهور الأتراك كتهديد جاد لمصالح القوى الاوربية، كان نتاجاً للجهود التي أبداها السلطان محمد الفاتح؛ دعم مكانة السلطان والغاء الأسر المتنفذة من الأنظمة الادارية؛ نقل السكان من مكان لآخر لايجاد الازدهار والرخاء لاسيما في استنبول وسائر المدن الكبرى في الامبراطورية العثمانية؛ استخدام العديد من المسيحيين في الأنظمة الادارية والمالية في الباب العالي؛ تقديم امتيازات مالية

وعقائدية واضحة الى غير المسلمين من أجل اقناعهم بالاستمرار في نشاطاتهم وأعمالهم في مدن الامبراطورية العثمانية الرئيسة؛ تدوين العديد من القوانين على يد آخر صَدر أعظم للسلطان ويدعى قره مانلي محمد باشا، الذي كان يُعد من أبرز العلماء والفقهاء. وكانت تلك القوانين تتطرق الى شتى المواضيع بدءاً بقوانين الجزاء وانتهاءاً بالأنظمة المالية والموقع القانوني لأتباع السلطان. وورد في هذه القوانين السماح للسلطان الجديد بقتل جميع معارضيه مهما كانت رتبهم ومكانتهم وذلك من اجل الحفاظ على النظام العام والحيلولة دون اندلاع حرب داخلية.

الخطوة الاخرى التي قام بها قره مانلي محمد باشا، كانت عبارة عن مصادرة جميع الأراضي القابلة للزراعة سواء كانت ملكية او وقفية. والنتيجة الأساسية لهذه السياسة، الاضعاف المفاجئ للدراويش والمتصوفة الذين كانوا يعتمدون في طرقهم الصوفية على تلك الموقوفات. وعلى اساس هذه الخطوة هناك احتمال بأن السلطان محمد قد قُتل او سُم على يد بعض افراد الطريقة الخلوتية الذين كان لديهم نفوذ في البلاط، بالتواطؤ مع ولده بايزيد الذي كان عضواً في تلك الطريقة.

خلّف السلطان محمد الثاني ابنين: الاول بايزيد، وهو الابن الاكبر، وكان معارضاً لسياسة ابيه، وكان حاكماً على اماسية خلال وفاة ابيه. وكان بلاطه في أماسية محلاً لتجمع خصوم محمد الثاني ووزيره قره مانلي محمد باشا(٥٦). والثاني جم، وكان صغيراً وقد أصبح بعد وفاة ابيه تحت وصاية قره مانلي محمد باشا، وقد ادعى خلافة ابيه رغم قلة انصاره وحماته. فكان ذلك سبباً في نشوب حرب داخلية دامت عاماً وأدت الى احداث اضطرابات في الدولة العثمانية.

بعد سماع بايزيد نبأ وفاة ابيه محمد الثاني، أسرع قادماً الى استنبول وأعلن نفسه سلطاناً على الدولة العثمانية. كما تأهب جم للقدوم الى استنبول ايضاً. وكان الانكشارية قد تمردوا قبل ذلك وقتلوا الوزير قره مانلي محمد باشا، لذلك انصرف جم عن الذهاب الى استنبول، وفضّل الذهاب الى بورسة، فأجرى لنفسه فيها مراسم التتويج وضرب النقود باسمه.

كان جم يأمل ان يعترف به أخوه بايزيد سلطاناً على الأناضول، بينما يتولى بايزيد حكم الروملي. غير ان الأخير ـ الذي يمتلك الشطر الأعظم من الجيش العثماني ـ زحف نحو بورسة لقمع أخيه. فاشتبك الاثنان في آق شهر عام ١٤٨١ م، وحلّت بجم هزيمة ساحقة، فهرب الى القاهرة محتمياً بالمماليك. لكنه عاد الى آسيا الصغرى ثانية بعد الدعم العسكري الذي قدمه له المماليك والوعود التي وعده بها قاسم بيك قرماني ـ الذي كان يقيم لدى دولة آق قوينلو ـ والتي منها انه سيفتح جبهة جديدة ضد بايزيد في الأناضول. لكنه سرعان ما فقد انصاره لعدم توفر اي برنامج محدد ينظم مجابهته لبايزيد، فاضطر في نهاية المطاف الى الاحتماء بفرسان رودس.

مضيفوه أخذوا يحرضونه على فتح جبهة جديدة ضد بايزيد من جهة المجر ومن ثم السعي لمهاجمة الروملي من هناك، ولذلك أقنعوه بالذهاب الى فرنسا لتحقيق هذا الهدف. فأقام في فرنسا منذ عام ١٤٨٢م وحتى عام ١٤٨٩م، ثم ذهب الى روما فأقام فيها حتى عام ١٤٩٥ على أمل ان يتلقى مساعدات عسكرية من القوى المسيحية في هذه المدينة. وانتزع فرسان رودس امتيازات كبيرة من الباب العالي ازاء ابطالهم لمفعول التهديدات التي كان يشكلها جم على بايزيد.

من جانب آخر تحول جم الى العوبة بيد القوى الكاثوليكية الاوربية، والى مجرد ورقة يحاولون الضغط بها على السلطان العثماني للحصول على مزيد من الامتيازات المالية والتجارية، فكان يجد نفسه مجبراً على تقديم مثل تلك الامتيازات للحيلولة دون تجهيز أخيه ضده(٥٧).

كان النهج الذي سلكه بايزيد الثاني متعارضاً في بعض اوجهه مع نهج أبيه، لكنه مع ذلك كان يحتذي حذوه من حيث الاطار العام. ومن الخطوات المهمة التي قام بها، الغاؤه للقوانين التي وضعها قره مانلي محمد باشا والتي تصادر الأراضي الوقفية، وأعاد للطرق الصوفية مكانتها، ولذلك يُعد عهده عهد ازدهار هذه الطرق لاسيما الطريقة الخلوتية. كما انه سار على نهج ابيه في تقوية الانكشارية، لكن

سياسته العامة كانت تركز على تقوية صلاحياته وتعزيز سلطانه في مقابل الحد من نفوذ الوزراء ورجال البلاط. كما تميز عهده بنشاطات دبلوماسية واسعة لم يسبق لها مثيل في عهود أسلافة لربما بسبب احتماء اخيه جم بالغرب، فسعى لافشال اي احتضان اوربي له، من خلال الوسائل الدبلوماسية.

في عام ١٤٩٠م وقّع السلطان بايزيد الثاني على معاهدة تعهد فيها بعدم التطاول على البندقية، وروما، ورودس. كما انه وجد نفسه مضطراً عام ١٤٩٤ م لدعم ملك نابولي والبابا الكساندر السادس بورجيا في الحرب ضد الملك الفرنسي شارل الثامن للحيلولة دون استخدام جم في ضرب المصالح العثمانية. ويُعد ذلك، اول تدخل عثماني مباشر في قضايا خاصة بالعالم الاوربي، ولربما يُعد بداية لربط المصير التركي بالقوى الاوربية(٥٨).

حينما فرغ بايزيد الثاني من ترسيخ جذور سلطانه، زحف في عام ١٤٨٣م لقمع التمردات المتفرقة في اقليم الهرسك، فأخمدت القوات العثمانية تلك التمردات. ثم هاجمت مولدافيا والسواحل الشمالية للبحر الاسود، وهي المنطقة التي اعلنت خروجها عن سلطان الباب العالي في أعقاب وفاة السلطان محمد الثاني وفي فترة الاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة العثمانية. فاستطاع العثمانيون فرض هيمنتهم المطلقة على البحر الأسود.

بعد تلك النجاحات، انصرفت أنظار بايزيد الثاني نحو مصر. ففي عهد السلطان محمد الثاني كان المماليك المصريون يتحينون كل فرصة لتوجيه الضربات نحو المصالح العثمانية، والتي منها دعمهم لجم وتحريضهم اياه ضد بايزيد. وكان المماليك والعثمانيون على اختلاف منذ عهد محمد الثاني على الاقل، حول دعم وتأييد القبائل التركمانية في الشام وجنوب الأناضول. فكان العثمانيون يؤيدون اسرة ذي القدر ويدعمونها، بينما كان المماليك يحرضون تركمان تورقوت ورساق على ضرب مصالح الباب العالي.

بدأت الحرب العلنية بين المماليك والعثمانيين في عام ١٤٨٦ م حينما شنّ المماليك

هجوماً على علاء الدولة ذي القدر الذي كان تحت حماية الباب العالي. لكن الهزيمة كانت من نصيب العثمانيين في المعركة التي اشتبكوا فيها مع المماليك في آقاجيري عام ١٤٨٨ م، فانحسر سلطانهم عن الشام مؤقتاً.

وفي عام ١٤٩٠م انكسر العثمانيون أمام المماليك ثانية، ونهب المماليك ولاية قرمان. فأجبرت تلك الأوضاع العثمانيين على ابرام معاهدة للسلام مع المماليك في عام ١٤٩١م، وافق فيها العثمانيون على انفصال مدينتي ادرنه وطرسوس اللتين استولى عليهما المصريون في المعارك الأخيرة، عن الأرض العثمانية، من دون ان يحصل الباب العالي على أي امتياز(٥٩).

بعد الموقف العدائي الذي اتخذه البابا اينوقنتيوس الثامن ضد العثمانيين عام ١٤٩٠ م، ووفاة الملك المجري ماتياس كورونيوس الذي كان يعوّل على البابا كثيراً في مواجهة العثمانيين، عقد السلطان العثماني العزم على مهاجمة اوروبا مستغلاً الفوضى الناشئة بسبب وفاة كورونيوس، فدخلت القوات العثمانية الى صوفيا عام ١٤٩٢ م، وشنّت من هناك هجوماً على البانيا. كما قامت بحملات متفرقة على مقاطعة ترانسيلفانيا التابعة للنمسا. وفي تلك الفترة، هاجم شارل الثامن نابولي واستولى عليها، ثم أعلن عن نيته في مهاجمة الدولة العثمانية في قالب حرب صليبية.

حمل شارل الثامن معه الأمير العثماني «جم» في زحفه نحو الدولة العثمانية. وحينما سمع بايزيد بذلك انصرف عن معاركه في المجر وأخذ يستعد لمجابهة قوات الملك الفرنسي. وفيما كانت هذه القوات تزحف باتجاه البلاد العثمانية توفي «جم» في الطريق، فانصرف الفرنسيون عن زحفهم.

بوفاة «جم»، لم يعد السلطان بايزيد الثاني مضطراً لاتخاذ مواقف ضعيفه في تعامله مع الاوربيين. ففي اعقاب استلام الباب العالي لجثمان جم عام ١٤٩٩ م، بدأ بايزيد بشن غارات على ممتلكات البندقية في بحر إيجة واليونان.

خلال تلك الفترة تم اكتشاف طريق بحري جديد الى الهند بواسطة الرحالة فاسكو دي غاما، فأخذت البندقية تفقد اهميتها التجارية تدريجياً. كما حقق

العثمانيون تطورات جديرة بالملاحظة في قوتهم البحرية، ولم تعد تمتلك البندقية تلك القوة البحرية القوية التي كانت لها سابقاً.

في عام ١٤٩٩م، حاصرت القوات البرية العثمانية لبانتو، فدخلت من خلال ذلك في حرب علنية مع البندقية. ووجه الاسطول البحري للدولة العثمانية ضربات قاصمة للاسطول البندقي في بحري إيجة ومرمرة. فدفعت هذه الانتصارات بالبابا والمجر للتحالف مع البندقية ضد الدولة العثمانية. كما اخذت القوة البحرية الفرنسية تتدخل بين فترة واخرى لصالح البندقية.

وحينما عجزت البندقية في مجابهتها المستمرة للسلطان العثماني، طالبت السلطان بتوقيع اتفاقية صلح بين الجانبين في عام ١٥٠٣م. وكان السلطان العثماني بحاجة ماسة الى ذلك الصلح لظهور الاضطرابات في الأناضول في اعقاب ظهور الصفويين في ايران. وتنازلت البندقية في تلك الاتفاقية للعثمانيين عن اجزاء مهمة من مناطق نفوذها. وأعقب ذلك خضوع اليونان لسلطة الباب العالي وتحسن اوضاع الاتراك في البانيا. وتحول العثمانيون الى قوة بحرية مهمة في البحر المتوسط(٦٠).

بعد انكسار العثمانيين امام تيمورلنك، واجهوا في عهد بايزيد الثاني أعظم ازمة واكثرها جدّية تمثلت في ظهور الدولة الصفوية في ايران والتي أخذت تهدد كيان الدولة العثمانية في آسيا الصغرى على مدى قرنين من الزمن.

خلال انهماك بايزيد الثاني بالحرب في الغرب، بدأ تمرد في الأناضول يقوده أحد الامراء القرمانيين ويحظى بدعم واسناد قبيلتي ورساق وتورقوت. وكانت هناك عدة عوامل خلف تأجيج ذلك التمرد منها وفاء اهل الاقليم لبقايا امراء السلالة المحلية التي قضى العثمانيون عليها، والمقاومة العنيفة للتركمان المقيمين في الاناضول وامتناعهم عن اداء الضرائب للامراء العثمانيين، وسياسة مصادرة الأراضي التي اتخذها محمد الثاني والتي مهدت لتمرد العناصر المرتبطة بالطرق الصوفية التي تضررت بتلك السياسة.

بظهور الشاه اسماعيل في آذربايجان، تعمقت تلك الأزمة في الدولة العثمانية.

وكان الهيكل الأساس للحركة الصفوية قد تشكل من التركمان المقيمين في الأناضول. فبعد أن قبض على زمام الامور في غرب ايران، زحف نحو ارزنجان، مقدماً دعماً غير مباشر لتركمان الاناضول الذين كانوا من مريديه. فالتمرد الذي قام به شاه قلي بابا تكلو ـ اسمه الحقيقي قره بيكلي اوغلو حسن خليفة ـ في عاشوراء ٩١٧ / ٩ نيسان ١٥١١، قد استمر بتحريض ودعم اسماعيل الصفوي. وقد الحق المتمردون خسائر فادحة بالقوات العثمانية بالرغم من مقتل شاه قلي بابا.

من اجل ان يقف بايزيد بوجه هذه الأزمة، بعث فرقة من الجيش العثماني الى شرق الأناضول لترصد الأوضاع ومن ثم التدخل عند الضرورة. واعتقلت القوات العثمانية عدداً من افراد القزلباش المقيمين في الأناضول ونفتهم مع اسرهم الى منطقة مورة الواقعة غربي الأناضول والتي انتزعها العثمانيون من البندقيين توّاً.

حينما تفاقمت الأزمة، أمر بايزيد باغلاق طرق العبور الكائنة بين الأناضول واذربايجان، لكن هذا الأمر لم يتحقق في ميدان الواقع إلّا في عهد السلطان سليم الأول.

اتخذ بايزيد عموماً سياسة ذات وجهين في مجابهة الصفويين. فالى جانب قمع أتباع اسماعيل الصفوي في الاناضول او ارسال سفراء للاعتراض على سوء تعامل الصفويين مع اهل السنّة في ايران، كان قد بعث رسولاً الى اسماعيل لتهنئته بمناسبة تتويجه، بل وحتى قد سمح له باجتياز الأرض العثمانية لضرب سلالة ذي القدر. وكان الأمير سليم الذي يحكم طرابزون، يعارض سياسة المماشاة التي يتبعها ابوه مع الصفويين، وطالما كان يشتبك مع مريديهم عند حدود اذربايجان، ويوجه الضربات الموجعة للقزلباش، الأمر الذي أثار اعتراض الشاه اسماعيل الشديد على البلاط العثماني(٦١).

سياسة المهادنة التي اتخذها بايزيد ازاء أزمة الأناضول، ومعارضته الصريحة لممارسات الأمير سليم وابنه سليمان، أمر ادى الى حدوث انشقاقات في زعامات الدولة العثمانية. وحظي سليم بحماية قطاع كبير من الانكشارية نظراً لشخصيته

القاطعة والقوية ولما تميز به من ذكاء. ولذلك تمكن من خلع بايزيد من السلطة والامساك بزمام الامور بدلاً منه في مطلع عام ١٥١٢ م. وتوفي بايزيد بعد عدة ايام من ذلك الحدث.

خلال عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م)، اصطبغت السلطة العثمانية بصبغة عسكرية صرفة. واستطاع العثمانيون خلال هذه الفترة تركيز قواهم في الأجزاء الشرقية من البلاد اكثر من اي وقت مضى. وقد جعل التدخل الذي كان يقوم به الشاه اسماعيل الصفوي في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، ضرروة زحف القوات العثمانية نحو آذربايجان. وقد أثبتت معركة جالدران التي خاضها في بداية جلوسه على العرش ان سليم الأول كان جاداً في اخماد فتنة الشرق. ولا ينبغي عدّ تلك المعركة حرباً بين الايرانيين والأتراك، وانما لضرب مواطنيها الذين باتوا يؤلفون في اذربايجان النواة الأولى للدولة الصفوية. وحقق العثمانيون بصعوبة بالغة انتصاراً على قوات اسماعيل الصفوي، وتمكنوا من اخماد فتنة الشرق ولو بشكل مؤقت.

قبل ان يشتبك العثمانيون مع الصفويين في معركة جالدران، كان السلطان سليم قد نفّذ بقاطعية كاملة قانون اغلاق الحدود بين البلدين، وضرب طوقاً من الحصار الاقتصادي على اذربايجان. وكان الهدف الأساس من ذلك، حرمان الشاه الصفوي من مصدر مالي مهم كان يحصل عليه من القوافل التجارية الفعالة بين تبريز والأناضول. ويمكن مشاهدة تأثير ذلك في النهج المسالم الذي كان يسلكه الشاه مع البرتغاليين المستقرين في جنوب ايران(٦٢).

انهى السلطان سليم الأول عهده بالزحف نحو مصر، والاطاحة بدولة المماليك. فكان فتح العثمانيين لمصر، تمهيداً لفرض النفوذ العثماني على شمال افريقيا، اي على تونس والجزائر والمغرب.

خلف سليمان الذي عُرِف بالقانوني أباه الذي توفي عام ١٥٢٠ م. فكان مصراً على الاستمرار في الطريق الذي بدأه أبوه، لاسيما تأكيده على استتباب الأمن في

جميع أرجاء الدولة العثمانية، وتوسيع رقعتها في الخارج. واستطاع سليمان في بداية عهده ان يقمع تمرد جانبردي الغزالي في الشام والذي كان يحظى بدعم مباشر من البلاط الصفوي. كما بعث سفيراً سرّياً الى بلاط الشاه اسماعيل نقل اليه رسالة ودية من السلطان العثماني كي يحول بهذه الطريقة الدبلوماسية دون التدخلات المحتملة للشاه ومريديه في الأناضول. وألغى ايضاً الحصار الاقتصادي والتجاري المفروض على ايران والذي ادى الى تذمر التجار الأتراك(٦٣).

زحف سليمان فجأة وبدون مقدمة نحو المجر بحجة سوء تعامل بلاط ملكها لويس الثاني مع سفرائه الذين بعثهم اليهم. فاستطاع تحقيق انتصار كبير خلال فترة قصيرة تمثل في فتح بلغراد وكافة المناطق الساحلية لنهر الدانوب(٦٤).

بعد عام من ذلك ـ اي في عام ١٥٢٢ م ـ انطلق سليمان القانوني في قوة برية وبحرية نحو رودس، فحاصرها لبعض الوقت، ثم استطاع فتحها وانتزاعها من فرسان سان جان. فأصبح النصف الشرقي للبحر المتوسط ـ عدا قبرص ـ تحت سيطرة العثمانيين. وعندما عاد سليمان الى العاصمة عيّن صديقه الحميم ابراهيم باشا صدراً أعظم للدولة العثمانية.

خلال هذه المرحلة التي بلغ فيها سليمان ذروة مجده، لعب الصدر الأعظم ابراهيم باشا ـ والذي تزوج شقيقة السلطان ـ دوراً مهماً جداً في النجاحات التي حققها سليمان القانوني.

في عام ١٥٢٥ م، دفعت الاشتباكات الحدودية مع بقايا امراء المجر، بالسلطان للزحف بقواته لحرب لويس الثاني. ونجح العثمانيون في معركة موهاج التي استمرت ساعتين فقط، في قتل جميع افراد الجيش المجري بما فيهم الملك لويس الثاني. وخضعت العاصمة بودابست لسيطرة الدولة العثمانية، فعّين السلطان العثماني، حاكم ترانسيلفانيا ـ يانوش زابوليا ـ حاكماً على المجر بدلاً من لويس الثاني(٦٥).

وعارض بعض الامراء المجريين تنصيب يانوش زابوليا، فاستنجدوا بفرديناند دوتريش، من عائلة هيسبورغ وشقيق شارلكان الذي كانت اخته زوجة لويس

الثاني، وطلبوا منه دعمهم في مواجهة الدولة العثمانية. فتدخل لصالحهم وتم اسقاط يانوش زابوليا. ولذلك زحف الجيش العثماني نحو الغرب ثانية وتعقّب فرديناند دوتريش حتى أبواب فينا، فحاصر المدينة منذ ٢٧ أيلول وحتى ١٦ تشرين الاول عام ١٥٢٩، حيث كرّت القوات العثمانية منسحبة بعد اقتراب فصل الشتاء وعجزها عن الدخول الى المدينة(٦٦).

بعد الانتصار الذي حققه السلطان العثماني في الغرب، اتجهت انظاره نحو الحدود الشرقية للبلاد العثمانية. ففي أعقاب وفاة الشاه اسماعيل، ظهرت في ايران مرحلة من الاضطرابات في عهد الشاه طهماسب الذي كان صغير السن، استمرت نحو ١٠ سنوات. وظهرت اولى علائم رغبة السلطان في الزحف نحو ايران ومحاربة الصفويين في أعقاب هرب اولمه سلطان تكلو من ايران الى البلاط العثماني، وتحريضه للعثمانيين على مهاجمة ايران. وكانت الذريعة الاخرى لذلك التهاجم، سوء تعامل شاه ايران مع شرف خان حاكم بدليس وهربه الى البلاط العثماني.

زحفُ العثمانيين الذي حدث خلال الفترة ١٥٣٣ ـ ١٥٣٤ م، والذي عُرِف بسفر العراقين أدى الى انفصال العراق والعتبات المقدسة عن الأراضي الخاضعة للدولة الصفوية، وضمّها الى الأرض العثمانية. وخاض العثمانيون بعد هذا الانتصار ثلاث معارك مع الصفويين، لجأ الشاه طهماسب فيها جميعاً الى اسلوب الانسحاب، وسقطت تبريز في احدى المرات بيد العثمانيين. وانتهى الأمر في عام ١٥٥٥ م بين الجانبين الى ما يُعرف بصلح أماسية الذي اعترف فيه الصفويون بحدود العثمانيين لعام ٩٢٠ هـ / ١٥١٤م، وكذلك سلطتهم على العراق والعتبات المقدسة(٦٧).

الفترة الاخيرة من عهد السلطان العثماني سليمان القانوني شهدت نزاعاً مع امبراطورية هيسبورغ حول أوضاع المجر. وقد نجح العثمانيون خلال ذلك النزاع في الحفاظ على الانجازات التي حققوها من قبل. وتوقف النزاع في اعقاب التوقيع على هدنة بين الجانبين لمدة خمس سنوات، والتعهد بتقديم خراج سنوي الى الباب العالي.

في الأيام الأخيرة من عمر سليمان القانوني، تمردت النمسا على الدولة العثمانية وامتنعت عن دفع الخراج السنوي للباب العالي وتأهبت لخوض حرب جديدة مع العثمانيين. فزحفت القوات العثمانية نحوها. ولم يكد يمر سوى يومين على تحرك هذه القوات، حتى توفي السلطان سليمان القانوني وهو في السبعين من العمر، بفعل مرض ألمّ به، وذلك في عام ١٥٦٦ م.

الدولة العثمانية التي بلغ بها السلطان سليمان القانوني ذروة ازدهارها ومجدها، أخذ الضعف يدبّ اليها تدريجياً في عهد السلاطين الذين أتوا من بعده: سليم الأول (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤ م)، ومراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ م)، ومحمد الثالث (١٥٩٥ ـ ١٦٠٣ م)، وأحمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧ م).

في عهد سليم الثاني، زحف العثمانيون نحو اليمن وخليج عدن وفرضوا سيطرتهم على هذه المنطقة الاستراتيجية. وخطط سليم الثاني لحفر قناة بين نهر دون ونهر الفولغاكي يحول دون الاعتداءات التي كان يقوم بها ايفان الرابع المعروف بالرهيب، على منطقة القفقاس، لكنّ مخططه هذا لم يتحقق قط(٦٨). واستطاع العثمانيون في عام ١٥٧١ م الاستيلاء على جزيرة قبرص بعد الحاق الهزيمة بقوات البندقية المرابطة في فاماغوستا، ففرضوا بذلك هيمنتهم على البحر المتوسط الشرقي(٦٩).

مراد الثالث ومحمد الثالث، لم يكن لديهما اهتمام بالشؤون الحكومية. فكان ذلك مقدمة لتقوّض اركان النظام الذي شيده سليمان، وتراجع سير الفتوحات العثمانية، وتحوّل البلاط العثماني الى ميدان للصراع حول منصب الصدارة العظمى، بحيث أصبح هذا المنصب من نصيب ٢٣ شخصاً خلال الفترة ١٥٧٤ ـ ١٦٠٣ م. ولم يعد للسلطان دور بارز في ادارة شؤون البلاد ولاسيما على الصعيدين السياسي والعسكري. وبات السلاطين العثمانيون يحجمون عن القيادة المباشرة للجيش والحضور في ميادين الحرب، على العكس مما كان متعارفاً لدى السلاطين السابقين لاسيما سليم الأول وسليمان القانوني.

في نهاية القرن السادس عشر الميلادي، انهمك العثمانيون في حرب الصفويين في

اذربايجان والقفقاس على مدى ١٤ عاماً (١٥٧٦ ـ ١٥٩٠ م) من دون ان تتحقق لهم نتيجة مطلوبة.

في بداية عهد أحمد الأول، واجهت الدولة العثمانية افلاساً مالياً بفعل حروبها المستمرة مع الصفويين. واستمرت تلك الازمة المالية حتى نهاية القرن السابع عشر. فكانت تلك الاوضاع اللامطلوبة مقدمة للانكسارات العديدة التي مني بها العثمانيون في القرن السابع عشر أمام الدول الاوربية.

من جانب آخر تحولت الدولة العثمانية الى العوبة لدبلوماسية الدول الكبرى منذ نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، بعد تعاظم قوة البلدان الاوربية وروسيا.

العلاقة مع اوربا الجديدة

واجه تقدم العثمانيين نحو الشرق عقبة كبرى تمثلت في ظهور الدولة الصفوية في ايران. ولم يعد بمقدور العثمانيين النفوذ الى داخل ايران في أعقاب معاهدة صلح أماسية التي عقدت عام ١٥٥٥ م، ومجيء الشاه عباس الأول عام ١٥٨٧ م، والتوقيع على معاهدة زهاب في ١٦٣٩ م، ومن ثم ظهور حاكم قدير وطموح مثل نادر شاه في ايران. كما كان التباين الاقليمي والثقافي كبيراً بين البلدين الى درجة بحيث كان الطريق مغلقاً بوجه التفوق المطلق لأحدهما على الآخر.

في الغرب ظهرت عقبات أشد في طريق العثمانيين: فمن جانب ظهرت دولة هيسبورغ كقوة كبرى لا نظير لها بفضل الجهود التي كان قد بذلها فردريك الثالث في بداية القرن السادس عشر وارتباطها الأسري مع سائر الأسر الحاكمة في اوربا. ومن جانب آخر فقد حد ظهور اسرة بوربون في فرنسا من التفوق البحري للعثمانيين ومماليك مصر في الشرق الأوسط، وعرّض قوتها البحرية للخطر.

وقبل هذه التحولات كانت القوتان الاوربيتان الأخريان ـ أي البرتغال

وأسبانيا ـ تشكلان أعظم تهديد لوجود الدولة العثمانية في الشرق الأوسط الاسلامي والأجزاء الشمالية من افريقيا، نظراً لامتلاكهما قوة بحرية كبرى. وكانت هاتان الدولتان قد اقتسمتا الكرة الأرضية فيما بينهما اعتماداً على دعم الكنيسة وطبقاً لمعاهدة توردوسيلاس، وذلك منذ السنوات الاولى للقرن السادس عشر الميلادي. وعرّضت مثل هذه التطورات المصالح العثمانية لخطر هاتين القوتين لاسيما البرتغال منذ مطلع القرن السادس عشر. وفي هذه المرحلة بالذات تحوّل مفهوم الاستعمار ضمن اطار نظرية نفعية الى ركن اساس في دبلوماسية الدول الاوربية في ميدان التجارة الدولية في اعقاب الجهود التي بذلها البرتغاليون والأسبان(٧٠).

تعرّضت مصالح الأتراك في البحر المتوسط للخطر بشكل كبير في عهد الملك الفرنسي هنري الرابع، لأنه استطاع من خلال قرار نانت ان يعيد الهدوء الى فرنسا التي تضررت بالحروب الدينية والمذهبية، ويمهد الأرضية المناسبة لكي يمارس التجار الفرنسيون التجارة في منطقة الشرق الأوسط. واستمر هذا المنحى حيث تحولت فرنسا في وزارة ريشيلو، ومن بعده جان باتيست كلبر ـ أي في النصف الأول من القرن السابع عشر ـ الى أقوى قوة بحرية في البحر المتوسط(٧١).

في القرن السادس عشر، ظهرت قوة كبرى اخرى تمثلت في روسيا القيصرية. فقد شيّد ايفانوف الرهيب أساس روسيا الجديدة في النصف الثاني من هذا القرن. فأصبحت روسيا في عهده صاحبة جيش حديث باسم «استرلستي»، وامتدت رقعتها الجغرافية حتى السواحل الشمالية لمازندران. فتحوّلت الى قوة غير قابلة للسيطرة، تضع كيان البلدان الاسلامية في الشرق الاوسط ـ اي ايران والبلاد العثمانية ـ في معرض خطر جاد(٧٢).

لاريب في ان السلاطين العثمانيين، ادركوا بعد النجاحات القصيرة التي حققوها في مقابل القوى المسيحية، التفوق النسبي للدول الاوربية، ولربما بعجزهم أيضاً. ورغم ذلك لازال الاتراك يشكّلون خطراً كبيراً على اوربا خلال القرن السادس عشر. ففي هذا القرن، استطاعوا بزعامة سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م)، دحر

الجيوش الاوربية واذلالها.

في هذه المرحلة، بلغ العثمانيون ذروة قوتهم وازدهارهم، فزحفوا في قلب اوربا واحتلوا المجر عام ١٥٦٢ م، وحاصروا فينا التي كانت عاصمة الامبراطورية الهيسبورغية. كما كانوا قد هاجموا قبل ذلك ايران عام ١٥٣٤ م واحتلوا تبريز عاصمة الصفويين لبعض الوقت.

فضلاً عن هذه الانتصارات على البر، تحوّلت القوة البحرية العثمانية الى خطر كبير يهدد الاوربيين في البحر المتوسط.

من الجدير بالذكر ان العثمانيين تمكنوا في عام ١٥١٨ م من القضاء على دولة المماليك في مصر، وأقاموا في هذا البلد حكومة مرتبطة بهم من الباشوات الألبان المتركين. واستطاعوا كذلك ان يضموا اليهم تونس واجزاء من سواحل صقلية. وبوفاة سليمان القانوني، يكون قد انتهى العصر الذهبي للامبراطورية العثمانية، ثم اخذت القوى الاوربية تفرض تفوقها على العثمانيين منذ النصف الثاني للقرن السابع عشر.

منذ القرن السادس عشر كان الاوربيون ينظرون الى الانتصارات العثمانية بعين الاعجاب: ومن أفضل التقارير في هذا المجال، تلك الرسائل التي كتبها اوجير غيزلن دي بوسبك سفير هيسبورغ الى الباب العالي. فكان هذا الاخير قد قام بمهمة دبلوماسية في استنبول لصرف العثمانيين عن الزحف نحو فينا، واستمرت تلك المهمة خلال الفترة ١٥٥٤ ـ ١٥٦٢ م. وتحدّث هذا السفير في تلك الرسائل عن عوامل التفوق العسكري العثماني على الاوربيين، والتي من اهمها ان السلاطين العثمانيين لم يكونوا يولون اهمية للتباينات الأسرية والعرقية والدينية، ولا يعيرون اهتماماً في اختيار المسؤولين والوزراء سوى للقابليات والكفاءات. بينما انتقد الملوك والحكام الاوربيين لأنهم لا يأخذون جانب الكفاءة بنظر الاعتبار(٧٣).

تزامن عهد سليمان القانوني في استنبول مع عهد الامبراطور الفرنسي فرانسوا الأول (١٥١٥ ـ ١٥٤٧ م)، وعهد شارل كون في هيسبورغ، التي كانت تؤلف

جزءاً كبيراً من اوربا. وقد دبّ النزاع بين فرانسوا الاول وشارل كون حول بعض المناطق، واندلعت أربع حروب بين الجانبين. وحينما انتهت الحرب الثانية بينهما عام ١٥٢٩ م، واجه الهيسبورغيون هجوم العثمانيين على فينا. ولذلك بعث فرانسوا الاول سفيراً الى استنبول هو جان دي لافوري وذلك في عام ١٥٣٤ م لابرام اتفاقية تعاون عسكري بين الجانبين ضد النمسا. وتم اعداد مسودة تلك الاتفاقية في بداية عام ١٥٣٥ م. ولكن السلطان غضب على الصدر الأعظم ابراهيم باشا الذي تفاوض مع الفرنسيين ولم يحظ مفاد تلك الاتفاقية بتأييد سليمان القانوني. ورغم ذلك يحظى ذلك المفاد بالاهتمام لأنه انعكاس لبعض مطالب الفرنسيين من الباب العالي والتي تابعوها فيما بعد وشكّلت المحاور الأساسية للمفاوضات اللاحقة بين الجانبين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وطبقاً لهذه الوثيقة سمح البلدان لمواطنيهما بممارسة الأعمال التجارية بحرية في البلد الآخر. والأهم من ذلك ان الباب العالي وافق على المبدأ التالي: لو ارتكب أحد مواطني الملك الفرنسي جريمة في بلاد سليمان القانوني، فانه لن يحاكم إلّا في حضور الصدر الأعظم او السلطان.

مع ان العثمانيين قد اعطوا بعض الامتيازات لمواطني جنوى في عام ١٣٥٢ م، خلال أول مجابهة بينهم وبين هذه المقاطعة. ولكن هذه هي المرة الاولى التي يُعطي فيها العثمانيون هذا اللون من الامتيازات الى دولة اوربية(٧٤).

في النصف الثاني من القرن السادس عشر، كانت السفن التجارية البريطانية ترسو في الموانئ العثمانية. وفي عام ١٥٥٣ م، حينما زحف سليمان القانوني الى ايران، استقبل في حلب شخصاً انجليزياً يدعى انطوني جنكينوس، ونجم عن محادثاته مع السلطان، اصدار السلطان مرسوماً يلزم جميع الامراء والولاة والقضاة العثمانيين بعدم التلكؤ في تقديم اية مساعدة لجنكينوس وسائر التجار الانجليز(٧٥).

في عام ١٥٨٠ م، تزامن مع عمل شركة لوفان البريطانية برئاسة ادوارد اسبرن الدرمن، وريتشارد استيبر، قيام التجار البريطانيين بعقد اتفاقية صداقة وتجارة مستقلة مع الباب العالي، بينما كانوا يتعاملون قبل ذلك في الشرق الأوسط تحت

العلم الفرنسي. ووافق الباب العالي على اساس تلك الاتفاقية بعدم فرض اية ضريبة او خراج على البريطانيين الذين يدخلون الى اراضي الدولة العثمانية للقيام بأعمال تجارية. كذلك اذا ارتكب مواطن انجليزي جريمة في الأرض العثمانية، فلا ينبغي مؤاخذة سائر التجار البريطانيين. ولو حدث نزاع في قضية ما بين المواطنين البريطانيين والمواطنين العثمانيين، يتم حسم النزاع بين الجانبين على أساس قوانين الدولة البريطانية(٧٦).

مع بداية القرن السابع عشر، ازدادت الاتصالات الدبلوماسية والتجارية بين الدولة العثمانية والبلدان الاوربية، فكانت معظم تلك الاتصالات عند السواحل الجنوبية للبحر المتوسط في شمال افريقيا، او السواحل البربرية حسب تعبير الاوربيين. وكانت تلك السواحل خلال تلك الفترة، جزءاً من البلاد العثمانية. كما كانت تلك المناطق تسد جزءاً عظيماً من حاجات الأسواق الاوربية لبعض المواد كزيت السمك، والجلود، والألياف الطبيعية، والأسلحة الباردة، والكماليات.

في أعقاب الجهود التي بذلها ريشليو وكلبر، تحوّل الفرنسيون الى القوة الأكثر تفوقاً في البحر المتوسط، وسعوا من خلال تأسيس بعض الشركات التجارية مثل شركة كلبر وغيرها، الاستحواذ على جزء كبير من التجارة في اوربا وسواحل البربر(٧٧).

في عام ١٦٢٨ وقّع الفرنسيون على اتفاقية تجارية مربحة مع الولاة العثمانيين في الجزائر. وقبل ذلك بقليل، سمح السلطان أحمد الاول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧ م) لأسطول شركة كلبر، للصيد بحريّة في سواحل المغرب. وفي عام ١٦٦٦ م قامت شركة فرنسية اخرى بابرام اتفاقية مع حاكم المغرب تتألف من ١٤ مادة، تسمح لتجار هذه الشركة بالتعامل التجاري بحريّة في سواحل هذا البلد مقابل دفع ٣٥ ألف بياستر للواليين العثمانيين هناك وهما مراد بيك، وأحمد بيك(٧٨).

على أثر اتفاقيات التعاون بين العثمانيين والبريطانيين خلال الأعوام ١٦٠٣ و١٦٠٦ و١٦٢٤ و١٦٤١ و١٦٦٢م، عُقدت بين الجانبين اتفاقية تجارية اخرى

عام ١٦٧٥م، ظلت نافذة المفعول حتى نهاية القرن التاسع عشر. وتؤكد هذه الاتفاقية على الحصانة القضائية الكاملة لجميع المواطنين البريطانيين في حالة ارتكابهم لجريمة ما في البلاد العثمانية. ولا يسمح لمحاكمتهم في المحاكم العثمانية إلّا في حالة حضور السفير البريطاني او ممثل للحكومة البريطانية. وللسفير الحق في أن يبدي رأيه ايضاً خلال عملية الاستجواب. وكانت تلك الاتفاقية لصالح بريطانيا تماماً، وتسمح للتجار البريطانيين بممارسة اعمالهم التجارية بحريّة كاملة في اقاليم البلاد العثمانية في مقابل دفع ضريبة مقدارها ٣٪(٧٩).

شهدت روسيا تحولات كثيرة في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر لم يقتصر تأثيرها على روسيا نفسها، وانما امتد ذلك التأثير الى البلدان المجاورة ايضاً. وكان يقف خلف التغييرات، امبراطور روسيا القيصر بطرس الكبير الذي يُعد أبا روسيا الجديدة. حينما كان يحكم وهو صبي ـ تحت اشراف اخته سوفي ـ ادرك بوضوح انه لا يستطيع ان يحكم روسيا كما يريد وتعرّف في عام ١٦٩٧ بواسطة فرنسي يدعى سويس لوفور، على بعض الانجازات الاوربية في مجال العلم العسكري. ثم سافر الى هولندا، والنمسا، وبريطانيا، للاطلاع بشكل افضل على اسلوب الحياة الغربية. كما اخذ يتلقى العلوم والفنون البحرية في مدارسها العسكرية.

في عام ١٦٩٨ م، أمر بطرس الكبير بقتل اربعة آلاف من جنود الجيش الاسترلتسي في أعقاب تمردهم عليه، فيكون بذلك قد أزاح احدى العقبات المهمة التي تعترض عملية الاصلاح التي يقوم بها. ثم وضع حجر الأساس لتأسيس جيش روسي حديث من خلال ايفاده لبعض الشباب الروس الى مدارس العلوم العسكرية الاوربية. كما شجع على ظهور صناعات عسكرية في روسيا.

من جانب آخر سعى بطرس الكبير لاظهار روسيا على انها المدافع الأساس عن جميع المنتمين الى المذهب الارثذوكسي في العالم. وكان يحاول بذريعة شن حرب دينية اخرى ـ على غرار الحروب الصليبية ـ اجبار الدول الاوربية على

التحالف مع روسيا ضد الدولة العثمانية، كي يتاح للروس عن هذا الطريق السيطرة على البحر الأسود.

مع عدم تناغم الدول الاوربية مع روسيا في هذا المجال، هاجم بطرس الكبير في عام ١٦٩٦م ميناء آزوف الاستراتيجي الذي كان في يد العثمانيين منذ عام ١٤٧١ م، وانتزعه من ايديهم. كما هاجم في عام ١٧٢١ م السويد، فالتجأ ملكها الى البلاط العثماني. وتحول الروس الى اعظم قوة بحرية في بحر البلطيق بعد ابرام معاهدتي السلام بين السويد وروسيا في استوكهولم عام ١٧٢٠ م، ونوستاد عام ١٧٢١ م(٨٠).

مع ان العثمانيين استطاعوا توقي الكثير من الاخطار والاضرار في القرن السادس عشر بفضل جهود سليمان القانوني، وفي النصف الاول من القرن السابع عشر بفضل التدابير والمشاريع الاصلاحية التي قامت بها اسرة كوبريلي التي تولت الصدارة العظمى في الدولة العثمانية على مدى نصف قرن، إلّا ان وقوع بعض الأحداث الكبيرة مثل الثورة الفرنسية في نهاية القرن السابع عشر، والثورة الصناعية الاوربية في بداية القرن الثامن عشر، أدى الى تغيير حركة التاريخ ليس في الدولة العثمانية فحسب وانما في العالم ايضاً، وغيّرت طريقة الدبلوماسية الاوربية واتجاهها ومحتواها في الشرق الاوسط الاسلامي. كما كانت هزيمة العثمانيين عند أسوار فينا عام ١٦٨٣ م ضربة كبيرة للدولة العثمانية وبداية فصل جديد من العلاقة بينها وبين اوربا.

من افرازات تلك الهزيمة، استيلاء النمسا على المجر، واليونان، والسواحل الشمالية للبحر الأسود. كما كشف الانتصار الثاني للنمسا عام ١٦٨٧ م، ثم هزيمة العثمانيين في حرب زنتا عام ١٦٩٧ م، النقاب عن الضعف المطرد للعثمانيين، الذي آل الى ابرام معاهدة سلام كارلوفيتس في ٢٦ كانون الثاني ١٦٩٩ التي تُعد منعطفاً في التاريخ العثماني. فكانت هذه، هي المرة الاولى التي يجلس فيها العثمانيون خلف مائدة المفاوضات كجانب مهزوم والموافقة على التخلي عن اجزاء مهمة من اراضيهم.

وبدأت مرحلة جديدة بانهزام العثمانيين ثانية أمام النمسا وتوقيعهم على معاهدة باسا روفيتس عام ١٧١٨ م، فتحولت الدولة العثمانية الى ما عبّر عنه القيصر الروسي بالرجل المريض.

بالرغم من ادراك العثمانيين الكامل لنتائج ذلك المنحى، لكنهم لم يكونوا قادرين على القيام بأية نشاطات وقائية نظراً لما كانوا يعانون منه من تخلف عسكري، وضعف، وفساد في المؤسسات السياسية والعسكرية. وكان كثير من المسلمين يدرك آنذاك ان الامور ستنتهي خلال فترة قصيرة الى هيمنة الكافرين على العالم الاسلامي. ويمكن ملاحظة ذلك في الحاشية التي كتبها كاتب عربي يقيم في استنبول يدعى عمر طالب على كتاب عنوانه «تاريخ الهند الغربي»(٨١).

ب ـ تطور المؤسسات السياسية والادارية

في عهد اورخان، لم تكن السلطة الحقيقية في يد الشخص الحاكم، وانما كانت في يد الأسرة الحاكمة برمتها. فكانت زعامة الحروب تُقسّم بين امراء الاسرة العثمانية، كما كانت تقسّم الغنائم الحربية فيما بينهم. فكان ذلك اللون من الحكم ضماناً للوحدة بين اعضاء الاسرة الحاكمة. كما لا ينبغي خلال تلك الفترة، تجاهل الدور المهم الذي كانت تلعبه نساء الاسرة الحاكمة. فكنّ يساهمن في ادارة شؤون البلاد لاسيما في بداية عهد الدولة العثمانية، ثم اخذ يتقلص حضورهن ونشاطهن. فلم يعدن يشتركن ـ على سبيل المثال ـ في مجالس تقسيم الغنائم وكنّ يبعثن واحداً من أقربائهن وكيلاً عنهن(٨٢).

حينما كان يموت الحاكم، يخلفه اقوى فرد في الأسرة. فقد كانت الطريقة التي ينتخب بها الحاكم الجديد غير واضحة، ولكن يبدو انه كان يحضر في مجلس الانتخاب كبار الامراء الى جانب الأسرة الحاكمة، وكان لهم الحق في ابداء وجهات نظرهم. ولم تكن حالة الاقتتال بين الاخوة على السلطة امراً معروفاً في بداية ظهور العثمانيين، ولكن ظهرت هذه الحالة منذ بداية القرن الخامس عشر. كما

قام السلاطين العثمانيون خلال هذه الفترة ايضاً بسجن اخوتهم او ابنائهم في مبانٍ تعرف بالأقفاص لمنعهم من أية محاولة للانقضاض عليهم(٨٣).

لم تكن الدولة العثمانية في بدايتها ذات ملامح ايديولوجية واضحة. فكان الشيء المهم لديها هو الحصول على مزيد من القوة العسكرية. وحتى حينما حققت الدولة العثمانية ذلك الهدف، كان السلاطين العثمانيون يهتمون بالدرجة الاولى بالدور الذي يلعبه الأفراد في ميادين القتال قبل الاهتمام بما هم عليه من تدين وايمان. فكانت الكفاءة العسكرية، تمثل العامل الأهم للارتقاء الى المناصب العليا لاسيما خلال السنوات الاولى لظهور العثمانيين.

وحينما ترسخت جذور الدولة العثمانية وتوطدت أركانها، أصبح الحصول على الشرعية أهم هدف لدى هذه الدولة. في هذه المرحلة أخذ العثمانيون يؤكدون على نسبهم وانتمائهم الأسري. واخذوا ينسبون مؤسسهم عثمان وأجداده الى قائي ابن اوغوزخان. ويركزون في الأخبار التي كانوا يُشيعونها في هذا المضمار على ان احفاد قائي هم الوحيدون الذين يستحقون الملك والسلطنة.

من جانب آخر، كانت تُبذل محاولات كثيرة لاثبات الأمر التالي وهو ان العثمانيين هم الوارثون الاكفاء لسلاجقة الروم. بل وظهرت بعض المحاولات ايضاً لربط العثمانيين بالسلاجقة من حيث النسب، من اجل ان تكتسب دولتهم الشرعية الجماهيرية في آسيا الصغرى(٨٤).

كذلك كان هناك محور آخر يصب في قالب المشروعية، يتمثل في التأكيد على ان عثمان وأولاده قد واصلوا سنّة الغزو والجهاد في الحدود الغربية للعالم الاسلامي، ولذلك ينبغي على الدولة العثمانية ان تنشر الاسلام وتدعو له في دار الحرب. ومع ذلك لا ينبغي المبالغة كثيراً في مقولة الجهاد التي كان يتحدث عنها العثمانيون، اذا ما علمنا ان القسم الأعظم من الجيش العثماني كان يتألف من الجنود غير المسلمين في بداية نشوء الدولة العثمانية.

منذ النصف الأول للقرن السادس عشر، حينما استولى سليم الاول على مصر،

وقضى على دولة المماليك وآخر خليفة عباسي، اخذ السلاطين العثمانيون يدّعون الخلافة ايضاً. وبما ان العلاقة بين الامام والسلطان، كان قد نظّمها المتكلمون والفقهاء من اهل السنة خلال القرون الماضية، فكان يبدو ذلك الادعاء العثماني امراً لا نظير له في هذا المضمار. ومع ذلك ظل هذا الادعاء على قوته حتى نهاية عهد الامبراطورية العثمانية، وتحول الى عنصر كان العثمانيون يستهدفون من خلاله الحصول على المشروعية(٨٥).

كان مراد الأول، اول عثماني تلقّب بلقب السلطان، ثم سرى هذا اللقب الى جميع الحكام العثمانيين الذين أتوا من بعده. وحتى عهد السلطان محمد الثاني، كان السلطان في الغالب ذا ماهية عسكرية، بينما كانت الشؤون الادارية والسياسية والمالية، تحت اشراف الصدر الأعظم والديوان. مما جعل الصدر الأعظم، شخصية ذات نفوذ كبير جداً في البلاط، بل وتعتّم على السلطان نفسه الى حد ما.

كان معظم الذين تولوا منصب الصدر الأعظم خلال تلك الفترة، ينتسبون الى اسر قوية وذات نفوذ، ولديها رصيد ضخم بين الجماهير أيضاً. وحينما ادرك محمد الثاني هذه الحقيقة، سعى كي يعطي للسلطان دوراً اكبر، لذلك اختار لمنصب الصدر الأعظم افراداً من بين الغلمان الذين سبق لهم ان انخرطوا في خدمة الباب العالي ولا ينتمون الى اسر معروفة. ولم يكن لدى هؤلاء اية وسيلة لترسيخ مواقعهم في البلاط سوى الاطاعة المحضة للسلطان والانصياع الكامل له. واستمر هذا النهج في عهود بايزيد الثاني، وسليم، وسليمان(٨٦).

بعد وفاة السلطان سليم، أحجم السلاطين عن الاشراف المباشر على الانكشارية، فاصطبغ السلطان العثماني منذ ذلك الوقت بصبغة شكلية. وقد تفاقم هذا الامر حينما أخذ السلاطين المتأخرون ينصرفون عن الاهتمام بالشؤون الحكومية ويغرقون في الشهوات. فتحول في المقابل الصدر الأعظم ونساء السلطان الى قوة فاعلة على مسرح السلطة في الباب العالي. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر بدأ تفعيل دور السلطان من جديد بفضل الجهود التي بذلها السلطان سليم الثالث.

العامل الرئيس الذي كان يسعى خلال تلك الفترة لتحويل السلطان الى العوبة، هم الانكشارية ورجال الدين الذين كانوا يعارضون الاصلاحات والتحديث، ومنها فتوى شيخ الاسلام آنذاك ضد السلطان سليم الثالث وقيام الانكشارية على اثرها بالتمرد عليه وتنحيته. وكان نفوذ هؤلاء قوياً الى درجة بحيث كان على الصدر الأعظم الاستجابة لهم والعمل وفق مشيئتهم من اجل ان يحافظ على منصبه وامتيازاته. وهذا ما دفع بالسلطان محمود الثاني لاعادة شيء من اعتبار وهيبة السلطان العثماني، حينما قتل الانكشارية قتلاً جماعياً خلال ليلة واحدة في استنبول، وواصل مسار الاصلاحات والتحديث ضارباً اعتراضات رجال الدين عرض الجدار.

البلاط والديوان

كان الباب العالي في استنبول، المركز الأساس الذي كانت تنطلق منه القرارات السياسية والادارية. فاستنبول التي اصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية منذ عهد محمد الثاني، كانت تُعد الى جانب ادرنة أحد اهم مقرين اساسيين لبلاط السلطان العثماني. واتخذ محمد الثاني من مبنى يُعرف بالقصر القديم مقراً له في استنبول بعد فتحها، ثم شيد قصراً آخر عُرِف بالقصر الجديد، فأصبح مقراً أصلياً للباب العالي. وكان الباب العالي يتألف فضلاً عن جناح النساء، من جناحين خارجي وداخلي. فكان الجناح الداخلي هو المحل الذي يقدّم شتى الخدمات للسلطان ويضم الخزانة، والدائرة الخاصة بالإعداد لأسفار السلطان وغزواته، والجناح الخاص بحياة السلطان الخاصة في الباب العالي.

وكان يتواجد ضمن دائرة خدمات السلطان: سائس السلطان، ومسؤول البسة السلطان، وغلمان السلطان، وكاتب السلطان السري، ورئيس غلمان الجناح الداخلي الذي كان يتمتع بحظوة كبيرة لدى السلطان. وكان عدد غلمان الجناح الداخلي يزداد تدريجياً. وكان لديهم معلم يعلمهم التعليمات الأساسية. وكانت هناك

مجموعة من النساء الكبيرات في السن، تهتم بهندام هؤلاء الغلمان ونظافتهم. وكانوا يخضعون لمراقبة شديدة من قبل الغلمان البيض الذين جيء بهم من اقليم القفقاس للخدمة في الباب العالي. وكان رئيس الغلمان البيض ويطلق عليه اسم «قابي آقاسي»، ذا نفوذ مهم في القضايا الادارية، وكان باستطاعته التأثير على جميع أعمال النصب والعزل(٨٧).

كان جناح النساء، أحد الاجنحة او الاقسام التي يتألف منها الباب العالي، وكان يُطلق عليه اسم «باب السعادة». وكان السلطان هو الرجل الوحيد الذي يحق له الدخول الى هذا الجناح. فكان لدى السلطان فضلاً عن زوجاته الرسميات، العديد من الجواري واللاتي كن يؤلفن القسم الأعظم من هذا الجناح. وكان السلاطين العثمانيون يضمون الى هذا الجناح باستمرار الفتيات الملاح البواكر اللاتي يقعن في أسر الجيش العثماني خلال عملياته العسكرية. وكان يعبّر عنهن بالأعجميات. وتتولى عملية تعليمهن عند دخولهن الى الجناح النسوي، معلمة خاصة يُطلق عليها اسم «كهيا قادني». ويُفرض على تلك الفتيات اعتناق الاسلام، ويتميز معظمهن بالبراعة في فنون من قبيل الرقص، والموسيقى، والغناء، وسرد القصص، ولذلك كانت لديهن حظوة كبيرة لدى السلاطين. وكانت تعطى لهن درجات على اساس حجم المهارة التي تتميز بها كل جارية مثل: التلميذة، والمرافقة، والاستاذة.

كان يعبّر عن المرأة التي تحظى بأعظم حظوة لدى السلطان بـ «اوداليك»، اي الخاصة. وحينما لا يختار السلطان زوجة رسمية او معروفة، تتصدر جناح النساء اربع من النساء الخواص اللاتي يعبّر عن كل واحدة منهن بـ «قادين» او «خاتون». وتتولى واحدة منهن رئاسة ذلك الجناح ويُطلق عليها اسم «باش قادين». وحينما تلد احدى النساء ذكراً تجتمع فيه المواصفات اللازمة لخلافة السلطان، تلقب أمه بلقب «والدة السلطان»، فتصبح صاحبة الهيمنة الحقيقية في الجناح. ويُعد الجناح النسوي أحد اهم مصادر النزاع على السلطة في البلاط، بسبب تنافس نساء

السلطان على التدخل في الشؤون السياسية.

كان يدير شؤون جناح نساء السلطان بعض الخصيان السود. وكان رئيس الخصيان ويدعى بـ«دار السعادة آقاسي» او «قزلر آقاسي»، يتمتع بنفوذ كبير جداً في البلاط، ويُعد الشخصية الثالثة في البلاط العثماني بعد الصدر الأعظم، وشيخ الاسلام(٨٨).

كان ملازمو السلطان وندماؤه يمثلون أهم كيان في الجناح الخارجي للباب العالي. وهم عبارة عن عدد من العلماء والاطباء الخاصين بالسلطان تحت اشراف ما يُعرف بـ «حكيم باشي»، وثلاثة منجمين، ومعلم، وحافظ، ومؤذن، وشيخ يتولى ارشاد السلطان معنوياً. وقد يحظى هذا الشيخ بنفوذ كبير عند السلطان بحيث لا يمارس السلطان اي عمل مهما كان صغيراً، إلّا بعد استشارته وأخذ رأيه.

ومن مرافق الجناح الخارجي الاخرى: المطبخ العامر، وبيت الحلوى (حلوى خانه)، وكان يعمل فيهما الغلمان الأعاجم. وقد اتسع هذان المرفقان كثيراً في عهد سليمان القانوني، وكان يرأسهما شخص يعرف بـ «حلواجي باشي»، اي رئيس الحلوائيين. كما كان هناك بعض الاشخاص الذين يشرفون على نوعية الأطعمة وجودتها ويعرفون بالذواقين.

ومن ملحقات الجناح الخارجي، بعض الورشات التي تعمل على توفير متطلبات الباب العالي ومستلزماته كالسجاد، والأقمشة، والحلي، والأسلحة، والنجارة، والحدادة، وكان قسم الخياطة، يعتبر من أهم اقسام هذا الملحق، ويرأسه خياط السلطان الخاص الذي يُشار اليه بـ «خياط خلعت». وفيه أيضاً خياطون آخرون يخيطون اثواب امراء البلاط.

كان السلطان يعير اهمية كبيرة لخمسة من الفنانين في الجناح الخارجي وهم: الشعراء، والمسيقيون، والرسامون، والوصالون، والصحّافون. والمجموعتان الاخيرتان كانتا مسؤولتين عن توفير واعداد الكتب القيّمة التي يطلبها السلاطين كالشاهنامة. وكان الى جانبهما مجموعة اخرى تتولى مهمة تنظيم حواشي الكتب،

كانت تحظى باهتمام السلطان ايضاً.

ومن المجموعات الاخرى التي كانت تعمل في الجناح الخارجي: المعماريون الذين كان يرأسهم شخص يلقّب بـ «معمار باشي»، والبستانيون، وأمير الاسطبل الكبير وامير الاسطبل الصغير، وعدد من المتخصصين في تربية وصيد الطيور النادرة.

كان يتولى حراسة مباني قصر السلطان فوجان يطلق عليهما: «قابوجي» و«بالتاجي» أو «أصحاب الفؤوس»، فكانوا يتولون مهمة المحافظة على الابواب الخارجية للقصر، والأروقة الداخلية والخارجية للقصر.

وكان هناك فوج عسكري يتولى حماية السلطان وحراسته بشكل خاص برئاسة شخص يقال له «جاووش باشي». كما كان هذا الفوج يتولى بعض المهام الاخرى مثل: تعبئة القوات للعمليات الحربية، والاشراف على تنظيم القوات وترتيبها في ميدان الحرب، وايصال رسائل السلطان الى مختلف الاماكن.

وكانت هناك سرية عسكرية تنهض بمهمة حمل العلم الذي يعبّر عنه بالـ «طوق»، وعزف الموسيق الرسمية والعسكرية في شتى المراسم والمناسبات التي يجريها البلاط، تحت اشراف شخص يعبّر عنه بـ «أمير العلم». كما يطلق على الفرقة الموسيقية اسم «مهتران علم» وكان هناك جنود لحمل ونقل خيام وسرادقات السلطان اثناء الحروب والصيد. وثمة مجموعة تلازم السلطان اثناء خروجه فارساً يُطلق عليها اسم «ركاب آقالري». وثمة وحدة من الفرسان تعمل في الجناح الخارجي ذات زيّ موحّد، تأخذ على عاتقها تنفيذ مهام السلطان الخاصة. وكان يطلق على هذه الوحدة العسكرية اسم الـ «متفرقة»، وكان معظم أفرادها من ابناء الاسر الكبرى والصدر الأعظم والوزراء، وكانت تحظى باحترام خاص في البلاط(٨٩).

ديوان الباب العالي الذي كان يقع في داخل مجموعة قصور السلطان، كان في

حقيقة الأمر عبارة عن مجلس شورى مؤلف من كبار المسؤولين والأمراء البارزين في الحكومة المركزية. وكان السلطان نفسه يتولى رئاسة ذلك المجلس. ثم أصبحت الرئاسة من نصيب الصدر الأعظم منذ عـهد محـمد الثـاني. وكـان ذلك المجـلس التشاوري يعقد اجتماعاته في غرفة ذات نافذة واحدة تطل على غرفة السـلطان، حيث تصل منها اليه جميع مداولاتهم. وكان الأعضاء ملزمين بالحضور مع الصدر الأعظم بين يدي السلطان للتباحث معه بشأن قضايا البلاد المهمة. وكان مجلس الشورى هذا ينعقد أربعة ايام في الاسبوع في عهد سليمان القانوني، وكان يشترك معهم الصدر الاعظم، ووزراء البلاط، وقاضي العسكر، وكاتب السـلطان، ووالي الروملي.

كانت المهمة الاساسية الملقاة على عاتق الديـوان، هـي رفـع المـظالم. وكـان باستطاعة اي موطن مهما كان دينه ومذهبه، ان يرفع شكاوى الى هذا الديوان ضد المسؤولين والحكام. وكان «جاووش باشي» ملزماً بالاشراف على طريقة اجراء أحكام الديوان.

فضلاً عن ذلك، كان الديوان يبحث ويناقش معظم شـؤون البـلاد وقـضاياه المهمة، كالحرب، والسلام، وطريقة تنفيذ العمليات العسكرية، ونصب وعزل الولاة والامراء. كما كان يقوم بمهمة التفاوض مع السفراء الأجانب خلال مراسم ضيافة رسمية. كما كان الديوان يستلم رؤوس المتمردين او المعارضين للدولة العثمانية الذين يتم قمع تمردهم، وقتلهم. وكان الوزير الأعظم يشارك في اجتماعات الديوان كوكيل مطلق للسلطان. وقد بدأ ذلك منذ عهد السلطان محمد الثـاني ثم ثُـبِّت في عـهد السلطان سليمان ومن جاء من بعده.

على هذا الأساس، كان الوزير الاعظم يُعد الشخصية الثانية في البلاد، بل كان هو الذي يدير الامبراطور ويسيره. وفضلاً عـن اجـتماعات الديـوان، كـان لدى الوزير الأعظم اجتماع في عصر كل يوم لدراسة اوضاع البلد ومتطلباته. وكان من حقه ان يعزل وينصب، ويتولى في بعض الأحوال قيادة جيش السلطان في ميادين

الحرب. وكان في خدمته قاضيان عسكريان، كانا يعقدان اجتماعاً معه في غروب كل جمعة للبتّ في القضايا الشرعية.

الوظيفة الاخرى للوزير الأعظم، كانت الحفاظ على الأمن في العاصمة. فكان لديه اجتماع في غروب كل أربعاء للبحث في اوضاع العاصمة. وكان ملزماً بالحضور في كل جمعة في بعض أحياء المدينة للاطلاع على أوضاعها عن كثب.

ورغم ذلك كله، كان موقع الوزير الأعظم مهدداً من قبل السلطان باستمرار. فلم يكن الوزراء الأعظمون العثمانيون على ثقة بمستقبلهم. فقد كان باستطاعة السلطان ان يعزل الوزير الاعظم حتى بدون اي دليل واضح وتعيين آخر محله. وحينما كان يُعزل السلاطين من قبل خصومهم من نفس الأسرة العثمانية، يقوم السلطان الجديد في معظم الأحيان بقتل الوزير الأعظم وبعض أفراد اسرته، ويصادر أموالهم كافة.

تحدثنا عن وجود قاضيين عسكريين الى جانب الوزير الأعظم احدهما قاضي عسكر الروملي، والثاني قاضي عسكر الأناضول. وكانت مهمة هذين القاضيين البحث في الشؤون الشرعية والقضائية، وتعيين قضاة وأمراء العسكر العثماني، والبت في طريقة عزل وتعيين المدرسين. وحينما تقوّى منصب المفتي أو شيخ الاسلام في الهيكلية الدينية العثمانية، أصبحت مهام هذين القاضيين جزءً من مهام المفتي ايضاً.

كانت مهمة الـ «نشانجي» او «التوقيعي»، اعداد القوانين التي تقوم مفادها على القرارات المتخذة في اجتماعات الديوان. وكان الاول يتولى رئاسة دائرة الحسابات التي تعرف بالـ «دفتر خانة». وكان كاتب الحسابات او المحاسب (دفتردار) يقوم بمهمة الاشراف على شؤون الخزانة ونفقات السلطان الخاصة. وكانت هناك دائرتان للحسابات في البلاط: الاولى خاصة بالروملي، والثانية خاصة بالأناضول(٩٠).

المؤسسات العسكرية

كان جزءٌ مهمٌ من قوات الجـيش العثماني يرابط في العاصمة بالقرب من قصر السلطان ويعبّر عن ذلك الجزء من القوات بـ «قابي قوللري»، وذلك خلال فترة ازدهار الامبراطورية العثمانية. وكان افراد ذلك الجزء، من بين اولئك الغلمان الذين كان يشتريهم السلطان العثماني وتشكل نفقات شرائهم نسبة مئوية كبيرة من نفقات الباب العالي، حيث بلغت ٣١٪ عام ١٥٢٧ م، و٤٢٪ عام ١٥٦٧م(٩١).

على هذا الأساس ينبغي ان يميّز هؤلاء عن الجيش العثماني الموسمي الذي يعبئه أمراء الولايات ويؤدي خدمات عسكرية مؤقتة في مقابل بعض الامتيازات.

ورغم ان قوات الـ«قابي قوللري» لم تكن كثيرة العدد، لكنها كانت بمثابة النواة الاساسية للجيش العثماني، فكانت مجهزة بمعدات عسكرية كاملة، وتقدم خدماتها العسكرية للباب العالي كقوات محترفة. وقد استقطبت اهتمام المراقبين الأجانب نظراً لما كانت تمتاز به من نشاطات(٩٢).

في عهد السلطان سليمان القانوني، كانت قوات الانكشارية تتألف من ٣ أقسام: النواة الأصلية التي كان يعبّر عنها بالجماعة؛ والقوة التي كانت تحمي محل اقامة السلطان، وكان يعبّر عنها بالـ«سغبان» او «سيمن»، وتُعد من ابتداع محمد الثاني؛ والأفواج المعروفة بـ«آقا بلوكلري» وتأسست في عهد بايزيد الثاني. وقد تطورت هذه القوات من حيث الكيفية في عهد السلطان سليم الاول. واستمر هذا المنحى في عهد السلطان سليمان القانوني. وبعد موت السلطان اقتصر الاهتمام على زيادة حجم هذه القوات وتجاهل الارتفاع بمستواها العسكري وكفاءتها، بحيث بلغ عددها في عهد مراد الثاني في عام ١٥٩٥م نحو ٢٦ ألف جندي، ثم بلغ في عام ١٥٩٨م نحو ٣٥ ألف جندي. وقد ادى هذا الاطراد الكبير في العدد الى انخفاض مستواها التدريبي والقتالي، فضلاً عن فرض نفقات هائلة على خزانة الباب العالي(٩٣).

مع تزايد عدد القوات، ظهرت تقسيمات جديدة في تشكيلة تلك القوات. فكان يترأس كل وحدة عسكرية منها ضابط يدعى بالـ «شورباجي» كان يتسلم ايضاً رواتب الأفراد الذين يترأسهم، من الخزانة. وكان يُشار الى امراء وحدات «الجماعة» ـ الذين بلغ عددهم في عهد مراد الثاني ١٠١ أمراً ـ بعناوين من قبيل «يايجي» و«سربياده»، وكانوا يمارسون مهام مماثلة. ويُلقّب نواب هؤلاء الامراء خلال العمليات العسكرية بـ «اوداكدخداسي» و«باش اودباشي»، و«اوداباشي»(٩٤).

قيادة جميع تلك القوى، كانت من نصيب أحد افراد الانكشارية، يساعده شخص يقال له الـ «قول»، اي الغلام. وكانت مهمة الـ «قول»، الاتصال المباشر بالسلطان وتقديم تقرير مستمر عن وضع القوات. وكان لقيادة قوات «قابي قوللري»، ديوان خاص يضم العديد من الأمراء وهم: «قول كد خداسي» او «كد خدا بيك»، آمر الانكشارية في ميدان القتال؛ «زكرجي باشي»، آمر افواج المشاة او الجماعة؛ «سامسونجي باشي» او «طورناجي باشي»، آمر مجاميع اخرى من قوات المشاة؛ «باش جاووش»، آمر السعادة وكانوا يحملون الاوامر العسكرية والحربية؛ «نائب كد خدا بيك»؛ «محذر آقا» والذي يعمل كمنسق بين الانكشارية وديوان القيادة العامة للقوات؛ «كد خدا يري»، وهو النائب الأول لـ «كد خدا بيك» وأحد ملازميه.

من صنوف الجيش العثماني الاخرى، الوحدة العسكرية التي تعرف بـ «خاصة اورتالري»، التي تُعد وحدة خاصة في قوات المشاة. وكانت مهمة «يني جري افنديسي»، توفير الحاجات والمتطلبات اللازمة لقوات الانكشارية، وشراء قوات اكبر على أساس نظام الـ «دوشيرمه»(٩٥).

كانت المهمة الأساسية للانكشارية ـ كنواة أساسية لقوات «قابي قوللري» ـ الاطاعة المحضة العمياء لجميع الأوامر التي كان يصدرها السلطان. وكان أقل تلكؤ في تنفيذ اوامر القادة والسلطان تترتب عليه عقوبة اقلها السجن، والنفي، وأشدها

الموت. ولم يكن يسمح لعناصر هذه القوات بالزواج والحياة الأسرية، فكان المحل الذي يعيشون فيه، هي تلك المباني التي يمتلكها الجيش والتي هي اشبه بالمعسكرات والثكنات العسكرية. وقد ألغي حظر الزواج في عهد سليم الاول، فأخذ يعيش المتزوجون منهم مع اسرهم في معسكرات دائمية شيدت في محلات عديدة من استنبول على نفقة الباب العالي.

العمل الذي كان يقوم به الامام في الوحدات العسكرية، كان ترسيخ الالتزام الديني لأفراد الجيش العثماني الذين اعتنقوا الاسلام حديثاً. وكان معظم أئمة الانكشارية، من اعضاء الطريقة الصوفية البكتاشية. وكانت هذه الطريقة على صلة وثيقة جداً بالانكشارية. وانخرط الكثيرون منهم في صفوفها رسمياً منذ اواخر القرن السادس عشر. وكان افراد هذه القوة المسلحة يتلون قبل البدء بأي قتال دعاءً خاصاً يتطرقون فيه الى ذكر الامام علي (ع) والحاج بكتاش الذي يعتبرونه من ابناء الامام علي(٩٦).

المعدات التي كان يمتلكها افراد هذه القوة عبارة عن الأسلحة الباردة كالسيف، والرمح، والقوس، والطبرزين وما الى ذلك. ومنذ بداية القرن السادس عشر، تجهزت بالبندقية ايضاً. وكانت تصطف في ميادين القتال في قلب القوات العثمانية وأمام السلطان في تسعة صفوف افقية متوازية تستبدل مواقعها بين فترة واخرى من اجل ان تستعيد الصفوف المستبدلة نشاطها. ويشكل افراد الجيش حلقة حول السلطان خلال الاندفاع في ميدان القتال. وتقع مهمة حماية السلطان وحراسته على عاتق فوجين من قوات المشاة يطلق عليها اسم «سولاق»(٩٧).

من مهام الانكشارية الاخرى في ايام السلام، فرض النظام والأمن العام في المدن، والمساعدة في اطفاء الحرائق، ومراقبة تنفيذ الأوامر التي يصدرها الديوان. وثمة مجموعة اخرى منهم كانت تتولي مهمة حراسة القلاع الحدودية، فكانت تتقاضى بسبب ذلك اجوراً اضافية على رواتبها. كما الزم السلطان فئة اخرى من الانكشارية بالحفاظ على ارواح وأموال اليهود والنصارى وحمايتهم من اي تطاول

او اعتداء قد يصدر من بعض المسلمين تجاههم. وانخرط بعض افراد الانكشارية في القوة البحرية العثمانية بعد تطورها.

كانوا يتلقون الرواتب كل ثلاثة أشهر مرة، وكان يدفعها لهم الشورباجي بحضور ممثلي الديوان، وعلى اساس اللياقة العسكرية التي يتميز بها كل فرد خلال تلك الفترة. وكان كهول الانكشارية الذين لم تعد لديهم القدرة على تنفيذ المهام التي توكل اليهم، يتقاضون رواتب تقاعدية. وكان افراد الانكشارية يعلنون حالة من التمرد والفوضى أحياناً حينما لا تصرف لهم رواتبهم في الوقت المحدد لسبب من الأسباب. كما كانوا يحجمون أحياناً عن العمل بواجباتهم، للضغط على الحكومة لزيادة رواتبهم. وكانت الحكومة مجبرة في معظم الأحيان لتلبية مطالبهم.

منذ عهد السلطان محمد الثاني، أصبحت رواتب الانكشارية تزيد عن الرواتب التي كان يتقاضاها سائر افراد قوات «قابي قوللري». وكان نفوذ الانكشارية كبيراً الى درجة بحيث كانت تتدخل في تنحية هذا السلطان او تعيين ذاك السلطان. وكانت تبرز بين صفوفهم اختلافات احياناً حول الذي سيعتلي العرش، فيندفع بعضهم لتأييد هذا، ويندفع البعض الآخر لتأييد ذاك، وتندلع بين الجانبين معارك دموية. وحينما ينتصر أحدهما يقوم بتصفية جميع خصوم السلطان الذي يؤيده(٩٨).

حينما دخلت الأسلحة النارية الى الجيش العثماني، ظهرت وحدة مدفعية مستقلة بين قوات «قابي قوللري». وكان افراد هذه الوحدة، ممن يطلق عليهم اسم «عجمي اوغلانر»، وقد تلقوا تدريبات متنوعة على الأسلحة النارية والمواضع الدفاعية وطرق استخدام المدفعية. وكانت وحدة المدفعية تتألف من مجموعتين: الاولى هم القداحون الذين يستخدمون المدفع وكانوا يتدربون على استخدامه مرتين كل اسبوع. والثانية وهم الفنيون الذين كانوا يتولون صيانة المدفع وتصليحه وصناعة أدواته.

شهدت وحدة المدفعية في الجيش العثماني تطوراً كبيراً في عهد محمد الثاني وبلغ عدد القداحين في معركة جالدران ٣٤٨ جندياً، كان معظمهم من المسيحيين الذين

أسلموا حديثاً. وبلغت المدفعية ذروتها فنياً وكيفياً في عهد سليمان القانوني، وبلغ عدد القداحين في عام ١٥٢٧ م نحو ٦٩٥ ثم بلغ في العام التالي ١٠٢٤ قداحاً. ثم اضيفت سرية جديدة الى وحدة المدفعية كانت مهمتها تجهيز هذه الوحدة باحتياجاتها(٩٩).

تأسست في عهد محمد الثاني وحدة عسكرية يطلق عليها اسم «جباجي»، كانت مهمتها اصلاح وصيانة الأدوات الحربية. وكان يأتمر عليها آمر خاص لديه أربعة نواب. وتطورت هذه الوحدة في عهد سليمان القانوني. بحيث ظهر فيها قسم لصيانة واصلاح الأسلحة الخفيفة والثقيلة(١٠٠).

فضلاً عن الانكشارية، كان الجيش العثماني يتألف من لواء من الفرسان باسم «آلتي بلوك»، كان يتألف من ست وحدات. والنواة الاولى لهؤلاء الفرسان كانت عبارة عن غلمان الجناح الداخلي لقصر السلطان (ايج اوغلان)، والأعضاء السابقين في الانكشارية الذين قدّموا خدمات متألقة للباب العالي. وكان لدى افراد لواء الفرسان هذا الحق في الزواج منذ البداية، مع منح الحق لأبنائهم في الالتحاق بهذا اللواء بعد احالة آبائهم على التقاعد. كما كانت تُصرف الرواتب لأسرهم في حالة وفاتهم.

كان هؤلاء الفرسان يرابطون في خارج مدن ادرنة، وبورسة، واستنبول، عدا فئة قليلة منهم كانت ترابط داخل العاصمة. وكانت سلسلة الرتب والدرجات في هذا التشكيل العسكري أعقد مما هو عليه في سائر تشكيلات الجيش العثماني الاخرى. كما كان يعتمد ترفيع كل فرد على مقدار ما يبديه من كفاءة وفاعلية.

يقع في رأس سلسلة الرتب في هذا التشكيل، ما يُعرَف بـ «سباهي اوغلانلر»، وهم ابناء الجنود الذين ازداد عددهم في عهد بايزيد الثاني، وبلغوا الذروة كماً وكيفاً في عهد السلطان سليمان القانوني. وكان هؤلاء يصطفون في ميدان المعركة على يمين السلطان. ويأتي بعدهم ما يُعرَف بـ «سلاحدارلر» الذين كانوا يصطفون على يسار السلطان. وتحسن وضع هؤلاء في عهد سليمان القانوني أيضاً. والمجموعة

الثالثة تُعرَف بـ «علوفه جي لر» وكانت تتوزع على يمين ويسار المجموعة الاولى. وكانت مهمتها تأمين عليقة خيول الفرسان والحفاظ على خزائن السلطان.

المهمة الأساسية لهؤلاء الفرسان الخاصين في زمان الحرب، حماية السلطان وحراسة المحل الذي يقيم به. وبامكانهم في وقت السلم تولي مناصب اخرى في الباب العالي كأن تكون مناصب مالية او الاشراف على الأوقاف، والحراسة، ونقل خزائن السلطان(١٠١).

الى جانب الجيش العثماني المرابط في استنبول، كانت ترابط في كل ولاية من ولايات السلطان، قطعات عسكرية ايضاً ولكنها كانت تختلف من حيث الكيفية عن جيش العاصمة. وكان يعتمد حجم تلك القطعات وقابليتها العسكرية على الأهمية المالية والعسكرية التي تتميز بها كل ولاية. والنواة الاساسية للجيش العثماني في الولايات، كانت تتمثل في الفرسان او المقاتلين الذين كانوا يرابطون في الولايات مقابل الحصول على اقطاعات وامتيازات خاصة كانت تُعرَف بالـ «تيمار».

فضلاً عن الماهية العسكرية للـ «تيمار»، كان ذا بُعد اقتصادي ـ اجتماعي أيضاً. وكان الهدف الأساس من اعطاء امتياز الـ «تيمار»، هو الحفاظ على جيش قوي في الظروف التي تتعرض فيها الحكومة المركزية لأزمات مالية. فالتيمار لم يكن مجرد امتياز مُلكي للامراء المرابطين في الولايات الحدودية، وانما هو امتياز مالي ايضاً تمنحه الحكومة المركزية في مقابل قيام اولئك الامراء بخدمات عسكرية عند الضرورة. فحينما كان السلطان يضع قرية ما او اجزاء من قرية تحت تصرف شخص ما، فليس لذلك الشخص الحق سوى في أخذ نسبة من الضرائب التي يدفعها اهل تلك القرية للحكومة المركزية.

فضلاً عن ذلك المبلغ الذي يستقطعه صاحب التيمار من الضرائب التي تفرضها الحكومة المركزية، باستطاعته ان يحصل على مبلغ آخر كان يعبّر عنه بـ «قلبح يري» او «خاصه جفتيلي»، وكان عبارة عن ريع الاراضي الموات التي بحوزة

صاحب التيار. وراح يُحذَف هذا اللون من الداخل، من قائمة دخول صاحب التيار بشكل تدريجي.

لم تكن ادارة التيار، امراً وراثياً. وكانت الشروط التي وضعتها الحكومة المركزية على صاحب التيار، واضحة تماماً. وكان يُفرَض على صاحب التيار ان يقدّم في بعض الأحيان خدمات مالية ودينية للحكومة المركزية. لكنّ الخدمات العسكرية كانت هي الخدمات المطلوبة في معظم الأحيان. فكان الهدف الأساس من ايجاد وتطوير نظام التيار، هو الابقاء على الجيش في خدمة الحكومة المركزية وتأمين معاش ورواتب مديري الجهاز الديواني في الولايات.

كان جميع أصحاب التيار، تابعين للسلطان. وحينما يعجز صاحب التيار عن تقديم الخدمات للحكومة المركزية طبقاً للشروط المحددة، يلغى عقده مع الحكومة المركزية تلقائياً. اما اذا استطاع ارضاء الحكومة المركزية بما يفوق التوقع، يضع السلطان تحت تصرفه اراضٍ ومبالغ اخرى يعبّر عنها بالـ «ترقي». وكانت الحكومة المركزية تعتبر الشخص المستلم للتيار، هو المسؤول الوحيد أمامها عن طبيعة ونوع الخدمات التي يقدمها.

العسكري الذي كان يقدم خدمات تستحق التقدير خلال فترة خدمته في الجيش، كان يصبح صاحب تيار في مرحلة تقاعده، تثميناً للخدمات التي قدمها. وحينما كان يتخلى صاحب التيار عن تياره لأي سبب من الأسباب، تخضع الأراضي والأملاك التي كانت تحت اشرافه، لاشراف الاوقاف، اي تذهب ايراداتها ودخولها الى الخزانة المركزية.

وكان يوجد في مقر حكومة كل صاحب تيار (سنجق)، مكتب للحكومة المركزية يسجّل فيه مقدار الضريبة السنوية المفروضة على تلك المنطقة، والمعلومات ذات الصلة بعدد نفوسها وأسرها، ومساحة تلك المنطقة، ومقدار الضرائب السابقة، وحجم الانتاج الزراعي والحيواني والصناعي لاسيما خلال السنوات الثلاث الأخيرة. والحكومة المركزية كانت هي التي تقدر مقدار الضرائب

التي تُجبى من تلك المنطقة.

وكان يوجد مكتب آخر باسم «اجمال دفتري» كانت تُسجل فيه اسماء أصحاب التيمار، والمعلومات الخاصة بهم، ومقدار ما يأخذونه من ضرائب الولايات التي هم فيها.

وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، سعى السلاطين العثمانيين لانتخاب أصحاب تيمار من بين الأعيان غير المسلمين ايضاً، الأمر الذي أدى الى اعتناق عدد كبير من هؤلاء للاسلام خلال فترة قصيرة.

في عهد سليم الاول وسليمان القانوني، وُضعت قواعد جديدة منها: لو قُتل صاحب التيمار خلال الحرب او في خدمة السلطان، فمن حق ابنائه التقدم بطلب لشغل مقام ابيهم. ولو توفي وفاة طبيعية فمن حق اثنين من أبنائه فقط التقدم بمثل هذا الطلب. فكان الباب العالي يقسّم الدخل المستحصل من التيمار بين الأبناء على اساس التدرج السني. كذلك يحق للجنود الشباب ان يصبحوا أصحاب تيمار اذا ما طلب امراؤهم ذلك(١٠٢).

كانت القوة البحرية تمثل جزءاً آخر من جيش السلطان، وتعود خلفيتها الى عهد السلطان محمد الثاني. ويمكن ملاحظة ثلاث مراحل ازدهار للقوة البحرية العثمانية: الاولى بعد فتح القسطنطينية وحتى نهاية القرن ٩ هـ / ١٥ م. وأهم ما تميزت به هذه المرحلة هو انضمام البحر الأسود الى الدولة العثمانية وتحوّله الى جزء لا يتجزأ منها. وبهذه الخطوة المهمة يكون الطريق قد مُهِّد لبدأ نشاطات القوة البحرية العثمانية. وكانت مقدرة هذه القوة تتركز خلال هذه المرحلة على تثبيت الوجود العثماني في سواحل شبه جزيرة البلقان.

نظراً لاشتباك العثمانيين خلال هذه المرحلة في الجبهة الايرانية والجبهة المصرية، فقد مُنعت القوة البحرية العثمانية من القيام بأية نشاطات معادية في السواحل الاوربية. كما انتقل مركز تجمع القوات البحرية العثمانية من غاليبولي الى استنبول. وتم تشييد رصيف وورشة لتصليح السفن في ساحل استنبول لتوقف واصلاح

سفن الاسطول العثماني(١٠٣).

بدأت المرحلة الثانية في عهد السلطان سليم وبلغت ذروتها بالأعمال الاصلاحية التي قام بها السلطان سليمان القانوني. ولعب وجود البحرية في عهد سليمان دوراً أساسياً في انتصار العثمانيين على فرسان سانت جان واحتلال رودس عام ١٥٢٢م.

ويُعد خير الدين باشا الذي يعرف في اوربا بـ«باربا روسا»، أشهر قائد بحري عثماني، اذ استطاع أن يصل بنشاط البحرية العثمانية الى الجزائر ويهيئ مقدمات التواجد العثماني هناك. كما استطاع فيما بعد ان يلحق تونس بالدولة العثمانية. ثم عاد الى استنبول وأخذ على عاتقه مهمة قيادة البحرية العثمانية واصلاح السفن الحربية في العاصمة.

سليمان الأول الذي كان على علم بالأضرار التي الحقتها الهيمنة الاوربية (البرتغال) على طريق التجارة البحري بين اوربا والشرق الأقصى، أراد ان يحول من خلال القوة البحرية العثمانية دون فرض هؤلاء لسلطانهم على الموانئ الرئيسة في الشرق الأوسط الاسلامي. ورغم ذلك لم تسفر مشاريعه الطموحة سوى عن فرض سلطة العثمانيين على خليج عدن واليمن وأجزاء من البحر الاحمر(١٠٤).

في أعقاب وفاة سليمان القانوني، بدأت المرحلة الثالثة في عهد سليم الثاني، والتي كانت في حقيقة الأمر استمراراً لنشاطات وأعمال سليمان القانوني، فكانت أهم انجازات هذه المرحلة السيطرة على قبرص. ولكن العثمانيين فقدوا نصف اسطولهم البحري في معركة لبانتو. ورغم انهم استطاعوا اعادة بناء الاسطول خلال سنة، غير أن القوة البحرية العثمانية لم تعد تشكل تهديداً لاوربا. والعامل الأساس الذي كان يقف خلف تلك الضربة تعيين العديد من الضباط البحريين الذين يفتقدون الى التجربة في الحروب البحرية.

بعد الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين في معركة لبانتو، قرر السلطان تعيين ضباط لقيادة الاسطول العثماني من اصحاب التجربة. فوضع على رأس هؤلاء الضباط

بحاراً من اصل ايطالي يدعى «اولوج علي»، فاستطاع ان يجري بعض الاصلاحات في القوة البحرية العثمانية وأعاد اليها مقدرتها السابقة. وبوفاته أخذت هذه القوة تتجه نحو الانحطاط والتراجع ثانية(١٠٥).

المهمة الاخرى التي كانت تنهض بها البحرية العثمانية، صناعة السفن الحربية. وحقق العثمانيون بعض النجاحات في هذا الحقل في مطلع القرن السادس عشر، غير أن الابداع في هذه الصناعة أخذ يتضاءل تدريجياً. ثم أخذت هذه الصناعة تتجه نحو الانحطاط بعد المعارك البحرية التي خاضها الاسطول العثماني مع الأساطيل الاوربية في نهاية القرن السادس عشر. فانتقال مراكز صنع السفن من استنبول الى القاهرة، ضعّف الاشراف على سير الأعمال وادى الى تراجع في هذا المجال(١٠٦).

من جانب آخر أدت الهزائم المتلاحقة التي منيت بها القوة البحرية العثمانية أمام الاسطول البندقي الى اضعاف هذه القوة وانهاكها. وحينما ظهرت روسيا كقوة مهمة في السواحل الشمالية للبحر الأسود، رابط جزء من القوة البحرية العثمانية في ميناء آزوف لحمايته. ومنذ ذلك الحين لم يعد بمقدور العثمانيين مجابهة الاوربيين في البحر المتوسط والمحيط الهندي.

ج ـ التعددية الاجتماعية والقومية

التباين بين المدينة والقرية في المجتمعات الاسلامية خلال العصر الوسيط، كان كبيراً وواضحاً. ولم يكن ذلك التباين يقتصر على الاختلاف في نوع الحياة اليومية بين الريف والمدينة او الوضع الاقتصادي ما بين الاثنين. فالحياة المدنية والحياة القروية، حياتان مختلفتان من حيث الماهية. ولم يستثن المجتمع العثماني من هذه القاعدة لأنه جزء من المجتمع الاسلامي. ومع ذلك لم تكن المدن العثمانية، تشكل مجموعة واحدة منسجمة.

المؤسسات الاجتماعية في المدينة، كانت تتعرض باستمرار وبشدة لتدخل وتهديد اصحاب القوة السياسية والادارية والعسكرية، بل وحتى الدينية رغم جميع الجهود التي كانت تبذل لتوحيدها وتماسكها. وكان الاساس الذي تقوم عليه المؤسسات الاجتماعية في المدينة، هو النقابات المهنية او ما كان يُعرف في الدولة العثمانية بـ «الطائفة»، والتي تهدف الى خلق روح التعاون والتآلف ما بين الأعضاء.

كانت النقابات المهنية متأثرة كثيراً بالطرق الصوفية لاسيما في بداية نشوء الدولة العثمانية وحتى نهاية القرن الثامن عشر على الأقل. وكانت تلك النقابات على علاقة وثيقة وعميقة بشتى تلك الطرق لاسيما الطريقتين البكتاشية والخلوتية. وكان عددها يعتمد على سعة كل مدينة وأهميتها. وهناك تقارير تتحدث حتى عن وجود نقابة مهنية خاصة بلصوص المدينة.

كان وجود تلك النقابات يسمح حتى لأفقر المواطنين للتعبير عن رغباته والتحدث عن مشاكله، وان يكون له موقع اجتماعي. وكانت هناك نشاطات دينية لهذه النقابات ايضاً نظراً لصلتها بالطرق الصوفية. كما ان العلائق القريبة التي كانت بين الشخصيات الادارية والسياسية في البيت العالي وبين الطرق الصوفية، منحت قادة تلك النقابات، امكانية التدخل في الشؤون السياسية والادارية للبلاد.

كان وجود النقابات يعمل على خلق لون من التأمين الاجتماعي، ويعزز العلاقة الودية بين الاعضاء، ويزيد من الاشراف على المنتوجات، ويحول دون هبوط نوعية الانتاج والاضطراب في السوق، ويحسن مستوى تقديم الخدمات.

على ضوء ما سبق، كانت الحكومة المركزية تسعى دائماً للاشراف على تلك النقابات، وترى ان وجودها يضمن حفظ الانتظام والانضباط في المجتمع ويحول الى حد كبير دون ظهور الفوضى وحالات التمرد الأعمى في المدن. لذلك كانت تحاول التأثير على زعماء النقابات وشيوخها. وكانت وظيفة شيخ النقابة (الطائفة)

الذي يدعى بالـ «كهيا»، تنظيم العلاقة بين اعضاء النقابة والحكومة المركزية في العاصمة وولاتها في المدن. فكانت شكاوى الأعضاء تُرفع الى الـ «كهيا»، الذي كان ملزماً بدراستها. ومع ذلك كان شيخ الطائفة يفتقد الى اية سلطة تنفيذية وبوسعه فقط انهاء المشاكل عن طريق الحوار مع طرفي الدعوى واستحصال رضاهما. اما اذا كان معظم اعضاء الصنف متذمرين من شيخ الطائفة نفسه، فينبغي عليه في مثل هذه الحال ان يعتزل ليحل غيره محله(١٠٧).

فضلاً عن الاسواق العديدة، توجد في كل مدينة العديد من المحلات التي تدعى كل محلة منها بـ «الحارة»، حيث يوجد في كل حارة مسجد، وحمام وسوق، وأبواب خاصة، وتتمتع باستقلال نسبي. ولدى كل حارة تشكيل اداري خاص، يقع على رأسه ما يُعرف بشيخ الحارة. وتوجد اواصر نسبية وسببية بين أهالي كل حارة، ويرتبطون فيما بينهم من حيث الشغل والدين. ولدى شيخ الحارة حراس خاصون مهمتهم الاساسية النظر في دعاوى سكان الحارة والحفاظ على الأمن العام. وكان هذا النظام معروفاً بشكل خاص في المدن العربية العثمانية كالقاهرة، ودمشق. فكان يقال فيها للشخص المسؤول عن الأمن والنظام، «المحتسب» او «أمين الاحتساب» الذي يشرف بشكل خاص على حفظ الشعائر الدينية في الأماكن العامة. والى جانب المحتسب، كان الـ «سوباشي» او «الوالي»، مسؤولاً بشكل كبير عن استتباب الأمن في المدن.

الميزة الأساسية للمدينة في المجتمع العثماني، كانت عبارة عن ظهور الصراعات والتمردات المتناوبة في المدينة. وكان المحرض الأساسي على ذلك الوضع، وجود الاختلافات بين سكان المحلات. وحينما كانت تلك المنازعات ذات طابع ديني أو مذهبي ـ لاسيما في الاقاليم العربية كالعراق والشام ـ تأخذ أبعاداً أوسع وتوقع الحكومة في مأزق وتضطرها الى اتخاذ اجراءات متشددة من اجل اعادة الأمن والهدوء الى تلك المناطق.

والمشكلة الاخرى التي كانت تعاني منها المدن العثمانية ـ لاسيما استنبول ـ كانت

عبارة عن المشاكل الكثيرة التي تنتج بسبب الكوارث الطبيعية كالسيول والزلازل. وكذلك عدم رعاية معايير الأمن والسلامة في تشييد البيوت والمباني. فكانت تتعرض استنبول بشكل خاص الى حرائق واسعة تسفر عن كثير من الخسائر في الأرواح والأموال والممتلكات.

وجود النقابات وكذلك نظام المحلة في المدن الكبرى، كان يسهل امكانية القيام برد سريع حين تحاصر المدن من قبل القوات المعادية او عند اقامة المهرجان والاحتفالات الكبرى. غير ان الحمل السهل للأسلحة من قبل الأهالي، كان يمثل تهديداً جاداً للحكومة المركزية لاسيما حين حدوث الاضطرابات والتمردات في المدن.

فضلاً عن الصراعات الداخلية، كان التعامل المستبد العنيف الذي يمارسه الحاكم المحلي وعمال الحكومة المركزية، يمثل مصدراً أساسياً لظهور التمرد والاضطراب في المدينة. وفي مثل تلك الحالات تجد الحكومة المركزية نفسها مضطرة لعزل الحاكم او العامل. وكانت مدن الشام تشهد هذا اللون من التمردات كثيراً. وحينما كان يخرج التمرد عن حده او حينما يجد الحاكم او الوالي دعماً واسناداً من قبل الحكومة المركزية، تتخذ الحكومة اسلوب المجابهة والقمع في تعاملها مع المتمردين(١٠٨).

حول عدد نفوس المدن خلال تلك الفترة، لابد من القول ان المؤرخين المسلمين وغير المسلمين يقدمون أرقاماً متحفظة. فقيل ان نفوس القاهرة كانت خلال نهاية القرن الثامن عشر نحو ٢٦٣ ألف نسمة، ونفوس حلب نحو ١٥٠ ألف نسمة، ونفوس بغداد نحو ١٠٠ ألف نسمة، ونفوس دمشق نحو ١٠٠ ألف نسمة ايضاً(١٠٩). فعدا القاهرة، ودمشق، وبغداد التي كانت تحظى بأهمية سياسية خاصة، اخذت سائر المدن العثمانية في الشرق الأوسط الاسلامي تفقد مكانتها التجارية تدريجياً. ثم أخذت مدن البلاد العثمانية تتجه نحو الانحطاط مع بروز الأزمات في الحكومة المركزية.

أهل الذمة

كان العثمانيون يقيمون علاقاتهم مع غير المسلمين في بداية العهد العثماني على اساس الاحكام الاسلامية، ويعبّرون عنهم بأهل الذمة، بالمعنى الديني والمحدود للكلمة. فالى جانب الدوافع الدينية، كان الفاتحون العثمانيون الأوائل ينظرون الى غير المسلمين كمصدر مناسب للحصول على الغنائم والمكاسب المادية.

من جانب آخر، كانت الأجواء المهيمنة على ذهنية العثمانيين في بداية عهدهم، متأثرة كثيراً بالنزعات الباطنية والصوفية. ومع اتساع تلك الأجواء، اخذت تتعزز روح التسامح الديني مع سائر اتباع الاديان الاخرى لدى الزعماء العثمانيين. بل ونفذت بعض المفاهيم والأفكار المسيحية الى العقائد العثمانية عن طريق أهل الذمة. فنجم عن ذلك اقامة علاقات ودية خلال تلك الفترة بين الاتراك العثمانيين والمسيحيين. وانخرط جزء كبير من المسيحيين في صفوف القوات العثمانية. وكانت لدى بعض السلاطين العثمانيين الأوائل نساء مسيحيات. وأخذ يتزايد عدد المسيحيين العاملين في البلاط العثماني مع بداية دخول العثمانيين الى جزيرة البلقان(١١٠).

مع تعزز أركان الدولة العثمانية وظهورها كقوة اسلامية في غرب العالم الاسلامي خلال النصف الأول من القرن ٩ هـ / ١٥ م، أخذ يتغير هذا المنحى، ووجد البلاط العثماني نفسه مجبراً على اقصاء النزعات الصوفية عن مركز اتخاذ القرارات السياسية، واللجوء بدلاً من ذلك الى استخدام الفقهاء السنة الذين يعارضون الصوفية. وكانت الطرق الصوفية ـ لاسيما الطريقة القلندرية ـ قد نجحت في ان توجد لنفسها كيانات في سائر المناطق الخاضعة للدولة العثمانية لاسيما في أعقاب هزيمة انقرة أمام القوات التيمورية. وقد بلغ الأمر بالطريقة القلندرية الى حماية منافس آخر للسلطان محمد الأول (١٤١٣ ـ ١٤٢١ م)، مما دفع بالسلطان الى ضرب عناصر الطريقة القلندرية.

استطاع السلطان محمد الاول ان يحصل على دعم الفقهاء السنة الذين كانوا يقيمون في الأجزاء الشرقية من البلاد لاسيما في مدينة اماسية، خلال ضربه للصوفية وأهل الباطن، بل وأضفى ا لمشروعية على عمله هذا من خلال تأطيره باطار قمع أهل البدعة. ومنذ ذلك الحين اخذ يتضاعف نفوذ فقهاء وعلماء أهل السنة في البلاط العثماني ويتدخلون في القضايا السياسية والاجتماعية(١١١).

هذا الاتجاه الجديد، أدى الى حصول تغييرات اساسية في طريقة تعامل السلاطين العثمانيين مع غير المسلمين. فعلى العكس من روح التسامح التي كانت سائدة خلال الفترة الماضية، اضحى غير المسلمين مصداقاً للمفهوم الفقهي لأهل الذمة، وأخذت الحكومة المركزية تفرض عليهم قيوداً أكبر.

من جانب آخر طرأ تحول على المكانة الاجتماعية للسلاطين العثمانيين. فاذا كان اعضاء وقادة الطرق الصوفية منهمكين في الغزو وخوض الجهاد ضد غير المسلمين، فقد أخذت تحل محلهم بمرور الأيام قوة جديدة كانت تتمثل في الشباب المسيحي الذين أخذوا ينخرطون في صفوف القوات العثمانية عن طريق ما كان يُعرَف بنظام الـ «دوشيرمة»، والذين كانوا يتلقون بعض التدريبات العسكرية، ثم يتدرجون في المناصب العليا بعد الدخول الى الاسلام ولو بشكل صوري.

من أهم افرازات نظام الـ «دوشيرمة» خلال تلك الفترة، اندفاع ابناء الأسر غير المسلمة نحو الاسلام، واعلان الاسلام من قبل عدد كبير من المسيحيين(١١٢).

من الجدير بالذكر ان الدولة العثمانية كانت تضم آسيا الصغرى، وجزءاً كبيراً من شبه جزيرة البلقان، وسائر الاجزاء الشرقية والوسطى للأناضول، والقسطنطينية، وجنوب ومركز اليونان، والشام، ومصر، والحجاز.

ما عدا الحجاز، كانت سائر هذه البلدان والمناطق خاضعة لحكم المسيحيين في يوم ما. ومنذ مطلع القرن ٥ هـ / ١١م على الأقل أصبحت معظم هذه البلدان في يد المسلمين، ونزع معظم سكانها المسيحيين نحو الاسلام خلال ثلاثة قرون. ورغم ذلك كان لايزال خلال مطلع القرن ٩ هـ / ١٥ م، عدد كبير من المسيحيين يقيم في

تلك المناطق. وكانوا ينتمون الى فرق مسيحية مختلفة لاسيما النسطورية، والمونوفيزية اللتين تعاديان الكاثوليكية والارثوذكسية.

هذا الوضع، لم يكن يسمح للدول الاوربية باتخاذ اسلوب تعامل السلاطين العثمانيين مع المسيحيين، ذريعة للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية.

تشتتُ المسيحيين وكذلك وجود الاختلافات بين الزعماء الدينيين، امر سمح للحكومة المركزية للامساك بزمام امور المسيحيين بسهولة وعلى ضوء مقتضيات الزمان. رغم ذلك كانت الحكومة المركزية العثمانية تتعامل معهم جميعاً بطريقة واحدة عند الضرورة من دون الالتفات الى الاختلافات الموجودة بين الفرق والكنائس(١١٣).

كان اتباع كل دين غير اسلامي في الامبراطورية العثمانية، يقعون ضمن مجموعة تُعرف بالملة. وكان يقف على رأس كل ملة عامل يعرف بـ «ملت باشي»، يكون بمثابة حلقة وصل بين ابناء دينه والباب العالي. وكان اتباع كل دين وملّة احراراً في اقامة واجراء مراسمهم وطقوسهم الدينية. كما كان رجال الدين في كل ملّة هم الذين يبتّون في منازعاتهم ودعاواهم على أساس قوانين شرعهم ودينهم.

السكان الأصليون الذين كانوا يسكنون الجزء الأعظم من مناطق غرب آسيا الصغرى التي سقطت في يد الدولة العثمانية في ٩ هـ / ١٤ م، كانوا يعتنقون المسيحية الأرثوذكسية. وكان يتزعمهم دينياً خلال فتح القسطنطينية بطريك يقيم في العاصمة البيزنطية. كما كان يتبع لهذا البطريك سكان البلقان الذين اعتنقوا المسيحية خلال القرن التاسع الميلادي في أعقاب الهجمات التي شنها السلافيون والبلغار.

بالرغم من الاختلافات الجزئية بين ارث بلغاريا، والبلقان، واليونان، إلّا ان محمد الفاتح جعلهم جميعاً تحت اشراف بطريق واحد. وكان يُقال لأتباع هذا البطريك في البلاط العثماني: الروملي، وكان يحتل في سلسلة المراتب الادارية في الباب العالي، مقام «اوج طوغلي» وكان يحق له ان يكون لديه مكتب وسجن

خاص في محلة «فنر» باستنبول. وفيما يتعلق بمبالغ الخراج التي كان ينبغي ان يدفعها أهل الذمة، فقد كان الباب العالي يقدّر فقط مقدار تلك المبالغ، اما مسؤولية تقسيمها وجبايتها فتقع على عاتق بطريك الأرثوذكس. اما سكان غلطة (غالاتا) وكان معظمهم من أهل جنوى، فكانوا ملزمين بدفع بعض الضرائب من اجل اعفائهم من الخراج والسماح لهم بالتجارة الحرة في البلاد العثمانية. وكان يعبّر عن هؤلاء بالمستأمنين، لا بأهل الذمة(١١٤).

كان اليهود، ملّة اخرى تقيم في البلاد العثمانية. وسمح لهم السلطان محمد الفاتح بالاقامة في استنبول، وعيّن عليهم ما يُسمى بالـ «حاخام باشي» كانت لديه نفس الصلاحيات التي لدى بطريق النصارى الارثوذكس. وكان مقام الحاخام باشي أعلى في الباب العالي من مقام البطريق. وكان يجلس في اجتماعات الباب العالي في نهاية صف العلماء المسلمين. وكان اليهود يُعدّون مواطنين من الدرجة الثانية ايضاً في الامبراطورية البيزنطية، ولم يكن يُسمح لهم الاتصال بالمسيحيين واقامة طقوسهم والاحتفال بأعيادهم بشكل علني. ورغم ذلك كله فقد انخرط اليهود في خدمة السلاطين العثمانيين بفعل ما تميزوا به من براعة في الطب والشؤون المالية. واستطاعوا بفضل نفوذهم الذي احرزوه لدى الباب العالي ان يحسّنوا اوضاع أبناء دينهم في الامبراطورية العثمانية. لذلك رفع عنهم الباب العالي ارتداء الزي الخاص بأهل الذمة وسمح لهم بالعيش وفق الطريقة التي تلائمهم. غير ان هيمنة فقهاء اهل السنة على السلطة العثمانية فيما بعد، أدى الى احياء هذا اللون من التشددات، وبات التعامل مع اليهود لا يختلف عن التعامل مع النصارى(١١٥).

بالرغم من ذلك كله، كان وضع اليهود في الامبراطورية العثمانية أفضل بكثير من وضع اليهود المقيمين في البلدان الاوربية. وثمة تقارير متعددة تتحدث عن ملاحقات وعمليات قتل تعرض لها اليهود في المناطق الواقعة تحت سلطة امبراطورية هيسبورغ في النصف الأول من القرن ٩ هـ / ١٥ م. كذلك تعرض اليهود المقيمون في أسبانيا لمثل هذا اللون من التعامل في عام ١٤٩٢ وأُجبر

الكثيرون منهم على مغادرة هذا البلد.

بفعل تلك الاضطهادات، هاجر عدد كبير من اليهود الى البلاد العثمانية، وكان معظمهم من سكان المدن ولديهم براعة في شتى المجالات لاسيما في الصناعات اليدوية. ولعب هؤلاء دوراً كبيراً في تحسين الاوضاع المادية والثقافية في عهد سليم الأول وسليمان القانوني. ويبدو ان المسلمين يقفون دائماً خلف ازدهار الحياة المادية لليهود وهذا ما يمكن ملاحظته بوضوح في عصر الدولة العباسية، والأندلس، والبلاد العثمانية.

اليهود الذين كانوا يقيمون في الدولة العثمانية، ينقسمون الى اربع طوائف: الاولى هم اليهود الربّنيون الذين كانوا يؤمنون بتعاليم التلمود. والثانية هم اليهود الكارائيتيون المتأثرون بتعاليم ابي حنيفة مؤسس المذهب الحنفي. ويقال ان مؤسس هذه الطائفة اليهودية كان سجيناً في سجن العباسيين مع ابي حنيفة. وتُعد فلسطين مركزاً اصلياً لهذه الطائفة، ومنها قاموا بنشر تعاليمهم في الأجزاء الاخرى من الشرق الاوسط وجنوب شرق اوربا. ومع ذلك كان عدد اليهود الربّنيين اكبر بكثير من الكارائيتيين. وكان معظم اليهود الذين هاجروا الى البلاد العثمانية، من الطائفة الاولى. والثالثة هم اليهود الأشكناز الذين هاجروا الى البلاد العثمانية قادمين من المانيا والنمسا. والرابعة هم المهاجرون الذين هاجروا اليها من اسبانيا والبرتغال ويدعون بالسفارديم.

فضلاً عن ذلك هاجرت أفواج يهودية اخرى من مناطق مختلفة كالمجر، ومولدافيا، والقرم، الى البلاد العثمانية حينما علموا باستقبال المجتمع العثماني لهم.

تم اخراج اليهود من أسبانيا والبرتغال خلال عهد بايزيد الثاني. وقد أصدر هذا السلطان العثماني امراً الى جميع الامراء والولاة بضرورة التعامل معهم تعاملاً حسناً.

ويبدو أن اليهود كانت لديهم خلال هذه الفترة مكانة افضل من المسيحيين في الباب العالي. وكانت مجموعة من تلك المهاجرين التي يعبّر عنها بالـ «مارانو»

عبارة عن يهود اضطروا الى التظاهر بالمسيحية تحت ضغط حكام أسبانيا والبرتغال. وقد تركز اليهود المهاجرون في استنبول، وسالونيك، وادرنة، ونيكوبوليس، وبورسة، واماسية، وتوقات.

في بداية العصر العثماني، كان يحق لليهود والمسيحيين الانخراط كالمسلمين في شتى النقابات المهنية. وتميز يهود المارانو على غيرهم من اليهود بفضل ما كانوا يتميزون به من قدرات وقابليات في صناعة الأسلحة. وكانت سائر الطوائف اليهودية تمارس التجارة البرية والبحرية مع الأقاليم النائية. كما كان اليهود هم الذين ينهضون بالطبابة والترجمة في البلاط العثماني(١١٦).

الى ما قبل عهد السلطان محمد الفاتح، اي حتى عام ١٤٦١ م، كان الأرمن لا يعدّون جزءاً من الملل المقيمة في البلاد العثمانية. والمشكلة الأساسية لدى الأرمن العثمانيين هي ان جاثليقهم كان يقيم خارج حدود الامبراطورية ولم يكن لديهم من يتولى امورهم في البلاد العثمانية. وكان يُنظَر للأرمن كطائفة منحرفة لأنها على المذهب الوحد يطبيعي. وكان يعبّر عنها بالأرمن الغريغوريين ـ نسبةً الى غريغوري المنوّر (Gregory the Illuminator) ـ للتمييز بينها وبين الأرمن التابعين للكنيسة الكاثوليكية بروما. وقد أقام عدد كبير من الأرمن في جنوب شرق آسيا الصغرى في أعقاب غزو السلاجقة لآسيا الصغرى، والحاق بلاد امراء الأرمن البقراطيين بالامبراطورية البيزنطية.

منذ ذلك الحين ظهر مركزان رئيسيان لاقامة الأرمن في هذه المنطقة: الاول في طوروس، والثاني في شرق الأناضول في الأراضي الواقعة في الحد الفاصل بين بحيرة «وان» وبحيرة «ارومية» في ايران. وكان جاثليق الأرمن يقيم في كنيسة اتشميازين في ايروان. ثم انتقل في عهد سلاجقة الروم الى سيواس، ثم الى ارمينيا الصغرى في قلقيلية.

بعد الغزو الذي قام به تيمورلنك، سقطت المناطق الأرمنية في شرق الأناضول بيد دولتي قره قوينلو وآق قوينلو. كما ضُمّت قلقيلية الى مماليك مصر، فعاد مقر

الجاثليق الى مركزه السابق، اي الى اتشميازين. وحينما نجح السلطان محمد الثاني في ان يهزم آق قوينلو ويستولي على المناطق الأرمنية شرقي الأناضول، أُلحقت الملة الأرمنية بنظام الملل.

وعين السلطان العثماني، الأسقف هوارغيم ـ وكان اسقف الأرمن في بورسة، بطريك للأرمن في استنبول، وفوّض اليه نفس الصلاحيات المفوّضة لبطريك الارثوذكس وحاخام اليهود. والأمر الملفت للنظر في الملة الأرمنية هو ان جميع غير المسلمين الذين لم يكونوا من النصارى الأرثوذكس ولا اليهود، كانوا خاضعين للدائرة القضائية لبطريك الأرمن(١١٧).

المسيحيون الكاثوليك، بالرغم من كونهم فئة غير مسلمة كبيرة تقيم في الدولة العثمانية، لكنها لم يكن لديها موقع في نظام الملة. ولم يكن عددهم كبيراً قبل فتح القسطنطينية، اما بعد فتحها على يد السلطان محمد الثاني فقد انضوت تحت لواء السلطان العثماني، تلك الجالية الكاثوليكية الكبيرة التي كانت تقيم في المدينة والتي ينتسب معظم أفرادها الى جنوى. ووفّر لهم السلطان محمد الثاني امكانات الاستمرار في العيش في ظل الدولة العثمانية. واخذ يزداد عدد الكاثوليك باستمرار الفتوحات العثمانية في اليونان ومورة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر(١١٨).

من بين الطوائف المسيحية الثلاث أعلاه، كان المسيحيون الارثوذكس يتمتعون بمكانة افضل. فهذه الطائفة، هي الوحيدة التي استطاع افرادها الانخراط في خدمة الباب العالي عن طريق نظام الـ «دوشيرمة». ومن هذا نفهم ان اليهود والأرمن لم يكن لديهم أي عضو في قوات الـ «قابي قوللري»، ولم يكن باستطاعتهم تولي المناصب المهمة التي تتيح لهم امكانية الارتقاء في سلسلة المراتب والدرجات الادارية العثمانية. ولو نظرنا الى هذا الأمر من زاوية اخرى، تُعد امتيازاً لهاتين الفئتين، لأن نظام الـ «دوشيرمة» كان يُلزِم الفتيان النصارى بالتخلي عن دينهم واعتناق الاسلام، على العكس من الأرمن واليهود الذين كانوا يعيشون في مراكز

المدن العثمانية بحرية ويلعبون دوراً لا يمكن تجاهله في الحياة المدنية العثمانية.

د ـ الأوضاع الاقتصادية والثقافية في الامبراطورية العثمانية

١ ـ الاوضاع الاقتصادية

في الاقتصاد العثماني الذي كان في قبضة الحكومة المركزية تماماً، كانت الزراعة والانتاج الحيواني مقوماً مهماً من مقومات ازدهار المجتمع ورخائه مادياً. وكان معظم القرويين يسكنون في اراض ليست ملكاً لهم. وكانت معظم الاراضي الزراعية في البلاد العثمانية ـ او ما يعادل نحو ٨٠٪ ـ تابعة للحكومة المركزية، وكان يعبّر عنها بالـ «ميري»، اي الأميرية. وكانت الضرائب التي تفرضها الحكومة المركزية على الأراضي الزراعية، ثقيلة الى حد ما، ولذلك لم يكن بوسع المزارعين سوى تلبية حاجاتهم اليومية، ولم يكن بمقدورهم الاحتفاظ بمبالغ للطوارئ والمستقبل. فكان معظم ايراد منتوجهم الزراعي يتدفق على خزانة الحكومة المركزية مباشرة. وكان مقدار انتاج كل منطقة، يُكتب بشكل دقيق في سجلات الولايات، وقلّما تصاب الحكومة المركزية بخسائر في جباية الضرائب.

ما يوجب التميز بين المزارعين المسلمين والمزارعين غير المسلمين، كان عبارة عن المبالغ التي يجب على غير المسلمين دفعها كجزية الى الحكومة المركزية. وكانت تلك المبالغ تذهب الى خزانة الباب العالي مباشرة. كذلك كان لابد للمزارعين غير المسلمين من دفع ضريبة اخرى للباب العالي تدعى الـ «اسبنجة»، وهي تقابل ضريبة اخرى تفرضها الحكومة المركزية على المزارعين المسلمين تدعى رسم الـ «جفت». وكان مقدار الاسبنجة في القرن السادس عشر نحو ٢٥ اقجة لغير المسلم، ورسم الجفت نحو ٢٢ اقجه للمسلم.

وكانت هناك ضريبة اخرى تدعى ضريبة المحصول تفرض على جميع المزارعين سواء كانوا مسلمين او غير مسلمين. فكان ينبغي على المزارع الذي

يزرع الغلال ان يدفع الى الباب العالي عشر المبلغ الذي يحصل عليه من بيع هذه المحاصيل. وثمة ضريبة اخرى كانت تستوفى من المزارعين في مناسبات مختلفة ولم تكن تابعة لقوانين محددة. ويتعلق جزء من هذا اللون الأخير من الضرائب بصاحب «التيمار»، بينما كان يقسّم الباقي بين «سنجاق بيك» و«سوباشي محل». كما كانت توجد ضريبة اخرى تدعى «عادة الأغنام»، يدفعها اصحاب المواشي(١١٩).

الحكومة المركزية التي كانت على علم بأضرار الهجرات الجماعية الى اراضيها، كانت تسعى لوضع القوانين التي تحد من تلك الهجرات. ومن تلك القوانين ان القروي الذي يهجر قريته الى قرية اخرى، كان ينبغي عليه ان يدفع الضريبة مرتين: مرة لصاحب القرية الاولى، والثانية لصاحب القرية الثانية. كذلك كان المزارعون الذين يهجرون الزراعة ويقبلون على مزاولة أعمال اخرى، مجبرين على دفع مبلغ من المال الى صاحب المقاطعة.

مع ذلك كان يوجد في بعض مناطق الامبراطورية العثمانية، لاسيما في الأناضول، قانون لا يسمح للحكومة المركزية ان تعيد المزارع الذي هجر قريته قبل ١٥ عاماً وسكن في المدينة، الى تلك القرية(١٢٠).

في أعقاب تعزز أركان الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، بُذلت جهود مدروسة من اجل تحسين اوضاع المناطق المفتوحة وازدهارها. وكان من نتائج تلك الجهود، ظهور مراكز تجارية في الدولة العثمانية. وقد اختارت الدولة العثمانية العواصم الثلاث التالية على التوالي: بورسة منذ ١٣٢٦ وحتى ١٤٠٢ م، ادرنة منذ ١٤٠٢ وحتى ١٤٥٣ م، استنبول منذ ١٤٥٣، وذلك في مسعى من الزعماء العثمانيين لايجاد أرضية مناسبة لتحقق ازدهار اقتصادي وتجاري.

السلاطين العثمانيون يعتقدون ـ طبقاً لتقاليد قديمة يمكن ان يكون مصدرها من الايرانيين ـ ان وجود الفنيين والصناعيين، يؤلف أحد الأسس الحقيقية لظهور المدن الكبرى. ولذلك استعان الكثير من السلاطين العثمانيين بالمال والقوة لاستقدام افضل فناني وصناعيي شتى المناطق الى العاصمة، واسكانهم فيها. فقد قام محمد

الفاتح بعد فتحه للقسطنطينية بنقل عدد كبير من أثرياء بورسة وأصحاب الطاقات والصناعات فيها الى هذه المدينة.

في عام ١٤٧٥ م، نُقل العديد من أثرياء مدينة كفّه بعد فتحها، الى استنبول بالقوة. وبلغ عددهم عام ١٤٧٧ م نحو ٢٦٧ أسرة كانت تقطن في محلة مستقلة. ولهذا السبب ايضاً كان السلطان محمد الفاتح يشجع يهود اوربا ويحرضهم على الهجرة الى البلاد العثمانية، بحيث بلغ عددهم في استنبول عام ١٤٧٧ نحو ١٦٤٧ أسرة.

في عهد بايزيد الثاني، هربت مجموعة من يهود المارانو، من اسبانيا وايطاليا والبرتغال الى البلاد العثمانية بسبب المضايقات والضغوط التي تعرضوا لها في تلك البلدان، فأسكنهم العثمانيون في شتى الموانئ العثمانية اعتقاداً منهم انهم سيعملون على ازدهار الدولة العثمانية. ولذلك كان اليهود يؤلفون جزءاً من نفوس استنبول خلال القرن السادس عشر الميلادي. وبلغ عددهم في عام ١٥٣٥ م نحو ٨٠٧٠ نسمة.

وفي هذه المرحلة ايضاً تحول ميناء سالونيك الى أحد المراكز التجارية والصناعية الرئيسة في الدولة العثمانية نظراً لوجود اليهود فيه. وفي عام ١٥٥٤م، سكنت اسرة ناسي ـ التي لجأت الى الدولة العثمانية ـ في استنبول، وحظيت بدعم السلطان سليمان القانوني وتسهيلاته. وواصل السلطان سليم الأول هذه السياسة ايضاً. لذلك حينما حقق نصراً على الصفويين عام ١٥٠٠ م، حمل بالقوة نحو ١٥٠٠ اسرة تبريزية معروفة بالصناعة والفن والعلم، الى البلاد العثمانية(١٢١).

كان الهدف من تشييد الخانات ـ وهي الأسواق المسقفة ـ والمنازل، والزوايا، تقديم الخدمات والتسهيلات للقوافل التي تتنقل بين شتى مناطق ومدن الامبراطورية العثمانية. وفي عام ١٤٥٩ م، تم تشييد مختلف المباني والعمارات.

لعبت الزوايا دوراً كبيراً في ظهور القرى في غرب الأناضول والبلقان، في بداية ظهور العثمانيين. وكانت معظم تلك الزوايا تشيد من قبل الطرق الصوفية، لاسيما البكتاشية والخلوتية، في أراضي السلطان الوقفية. وفي نهاية القرن الخامس عشر، ومطلع القرن السادس عشر، أخذت تلك الزوايا تفقد طابعها الديني، وراحت تلك الأراضي تخضع لملكية الحكومة المركزية. وجوبهت تلك العملية بردود فعل عديدة. وقد أعاد السلطان سليمان الاول نهج تشييد الزوايا لاسيما في الاجزاء الشرقية والجنوبية الشرقية من البلاد في أعقاب الصلح مع الشاه طهماسب الصفوي، وبدعم من الطرق الصوفية، والأموال التي كانت تستحصل من الأراضي والأملاك الوقفية(١٢٢).

مع سقوط الامبراطورية الايلخانية في ايران وظهور العثمانيين في المناطق الغربية من آسيا الصغرى، أخذ مركز الثقل السياسي والتجاري يميل نحو الأناضول الغربية تدريجياً. وتزامن هذا التطور مع ظهور التغيير في المسار التقليدي لطرق التجارة في آسيا الصغرى. فتحولت مدينة بورسة (بروسا) التي كانت مركزاً تجارياً وسياسياً الى أهم مركز تجاري في الأناضول، وأصبحت مركزاً لشبكة التجارة في آسيا الصغرى، واتصلت بها مدن مهمة مثل بالاتيا (بلاط)، والتولوغو (افسوس القديمة)، وأزمير، التي استولى عليها العثمانيون عام ١٣٩١ م.

اضف الى ذلك ان القوافل التجارية التي كانت ترد الى الاناضول عن طريق ايران واذربايجان، كانت تتخذ من بورسة طريقاً الى الموانئ. كما استطاع بايزيد الأول بعد احتلاله لمدن ارزنجان، وأماسية، وتوقات وغيرها، الاستيلاء على طريق القوافل بين هذه المدن، وربطه بمدينة بورسة.

على هذا الضوء، أصبح بوسع قوافل الحرير التي كانت تأتي من ايران، الوصول الى مدينة بورسة برياً عبر البلاد العثمانية. ولاريب في ان هذا الطريق التجاري، كان يشكل أحد اهم منابع الدخل العثماني. وفي القرن السادس عشر كانت أماسية، وتوقات الواقعتان على هذا الطريق من اهم المراكز السياسية والاقتصادية والثقافية

في الأناضول بعد بورسة.

في عام ١٣٩١ م، ألحق بايزيد الأول، كلاً من انتاليا وآلانيا ـ وهما الميناءان الرئيسان لنقل البضائع الهندية والعربية الى الأناضول ـ بالبلاد العثمانية. وكان الطريق السابق الذي ينقل هذه البضائع، طريق حلب ـ ادانة ـ قونية ـ استنبول. واكتملت سيطرة العثمانيين على هذا الطريق عام ١٣٦٨، حينما قضوا على الأسرة القرمانية، فتكون بورسة قد التحمت مع الموانئ الجنوبية في آسيا الصغرى. وبذلك أصبح بوسع التجار المسلمين الوصول بأمان الى هذه المدينة من ايران والحجاز. كما أصبح بمقدور التجار الاوربيين الذين كانوا ينشطون في استنبول وغلاطية، الانطلاق الى بورسة باعتبارها أقرب سوق تُباع فيها البضائع الشرقية والأصواف الاوربية. وطبقاً لما ذكره التاجر الاوربي شيلت برغر ان الحرير الايراني كان يُنقل خلال القرن الرابع عشر من ايران الى البندقية ولوكا، عن طريق بورسة.

وفي القرن الخامس عشر، تطورت صناعة الحرير في اوربا بشكل كبير جداً، وأصبحت بورسة كذلك احدى اهم الأسواق لهذه البضاعة التي كان يؤتى بها اليها من استراباد وجيلان. وأشار جورجو مارينجي ممثل اسرة مديجي، وسائر الأسر الفلورنسية في بورسة عام ١٥٠١ م، انه كانت تقدم في كل عام الى هذه المدينة قوافل كثيرة تحمل الحرير الايراني. وتتحدث رسائله بوضوح عن قلق التجار الاوربيين من وصول هذه القوافل. وكانت الأرباح المستحصلة من بيع الحرير الايراني في ايطاليا كبيرة. وكان كل فاردلو (وحدة الوزن في ايطاليا آنذاك وتعادل نحو ١٥٠ كغم) من الحرير الايراني يربح نحو ٨٠ دوكا. وكانت كل قافلة تحمل معها نحو ٢٠٠ فاردلو من الحرير. والجدول التالي يبين مقدار الرسوم الجمركية التي حصلت عليها الدولة العثمانية من تجارة الحرير خلال سنين مختلفة. ونلاحظ في الجدول سقوط فجائي للأرقام منذ عام ١٥٢١ وذلك بسبب الحرب التي نشبت بين ايران والبلاد العثمانية:

السنة	دوكا
١٤٨٧	١٢٠/٠٠٠
١٥٠٨	١٠٠/٠٠٠
١٥١٢	١٣٠/٠٠٠
١٥٢١	٤٠/٠٠٠
١٥٢٣	٥٠/٠٠٠
١٥٥٧	٧٠/٠٠٠

حتى حينما أصبحت استنبول عاصمة للدولة العثمانية، احتفظت بورسة بمكانتها كأهم مركز للتجارة في هذه الدولة على مدى قرن آخر. كما احتفظت حلب ـ وهي المنافسة لها في تجارة الحرير ـ بأهميتها في هذا الشأن لفترة طويلة من الزمن. وكان باستطاعة قوافل تجارة الحرير الايراني الوصول الى حلب عن طريق ارضروم بعد اجتياز سهول الفرات الأعلى، او عن طريق تبريز ـ وان بدليس ـ ديار بكر ـ بيرجق. واستولى العثمانيون على هذه الطرق وكذلك على مدينة حلب بعد القضاء على حكومة المماليك. فسقطت جميع طرق تجارة الحرير الايراني في الشرق الاوسط، في يد العثمانيين. وسعى العثمانيون في القرن السادس عشر للاستيلاء على مراكز انتاج الحرير في ايران مثل شيروان وجيلان، فنجحوا في ذلك لفترة قصيرة(١٢٣).

الحرير الايراني كان احدى البضائع التي كانت تباع وتشترى في سوق بورسة. فكان العنبر، والدارصين، والأواني الخزفية، من البضائع المهمة الاخرى في هذه السوق والتي كانت ترد من الصين، وآسيا الوسطى. وكان التجار الايرانيون يبتاعون في مقابل بيع الحرير، البضائع والسلع النادرة في ايران كالأصواف،

والأثواب المزركشة بالذهب وغيرها.

كان الطريق البري بين دمشق وبورسة، أحد الطرق التجارية المهمة خلال تلك الفترة. وتتحدث التقارير التي كتبها السائح برتراندون دي لابروكي ير عام ١٤٣٢ م عن هذا الطريق الذي يبلغ طوله نحو ٥٠ يوماً. كان طريقاً لتردد الحجاج وتجار فلورنسا وجنوى. والبضائع التي كانت تُنقل عبر هذا الطريق قليلة من حيث الكمية، لكنها كانت باهضة الثمن، كالتوابل، والصمغ، والترياق، والأقمشة. وقد حمل تاجر مسلم معروف يدعى ابا بكر الحلبي الى بورسة عبر هذا الطريق توابل بقيمة اربعة آلاف دوكا، وذلك عام ١٥٠٠ م. وكان هناك تاجر يدعى محمود غاوان الهندي كان يبعث كل عام خلال الفترة ١٤٧٠ ـ ١٤٨٠ م بضائعه التجارية الى هذه المدينة ايضاً(١٢٤).

يتضح من كتابات مارينغي ان التوابل الشرقية كانت تصدر الى ايطاليا عن طريق بورسة. وكتب في عام ١٥٠١ م الى أحد اقربائه في فلورنسا انه سيبعث اليه قريباً عدة حمولات من التوابل. ولم تكن قيمة الفلفل في سوق بورسة تختلف كثيراً عن قيمته في أسواق فلورنسا. وكان يباع كل قنطار (حوالي ٥٦ كغم) من التوابل في ميناء باري بمبلغ ٢٧ دوكا اذا كانت البضاعة شحيحة في السوق. وبلغت قيمة قنطار التوابل في ادرنة عام ١٥٠١ م نحو ١٨ دوكا. ومن بين أسباب هذا الانخفاض في السعر هو أن البرتغاليين، كانوا يتاجرون عبر الطريق البحري الذي كان اقل كلفة وأسرع بكثير من الطريق البري. وفي عام ١٥٠١م، تلقى ميناء انتروب الفرنسي اول حمولة توابل شرقية تحملها السفن البرتغالية(١٢٥).

تهديد البرتغاليين للحياة التجارية في الشرق الأوسط الاسلامي الذي كان معظمه يخضع للدولة العثمانية، كان تهديداً جدياً. ويمكن ان نستدل من خلال ذلك على ان اقصاء السلطان بايزيد الثاني واستبداله بولده سليم الأول، كان نتاج تذمر بعض الأوساط الاجتماعية وبلاط السلطان، من ضعف السلطان العثماني في مواجهة

التهديدات المتصاعدة. كما عرضت مماشاة بايزيد الثاني للصفويين الذين بعثوا الاضطراب في اوضاع آسيا الصغرى، الحياة الاقتصادية العثمانية للركود. وكانت الجهود التي بذلها سليم الأول لصد الصفويين والبرتغاليين قابلة للادراك في اطار تلك الأدلة. وكان السلطان سليم شخصية مغامرة، وكان يسعى لمجاورة الهند من خلال فتح ايران ومصر والسيطرة على الطرق البحرية في الشرق الأوسط، ويهدف الى الاستحواذ على التجارة العالمية آنذاك.

التقرير الشهير الذي كتبه «بيري رئيس» عام ١٥٢٥ م، يكشف بشكل واضح عن ادراك العثمانيين للمخاطر التي كانت تهدد وجودهم الاقتصادي والتجاري. وسعى في ذلك التقرير كي يكشف ان العثمانيين يستطيعون السيطرة بسهولة على المعسكرات البرتغالية الصغيرة في المحيط الهندي، وهم لهذا قادرون على زيادة دخول الحكومة المركزية من خلال اقامة طريق تجاري بين الهند والبحر الاحمر. وأشار على الباب العالي بضرورة استيلاء العثمانيين الكامل على اليمن وخليج عدن الذي يمهد للسيطرة على تجارة الشرق الأوسط، اذ ان ذلك سيعمل على تدفق آلاف المسكوكات الذهبية على الخزانة العثمانية.

وعبّر «بيري رئيس» عن اعتقاده ايضاً بأن ميناء عدن يستقبل في كل عام نحو ٥٠ ـ ٦٠ سفينة تجارية. وبمقدور الحكومة العثمانية ان تفرض رسوماً جمركية على هذه السفن بما يصل الى ٢٠٠ ألف دوكا(١٢٦).

ومع ذلك، لم تنجح الجهود العثمانية للسيطرة على الطريق البحري بين اوربا والهند، او على جزء منه على الأقل. وبعد وفاة السلطان سليمان القانوني ومع بداية القرن السابع عشر فقد الطريق البري بين الهند واوربا ـ والذي كان يمر معظمه في أراضي الدولة العثمانية ـ اهميته لاسيما بعد ان اشتركت في تجارة الشرق اضافة الى البرتغال، كل من بريطانيا، وهولندا، ثم فرنسا. وبذلك تكون قد انتهت مرحلة الازدهار الاقتصادي والتجاري لهذا البلد، مثل سائر اجزاء العالم الاسلامي.

النظام المالي

كان النظام المالي في الشرق الأوسط الاسلامي الى ما قبل النهضة الاوربية نظاماً مالياً سليماً وخالياً من الأزمات. فكان التزام الحكومات الاسلامية بالاسلام واشرافها الدقيق على الأسواق من خلال جهاز الحسبة، امر يحول دون ظهور أية ازمة او ضعف في هذا النظام. ولم يضع ضيق الدائرة الجغرافية لنفوذ الحكومات، وكذلك عدم اتساع الارتباط بالأسواق العالمية، النظام المالي أمام أخطار وتهديدات جادة. فكان من افرازات ذلك، الرخاء النسبي الذي تميزت به المجتمعات الاسلامية خلال تلك الفترة. وكانت البلدان الغربية تعاني خلال نفس الفترة من ازمات مالية شديدة، الامر الذي جعل التجارة الاوربية ذات أرباح اقل من تلك الأرباح التي تحصل عليها البلدان الاسلامية. وقد تغيّر الوضع تماماً مع ظهور النهضة الاوربية وبداية العصر الحديث.

ظهور الأزمات في النظام المالي للبلدان الاسلامية خلال هذه المرحلة، تحوّل الى عملية روتينية، ولم تكن لدى خزانات الحكومة الاسلامية القدرة والامكانات الضرورية لتدارك الأضرار الناشئة عن ذلك الوضع.

فإلى جانب الثبات في النظام المالي للدول الاوربية خلال مرحلة النهضة، سعت هذه الدول الى ايجاد اسواق جديدة لتصريف بضائعها من خلال تعزيز اسطولها البحري. فانشداد الاوربيين الى المركنتلية (Mercantilism) التي تمنعهم من الافراط في اخراج الاموال من بلدانهم، وتحثهم على زيادة تصدير البضائع خارج البلاد أدى الى تحسن اوضاعهم الاقتصادية وازدهارها. بينما ادى عدم اهتمام الحكومات الاسلامية في الشرق الأوسط ـ لاسيما الدولة العثمانية ـ بهذه الأصول الاقتصادية، الى تردي الاوضاع الاقتصادية في البلدان الاسلامية وتعثرها اكثر مما سبق(١٢٧).

منذ فترة تأسيس الامبراطورية العثمانية وحتى مطلع القرن الثامن عشر، لم يكن النظام المالي العثماني يقوم على المسكوكات التي تضربها الحكومة المركزية فقط،

وانما كانت المسكوكات والنقود الأجنبية ذات اعتبار في اسواق الدولة العثمانية. وكانت الـ «اقجة»، هي العملة العثمانية الرسمية، والتي كان يقال لها الأقجة العثمانية. وهي عملة فضية يعود أول ضرب لها، الى عهد اورخان. وكان العثمانيون يحجمون عن ضرب النقود الذهبية حتى فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح(١٢٨).

فضلاً عن الأقجة، كان يوجد نقد فضي آخر في الدولة العثمانية يقال له «قروش». والقروش كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية (Grossus) التي كانت تطلق على انواع الديناريوس التي كانت تُضرب خلال القرن الثالث عشر الميلادي في العديد من الدول الاوربية.

حينما بدأ العثمانيون عهدهم، كانت اشهر أنواع القروش، هي تلك المسكوكات التي كانت تضرب في المانيا وهولندا. وكان الأتراك يطلقون عليها اسم الأسديّة نظراً لنقش الأسد عليها. ثم تُركت هذه النقود بمرور الزمن، وحلت محلها قروش نمساوية تعرف بالـ «ريال»، او قره قروش التي كان عيارها أثقل من الأسديّة بحوالي ١/١٨. وكان هناك نقد ذهبي يضرب خارج الدولة العثمانية يعرف بالـ «دوكا»، الذي يشتهر بين الأتراك باسم فلوري او يالدز آلتني.

بعد فتح السلطان محمد الثاني للقسطنطينية، ضرب اول نقد عثماني ذهبي، كان عياره نحو ٥٣ حمصة ويشبه في شكله الدوكا. وبعد فتح مصر في عهد السلطان سليم الأول، ضُرب نقد ذهبي آخر باسم الـ «شريفي». وظل هذا النقد متداولاً بهذا الاسم في الأسواق العثمانية طيلة قرنين من الزمن. وكانت المسكوكات الذهبية الأجنبية تحصل على اجازة التداول في الأسواق العثمانية من خلال نقش كلمة «صحة» عليها(١٢٩).

كان عيار الأقجة ونوعيتها يخضعان لدقة تامة منذ عهد اورخان وحتى فتح القسطنطينية. وكان للحكومة المركزية اشراف كامل على طريقة ضربها باستخدام الفضة بنسبة ٩٠ بالمائة. وهبط مستوى الأقجة بعد سقوط القسطنطينية وحتى

عهد السلطان سليم الاول، وفقدت نحو نصف قيمتها دفعة واحدة. فأخذ كل ٤٠ أقجة يعادل ٤٠ قره قروش، و ٥٠ أسديّاً، و ٦٠ دوكا، و ٦٠ شريفياً عثمانياً.

واجهت الامبراطورية العثمانية أزمة مالية ونقدية شديدة، حينما دخلت الى اسواق اوربا والشرق الاوسط، الفضة المستخرجة من المناجم المكتشفة حديثاً في امريكا في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ م). وتفاقمت تلك الأزمة بفعل زيادة السلطان لعدد قوات الجيش وبالتالي زيادة الرواتب. وامتدت تلك الأزمة الى ايران ومصر. وخلّفت تلك الأزمة آثاراً سلبية طويلة الأمد على اقتصاد الدولة العثمانية، وظهور ارتفاع شديد في الأسعار في أسواق الشرق الأوسط الاسلامي. وأدت تلك الاوضاع المزرية الى تمرد الانكشارية وقتلهم للسلطان عثمان الثاني (١٦١٨ ـ ١٦٢٢ م) فكان اول سلطان عثماني تقتله قواته(١٣٠).

ولم تعد الأقجة الى سالف عهدها، ولم تكن الخزانة العثمانية ـ وعلى العكس من البلدان الاوربية ـ قادرة على التعويض عن الأضرار والخسائر التي المت بالنظام المالي. ولحقت ضربة اخرى بالنظام المالي العثماني في عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ م ـ ١٦٠٣) والسلاطين الذين أتوا من بعده. وقد جابهت الحكومة المركزية مشكلة جديدة تمثلت في انتشار النقود المزورة وذات العيار القليل.

وأخذت النقود العثمانية تفقد قيمتها، الأمر الذي ادى الى هبوط المستوى المعاشي لدى الناس، وظهور حالة التذمر بين الانكشارية وقيامهم بسلسلة متواصلة من التمرد ضد الحكومة المركزية والمشرفين على الخزانة العثمانية. وقد استعادت الأقجة قيمتها السابقة الى حد ما في عهد السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧ ـ ١٦٩١ م)، بفضل الاصلاحات التي قام بها الصدر الأعظم فاضل مصطفى. لكن ذلك التحسن كان مؤقتاً اذ سرعان ما هبط سعر الأوقجة ثانية، حتى انها تحوّلت في مطلع القرن الثامن عشر الى مجرد قطعة معدنية لا قيمة لها(١٣١).

بفقدان الأقجة لقيمتها، قامت الحكومة المركزية بضرب نوعين من العملة الفضية الجديدة: الاول، «بارا» ويعادل ٣ ـ ٤ أقجات، والثاني، «اون أقجة»،

ويعادل ١٠ أقجات.

ما ينبغي ذكره هو ان هذين النوعين من العملة، كانا يُضربان في بعض الولايات الأفريقية والآسيوية العثمانية منذ عهد السلطان سليمان القانوني. كذلك ضُرِبت القروش العثمانية في عهد سليمان الثاني، في خطوة جادة للحيلولة دون استمرار الأزمة المالية. وكان هذا النوع من المسكوكات أخف وأقل عياراً من النماذج الأجنبية المشابهة. وكان كل واحد منها يعادل ثلثي القره قروش.

في عهد السلطان أحمد الثالث، ضُرِبت قروش اكثر، راحت تُعرَف بـ «طغرالي قروش». وكان عيار هذه المسكوكات أقل بكثير من النماذج السابقة، وكان لها اعتبار أقل في الاسواق. وظهرت في عهد السلطان سليمان الثاني مسكوكة فضية اخرى تدعى «زولوتا»، كانت تعادل ٣٠ بارا او ٣/٤ قره قروش. وكان وضع دور الضرب العثمانية مضطربة حتى بداية القرن الثامن عشر، ولم تكن ترجع الى قانون معين ينظم نشاطها ويحدد حجم العملة ووزنها وعيارها الدقيق.

في النصف الثاني من القرن السادش عشر تعرضت العملة العثمانية المعروفة بالشريفي للارتباك والهبوط في القيمة بفعل اضطراب دور الضرب العثمانية في مصر وشمال افريقيا. وحينما لاحظ السلطان العثماني مصطفى الثاني ذلك الوضع، أصدر أمراً بسحب جميع تلك المسكوكات من السوق، وأمر بسك مسكوكة ذهبية جديدة. وبذلت المحاولات كي يخضع عيار هذه المسكوكة ووزنها ومواصفاتها الظاهرية لدقة كاملة. وأخذت تعرف هذه المسكوكة الجديدة بالطغرالي. وفي عهد أحمد الثالث تم ادخال اصلاح جديد على العملة الذهبية، ودخل الشريفي أو السلطاني الى السوق ثانية(١٣٢).

ولم تكن تلك الاصلاحات أساسية قط، وكانت ذات تأثير وقتي. ومع بدء الثورة الصناعية في اوربا وظهور الشكل الجديد للمركنتلية، أخذ الاقتصاد الاوربي يزدهر بشكل اكبر، فيما تحولت البلاد العثمانية وسائر البلدان الاسلامية الاخرى الى

اسواق مستهلكة للمصنوعات الاوربية. ولم تسمح الاشتباكات العسكرية المستمرة بين الباب العالي والبلدان الاوربية خلال القرن الثامن عشر، للدولة العثمانية بوضع خطة اقتصادية طويلة الأمد، فضلاً عن عملها على تفاقم الأزمات المالية.

٢ ـ الأوضاع الثقافية

النظام التعليمي

يُعد النظام التعليمي في الامبراطورية العثمانية، مصدراً أساسياً للدفاع عن مؤسسة الدين وحملة المرجعية الدينية. فمنذ السنوات الاولى لظهور الاسلام، سعت طبقة رجال الدين للسيطرة على مؤسسة التربية والتعليم في المجتمع الاسلامي، والاستئثار بها. فكان المجتمع الاسلامي ـ في حقيقة الأمر ـ مجتمعاً ملزماً بالموافقة على ان علماء الدين هم المدراء الوحيدون لمؤسسة التربية والتعليم. فمنذ بداية فتوحات العثمانيين التي جرت تحت شعار الجهاد والغزو، تناغم رجال الدين السنّة مع السلاطين العثمانيين الذين ادّعوا الخلافة فيما بعد، وظهروا على المسرح الاجتماعي والثقافي كقوة اجتماعية مهمة.

كانت الأسرة في المجتمع العثماني ـ وكما هو الحال في المجتمعات الاخرى ـ مسؤولة عن التعليمات الاجتماعية الاولى التي تقدّم للأطفال. ويلعب الوالدان دوراً مصيرياً مهماً في تربية الأطفال. وكانت الأسر الغنية الموسرة تستعين بمعلم خاص لتعليم أبنائها. فكانت القراءة الصحيحة للقرآن، والقراءة والكتابة، هي الدروس الاولى التي ينبغي على التلاميذ تعلمها. وكانت مقدمات الحساب والرياضيات التي يعلمها «القباني» و«المساح» في القرى، والشيخ او معلم القرآن والكتابة في المدن، تُعد من الدروس الابتدائية ايضاً. وكان هناك العديد من مدارس تعليم القرآن (المكاتب) في كل مدينة وقرية، ولا تبتعد كثيراً عن مسجد المدينة او القرية عادة. وكانت المساجد تتخذ كمدارس ايضاً لاسيما في القرى. وكان بمقدور الأسر الثرية

استخدام معلم خاص لأبنائها.

اذن على ضوء تأكيد الاسلام والقرآن على وجوب تعلم القراءة والكتابة، وأهمية ادراك القرآن والتعاليم الدينية، كانت مؤسسة التربية والتعليم تتميز بطابع عام، وتستوعب جميع مستويات المجتمع، ولم يكن عدد الأميين كبيراً في المحيطات المدنية والقروية. ولم تكن الحكومة المركزية تدعم النشاطات التعليمية الابتدائية المتداولة في المجتمع، ولم يكن لديها اشراف عليها. فكان المعلمون يتقاضون رواتب اسبوعية من أسر التلاميذ الذين يعلمونهم.

المكاتب في المناطق غير العربية التابعة للدولة العثمانية، كانت ذات مستوى هابط من حيث نوعية تدريس العلوم الدينية والطلبة الذين يتعلمون فيها، بينما كان الأمر افضل بكثير في المناطق العربية الخاضعة لهيمنة الدولة العثمانية كالجزيرة العربية، والشام، ومصر، والعراق، لأن الأطفال العرب لا يحتاجون الى وقت طويل لتعلم اللغة العربية التي هي لغة الاسلام الرسمية. ولهذا السبب كان معظم الفقهاء البارزين في الدولة العثمانية، من العرب.

بعد ان ينهي الطلاب مرحلة المقدمات والدراسة الاولية، كان ينطلق عدد كبير منهم، والذين هم في معظمهم من الأسر المتوسطة والمرفهة، نحو اوساط المجتمع. اما تلك الفئة من الطلبة المنحدرين من أسر فقيرة غالباً، فانها تستمر في دراستها المتوسطة والعليا، نظراً لفتح باب المدارس ليلاً ونهاراً(١٣٣).

كان التعليم العالي يتواصل في المساجد الكبرى والمدارس. وكان ذلك يتوقف على مقدار الأوقاف التابعة لها، وكيفيتها، وشهرتها. وكان السلاطين العثمانيون قد اهتموا بهذا الأمر منذ بداية نشوء الدولة العثمانية. فحينما استولى اورخان على مدينة ازنيق (نيقية) عام ١٣٣١ م، حوّل الصومعة التي كانت في هذه المدينة، الى مدرسة للعلوم الاسلامية. وأسس السلطان مراد الاول مدارس متعددة في بورسة التي اختيرت عاصمة للعثمانيين. وحوّل مراد الثاني صومعة اخرى في اورنة الى مدرسة ايضاً، وأمر بتشييد مدرسة الى جانب مسجد اوج شرفلي في مركز المدينة، مع بناء

مدرسة اخرى في جانب آخر من المدينة. وشيدت زوجة أحد باشوات بلاط مراد الثاني مدرسة رابعة في اورنة خلال تلك الفترة ايضاً.

في عهد محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليم الأول، قام المعمار العثماني الشهير ـ سنان ـ بتشييد مدرستين اخريين في اورنة، ودار للقراء، ودار للصبيان. كما شيد اثرياء هذه المدينة مدرستين اخريين على الأقل. فتحولت أورنة الى أحد المراكز الأساسية للعلم في البلاد العثمانية. ثم أصبحت استنبول فيما بعد، المركز الرئيس لتعليم العلوم الاسلامية(١٣٤).

شيدت في المدن العثمانية الاخرى في آسيا الصغرى العديد من المدارس أيضاً. وكانت بعض هذه المدن التي كانت منذ فترة طويلة جزءاً من البلاد الاسلامية ـ لاسيما في عهد سلاجقة الروم ـ لم تكن تعاني من مشكلة على صعيد المدرسة والمسجد، مثل قونية عاصمة سلاجقة الروم، وديار بكر، وأماسية ـ التي يصفها سائح فرنسي في القرن التاسع عشر بأنها اكسفورد الأناضول نظراً لكثرة المدارس الدينية فيها ـ وأنقرة، وقسطموني. ومع تعاظم العثمانيين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومن بعده، ازداد عدد المدارس والمساجد في مدن الأناضول الاخرى والأجزاء الاوربية من الامبراطورية العثمانية لاسيما بلغراد، والبوسنة(١٣٥).

كانت استنبول تعيش في وضع أفضل قياساً بالمدن العثمانية الاخرى، لاسيما من حيث المساجد والمدارس. وقد شيد السلاطين العثمانيون فيها المساجد الجامعة والى جوارها مدارس العلوم الدينية. وحينما تم تحويل كنيسة أيا صوفيا الى مسجد، أُضيفت اليه بعض المرافق الاخرى التي كان من بينها مدرسة. وأسس الأمراء والتجار الكبار، الكثير من المساجد في المدينة حتى بلغ عدد مساجدها في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي نحو ٢٧٥ مسجداً.

اهم مدارس المدينة، تلك المدارس التي شيدها السلطان محمد الثاني، والسلطان بايزيد الثاني، والسلطان سليمان القانوني. وقد شيّد السلطان محمد الثاني ١٦

مسجداً الى جانب مسجد أيا صوفيا عُرِفت بعد وفاته بمساجد الفاتح.

بعد نحو سبعين عاماً من ذلك، شيد السلطان سليمان القانوني المسجد الجامع السليماني الذي يضم ايضاً عدداً آخر من المساجد والمدارس. فكانت تلك المساجد والمدارس مع المساجد والمدارس التي شيدها بايزيد الثاني، مركزاً رئيساً لنشر وتعليم العلوم الاسلامية في البلاد العثمانية.

كان السلطان محمد الثاني قد بدأ بتشييد اربع مدارس جنوبي مسجد أيا صوفية واربع مدارس اخرى شمالي هذا المسجد والتي تعرف اليوم بـ «صحن مدرسه لري»، كما يعبّر عن الفناء الذي تشكله هذه المدارس مجتمعة بـ «صحن ثمان». ثم بنى بعد ذلك ٨ مدارس اخرى اشتهرت باسم «موصيلي صحن» و«تتمة»، نظراً لتدريس مقدمات العلوم الاسلامية فيها. وكل مدرسة من هذه المدارس تتألف من ١٥ حجرة، على كل حجرة منها قبة. وكان بوسع مدارس السلطان محمد الفاتح استقبال ٣١٢ طالباً. ومن بين المدارس السليمانية، مدرستان تدرّسان العلوم الخاصة: احداهما دار الحديث، والاخرى دار الطب التي يتلقى فيها الطلاب العلوم الطبية. اما مدارس مسجد السلطان بايزيد فجميعها خاصة بتدريس العلوم الفقهية(١٣٦).

في أعقاب بناء المدارس السليمانية، تبلور اطار محدد للنظام التعليمي في هذه المدارس، وضع ١٢ مرحلة لكل طالب من اجل بلوغ أعلى المستويات الدراسية. ولا يحق للطالب الانتقال الى المرحلة الأعلى إلّا بعد الحصول على «اجازة» استاذ المرحلة السابقة. وحينما يستطيع الطالب انهاء ٦ مراحل في صحن الثمان، يُسمح له الى جانب استمراره في تلقي دروسه، تدريس طلبة السطوح الأدنى كمعيد.

اذا ما اراد الطالب العمل في أحد المناصب القضائية العليا، كان ينبغي ان يكمل المراحل الست الباقية بنجاح باهر، ولابد له ان يكون قبل ذلك قد درّس في احدى المدارس ايضاً. وعليه ان يطوي كمدرِّس، التدريس في المراحل الاثنتي عشرة السابقة او في تسع منها على الأقل، من اجل ان يصل الى اعلى درجة تدريسية.

وفي مثل هذه الحالة فقط، كان يمكنه ان يبلغ مرتبة «المولوية العظمى». وقلما كان بمقدور الطلاب اكمال دراستهم بشكل كامل. فالكثير منهم كان يفضل ترك المدرسة في المرحلة المتوسطة، وهو ما يسمح له بالعمل ككاتب، أو قاض بسيط، او مفتٍ في ولاية بعيدة عن العاصمة.

تلك المجموعة من الطلاب التي تستمر في دراستها، وتبلغ درجة «مدرسليق» في مدارس المدن العثمانية المهمة، تُعد من الشخصيات المهمة نسبياً، ويحق لها ان تحضر في ديوان يوم الجمعة الذي يقيمه الصدر الأعظم، او المراسم التي يقيمها شيخ الاسلام في ايام عيد «بايرام»(١٣٧).

كان يُشترط في من يتولى المناصب القضائية، ان يكون قد درّس في احدى مدارس استنبول. وفي القرن الخامس عشر، كان التدريس منطلقاً للاستخدام في الأعمال الادارية. ورغم ذلك، كانت معظم تلك الوظائف توكل الى غلمان البلاط (قابو قوللري).

الى جانب هذا التغيير، اخذت الحقول التي يرغب المدرسون في التدريس فيها تتمدد وتضيق بشكل تدريجي. فاذا كانت العلوم العقلية تدرّس الى جانب العلوم الشرعية منذ عهد محمد الثاني وحتى عهد سليمان القانوني، فمنذ منتصف القرن السادس عشر، أخذ العلماء يركزون جهودهم على تدريس العلوم الشرعية لاسيما الكلام والفقه. اما تلك المجموعة من العلماء التي كانت تدرس الرياضيات، والنجوم، والتاريخ الطبيعي، كانت تنطلق في ذلك من رغبات خاصة وليس لضرورة شغلية وحرفية. ويقال ان مدير أول مدرسة عثمانية في أزنيق كان خريج العلوم العقلية.

منذ عهد اورخان وحتى عهد مراد الثاني، انصرف بعض العلماء العثمانيين لتأليف وترجمة بعض الآثار في حقول الرياضيات، والفلك، والتاريخ الطبيعي. وفي عهد محمد الثاني ـ الذي كان مولعاً بالعلوم العقلية ومن قرّاء كتب بطليموس في الجغرافيا ـ عُيِّن ملا علي القوشجي مدرساً للرياضيات والفلك في مدرسة ايا صوفيا باستنبول. وكان من أشهر علماء ماوراء النهر، وتولى رئاسة مرصد سمرقند

لبعض الوقت، وألف كتباً في الفلك، والجبر، كانت جزءاً من الكتب الدراسية في المدارس العثمانية. كما اختير فلكيّ ورياضيّ لرئاسة احدى مدارس الصحن في عهد بايزيد الثاني، لكنه أُعدِم بتهمة الدهرية خلافاً لرغبة السلطان. وفي القرن السادس عشر ظل علم الجغرافيا هو العلم الوحيد الذي يحظى بالأهمية الى جانب العلوم الشرعية بالرغم من استمرار تصنيف آثار في حقل العلوم العقلية.

وازداد الاهتمام بعلم الجغرافيا في اعقاب اكتشاف قارة امريكا ورأس الرجاء الصالح الذي أصبح طريقاً جديداً بين اوربا والهند، وراحت تؤلّف كتب في مجال الملاحة والابحار لاسيما من قبل قادة البحرية العثمانية مثل كتاب الملاح العثماني بيري (محيي الدين رئيس) في الملاحة الى الهند وخصائص بعض سواحل المحيط الهندي وبحر عمان. ولم يكن لمثل هذه الآثار أي تأثير على وصول مؤلفيها لمقام التدريس.

في عهد سليمان القانوني، لم يكن للعلوم العقلية ـ عدا الطبية ـ أي اعتبار او أهمية في المدارس العثمانية. وبلغ الصراع بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية ذروته في عهد مراد الثالث في أعقاب الفتوى التي أصدرها علماء استنبول القاضية بتدمير مرصد المدينة الذي كان يستخدم ـ للمرة الاولى في العالم الاسلامي ـ تلسكوباً ابتدائياً، والقضاء على هذا المركز العلمي بفعل الجهود التي قام بها شيخ الاسلام(١٣٨).

كما قلنا سابقاً، كان علم الطب هو العلم غير الديني الوحيد الذي استطاع الاحتفاظ بموقعه الى جانب العلوم الشرعية. ويبدو ان الذي دفع علماء الشريعة الى عدم حذفه من المدارس، هو تلك الصلة الوثيقة بين الطب ومؤسسة الأوقاف التي كان لها العديد من المستشفيات التي تدر أرباحاً كبيرة على الحكومة المركزية والفقهاء. وكانت دروس الطب تدرّس في مدارس الصحن باستنبول لاسيما في تلك المدارس التي أسسها السلطان محمد الثاني. كما كانت احدى المدارس السليمانية وتدعى «دار الطب» ولديها مستشفى الى جوارها، متخصصة بتدريس العلوم الطبية.

ومع ذلك كله، لم يكن هناك أي تحديث او ابداع في علم الطب، وكانت المواد الدراسية عبارة عن تلك الآثار التي صنفها ابن سينا، والرازي، وسائر كبار الأطباء المسلمين في القرون الاسلامية الاولى. فلم يؤلّف خلال القرن السادس عشر سوى كتاب صغير في الطب.

نظراً للوضع المالي الممتاز لمدرسي دار الطب المذكورة، والدعم المالي الذي تقدمه الحكومة المركزية لأعضاء هذه المدرسة، تحول مقام التدريس فيها الى بضاعة أخذ الكثيرون يسعون لابتياعها وبيعها بمبالغ باهضة. وهي الممارسة التي عملت على زعزعة وانحطاط آخر مركز مهم في البلاد العثمانية لتدريس الطب.

على هذا الأساس، اصبحت مهنة الطبابة، نتاج التجربة، قبل ان تكون نتاجاً لتعلّم ودراسة علم الطب. لذلك لم يكن معظم أطباء (حكماء) بلاط السلاطين العثمانيين أطباء بالمعنى المتعارف، كما كانت لديهم أعمال ومناصب اخرى. ورغم ذلك الف ثلاثة من بلاط السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ م)، رسائل في مجال الطب، اكدوا فيها على ضرورة تعلم علم الطبابة الى جانب التجربة، وأشاروا الى بعض مستجدات علم الطب على يد الأطباء الغربيين.

شاعت في النصف الاول من القرن الثامن عشر، لاسيما خلال عهد أحمد الثالث، بعض ابداعات باراسلوس في حقل الطب، بين بعض اطباء استنبول. لكنّ المقاومة كانت شديدة ضد تلك الابداعات والمستجدات. وأجبر أحد كبار الحكماء، بلاط السلطان على اصدار قرار يشترط فيه ان يخضع هؤلاء الاطباء لاختبار تجربي يجريه بعض الأطباء التقليديين.

اضف الى ذلك، مُنع الأطباء الأجانب آنذاك من العمل في المناطق الخاضعة لهيمنة الدولة العثمانية. وليس معنى هذا ان الطب الاوربي كان متفوقاً في جميع الجوانب على الطب الاسلامي خلال تلك الفترة. فالأطباء المسلمون في الدولة العثمانية وسائر مناطق العالم الاسلامي كانوا على علم ـ مثلاً ـ بأهمية اسلوب التلقيح ضد الجدري ويستخدمونه. لكن من جانب آخر، نظراً لتحريم تشريح

جسم الانسان، لذلك لم يكن الاطباء العثمانيون ناجحين في عملهم كثيراً، فتولدت بمرور الزمن لدى أثرياء المسلمين وكذلك لدى السلطان العثماني، القناعة باستخدام الأطباء اليونانيين الذين تعلموا الطرق الطبية الحديثة(١٣٩).

منذ منتصف القرن السادس عشر، أخذ يهبط مستوى التدريس في المدارس العثمانية التي اقتصرت على تدريس الفقه والكلام فقط. وأخذت معايير الاستخدام والتعيين في هذا المدارس تضعف وتتهمش اكثر فأكثر، فأخذ يشتغل فيها عدد كبير من الذين كانت تعوزهم المؤهلات والكفاءة والاختصاص. فنجم عن ذلك ان أصبح بوسع الطلاب الوصول الى مناصب عليا في الحكومة كمنصب الملازمة، من خلال المحسوبية والمنسوبية بدلاً من اجتياز الاختبار الذي كان قبل ذلك شرطاً مهماً في هذا المضمار. ولهذا السبب أخذ يقل عدد المدرسين أصحاب الاختصاص والدراسات العليا، وأصبح الهدف من الدراسة، الوصول الى مقام المولوية وتحقيق بعض المكاسب السياسية والاجتماعية.

من جانب آخر، منذ القرن الثامن عشر أخذ يقل عدد كبار المدرسين في المدارس العثمانية، فأخذ الافراد الذين لم يكملوا المراحل الدراسية السابقة، يتولون مناصب مهمة مثل التدريس، وقاضي القضاة، وشيخ الاسلام(١٤٠).

قبل ظهور هذا المنحى التنازلي، أخذت مظاهر العصبية العقائدية والتحجر تظهر على العلماء العثمانيين. وقاموا في أعقاب وفاة السلطان سليمان باقصاء تلك المجموعة من الكتب الدراسية القديمة التي كانت ذات طابع فلسفي وعقلي، من البرنامج الدراسي، واستبدلوها بمواد ذات تضاد مع الفلسفة والعلوم العقلية.

في النصف الثاني من ذلك القرن حرّض الفقهاء على قتل ثلاثة من العلماء بتهمة الدهرية والاعتقاد بقدم العالم. كما أفتى الفقهاء العثمانيون أيضاً بتحريم الطباعة (باصمة)، موصدين بذلك الباب يوجه اي تطور علمي يمكن ان يرد الى البلاد العثمانية من اوربا. ولا شك في ان التصدي للطباعة وتحريمها شرعياً لدليل واضح على التخلف العلمي الذي كان يعاني منه المجتمع العثماني. ورغم ذلك استمرت

عملية تأليف الكتب في المجالات العقلية كالرياضيات، والفلك، والجغرافيا، والطب وان كان ذلك بطريقة بطيئة(١٤١).

يُعد مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة أو الكاتب الشلبي ـ الذي كان والده يعمل في الجيش العثماني بينما كان هو يعمل في أحد مكاتب الباب العالي ـ أشهر علماء العلوم العقلية آنذاك. فقد كان يبحث عن مصادر لتلقي العلوم العقلية التي لا مجال لها في المدارس العثمانية. فأخذ يطلع عليها من خلال اهتمامه الخاص بالمؤلفات الغربية في حقول الفيزياء، والهندسة، والجغرافيا، واستطاع ان يكتب آثاراً قيمة من خلال تلخيص قراءاته. وبالرغم من الموقف اللاودي الذي اتخذه العلماء العثمانيون تجاهه، إلّا انه يعد من أوائل الكتّاب المسلمين الذين أشاروا في آثارهم العديدة الى الانجازات العلمية التي حققها الغربيون(١٤٢).

المدارس الخاصة مثل «عجمي اوغلانر» او «ايج اوغلانر» (غلمان الجناح الداخلي)، كانت ذات وضع افضل بكثير من مدارس العلوم الدينية. فكان طلاب هذه المدارس يتعلمون الى جانب العلوم الدينية، اللغات الفارسية، والعربية والتركية، فضلاً عن تلقي محاضرات عملية في شتى الحرف والصناعات اليدوية. كما كانوا ملزمين أيضاً بممارسة الفنون العسكرية، والخط، والبيان، والتصاميم، والكتابة لاسيما في مجال التاريخ. وكان معظم اولئك الذين قاموا بصنع المعدات العسكرية لاسيا في مجال المدفعية ووسائل الدفاع، كانوا من خريجي هذه المدارس.

الى جانب هذه المدارس، كانت الطرق الصوفية نشطة ايضاً في مجال التعليم العام، لاسيما الطريقتين البكتاشية والمولوية اللتين كان لهما امتداد في آسيا الصغرى والبلقان. وكان الجزء الأعظم من البرامج الدراسية لتكايا وحلقات تلك الطرق الصوفية، يتمثل في السماع، والموسيقى، والعرفان، وقراءة آثار كبار العرفاء والصوفية لاسيما مثنوي جلال الدين الرومي(١٤٣).

دور العلماء

سبق ان أشرنا الى ان الحكومة العثمانية كانت خلال المرحلة الاولى من ظهورها واقعة تحت تأثير الطرق الصوفية اكثر من تأثرها بعلماء السنة. ومع ذلك كان السلاطين العثمانيون يرغبون في جلب تعاطف علماء السنّة، على اعتبار انهم يعتبرون انفسهم حفظة الشرع الاسلامي. وحينما بدأ هؤلاء العلماء بالعمل في بلاط العثمانيين، أخذت النزعة الصوفية والباطنية تضعف تدريجياً، وراح يزداد تأثير الفقهاء على البلاط العثماني. وأخذ هؤلاء الفقهاء يعينون القضاة في المدن المفتوحة. وفي أعقاب اتساع الفتوحات، سعت الحكومة المركزية لانتخاب قاض للعسكر يتولى مهمة الاشراف على وضع قضاة المدن الصغرى. ومع ذلك، كان منصب قاضي العسكر ذا ماهية عسكرية ولم يكن صاحبه محسوباً على العلماء او الفقهاء. ولم يكن عدد العلماء كبيراً في الدولة العثمانية حتى مطلع القرن ٩ هـ / ١٥ م. وهذا ما تكشف عند بوضوح المعلومات الواردة في كتاب «المؤلفون العثمانيون» لبورسالي محمد طاهر.

وجود المدارس في المدن العثمانية الكبرى، وفّر الأرضية لتزايد عدد العلماء تدريجياً. وكان السلاطين العثمانيون مجبرين في بادئ الأمر على استقدام العلماء في شتى العلوم الاسلامية، من المناطق المجاورة للاشراف على الشؤون الشرعية والتعليمية. وحينما تعزز نظام المدارس في المدن العثمانية الرئيسة ـ اي ادرنة واستنبول وبورسة ـ كان لابد للعلماء ان يكونوا قبل ذلك قد تعلّموا في تلك المدارس وقطعوا اشواطاً دراسية فيها.

مع استمرار الفتوحات ذات الطابع الديني، تحول منصب القاضي العسكري الى منصب سياسي وعسكري. ومن اجل الحيلولة دون طغيان صاحب هذا المنصب، عُيِّن في عهد محمد الثاني قاضيان عسكريان: أحدهما على الروملي، والآخر على الأناضول.

وفي عهد سليمان القانوني، بلغ العلماء العثمانيون ذروة قوتهم ونـفوذهم. فكـان تعيين مفتٍ لاستنبول يحمل عنوان شيخ الاسلام، تأييد لهذه المقولة. وكان من بين واجبات شيخ الاسلام الاشراف على انسجام القوانـين العـثمانـية مـع الأحكـام الشرعية. وكان له الحق في رفض تلك القوانين اذا كـانت مـتعارضة مـع الشرع الاسلامي، والزام ديوان الباب العالي باعادة النـظر فـيها. فكـان مـنصب شـيخ الاسلام شكلاً مصغراً لمنصب الخلافة. ومع فتح مصر واسقاط بقايا العباسيين في تلك البلاد على يد السلطان سليم الأول، انبرى السلاطين العثمانيون لتولي منصبي الخلافة والسلطنة معاً. وفضلاً عن المفتي وقاضي العسكر، كان هناك «الملا» ايضاً، حيث كان الملا مسؤولاً عن القضايا الشرعـية والعـلمية في الولايـات العـثمانـية الأصغر(١٤٤).

كان عدد العلماء العثمانيين ـ وكما تقدم ـ قليلاً جداً وقد أخذ عـددهم يـزداد باطراد منذ مطلع القرن ٩ هـ / ١٥ م تزامناً مع ترسخ قـواعـد الدولة العـثمانـية وازدهارها اقتصادياً. ولم يقتصر هؤلاء العلماء على الفقهاء وانما ظهر علماء في شتى العلوم الاسلامية. فكان بلاط محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليمان القانوني، محـلاً لظهور عدد كبير من الفقهاء، والمؤرخين، والجغرافيين، والشعراء، فضلاً عن عـدد من مشايخ الصوفية الذين كانوا خبراء ومتميزين في العلوم الاسـلامية والعـرفان النظري، وكانوا على صلة وثيقة ببلاط السلاطين العثمانيين.

حدث تطور مهم جداً في سائر أرجاء العالم لاسيما في البلاد العثمانية خلال فترة الانتقال من القرن ٩ هـ / ١٥ م الى القرن ١٠ هـ / ١٦ م يمثل في الانتقال مـن العلوم الباطنية الى العلوم الظاهرية وترسيخ السطحية او القشرية العقائدية. فبينما كان الجيل الاول من العلماء المسلمين يهتم على مدى القرن ٩ هـ / ١٥ م بتصنيف آثار في العلوم العقلية الى جانب الاهتمام بالعلوم الفقهية والنقلية، انـصب اهـتمام العلماء منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي وحين انضمامهم الى بلاط السلطان، على تثبيت مواقعهم في البلاط، وجَعل التبحر الصرف في العلوم النقلية وتكـرار

آثار القدماء، شرطاً للدخول الى جوقتهم، في مسعى منهم لتحديد دائرة أدعياء الفقه.

من مصاديق اولئك العلماء، شيخ الاسلام ابن كمال (ت ٩٤٠ هـ)، المفتي في عهد سليم الأول. فبالرغم من منصب شيخ الاسلام الذي كان يتولاه، كان الجزء الأعظم من مؤلفاته مختصاً بعلوم غير فقهية. فقد ألف ما يزيد عن ٣٠٠ كتاب ورسالة في شتى العلوم الاسلامية كالتفسير (التفسير الشريف)، وحاشية على تفسير الكشاف، وحاشية على الهداية، ومنظومة يوسف وزليخا، وشرح على التهافت لمولانا خواجه زادة الذي ردّ فيه على نصير الدين الطوسي، ودقائق الحقائق في المترادفات والمتشابهات في اللغة الفارسية، وتاريخ آل عثمان حتى عام ٨٩٥ هـ وحواش اخرى على آثارٍ مثل مشارق الانوار، وشرح الأربعين حديثاً، ومعجم محيط اللغة، ورسالة القافية في عروض الشعر. ويصدق هذا الأمر على العلماء الآخرين الذين عاصروا ابن كمال(١٤٥).

ابو سعود العماري، كان أحد تلامذة ابن كمال، وتولى منصب شيخ الاسلام ورئيس مكتب العلماء العثمانيين في عهد سليمان القانوني وسليم الثاني. ولديه العديد من المؤلفات مثل: ارشاد العقل السليم الى مزايا القرآن العظيم؛ شرح باب بيوع الهدايا؛ موقف العقول في وقف المنقول؛ مجموعة شعرية بالفارسية والعربية والتركية. واستمر هذا المنحى خلال القرن ١١ هـ / ١٧ م، مما كان بمثابة تمهيد للانحطاط الفكري والاجتماعي والديني الذي شهدته البلاد العثمانية(١٤٦).

مع ان عهد سليمان القانوني، كان اكثر العهود تألقاً للعلوم العقلية والنقلية في التاريخ العثماني، غير أن هذا التألق لم يستمر في أعقاب وفاة هذا السلطان. فالحروب المتلاحقة، وظهور الأزمات المالية خلال مرحلة ما بعد سليمان القانوني، عملت على عدم اهتمام السلاطين العثمانيين بحقول العلوم العقلية أيضاً.

منذ القرن السادس عشر، توفر مصدر مهم جداً للتاريخ الاجتماعي العثماني والأجواء التي كانت مهيمنة على مراكز القوى في الباب العالي، تمثل في التقارير التي

قدّمها السواح والسفراء الغربيون. وبالرغم من وجود عدد كبير من الرسائل التاريخية العثمانية، إلّا انها جميعاً تفتقد الى الاصالة ومقتصرة على مباحث تكرارية حول حياة السلطان الخاصة، ولا تحتوي على معلومات اجتماعية وثقافية خاصة بتلك المرحلة.

من ذلك نفهم ان مرحلة الانحطاط العثماني في مجال العلوم، قد بدأت حقاً، فالأتراك ـ مثل سائر المسلمين ـ لم تكن لديهم الرغبة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في الانفتاح على اوربا ومعرفة الاساليب العلمية الجديدة في الغرب. والغريب في الأمر ان المسلمين في البلاد العثمانية كانوا يأنفون من تعلم اللغات الغربية. ولم يكن مترجمو الباب العالي من اصل مسلم، وانما كانوا ابناء الأسر اليهودية والنصرانية التي اسلمت حديثاً. فكان العثمانيون لا يولون اهمية للأساليب الجديدة في شتى الحقول العلمية والمعرفية، عدا الحقل العسكري(١٤٧).

هوامش الفصل الأول:

1_ Derwisch Ahmed, Achikpachazadé, 1959, Vom Hertenzeit zur Hohen pforte; Frühzeit und Aufstieg des Osmanenreiches nach der Chronik "Denkwüdigkeiten und Zeitläufte des Hauses' Osman" vom derwisch Ahmed, genannt' Asik_pasa_Sohn, trad. R.F. Kreutel, Graz_ Vienne_Cologne, pp. 25_26.

2_ Paul Wittek, The Rise of the Ottoman Empire, Royal Asiatic Society Monographs 23, London, 1938, p. 18.

3_ Ibid, pp. 19_20.

4_ Halil Inalcik, "The Question f the Emergence of the Ottoman State", International Journal of Tukish Studies, 1982, vol. 2/2, pp. 71_79.

5_ Derwisch Ahmed, op. cit., p. 28.

6_ Paul wittek, op. cit., 21.

7_ Halil Inalcik, op. cit., p. 73, note 12.

8_ Laiou Angeliki, Constantinople and the Latins: The Foreign Policy of Andronicus II (1282 _ 1328), Cambridge _ Massachusettes, 1972, pp. 102 _ 104.

9_ Greorges pachymére, Relations Historiques, trad. et ét. A. Feiller, paris, 1084, p. 63.

10_ Belidiceanu _ Steinherr, Recherches sur les actes des régnes des sltans Osmân, orkân et Murâd Ier, Societas Academica Dacormana, Acta Historica 7, Munich, 1967, pp. 18_20.

۱۱ ـ اسم نهر فی هذه المنطقة او اسم مدینة في آسیا الصغری، راجع:

Ceraseis Pachymére, 1984, no35, p. 49.

12_ Ibid., p. 22.

13_ Greorges Pachaymére, op. cit., pp. 31, 33_34; peter charanis, "no the Data of the Occupation of Gallipoli by the Turks", 1955, Byzantinoslavica, 16,p. 114.

14_ Daniel Nicol, "The Byzantine Family of Kantakuzenos (Cantacuzenus), ca. 1100_1460. A Genealogical and Prosgraphical Study", American Historical Review, 1968, 71/2, pp. 434_437.

15_ Robert Lemerle, L'Emirat d'Aydin, Byzance et Poccident; recherches sur "La Geste d'Umur pacha", 1957, pp. 156_162, passim.

16_ Daniel Nicol, op. cit, p. 438.

17_ Beldiceanu- Steingerr, op. cit., pp. 442 _ 443; Halil Inalcik, "The Conquest of Edirne (1361)", Archivum Ottomanicum, 1971, 3: 185_210.

18_ Paul Wittik, op. cit., p. 33.

19_ Daniel Nicol, op. cit,. p. 440.

20_ Paul Wittek, op. cit., pp. 39_43.

21_ Halil Inalcik, op. cit., pp. 187 _ 205.

22_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Balkan", (by Halil Inalcik(. 23.

23_ peter Charanis, op. cit., pp. 245_250.

25_ Ibid,. p. 248.

26_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Edirne", (by M.T.Gökbilgin).

27_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Devshirme", (by V.L. Menage).

28_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Bàyazid", (by Halil Inalcik).

29_ Ibid.

30_ Ibid.

31_ J. Aubin, "La Crise egyptienne de 1510_1512: Venice, Louis XII et le Sultan", Moyen Orient & Océan Indien, 1989, 6: 123 _ 150, pp. 128_130.

32_ I. Mélikoff, "Bayezid II et Venise: cinq lettres impériales (Nàme_i Hümàyún) provenat de l'Archivio di stato di Venezia" 1969, Turcica, Revue des Etudes Turques, 1: 123_149, pp. 129_130.

33_ Ibid., p. 134.

34_ Paul Wittek, op. cit, p. 145.

35_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Bahriyya", (by I.H. Uzuncarsili).

36_ H.J. Kissling, "Das Menàme scheich Bedr ed_Din, des sohnes des Richters von samàvnà, Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, 1950, 100/1: 112_176; id, "The Role of the Dervish Orders in the Ottoman Emprie", Studies in Islamic Cuitural History, 1954, G.E. Von

Grunebaum (ed), Chicago: 36_50, pp 41_42; M.T. Bursali, Osmànl Mü'ellfteri (A Bio_Bibliographical Dictionary of the Ottoman Literature), 1971, 3 vols (first published in Istanbul 1334_1343 A.H./1915_1925), London.

37_ paul Witek, op. cit., p. 150.

38_ Ibid., p. 150.

39_ Halil Inalcik, op. cit., p. 73.

40_ I. mélikoff, op. cit., p. 143.

41_ Halil Inalcik, op. cit.

42_ paul Wittek, op. cit., p. 156.

43_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Balkan", (by Halil Inalcik).

44_ Halil Inalcik, op. cit., p. 78.

45_ Ibid.

46_ Halil Inalcik, "The Hube of the City: The Bedestan in Istanbul", International Journal of Turkish Studies, 1980, pp. 1_17.

47_ Halil Inalcik, "The Ottoman Economic Mind and Aspects of the Ottoman Economy,"Studies in the Economic History os the Middle East from the Rise of Islam to the present Day, M.A. Cook (ed), London, 1970, pp_ 216_217.

48_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Bahriyya", (by I.H. Uzuncarsili).

49_ Paul Wittek, "De la défaite d Ankaraà la prise de constantinople

(undemi)siécle d'histoire ottoman)", Revue des Etudes Islamiques, 1938, 21/1, p. 38.

50_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Karàman_Oghullari", (by F. sümer).

51_ paul Wittek, op. cit,. p. 46.

52_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Balkan", (by Halil Inalcik.

53_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Karàmàn_Oghullari", (by F. Sümer).

54_ Halil Inalcik, "The Socio_ political Effects of the Diffusion of Fire_arms in the Middle East", War, Technology and Society in the Middle East, V.J. parry and M. E. Yapp (eds), London, 1975, p. 210.

55_ Ibid., pp. 210_211.

56_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Bàyazid", (by Halil Inalcik).

57_ J. de. Hammer, "Sur le séjour du frore de Bayazid II en Provence", 1925, Journal Asiatique 6, pp. 126_130.

58_ Ibid., pp. 134_136.

59_ I.Mélikoff, op. cit., p. 132.

60_ The Encyclopaedia of Islam 2nd edition, 1979, s.v. "Bahriyya", (by I.H. Uzuncarsili).

61_ M.M. Mazzaoui, "Global Polices of Sultan Selim, 1512_1520, "Essays on Islamic Civilization Presented to Niyazi Berkes, D.P. Little (ed), Leiden,

1967, p. 234; A. Allouche, The Origins and Development of the Ottoman _ Safavid Conflict (906_962/1500_1555), phD dissertation, The University of Utah, University Microfilms International, Michigan. 1980, pp. 34_36.

62_ J.L. Bacqué_Grammont, "Notes sur le blocus du commerce Iranien par selîm Ier. Etudes turco_safavides I "Turcica, Revue des Etudes Turques, 1975, pp. 68_88.

63_ J.L. Bacpué _ Grammont, op. cit., p. 220.

64_ Halil Inalcik, "The policy of Mehmed II toward the Greed Population of Istanbul and the Byzantine of the City, Dumbarton Oaks Papers, 1970, p. 239.

65_ Ibid., p. 240.

66_ Paul Wittek, The Rise of the Ottoman Empire, Royal Asiatic Society Monographs 23, London, 1938, pp. 169.

67_ A. Allouche, op. cit., pp. 211 ff; J.L. Bacqué _ Grammont, "The Eastern Policy of Suleyman the Magniticent, " Suleyman the Second and His Time, Halil Inalcik and Cemal Kafadar (eds), Istanbul, 1993, pp. 219_228.

68_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1978, s.v. "Istanbul", (by Halil Inalcik), chapt. xxi.

69_ J.C. Hurewitz, The Middle East and North Africa in the world Politics: A Documentary Record, Vol. I: European Espansion 1535_1914, New Haven, 1975, p. 15.

70_ E. Tersen, Histoire de la colonisation, paris, 1950, pp. 45_47.

71_ Ibid,. pp. 13_16.

72_ B. Nolde, La formation de l'empire russe: études, notes et documents, paris, 1952, pp. 20_22.

73_ see: Stavrianos, 1957, pp. 3_8.

74_ Hurewitz, op. cit,. Doc. 1, pp. 1_5.

75_ Ibid., Doc. 2 p.6.

76_ Ibid., Doc. 4, pp. 8_10.

77_ E. Tersen, op. cit., p. 19.

78_ Hurewitz, op. cit., Doc 13, p. 33.

79_ Ibid., Coc. 14, pp. 34_40.

80_ B. Nolde, op. cit., pp. 27_29.

81_ see: B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, London, 1968, p. 28.

82_ G. Kaldy _ Nagy, "The First Centuries of the Ottoman Military Organization, "Acta Orientalia, 1977 31/2, p. 153.

83_ Ibid., p. 154.

84_ Paul Wittid, "De la défaite d Ankara a la prise de Constantinople (undemi_siécle d'histoire ottoman)", Revue des Etudes Islamiques, 1938, 21/1,p.18.

85_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, Islamic society and the West: A study of the Impact of western civilization on Moslem Culture in the Near Esat, Vol. I/parts 1_2: Islamic society in the Eighteenth Century, London, 1969, vol. 1/1, p. 189.

86_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1965, s.v. "Devshirme" (by

V.L. Ménage).

87_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/1,p.163.

88_ Ibid., pp. 160_162.

89_ Ibid., pp. 170 _ 171.

90_ ibid., pp. 164_169.

91_ V.L.Ménage, op. cit., p. 211.

92_ G. Kàldy _ Nagy, op. cit., p. 164.

93_ Ibid., pp. 164_165.

94_ Ibid., p. 166.

95_ V.L. Ménage, op. cit., pp. 210_212.

96_ G. Kàldy _ Nagy, op. cit., pp. 161_162.

97_ Ibid., p. 162.

98_ Ibid., p. 163.

99_ Ibid.

100_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol 1/1, p. 347.

101_ G. Kàldt-Nagy, op. cit., p. 165.

102_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., pp. 345_346.

103_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Bahriyya", (by I.H. Uzuncarsili).

104_ C.H. Imber, "The Navy of Süleymàn the Magificent," Archivum Ottomanicum, 1980, vol. 6, pp. 230_231.

105_ Ibid., pp. 233_235.

106_ M.M. Mazzaoui, "Global Policies of Sultan Selim, 1512_1520," Essays

on Islamic Civilization presented to Niyazi Berkes, D.P. Litlle (ed), Leiden, 1976, pp. 227_228.

107_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., p. 322.

108_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Anadolu, III Historical Geography of Turkish Anatolia", (by F. Taeschner).

109_ H.A.R. Gibb & H. Bowen , op. cit., vol. 1/2, p. 213.

110_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Balkan", (by Halil Inalcik.

111_ H.J. Kissling, "The Role of the Dervish Orders in the Ottoman Empire", Studies in Islamic Cultural History, G.E. Von Grunebaum (ed), Chicago, 1954, pp. 42_43.

112_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1965, s.v. "Devshirme", (by V. L. Ménage).

113_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/1, pp. 145_146.

114_ The Encyclopaedia of Islam 2nd edition, 1978, s.v. "AL _KAHIRA: II History", (by J.M. Rogers).

115_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/1, p. 144; The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1978, s.v. "AL _KAHIRA: II. History,")by J.M. Rogers).

116_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., pp. 143_144.

117_ Ibid., pp. 145_149.

118_ Halil Inalcik, "The Policy of Mehmed II toward the Greek Population

of Istanbul and the Byzantine Buildings of the City, "Dumbarton Oaks Papers, 1970, p. 233; B. Lewis "The privilege Granted by Mehmed II to his Physician, "Bulletin of the school of Oriental and African Stuudies, 1952, 14/3, p. 553.

119_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/1pp. 126_128.

120_ Surayya Faroqhi, "Towns, Agriculture and the State in Sixteenth_ Century Ottoman Anatolia, "Journal of the Economic and Social History of the Orient, 1990, vol. 33/2, p. 127.

121_ Halil Inalcik, op. cit., p. 240; The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1978, s.v. "Istanbul", (by Halil Inalcik).

122_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Bàyazid", (by Haili inalcik).

123_ Ibid., p. 210.

124_ Halil Inalcik, "Bursa and the Commerce of the Levant, "Journal of the Economic and Social History of the Orient, 1960, 3/2, p. 139.

125_ C.H. Imber, op. cit., p. 223.

126_ A.C. Hess, "The Evolution of the Ottoman Empire in the Age of the Oceanic Discoveries, 1453_1525" American Historical Review, 1970, 75/7: 1899_1903.

127_ Halil Inalcik, "The Ottoman Economic Mind and Aspects of the Ottoman Economy, "Studies in the Economic History of the Middle East form the Rise of Islam to the Present Day, M.A. Cook (ed), London, 1970, p. 209.

128_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/2, p. 256.

129_ Cl. Cahen, "Quelques mots sur le déclin commercial du Monde Musulman â la fin du Moyen Age "Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day, M.A. Cook (ed), London, 1970, p. 34.

130_ Ö.L. Barkan, "The price Revolution of the Sixteenth Century: A Turning point in the Economic History of the Near East, "International Journal of Middle East Studies, 1975, 6/1. p. 14; R.W. Oison, "The Sixteenth Century price Revolution' and its Effects on the Ottoman Empire and on Ottoman _ Safavid Relations, "Acta Orientalia, 1976, p. 47; and Halil Inalcik, "The Ottoman Economic Mind and Aspects of the Ottoman Ecomomy, "Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day, M.A. Cook (ed), London, 1970, p. 211.

131_ Cl. Cahen, op. cit., pp. 33_34.

132_ Ibid., p. 34.

133_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/2, p. 192.

134_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Bursa", (by Halil Inalcik).

135_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. " "Amasya", (by F. Taeschner); Ibid., "Andara"; Ibid., "Bursa",)by Halil Inalcik); The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Edirne", (by M.T. Gökbilgin).

136_ The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1979, s.v. "Istanbul", (by

Haili Inalcik).

137_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/2, p. 193.

138_ B. Lewis, The Muslim Discovery of Europe, London. 1982. pp. 203_204.

139_ Ibid., p. 167 id., "The Privilege Granted by Mehmed II to his Physician, "Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1952, 14/3, p. 556; Halil Inalcik, "The Policy of Mehmed II toward the Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings of the City, "Dumbarton Oaks Papers, 1970, p. 237.

140_ H.A.R Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/1, pp. 189_190,

141_ B. Lewis The Muslim Discovery of Europe, London. 1982, p. 198.

142_ M.T. Bursali, Osmant Mü'ellflteri (A Bio _ Bibliographical Dictionary of the Ottoman Literature), 1971, 3 vols (first Published in Istanbul 1334_1343 A.H. /1915_1925), London, 3, pp. 124_126; The Encyclopaedia of Islam, 2nd edition, 1978, s.v. "KAtib CELEBI" (by O.S. Gökyay).

153_ B. Lewis, op. cit., pp. 202 _ 204.

144_ H.A.R. Gibb & H. Bowen, op. cit., vol. 1/2, p. 246.

145_ M.T. Bursali, op. cit., vol. 1, pp. 223_224.

146_ Ibid., pp. 225_226.

147_ B. Lewis, op. cit., pp. 180_181.

الفصل الثاني

الغوركانيون (مغول الهند)

دخول الاسلام الى الهند وتأسيس حكومات اسلامية في هذه البلاد مرَّ بمراحل شتى. فقد استطاع التجار المسلمون منذ مطلع القرن الهجري الأول اقامة علاقات مع سكان الهند الأصليين في سواحل مالابار وغجرات، فأخذ الاسلام يدخل الى هذه المناطق تدريجياً كدين جديد جذاب.

اتسعت معرفة الهنود بالاسلام وانجذابهم إليه خلال عمليات الغزو المستمرة التي قام بها المسلمون، لاسيما منذ عهد الوليد بن عبد الملك الاموي. وكان يرافق المجاهدين المسلمين الكثير من العرفاء والمتصوفة الذين كانوا يسعون لنشر الاسلام عبر طريق مختلف عن طريق الحملات العسكرية والحرب. فأفلح هؤلاء بطريقتهم الخاصة ان يقدّموا الاسلام للهنود بشكل واضح وعميق، فكانوا اكثر تأثيراً في نشر الدين الاسلامي من القوات الفاتحة.

معظم فتوحات المسلمين في الهند كانت تتم عبر المناطق الشمالية. وقد ابتدأ في الدخول الى تلك المناطق، السلاطين الأتراك والأفغان كالغزنويين. ونجح المسلمون الداخلون حديثاً الى تلك المناطق، في اقامة حكومات اسلامية فيها، وتقديم صورة

افضل وأوضح عن الاسلام للهنود. وأصبح المسلمون فيما بعد لاسيما في ظل السلالات الاسلامية التي حكمت الهند، كالبهمنية، والقطب شاهية، والتغلقية، والغوركانية، القوة السياسية والاقتصادية التي لا تُنازَع في شبه القارة الهندية. واستطاعت الأسرة الغوركانية من خلال الهيكلية المنظمة والتشكيلات المنسجمة ان تجعل لواء الحكومة المركزية المسلمة يرفرف على الهند بأسرها. لذلك يُعد العصر الغوركاني، ذروة الحكم الاسلامي في شبه القارة الهندية.

يُعد الحكم الغوركاني في الهند، من العهود المتألقة في تاريخ الهند، نظراً لما تجلى خلاله من مظاهر ثقافية وسياسية وحتى اقتصادية كبرى. وهو العهد الذي نجحت فيه الهند ـ بشهادة الغربيين ـ ان تجد هويتها المستقلة رغم ما تمتاز به من تعددية قومية وعرقية كبيرة، وأن تقيم علاقة متعادلة ومنسجمة مع سائر القوى الظاهرة على المسرح العالمي آنذاك.

التاريخ السياسي

الغوركانية او البابرية، احدى السلالات الاسلامية التي حكمت في هذه البلاد على مدى عدة قرون، ولعبت دوراً مهماً في تاريخ الهند والبلدان المجاورة، الذي يمتد لآلاف السنين.

مؤسس هذه السلالة، شخص يدعى ظهير الدين بابر الذي يتصل نسبه بتيمور لنك، ولذلك تعبِّر بعض المصادر عن هذه السلالة بمغول الهند(١).

كان ظهير الدين يحكم في مدينة أجداده سمرقند، ثم تركها الى كابل بعد ظهور الاوزبك، فاحتلها في عام ٩١٠ هـ واتخذها مركزاً لحكمه. ثم نجح في استرجاع سمرقند من الاوزبك عام ٩١٣ هـ وكانت مجاورته للدولتين المهمتين آنذاك ـ اي الدولة الصفوية والدولة الاوزبكية ـ تحول دون التوسع باتجاه آسيا الوسطى وايران. ولذلك وجد نفسه مضطراً لتركيز اهتمامه على الشرق ولاسيما الهند. ورغم

الفتوحات الصغيرة التي حققها في هذه المنطقة، إلّا أن المنية لم تسمح له بتحقيق أحلامه في التوسع، فتوفي عام ٩٣٦ هـ.

خلّفه على العرش ابنه همايون، لكنه تعرض للضغط من قبل خصومه مثل كامران ميرزا ـ اخيه غير الشقيق ـ وكان حاكماً على قندهار، وكذلك الحاكم الأفغاني شيرشاه سوري. وقد هُزِم عام ٩٥١ هـ أمام الأخير، فهرب الى ايران ملتجئاً ببلاط الشاه طهماسب الصفوي. ومكث في ايران حتى عام ٩٦٢ هـ ثم استطاع الاستيلاء على كابل بدعم من الايرانيين، واستعادة البنجاب ودلهي، وتنصيب نفسه ملكاً من جديد(٢).

بعد وفاة همايون، خلّفه ابنه جلال الدين اكبر الذي كان يبلغ من العمر ١٤ سنة. واستطاع الأخير بمساعدة الوصي بيرام خان الشيعي، التغلب على المشاكل الحكومية كافة. وقام اكبر عام ٩٦٨ هـ بعزل بيرام خان من منصبه. كما استرجع جميع الاراضي التي كانت قد انتُزِعت من يد ابيه همايون، ونقل العاصمة من دلهي الى اكرة. ونجح خلال الفترة ٩٧١ ـ ٩٨٤هـ في الاستيلاء على غجرات، وراجبوت، والبنغال. وتمكن بفضل وزيره الذكي ابي الفضل علامي، ان يفرض النظام والقانون. ويُعد أعظم اباطرة الأسرة الغوركانية(٣).

قسّم اكبر البلاد الخاضعة له الى ١٥ ولاية. واتخذ سياسة التسامح الديني، وأسس في عام ٩٩٠ هـ ديناً جديداً يوحد بين الأديان أسماه «الدين الالهي»، كان مزيجاً من الاسلام والهندوسية. توفي بمدينة اكرة عام ١٠١٤ هـ(٤).

خلّفه ابنه جهانگير الذي قمع تمرد السيخ الكبير، فداخلهم حقد عليه. وخرجت في عهده بعض المناطق من دائرة نفوذ الحكم البابري مثل الدكن، وأحمد نكر. واضطر في السنوات الأخيرة من حياته، الاقامة في كابل. خلّفه شاه جهان في ١٠٣٧ هـ ونفذ الايرانيون الى بلاطه ونالوا مناصب ومقامات عليا، لميله نحو الايرانيين حبّاً لزوجته الايرانية نور جهان.

واجه خلال عهده الكثير من التمردات والثورات الداخلية التي قام بها اخوه

اورنك زيب، وخان جهان سوري، ونائب السلطنة في الدكن، وغيرهم. ونجح في اخماد تلك التمردات في نهاية المطاف الى حد ما. وجهّز جيشاً لاحتلال قندهار وبلخ عام ١٠٦٧ هـ لكنه لم ينجح في مهمته(٥).

خلّفه أخوه اورنك زيب الذي نجح في قمع جميع خصومه. وفرض ضغوطاً على الشيعة والايرانيين انطلاقاً من روحه الطائفية. وأخذت الدولة البابرية تنزع نحو الضعف في نهاية عهده. وحل محله قطب الدين محمد المعظم الذي كان يتلقب ببهادر شاه، وذلك في ١١١٨ هـ وقد أثار غضب المسلمين من أهل السنة نظراً لنزعته الشيعية على مدى عهده الذي دام خمس سنوات. وبوفاته يكون قد انتهى العصر البابري تقريباً عدا بعض الحكومات المسلمة المحلية التي كانت تتسمى باسم الغوركانيين. وسقطت هذه الحكومات جميعاً بغزو نادر شاه للهند، رغم انه قد أبقى كما يبدو محمد شاه حفيد محمد المعظم) في منصبه. وتولى بعض افراد الاسرة الغوركانية. الحكم في بعض المناطق الصغيرة من الهند خلال الفترة ١٢٢١ ـ ١١٦٧ هـ وفي عام ١٢٥٣ هـ تم القضاء نهائياً على هذه الاسرة على يد القوات الانجليزية لشركة الهند الشرقية(٦).

العلاقة مع الصفويين

كان بابر قد مدّ يد الصداقة لاسماعيل الصفوي الذي استطاع الحاق الهزيمة بالاوزبك في معركة مرو الشهيرة. واستمرت العلاقة الودية بين بابر وخليفة الشاه اسماعيل، اي الشاه طهماسب. وقد شجع الانتصار الذي حققه طهماسب على الاوزبك في معركة جام عام ٩٣٥ هـ بابر لاستغلال ضعف الاوزبك لمدّ نفوذه ودولته باتجاه سمرقند، التي كانت ارض أجداده، لكنه توفي قبل ان يحقق هذا الحلم.

الفترة التي أمضاها همايون في البلاط الصفوي وتعرّفه على الايرانيين، وكذلك وجود وزيره الايراني القوي بيرام خان، من بين الامور التي دفعته باتجاه الايرانيين. والايرانيون الذين تعرفوا عليه في البلاط الصفوي ثم التحقوا به في

بلاطه، كان معظمهم من العسكريين، والشعراء، والرسامين. ونجح همـايون بـفعل الدعم الذي تلقاه من الايرانيين لاسيما الشاه طهماسب، الانتصار على حاكم قندهار كامران ميرزا الذي كان يطالب بالسلطنة. ولذلك كان يتعامل مع الايرانيين بسعة صدر دائماً(٧).

عاصر جلال الدين اكبر خلال عهده الذي استمر نحـو نصف قـرن، مـلكين ايرانيين كبيرين هما طهماسب، وعباس الأول. وفي اواخر عـهد شـاه طـهماسب، استطاع الاوزبك تحت حكم عبد الله خان وعبد المؤمن خـان التـقاط أنـفاسهم ثانية، والبدء بمهاجمة ايران والهند. ولم تكن الاوضاع في ايران كما ينبغي حين وفاة الشاه طهماسب ومجيء الشاه عباس، وتمكن الاوزبك من الاستيلاء على خراسان ثانية. اما على الجانب الهندي فقد كان اكبر يراقب الأوضـاع بـدقة، ورابـط في الولايات الهندية الشمالية على مدى ١٤ عاماً حتى رُفع خطر الغزو الاوزبكي تماماً.

كانت مسألة قندهار، هي المسألة المهمة الوحيدة في العلاقة بين اكبر والشاه عباس، حيث استطاع اكبر فتح هذه المـنطقة بـسهولة في عـهد الشـاه عـباس. والفتوحات الواسعة التي تحققت على يد اكبر، وشهرته العالمية، وقوة الامبراطورية المغولية الهندية، من الامور التي لم تسمح للشاه عباس بالاعتراض عـلى ذلك او القيام بخطوة عملية لاستردادها، واكتفى بالطلب رسمياً باعادتها للصفويين(٨).

تزامن عهد السلطان جهانگير مع العام الثامن عشر لعهد الشاه عباس الاول. وانتهز الشاه عباس تلك الفـرصة فـجهز جـيشاً نحـو قـندهار واسـتعادها مـن الغوركانيين، رغم الاحترام الخاص الذي كـان جـهانگير يكـنّه للشـاه عـباس. فانذهل جهانگير لذلك التصرف وبعث رساله اعتراض الى الشاه عباس، لكنه لم يستطع استرجاع قندهار من الصفويين رغم جميع المحاولات التي بذلها.

جاء بعد جهانگير، ابنه شاه جهان، وكان شديد الطموح، ووضع عـلى رأس قائمة اهتماماته، استعادة قندهار وضمّ بلخ وتوران الى مملكته. فقام من أجل تحقيق هذا الهدف بثلاث غزوات، لكنها فشلت جميعاً ومني الغوركانيون بخسائر فادحة

وأضرار جسـيمة، الأمـر الذي انـعكس سـلبياً عـلى اعـتبار امـبراطـوريتهم ومكانتها(٩).

اورنك زيب الذي تولى مقاليد السلطة بعد ابيه شاه جهان، أدرك أهمية احياء العلاقات الودية مع ايران، وبذل جميع مساعيه لتحقيق هـذا الغـرض. ولم يكـن يرغب في اعادة النزاع حول قندهار. ولكن الشاه عباس الثاني لم يكن يفكر بهذه الطريقة ولذلك بقيت العلاقات متوترة بين الجانبين. وقد أُعيدت تلك العلاقات بعد وفاة كل من اورنك زيب وعباس الثـاني(١٠)، غـير ان الدولتـين فـقدتا قـوتهما السابقة، وبدأتا بالسير في طريق الزوال تدريجياً.

انتهى الحكم الصفوي حينما احتل الأفغان ايران. كذلك لم يستطع المغول الهنود بعد وفاة اورنك زيب في عام ١١١٨ م السيطرة على الاضطرابات التي نشبت في الولايات الشرقية، وانتهى الأمر بالاوضاع في الهند الى احتلالها من قبل نادرشاه.

حين المقارنة بين الهند المغولية وايران الصفوية يمكن ادراك ان الامبراطـورية المغولية من حيث العموم، كانت ذات سياسة دينية حرة، وثقافة خاصة(١١).

كان الصفويون متعصبين في دينهم ومذهبم، بينما كـان المـغول يـنزعون نحـو التصوف. وكان للصفويين تفوق نسبي على المغول من حيث الجانب العسكـري، فلم تحقق قوات الامبراطورية المغولية نجاحاً عسكرياً في قندهار التي كانت بؤرة التوتر بين الامبراطوريتين. وكانت تلك القوات تـعاني مـن ضـعف في المـدفعية ومعدات المحاصرة.

الآداب السياسية

كانت اقامة العلاقات بين الامبراطوريتين، خاضعة لجملة من الآداب السياسية التي تستحق الاهتمام. فكان سفراء الهند الى الدولة الصفوية يـنتخبون مـن بـين السادة، اي الذين ينتهي نسبهم الى الرسول محمد (ص) وأهـل بـيته، لأن الدولة

الشيعية كانت تولي احتراماً للسادة. وكان معظم السفراء الهنود، من بين الايرانيين القاطنين في الهند، وممّن يتميزون ببراعة في اللغة الفارسية ولهم معرفة بمذهب الصفويين وآدابهم.

كانت المهام التي تناط بالسفير عديدة منها: توثيق العلائق بين الدولتين، والالتقاء بالامراء والوزراء ورجال الدولة، وارسال تقارير عن أوضاع البلد المضيف، واقامة حلف او اتحاد بين البلدين.

كان السفير يصطحب معه الكثير من المرافقين بدءاً بالـ «تحويلدار» الذي كان مسؤولاً عن الهدايا والأموال النقدية، وإنتهاءاً بكاتب التقارير والوقائع، فضلاً عن الفنانين والرسامين الذين كان يبعثهم السلطان جهانگير الى بلاط الشاه عباس.

الرسائل التي يتبادلها ملوك الدولتين، كانت ذات اسلوب يطفح بالصناعات الأدبية والتي كانت تصطبغ بصبغة الغرور والغطرسة. وكانت رسائل الامبراطور الهندي اكبر، يكتبها وزيره ابوالفضل غالباً، كما كانت رسائل شاه جهان تُكتب من قبل وزيره سعد الله خان. وفي المقابل كانت رسائل الشاه عباس الصفوي تكتب من قبل الأديب البارع ميرزا طاهر وحيد(١٢).

العلاقات ما بين المغول الهنود والصفويين الايرانيين، والتي إستمرت نحو قرن ونصف، كانت ذات منعطفات كثيرة. فنجد فيها التقارب الجاد والتعاون المشترك، كما نجد فيها التنافس والخصومة والعداء. وكان الايرانيون يشكلون عدداً كبيراً من العاملين في بلاط المغول. حيث كانت الهجرة الايرانية الى الهند قد بدأت منذ عصر همايون. فكان ثمة عدد كبير من الشعراء، والرسامين، والأطباء، والعلماء، والتجار، والحرفيين الايرانيين هاجروا الى الهند وتمكنوا من توثيق علاقاتهم بامبراطورية مغول الهند.

فاستطاعت بعض الشخصيات الايرانية مثل آصف خان والد زوجة شاه جهان، وشاه نواز خان الصفوي والد زوجة اورنك زيب، وعبد الرحيم خان خانان أمير الامراء لدى السلطان اكبر، ان تنسجم تماماً مع الرغبات والتطلعات

المغولية.

من الجدير بالذكر، انه عدا مشكلة قندهار، لم تكن هناك اية مشاكل حدودية جادة بين الدولتين تدفعهما للحرب والتقاتل.

العلاقات مع الدول الاوربية

تعود أول معرفة للاوربيين بمناطق شبه القارة الهندية، الى عام ١٤٩٨ م. واستطاع البحار البرتغالي فاسكودي غاما (Vasco da Gama) خلال هذا العام الوصول الى المناطق الساحلية شرقي الهند والترجل في ساحل ميناء كلكتا، والالتقاء بالراجا المحلي.

بعد سنتين من ذلك، جهز البرتغاليون جيشاً قوياً الى الهند كانت ضمن صفوفة لجنة للتجارة مع الشرق. وسكن البرتغاليون في كلكتا منذ عام ١٥٠٠ م. لكن التجار المسلمين الذين أساءهم قدوم البرتغاليين، تمكنوا من الاستيلاء على اموالهم بدعم من الحكومة، الأمر الذي اجبر البرتغاليين على الهجرة الى منطقة كوتشين (Cochim)، فأسسوا متجراً فيه، ثم شيدوا حوله قلعة للحفاظ عليه وذلك في عام ١٥٠٣ م.

خلال الفترة ١٥٠٩ ـ ١٥١٥ م نجح البوكرك في الاستيلاء على ميناء غوا، وتأسيس اول ركيزة للاستعمار البرتغالي في الهند(١٣).

البرتغاليون، لم يكونوا يكترثون كثيراً للمسلمين والهندوس، واتبعوا سياسة التبليغ للدين المسيحي في تلك البلاد، مما أثار غضب المسلمين وسخطهم.

في عام ١٥٨٠ م وقفت أسبانيا الى جانب البرتغال وتحالفت معها الأمر الذي أثار حفيظة الهولنديين والانجليز الذين كانوا أعداء ألداء للأسبان، لذلك هبّوا لضرب المصالح والأهداف البرتغالية في جميع أرجاء العالم.

خلال عهد اكبر، كانت تجارة الهند الخارجية حكراً على البرتغاليين. فكانوا

يبتاعون التوابل والقطن وغيرهما من البضائع، ويصدرونها الى اوربا. وفي عام ١٥٨٠ م زار اثنان من القساوسة النصارى، بلاط اكبر وحاولا تنصيره. ورغم انه رفض التنصر الا انه استطاع ان يكوّن لنفسه من خلالهما صورة اوضح عن الديانة المسيحية(١٤).

في عام ١٦٠٠ م، قام البريطانيون بتأسيس شركة الهند الشرقية من اجل الحصول على أرباح اكبر من المتاجرة مع الشرق. وكانوا على علم بالأرباح المذهلة التي كان البرتغاليون يحصلون عليها من خلال تجارتهم مع الهند. وفي عام ١٦٠٨ التقى وفد الشركة برئاسة ويليام هاوكينز بالسلطان جهانگير وسلّمه رسالة من ملك انجلترا جيمس الأول(١٥). وقد استُقبل ذلك الوفد بحفاوة بالغة من السلطان، بل واقترح على السفير الانجليزي قيادة قوة للفرسان يبلغ قوامها ٤٠٠ فارس. وعاد هاوكينز بعد فترة من الزمن الى ميناء سورت فكان ذلك اول اتصال للانجليز بالدولة الغوركانية عن طريق شركة الهند الشرقية.

في عام ١٦١٢ م وابان عهد جهانگير تمكنت القوات الانجليزية مع القوات الهولندية، من توجيه ضربة قاسية للبرتغاليين في المحيط الهندي. وقد اثلج ذلك العمل صدر جهانگير كثيراً لأن المسلمين الذين كانوا يذهبون الى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج، كانوا يتعرضون لهجمات البرتغاليين، فكانت تلك الهزيمة بمثابة تخليص للمسلمين من تلك الهجمات والاعتداءات البرتغالية. وفي اعقاب ذلك الحدث بالذات وافق جهانگير على اعطاء امتيازات لشركة الهند الشرقية. واستطاع الغوركانيون تحقيق الغلبة على البرتغاليين وطردهم من الساحل الهندي بدعم من البريطانيين(١٦).

في عام ١٦١٥ م، بعثت الحكومة البريطانية السير توماس ريو (Sir Thomas Reo) الى الهند للاجتماع بالسلطان جهانگير. فاستطاع الحصول على امتيازات كثيرة، منها حق التجارة في سائر المناطق الهندية مثل سورت، وكلكته ومدراس(١٧).

استمرت في عهد شاه جهان سياسة مناوأة البرتغال، والصداقة مع بريطانيا. وحينما شاهد شاه جهان سياسة البرتغاليين في مناطق مثل البنغال، وهوغلي، وأسرهم للهنود واستعبادهم، والاستحواذ على سائر اسواق المنطقة، ونشاطهم المتواصل لتنصير المسلمين، وحمايتهم للمتمردين، عقد العزم على التصدي لجميع ممارسات البرتغاليين المتعارضة مع القانون. وعلى هذا الضوء جهز في عام ١٦٣١ م جيشاً لقمع البرتغاليين في منطقة هوغلي. واستطاع هذا الجيش وبدعم من القوات الانجليزية ان يكسر البرتغاليين ويبيع أسراهم كعبيد في سوق النخاسة رداً على ما فعلوه بالهنود(١٨).

حينما توفي شاه جهان، ونشبت الصراعات على السلطة بين ابنائه، بذل البريطانيون جل مساعيهم وجهودهم للحصول على امتيازات اخرى، وتشييد القلاع والمتاجر في شتى مدن الهند.

حصلت بعض الاشتباكات بين الانجليز والمغول الهنود في عهد السلطان اورنك زيب نظراً لما امتاز به من تعصب ديني فاستولى على ميناء سورت الذي كان تحت الهيمنة الانجليزية. لكنه لجأ بعد ذلك الى التصالح معهم لحمايتهم للطريق البحري الذي كان يستخدمه حجاج بيت الله الحرام، وأعاد اليهم الميناء المذكور.

نجح الانجليز في نهاية عهد اورنك زيب في اقامة العديد من المؤسسات لاسيما في مدراس، وكلكتا، وبومبي. وكان لديهم في هذه المناطق الثلاث قوانينهم الخاصة. وقد شيدوا الكثير من القلاع لحماية مراكزهم التجارية. كما كانوا يستوفون الضرائب من المناطق المجاورة، ولديهم المحاكم القضائية المستقلة. وهذا ينم عن تغيير كبير في سياسة البريطانيين من تجارة هادئة الى الادارة المباشرة لبعض مناطق الهند والتمهيد لاقامة حكم انجليزي هناك. وقد اتخذ الانجليز هذه السياسة منذ عام ١٦٨٨ م(١٩).

حينما توفي اورنك زيب عام ١٧٠٧ م، حل الانجليز محل البرتغاليين في المحيط الهندي تماماً. واضطربت أوضاع الهند السياسية والاجتماعية حينما دخل الفرنسيون

على خط التجارة مع الهند وبدء الحروب والصراعات الأهلية. وانتهز الانجليز تلك الأوضاع فأخذوا يعززون تواجدهم هناك بشكل تدريجي حتى أصبحوا القوة التي لا تُنازَع في تلك المنطقة.

الفرنسيون نجحوا في عام ١٦٦٤ م أن يؤسسوا على يد كلبر شركة الهند الشرقية الفرنسية. كما تمكنت الحكومة الفرنسية ان تفتتح لها مركزاً تجارياً في منطقة بيشاور، وتشيد مدينة باسم بونديشري. واستطاع الفرنسيون تأسيس العديد من المؤسسات التجارية في البنغال وتشاندرناغور. وبالرغم من الازدهار النسبي الذي حظيت به بونديشري في مطلع القرن ١٨، لكن الفرنسيين لم يكن باستطاعتهم منافسة بريطانيا، خصمهم التاريخي(٢٠).

مع استمرار الاقتدار البريطاني، ودعم بريطانيا غير المحدود لشركة الهند الشرقية، نجحت هذه الشركة بما كان لديها من اموال وأسلحة في دحر جميع الحكومات المسلمة المحلية ومقاوماتها مستغلة اضطراب الأوضاع السياسية وعدم وجود حكومات قوية ومركزية. ثم وجهت ضربتها النهائية الى البابريين في حرب بلاسي عام ١٧٥٧ م فأخرجتهم عن الميدان السياسي الهندي تماماً(٢١).

الهيكلية السياسية والادارية

كان الامبراطور، يقف على رأس الدولة الغوركانية او البابرية (مغول الهند) ويشرف اشرافاً تاماً على جميع شؤون الدولة. وكان دوره يزداد بازدياد المؤسسات الحكومية، واتساع رقعة البلاد. وكان بمقدوره التدخل في أي شأن من شؤون البلاد وامورها، فيؤيد كل ما يراه صحيحاً ويلغي كل ما يراه خاطئاً. وكانت قدرته على التدخل تختلف باختلاف العهود. فقد كان السلطان جلال الدين اكبر يتدخل في جميع الامور ويعلن عن رأيه فيها جميعاً ويُلزِم الرعية باطاعة جميع أوامره.

هناك أيضاً مجموعة من الدواوين كان أهمها الديوان الأعلى الذي كان عبارة عن اعلى مؤسسة مالية في البلاد، فكان يشرف على دخول السلطان وأملاكه (الخالصات). كما يدفع رواتب واجور ونفقات البلاط والموظفين الحكوميين. كما يشرف على شتى الشُّعب التي تؤسس في شتى مناطق الامبراطورية. ويقف الوزير على رأس هذا الديوان. وهناك ديوان الأمن الذي يتولى الحفاظ على الأمن في سائر أرجاء البلاد ولديه قوات موزعة في جميع المدن والمناطق. ومن مهماته الاخرى، دفع رواتب عناصر الأمن والجيش، ونقل المعدات العسكرية.

وكان هناك ديوان القضاء ايضاً يرأسه صدر الصدور الذي كان يتولى مهمة الشؤون القضائية بما فيها السياسة والمظالم. وكان يحقق في الأخطاء والجرائم السياسية التي يرتكبها الأمراء وقادة الجيش وأصحاب المناصب العليا، وكذلك الجرائم التي يرتكبها المتمردون وتعامل رجال الحكومة مع الناس، فضلاً عن دراسة الشكاوى التي يرفعها الناس على رجال الحكومة والموظفين الحكوميين. ويُعد صدر الصدور الناطق باسم علماء الدين في البلاط. ويأتي من بعده «أمير العدل» الذي يضطلع بمهمة تنفيذ الأحكام الصادرة(٢٢).

ينبغي القول بأن عهد جلال الدين اكبر كان يمثل النموذج المكتمل للهيكلية الادارية للامبراطورية المغولية الهندية. فتم خلال هذا العهد تقسيم الامبراطورية الى ولايات مختلفة. وكان الى جانب الوالي اثنان يخضعان للتعاليم التي ترد من المركز، فكانا يحددان في حقيقة الأمر سلطة الوالي. وكانت هناك ولايات مهمة مثل ملتان، وكشمير، والبنجاب، ودهي وأكره، وبتنة، والبنغال، وغجرات، وغيرها. وكانت هناك ولايات صغرى مثل اوريسة، وتتا، وخانديش. اما الولايات الحدودية مثل بيشاور، وأتوك، وجمو، وجسوال، ونكركوت، فكانت ذات أهمية كبيرة. وتميزت بعض الولايات مثل بانده، وناروار، وجيتور، بأنها ذات حاكم مستقل الى حد ما، وقد منحها الامبراطور هذه الاستقلالية نظراً لكون أهلها يعتنقون أدياناً اخرى غير الاسلام(٢٣).

كانت كل ولاية تقسم الى عدة نواح يرأسها ناظر او مشرف مثل قندهار، وجونبور. والى جانب ناظر الناحية هناك صاحب الفوج الذي يتولى ادارة المناطق التي هي اقل من الناحية.

كان العسكريون يتلقون رواتبهم نقداً، وكانت توضع تحت تصرفهم الأملاك والأراضي التي تصب دخولها وايراداتها في جيوبهم. وكان يُطلق على الأملاك التي يضعها الشاه تحت تصرف العسكريين اسم «الاقطاع»(٢٤).

كان ذلك النظام يحقق ما كان يطمح اليه الامبراطور، لأن دعم العسكريين يعزّر سلطة الامبراطور في شتى مناطق الامبراطورية ومدنها. وكان باستطاعة السلطان سلب تلك النعمة من اصحاب المناصب العسكرية متى شاء. وكان اسلوب اباطرة مغول الهند يتمثل في عدم ابقاء هؤلاء في مناصبهم لفترة طويلة. وكان مقدار الضرائب المفروض على كل منطقة يتناسب طردياً مع ما تتميز به من شهرة ومكانة. ولم تكن تلك الامتيازات الاقطاعية مقتصرة على العسكريين، وانما كان بمقدور الأشراف والعلماء الحصول عليها أيضاً.

كان الاقطاعي يستحصل نوعين من الضرائب: الاول الضرائب التي تدعى بالواجبية، والثاني الضرائب التي تدعى بالحقوق الديوانية. وبالرغم من الامتيازات الكثيرة التي تعود على مغول الهند بفضل هذا النظام، لكنّ السائح الفرنسي برنير (Bernier) يعتقد ان هذا النظام كان أحد العوامل المهمة التي تقف خلف سقوط المغول. لأن تفويض تلك الاقطاعات حينما يكون مؤقتاً، يدفع الاقطاعي كي يبذل كل ما يستطيع للحصول على اكبر قدر ممكن من ذخائر تلك المنطقة ومنابعها وثرواتها، الأمر الذي يلحق خسائر مالية كبيرة بالناس، مما يؤدي في نهاية المطاف الى تذمرهم واستيائهم.

كان هذا النظام ساري المفعول حتى عهد اورنك زيب. لكن اندلاع حروب الدكن، وكذلك تغيير النظام الاداري للولايات الشمالية بفعل غياب الامبراطور، امر ادى الى زوال هذا النظام. ورضخ الكثير من الامراء والقادة العسكريين

لنظام استلام الرواتب التي هي اقل مما كان يعود به عليهم نظام الاقطاع(٢٥).

طبقات المجتمع في عهد الغوركانيين

ـ الأشراف: فالأشراف كانوا في الواقع من صنع جلال الدين اكبر. فكان هذا الامبراطور يضفي مقام الأشرفية على كل فرد يختاره. ولم يكن من السهل الانضواء تحت لواء هذه الطبقة. وكان المعيار الأساس هو تولي تلك المناصب والمقامات ذات الجانب الوراثي. وكان اصطلاح «خان زاده» ـ اي ابن الخان ـ تعبيراً عن تلك الأشرفية، رغم ان «خان زاده» لا يستورث جميع مناصب الأب.

كان اكبر قد منح مناصب ومقامات مهمة لبعض الهنود. فقد استطاع الهنود من خلال اصحاب الخبرة والمحاسبين الأذكياء، النفوذ الى طبقة الاشراف رغم عدم الشرف في الأصل والنسب. وكان هؤلاء الأشراف من طبقات البرهمن، والمراتهة، والنغر. وكان السلطان يوكل بعض المناصب المهمة أحياناً الى المحققين، ورجال الدين، وكبار الكتّاب كأبي الفضل في عهد اكبر، وسعد الله خان ودانشمند خان في عهد شاه جهان.

٢ ـ الأتراك الذين كانت لديهم مناصب عسكرية.

٣ ـ الايرانيون والهنود من اصل ايراني.

٤ ـ الهنود الأصليون سواء كانوا مسلمين او غير مسلمين(٢٦).

كان الامبراطور هو الذي ينظّم هذه العناصر الحكومية، فأصبحت بفعل الظروف التاريخية والسياسة الخاصة التي ينتهجها السلطان، بمثابة نظام واحد في خدمة الدولة الغوركانية. وكانت الحكومة المركزية قد ألغت نوع الحكومات التي كانت سائدة في الهند من قبل، وأزالت الحكومات الاقطاعية التي يتحكم فيها رؤساء القبائل.

ازدهار الأدب الفارسي

كان عهد المغول، هو العهد الذي بلغ فيه الأدب الفارسي ذروته في الهند، لأن كثرة الشعراء وسعة المضامين والأغراض الجديدة، كانت بالشكل الذي دفع بالايرانيين انفسهم للدخول الى بلاط الأسرة الغوركانية للاسترفاد من مائدة نعمتهم الغزيرة. وقد أصبحت اللغة الفارسية لغة رسمية في عهد اكبر عام ٩٩٠ هـ وكان هذا السلطان يبدي اهتماماً خاصاً نحو الثقافة والادب الفارسيين وشيّد داراً للترجمة لترجمة الكتب السنسكريتية والهندية القديمة الى اللغة الفارسية. ولربما يعود اتساع وتنوع مضامين الأشعار الفارسية خلال هذا العهد الى قربها من الأدب الهندي(٢٧).

كان الشعر بالنسبة للشعراء في هذا العهد بمثابة ضرورة من ضروريات العمل والحياة. وكان معظم الشعراء يستخدمونه لتسليط الضوء على انفسهم واضفاء الشخصية عليها، وكذلك للحصول على الجوائز والخلع. ونزعت الموضوعات الشعرية للحديث عن الحياة اليومية لرجال البلاط والحوادث المعاصرة. وكان شعراء الاسلوب الهندي ـ لاسيا القاطنين في الهند ـ يدركون أهمية الفنون الشعرية، وسعوا لصبّ المضامين الجديدة في قالب الشعر من خلال استخدام البديع الشعري(٢٨).

من الضروري بعد هذا الاشارة بايجاز الى بعض أشهر شعراء عصر الغوركانيين:

الفيضي الدكني

هو أبو الفضل ابن الشيخ مبارك الناغوري. ولد في اكبر أباد (اكرة) عام ٩٥٤ هـ وكان جده الأعلى الشيخ موسى قد هاجر من اليمن الى السند في القرن التاسع.

ونزح جده من السند الى ناغور.

قرأ الفيضي على أبيه ثم على الخواجة حسين المروزي، فنون الأدب والشعر والانشاء. وقد اختفى الشيخ مبارك وأبناؤه الثلاثة بسبب التفكير الحر الذي كان يتمتع به وبتحريض من العلماء المتعصبين الذين اتهموه بالالحاد. لكنهم مثلوا بين يدي السلطان اكبر بعد توسط شقيق زوجة اكبر، وأنشد الفيضي قصيدة في مدح السلطان. وتوثقت علاقة هذا الشاعر بالسلطان الى درجة انه أوكل اليه عام ٩٨٧ هـ مهمة تعليم وتربية ابنه مراد. ثم جعله في عام ٩٩٠ هـ صدراً على اكره، وكالبخر، وكالبي. ومنذ عام ٩٩٣ هـ اتخذ اكبر من لاهور عاصمة له وحمل معه اليها الشعراء والعلماء، ومن بينهم الفيضي. وفي هذا العام أفاض اكبر لقب ملك الشعراء عليه. وكان الفيضي واخوه ابو الفضل، من اعضاء الجمعية الدينية التي أسسها اكبر للتباحث وتبادل الآراء مع مختلف علماء الدين.

نظراً لدعم الفيضي للدين الالهي الذي يتبناه اكبر، وكذلك لنزعته نحو بعض الصوفية مثل فريد الدين مسعود، وكنج شكر، ونظام الدين اولياء، فقد اتُّهم بالالحاد والكفر.

في عام ٩٩٩ هـ بعثه اكبر الى بعض المناطق لدعوة صغار الحكام المسلمين في الهند للانضمام اليه، فأدى تلك المهمة بنجاح. وأعدّ بعض التقارير بهذا الخصوص والتي تكشف عن معرفته بفن ادارة البلاد، والسياسة، والمجتمع(٢٩).

يعتبر هذا الشاعر، أعظم شعراء الهند بعد خسرو الدهلوي. فكان ينظر الى الجميع بعين الاحترام. وقد عمل على دخول الشاعر عرفي الشيرازي الى البلاط الغوركاني. وكان من مريدي فرقة الجشتية الصوفية. وكانت لديه مكتبة غنية تضم انواع الكتب وفي شتى الحقول والمجالات لاسيما كتب العقل، والحكمة، والأدب، والتاريخ، والشعر.

فضلاً عن الشعر والأدب، كان بارعاً في العروض والقافية، والطب، والفلسفة، والمنطق، والرياضيات، والخط، وكان على معرفة باللغات الاوردية،

والسنسكريتية، والهندية. وقد صبّ معان جديدة في قالب الشعر القديم، وتجلى ذلك بشكل اكبر في مثنوياته وغزلياته. فكان ديوانه مترعاً بالمضامين العرفانية والدينية. توفي عام ١٠٠٤ هـ

المؤلفات التي خلفها:

١ ـ ديوان شعر؛ ٢ ـ خمس رسائل في مقابل خمسة كنوز النظامي؛ ٣ ـ مركز أدوار؛ ٤ ـ نَل ودَمن؛ ٥ ـ البلدان السبعة او «بهرام نامة»؛ ٦ ـ سليمان وبلقيس؛ ٧ ـ اكبر نامه؛ ٨ ـ موارد الكلام في موضوع الأخلاق؛ ٩ ـ سواطع الالهام في تفسير القرآن؛ ١٠ ـ لطيفه فيضي (انشاء فيضي)، وهو عبارة عن مجموعة رسائله. كما ترجم كتاب «رامايانا» من الهندية الى الفارسية بلغة الشعر(٣٠).

عرفي الشيرازي

هو جمال الدين محمود الذي ولد بشيراز عام ٩٦٣ هـ ودرس في هذه المدينة الايرانية مقدمات العلوم والأدب وبرع في الموسيقى وخط النسخ. وكان قد أُصيب بمرض الجدري وأصبح وجهه قبيحاً جداً. وكان يلتقي مع بعض الشعراء مثل غيرتي الشيرازي، وعارف اللاهيجي، وحسين الكاشي، في حانوت مير محمد طرحي الشيرازي الذي كان بمثابة محفل أدبي. وكان مستاءاً جداً من اصابته بالجدري وتشوه وجهه، لذلك قرر مغادرة شيراز، فسافر الى الدكن عام ٩٩٠ هـ ثم تركها الى فتحبور سيكري، عاصمة جلال الدين اكبر. والتقى فيها بالشاعر فيضي فاستقبله بحرارة وقدّمه الى الحكيم مسيح الدين أبي الفتح الجيلاني وكان شاعراً عالماً وفاضلاً من شعراء بلاط السلطان اكبر. فأدخله الى جوقة شعراء البلاط.

كان ملازماً للسلطان اكبر حين زحفه نحو كشمير عام ٩٩٧ هـ ومدحه آنذاك

بقصيدة عُرِفت بالكشميرية. وعاش بعزة واحترام في بلاط اكبر. وتوفي وله من العمر ٣٦ عاماً ودُفن في لاهور. كان يكن احتراماً للشاعر حافظ رغم عدم احترامه للنظامي، والخاقاني، وسعدي، وغيرهم.

شعره يتميز بالسلاسة والقوة. وتكثر فيه مفردات منطقية وطبية وحكمية نظراً لالمامه بهذه العلوم.

آثاره: ١ ـ مجمع الأبكار في مقابل مخزن الأسرار؛ ٢ ـ شيرين وفرهاد؛ ٣ ـ رسالة نفيسة؛ ٤ ـ ساقي نامه؛ ٥ ـ ديوان شعر(٣١).

طالب الآملي

اسمه محمد ويعرف بطالب الآملي، ويلقب بملك الشعراء. وكان يتخلص بـ «آشوب» في بادئ الأمر. وُلد عام ٩٨٧ هـ وينتمي الى المذهب الشيعي الاثني عشري.

سافر الى اصفهان عام ١٠١٠ هـ ثم الى خراسان ومرو. امتدح حاكم مرو بقصيدة عام ١٠١٧ هـ ثم سافر الى الهند. وكان هذا سفره الأول الى الهند. اما سفره الثاني الى الهند فكان في عام ١٠٢١ هـ ابان عهد السلطان جهانگير الغوركاني. فذهب الى اكرة اولاً، ثم الى غجرات حيث التحق بحاكمها. لكنه لم يبق الى جانبه طويلاً بسبب ما كان يتميز به من دموية وقتل، فعاد الى دلهي. فالتقى فيها بشاعر ايراني آخر يدعى شابور طهراني. فاستطاع من خلاله النفوذ الى بلاط السلطان جهانكير. وكان جهانكير متضلعاً بالشعر، لذلك أدرك ما لدى طالب من قابلية شعرية فأولاه اهتماماً، ثم أضفى عليه لقب ملك الشعراء عام ١٠٢٨ هـ توفي طالب عام ١٠٣٥ أو ١٠٣٦ هـ

من آثاره: ١ ـ ديوان شعر؛ ٢ ـ مثنوي القضاء والقدر؛ ٣ ـ مثنوي الحرقة والألم؛ ٤ ـ مثنوي جهانكير نامة.

يُعد شاعراً من الطراز الأول بين شعراء الفارسية في الهند. ويستخدم الاستعارة كثيراً في شعره. ويبدو انه متأثر بالشاعر الخاقاني في القصيدة، وبالشعراء سعدي ومولوي وحافظ في الغزليات. وكان يقتدي بالأمير خسرو الدهلوي في شعره. وشعره قريب جداً من شعر عرفي الشيرازي(٣٢).

صائب التبريزي

هو ميرزا محمد علي صائب التبريزي ابن عبد الرحيم التبريزي الاصفهاني. وُلد باصفهان عام ١٠١٦ هـ كان ابوه تبريزياً. قرأ الأدب والعلوم النقلية على أبيه. سافر الى المناطق العثمانية ومكة المكرمة. كما سافر الى الهند عن طريق كابل في عهد الشاه عباس الأول وذلك عام ١٠٣٤ هـ

دخل الى بلاط شاه جهان، الذي كان بمثابة سوق للشعر والادب. وكان السلطان شاه جهان حريصاً جداً على تربية أهل الأدب، وشيد مكتبة فيها عدة آلاف من الكتب. وحينما وصل صائب الى الهند كان الشاعر «نظير النيشابوري» قد توفي، والشاعر طالب الآملي في السنوات الأخيرة من عمره، ولكنّ الشاعرين قدسي وكليم، كانا في الذروة.

عيَّنه شاه جهان بمنصب «هزار خاني» تثميناً للقصيدة التي امتدحه بها. لكنه عاد الى اصفهان عام ١٠٤٢ هـ وتلقب في عهد الملك الصفوي الشاه صفي بلقب ملك الشعراء. توفي باصفهان عام ١٠٨٧ هـ في عهد سليمان الاول الصفوي.

سافر صائب الى كثير من المدن والمناطق في البلاد العثمانية، والحجاز، وافغانستان، وايران، والهند، والتقى بالكثير من الحكام والشعراء والأدباء، فكانت محصلة تلك الأسفار، كتاب «رحلة البياض». وكان من الشعراء المادحين. ويعود جل شهرته لغزلياته.

لعب دوراً مهماً في بلورة الاسلوب الشعري الهندي، حتى عُدّ ابرز شاعر في

هذا الاسلوب. ويمتاز شعره بأنـه ذو مـضامين عـديدة، ويـستخدم فـيه المـعاني الجديدة، ويزخر بالاستعارة(٣٣).

حزين اللاهيجي

هو محمد علي بـن ابي طـالب. وُلد بأصـفهان عـام ١١٠٣ هـ وقـد اشـتهر باللاهيجي لأن اباه كان من أهل لاهيجان. ويتصل نسبه بالشيخ زاهد الجيلاني. تعلّم علم التجويد في الثامنة من عمره. وقرأ المنطق، والفقه، والحـديث على أبيه. وتعلّم الهيئة والهندسة على معلمين اصفهانيين. فقد اثنين من اخوته خلال الهجوم الذي شنّه الافغان على ايران ومحاصرتهم لمدينة اصفهان، وخرج من المدينة وهي محاصرة، فذهب الى خرم آباد ثم الى همدان، ثم سافر على مدى عشر سنوات الى البصرة، وبغداد، وصنعاء، والنجف، ومكة المكرمة، وبندر عباس.

سافر الى الهند عام ١١٤٦ هـ فأقام في لاهور ثم في دهلي. ورغـم الاحـترام الذي كان يحظى به من قبل ملوك الهند وحكامها، إلّا انه كـان يهـجو في شـعره أوضاع الهند وأهلها، مما عرضه لانتقاد الشعراء الهنود. أمضى ١٤ عاماً في دهلي، ثم عاد الى بنارس عام ١١٦١ هـ فأقام فيها حتى توفي عام ١١٨٠ هـ(٣٤).

انبرى حـزين لدراسـة شـتى المـذاهب الاسـلامية، وأولى اهـتماماً للـفلسفة الاشراقية، والعرفان، والعلوم النظرية والعملية. وكان خـطاطاً مـاهراً لاسـيما في الثلث والنسخ. وكان ينزع في شعره نحو الاسلوب الهندي. وكانت أشـعاره ذات صبغة تصوفية وتحتوي على مضامين عرفانية كثيرة.

كان متأثراً بشعراء من قبيل السنائي، والعطار، والعراقي، ومـولوي، وحـافظ. ولديه رسائل في المنطق، والفلسفة، والهندسة، والفلك، والحـديث، والكلام، ضاع معظمها.

آثاره المتبقية: ١ ـ ديوان شعر؛ ٢ ـ تاريخ حزين؛ ٣ ـ تذكرة المعاصرين؛ ٤ ـ

مد العمر؛ ٥ ـ رسالة فتاوى؛ ٦ ـ اصول علم التفسير(٣٥).

بيدل الدهلوي

ولد هذا الشاعر في «بتنا» بالهند عام ١٠٥٤ هـ وكان ينتمي الى طائفة الاتراك الجغتائيين، التي هاجر أجدادها من بدخشان الى الهند. كان ابوه قد أسماه عبد القادر، نظراً لحبه الشديد لعبد القادر الجيلاني، مؤسس الفرقة القادرية.

توفي ابوه وله من العمر ٥ سنوات. تعلّم القرآن وختمه وهو طفل. واحتضنه عمه بعد وفاة امه. وتعلّم العربية صرفاً ونحواً والفارسية نثراً وشعراً في العاشرة من عمره. وتأثر بالصوفية بفعل عمه الذي كانت لديه نزعة صوفية.

التحق عبد القادر بيدل بمحمد الشجاع في الصراع الذي دار بين ابناء شاه جهان نزولاً عند رغبة عمه، غير ان اورنك زيب استطاع ان يهزم محمد الشجاع عام ١٠٦٩ هـ ومنذ هذا العام أخذ بيد ينتقل بين شتى المناطق الهندية، الى ان اقام في دلهي عام ١٠٩٦ هـ

لقد حوّل بيدل بيته الى ناد لارتياد أهل العلم. وتعرّف الى أحد متصوفة الفرقة القادرية عام ١٠٧١ هـ وكان يدعى شاه قاسم هو اللهي. وقد انجذب بيدل اليه الى درجة بحيث عرض عليه كافة كتاباته ونتاجاته الشعرية والنثرية.

التحق بجيش محمد أعظم شاه في عام ١٠٨٠ هـ ومُنح رتبة عسكرية فيه، لكنه تنحى عن ذلك فيما بعد. وسافر من دلهي الى لاهور مشياً على الأقدام ومتخفياً وذلك في عام ١٠٨٥ هـ ثم عاد الى دلهي عام ١٠٩٦ هـ فأمضى بقية عمره فيها الى ان توفي في نهاية صفر عام ١١٣٣ هـ كانت لديه معلومات واسعة في اكثر علوم ومعارف دهره، وكان في شعره، ذا خيال رقيق، ودقة نظر.

يُعد اعظم شعراء الفارسية في الهند بعد أمير خسرو الدهلوي وجامي. فكان شاعراً يحلّق في الخيال، ويمزج شعره العرفاني بمضامين الحب والعشق.

آثاره: كليات؛ مثنويات تتمثل في المحيط الأعظم، وطلسم الحيرة، وطور المعرفة، وتنبيه المهموسين؛ منثورات تتمثل في العناصر الأربعة، والرقعات، والنكات، وبياض بيدل(٣٦).

الغزالي المشهدي

هو محمد بن عبدالله. وُلد في مشهد عام ٩٣٦ هـ تلقى الأدب والكمال في مسقط رأسه. ثم سافر في شبابه الى قزوين ملتحقاً ببلاط الشاه طهماسب. وقد هجا بأمر من الشاه طهماسب الخواجة امير بيك كججي. وسافر بعد ذلك الى شيراز وتعرّف في حانوت مير محمود الطرحي على بعض شعرائها مثل عالمي الشيرازي. هاجر بعد ذلك الى الهند وانخرط في خدمة علي قلي خان والي جونبور. ثم ارتفع شأنه فدخل الى بلاط السلطان جلال الدين اكبر ونال فيه مقام ملك الشعراء. توفي في غجرات عام ٩٨٠ هـ ودفن في احمد آباد. ويُعد اول ملك للشعراء في عهد تيموريي الهند، وعاصر الفيضي الدكني.

يخلو شعره من الاصطلاحات المعقدة والمبهمة. ومعظم غزلياته ذات طابع عرفاني. وتتميز مثنوياته بمضامين عليا. وكان بارعاً في الكتابات النثرية ايضاً سواء كان نثرها مرسلاً او مصنوعاً.

آثاره النثرية: ١ ـ أسرار المكتوم؛ ٢ ـ رشحات الحياة؛ ٣ ـ مرآة الكائنات.

آثاره الشعرية: ١ ـ مرآة الصفات؛ ٢ ـ قدرة الآثار؛ ٣ ـ مشهد الأنوار؛ ٤ ـ مثنوي النقش البديع؛ ٥ ـ مثنوي العاشق والمعشوق؛ ٦ ـ كليات الغزالي(٣٧).

شيدا الفتحبوري

ابوه من قبيلة تكلو، وكان يسكن في مشهد ثم سافر الى الهند في عهد جلال الدين اكبر وأقام في فتحبور سيكري. اما شيدا فقد وُلد في فتحبور ولذلك لُقب

بالفتحبوري. أنشد لأول مرة شعراً في امتداح عبد الرحيم خان خانان، وكان امير امراء اكبر، فخلع عليه وأعطاه جائزة ثمينة. ثم انخرط في خدمة شهريار ابن جهانگير، ثم في خدمة شاه جهان، حيث تمتع في بلاطه بمكانة مرموقة. امضى الفترة الأخيرة من حياته في كشمير وتوفي فيها خلال الفترة ١٠٤٧ ـ ١٠٥٧(٣٨).

كان بارعاً في العلوم الأدبية. وقد هجا بعض الشعراء مثل طالب وكليم.

من الضروري الاشارة الى الامر التالي وهو ان شاه جهان كان يولي إهتماماً اكبر لشعراء الفارسية الذين هاجروا من ايران الى الهند، ويفضلهم على الشعراء المولودين في الهند. وربما كان ذلك هو السبب الذي دفع بشيدا الفتحبوري لهجاء بعض الشعراء.

كان مقلداً لأشعار امير خسرو الدهلوي. صاحب ديوان شعر، ولديه مثنوي باسم الدولة اليقظة، على بحر مخزن الأسرار.

العرفاء والمتصوفة ودورهم في الهند

كان العرفاء والمتصوفة، من بين المبلغين للدين الاسلامي في الهند. وقد استطاعوا من خلال سلوكهم، استقطاب الهنود نحو الاسلام. فنجحوا الى جانب الفاتحين، والقوات العسكرية، والتجار المسلمين ـ لاسيما الايرانيين ـ في ادخال عدد كبير من اتباع الديانة الهندوسية في الدين الاسلامي الحنيف.

استطاع العرفاء ما بعد العهد الغزنوي، مد النفوذ الاسلامي الى اقصى نقاط الهند مثل المناطق الشمالية للسند. فكانوا ينهضون بمهمة الارشاد ونشر الدين بين الناس. وأصبح لديهم نفوذ واعتبار في الأوساط الاجتماعية الى درجة بحيث وجد السلاطين انفسهم مجبرين على احترامهم. وأصبحت مدينة مولتان في زمان الشيخ بهاء الدين زكريا، مركزاً للمسلمين في شبه القارة الهندية(٣٩).

تزامن تطور العرفان والتصوف مع اتساع اللغة الفارسية وتطورها، باعتبارها

مصدراً مهماً للعرفان والتصوف. لذلك حينما انحطت اللغة الفارسية، سرى ذلك الانحطاط الى التصوف الاسلامي في الهند أيضاً. ويكشف اول كتاب عرفاني في الهند باللغة الفارسية الّفه العارف الكبير علي بن عثمان الهجويري ـ مؤلف كشف المحجوب ـ عن التقارب الكبير بين هذين الاثنين. فاللغة الفارسية كانت لغة العرفاء الذين كانوا يمزجون الشعر الفارسي بالسماع العرفاني والصوفي. وتجلى تصوف شبه القارة الهندية في أربع سلاسل مهمة هي: الجشتية، والسهروردية، والقادرية، والنقشبندية(٤٠).

لازالت تُحترم الى يومنا هذا مقابر الأولياء وأقطاب هذه السلاسل. ويهرع في كل عام الآلاف لزيارة أضرحتهم ومدافنهم لاسيما في مناسبات وفياتهم. ورؤساء هذه الطرق الأربع هم من أتباع المذهب الحنفي، لكنهم لا يكتمون حبهم وولاءهم لأئمة المذهب الشيعي.

ينسب متصوفو الجشتية والسهروردية والقادرية، شجرة الطريقة الى الامام علي (ع). وتُلاحظ بين أقطاب الفرقة النقشبندية أسماء سلمان الفارسي، وقاسم بن محمد، وابن الامام جعفر الصادق. بينما ينسب مؤسس الطريقة النقشبندية ـ اي بهاء الدين محمد النقشبندي ـ نفسه الى الامام الحسن العسكري (ع).

الطريقة السهروردية

هذه الطريقة منسوبة الى الشيخ شهاب الدين السهروردي، غير ان الفضل في احيائها ونموها يعود الى تلامذة السهروردي. ويُعدّ أهمّ خلفاء هذه الطريقة في الهند، هو الشيخ بهاء الدين زكريا المولتاني (ت ٦٦٦ هـ). ويعود الفضل في انتشار الاسلام في البنغال الى عرفاء هذه الطريقة. وكذلك يُعد الشاعر فخر الدين العراقي، من شخصيات هذه الفرقة المهمة، وكان صهراً للشيخ زكريا.

الطريقة القادرية

مؤسس هذه الطريقة هو الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ). ويتصل نسبها بالامام علي (ع). ويُعد «دارا شكوه» ابن شاه جهان، اشهر أتباع هذه الطريقة في الهند. وأول شخصية من شخصيات هذه الطريقة زارت الهند، كان صفي الدين الصوفي الجيلاني ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني. وأهم خلفاء هذه الطريقة في الهند كان ابو عبد الله محمد غوث الجيلاني، الخلف الثامن للشيخ عبد القادر. وقد عاد الى الهند بعد أسفار طويلة فأقام في لاهور الى أن توفي فيها عام ٩٢٣ هـ في أيام بابر.

الطريقة النقشبندية

مؤسس هذه الطريقة هو بهاء الدين محمد البخاري النقشبندي (٧١٧ ـ ٧٩١ هـ) الذي وُلد في بخارى، وينتسب الى ذرية الرسول الاكرم (ص). وتوجد في الهند ثلاث شعب مهمة لهذه الطريقة هي: الأبوعلائية، والأحرارية، والمجددية. وظهرت هذه الطريقة بالهند في عهد بابر على يد محمد باقي الله (ت ١٠١٢ هـ). ويُعد الشيخ أحمد السرهندي المعروف بالألف الثاني، أهم خليفة لهذه الطريقة في الهند، وكان يعارض الشيعة بشكل سافر. وقد غضب عليه شاه جهان وسجنه لمدة عامين.

الطريقة الجشتية

هذه الطريقة، اقدم الطرق الصوفية في الهند، لأنها ظهرت في منطقة اجمير الهندية عام ٥٦١ هـ على يد خواجه معين الدين. وسميت بالجشتية نسبةً الى قرية جشت القريبة من هراة التي ينتمي اليها خواجه معين الدين. وينسب اتباع الطريقة طريقتهم الى الامام علي (ع)، ويقولون بأن الخرقة التي تسلمها الرسول

(ص) في ليلة المعراج، أودعها لدى الامام علي (ع). ومن اقطاب هذه السلسلة: الحسن البصري، وفُضَيل بن عياض، وابراهيم الأدهم، وخواجه ابواسحاق الشامي(٤١).

ولد خواجه معين الدين الجشتي عام ٥٣٧ هـ وكان اسمه الحقيقي: الحسن، ولديه العديد من الألقاب مثل معين الدين، ومعين الحق، وخواجه الكبير، وشيخ الاسلام. توفي ابوه وله من العمر ١٥ عاماً، فكان يعيش على البستان والمطحنة اللذين استورثهما من ابيه.

سافر الى سمرقند وبخارى. فانبرى في بخارى لحفظ القرآن والعلوم الظاهرية. ثم سافر الى نيشابور فانخرط في خدمة خواجة عثمان الهاروني، وكان من مشايخ الطريقة الجشتية فأصبح من مريديه، ثم أصبح جديراً بالخرقة. ثم سافر الى بغداد فالتقى في الطريق بالشيخ. نجم الدين كبرى.

سافر بعد ذلك الى تبريز، وهمدان، واصفهان. وتعرّف في اصفهان على قطب الدين بختيار كاكي، فأصبح الأخير من مريديه، ورافقه في السفر الى هراة. فدخل خواجه معين الدين الهند عن طريق البنجاب، وأقام في مدينة لاهور الى جانب الشيخ علي بن عثمان الهجويري، ثم سافر الى دلهي، ومنها الى اجمير عام ٥٦١ هـ فاستسلم على يديه بعض اهلها في عهد قطب الدين ايبك.

تزوج مرتين وأنجب ثلاثة أولادهم: خواجه ابو سعيد، وفخر الدين، وحسام الدين. ويوجد قبر فخر الدين بالقرب من أجمير(٤٢). توفي خواجه معين الدين في رجب عام ٦٣٣ هـ وأهم خلفائه هو خواجه قطب الدين بختيار كاكي(٤٣). وشيد له مريده حميد الدين الناغوري قبراً، ثم أُضيف اليه فيما بعد مسجد وبعض الأبنية، منها بناء في عهد اكبر شاه الذي كان يكن له احتراماً كبيراً، ويوزع في كل عام الكثير من الهدايا على زوار قبره. وكان يذهب لزيارته مترجلاً.

الكتب التي تنسب اليه:

١ ـ أنيس الأرواح او كلمات خواجه عثمان، وقد جمع معين الدين في هذا الكتاب كلمات مرشده خواجه عثمان الهاروني؛ ٢ ـ كلمات معين الدين السجزي؛ ٣ ـ كنز الأسرار؛ ٤ ـ ديوان شعر.

نظام الدين اولياء

يتصل عبر ثلاثة اجيال بخواجه معين الدين الجشتي. فقد خلف الأخير، قطب الديـن بختيار كاكـي وكان من أبنـاء ماوراء النهر وتـعرّف الى مـعين الديـن في اصفهان والتحق به، وثم الشيخ فريد الدين مسعود كنج شكر، ثم خواجـه نـظام الدين اولياء.

كان ابوه قد هاجر من بخارى الى الهند، فولد نظام الدين في مدينة «بدايون» عام ٦٣٤ هـ وتعرّف في هذه المدينة على الشيخ فريد الدين في عهد الملك الهندي غياث الدين بلبن، ولبس الخرقة على يده. ثم توجه الى مناطق اخرى للارشـاد فيها بأمر من شيخه فريد الدين. والتقى بالشاعر والعارف الشهير أمـير خـسرو الدهلوي في مدينة غياث بور.

أمضى نظام الدين حياته أعزباً ولم يتزوج قط. وكان لديه ثلاثة تلاميذ بارزين هم: ١ ـ الشيخ محمود جراغ الدهلوي؛ ٢ ـ امير خسرو الدهلوي؛ ٣ ـ امير حسن السجزي الدهلوي(٤٤).

كان السماع يؤلف أحد الاصول المهمة في الطريقة الجشتية، وقد سعى كل شيخ من مشايخها في ترويجه. والمعروف ان الشيخ نظام الدين كان يأمر أمير خـسرو الدهلوي ان يغني أبياته الشعرية. كما كان امير حسن يغني هذه الأبيات في محضر الشيخ.

كانت تدور حروب عديدة بين سلاطين الهند في ايام خواجـة نـظام الديـن. فكانت علاقات الحكام والسلاطين بالصوفية تسوء في بعض الأحيان وتتحسن في

احيان اخرى. لكن علاقات الحكام كانت حسنة معه دائماً. وكان علاء الدين الخلجي يبعث اليه الهدايا أحياناً.

جُمعت كلمات الشيخ في كتاب يحمل عنوان «فوائد الفؤاد»، جمعها مريده خواجه حسن الدهلوي. وعمّر نظام الدين ٩١ عاماً، وتوفي في ١٨ ربيع الاول عام ٧٢٥ هـ وكان قد جعل خانقاهه لخدمة الفقراء والبؤساء طوال حياته. وكان ذلك الخانقاه قد اشتهر كثيراً بحيث أثار حسد سلطان دهلي قطب الدين شاه مبارك. وقد اقبل الناس من جميع مناطق الهند حين وفاته لتشييعه واجراء مراسم دفنه(٤٥).

علي بن عثمان الهجويري

اسمه ابو الحسن علي بن عثمان أبي علي الجلاّبي الهجويري. ويلقّب في الهند بلقب «داتاكنج بخش»، اي المعلم الواهب للكنز.

لا يعرف تاريخ ولادته على وجه الدقة. ويُحتمل انه كان معاصراً لأبي سعيد أبي الخير (٣٥٧ ـ ٤٤٠ هـ). وتُعد هجوير من النواحي التابعة لمدينة غزنة. وقد تربى تحت رعاية أبيه، لأن أباه كان من اهل المعرفة والعلم في غزنة. وكان الهجويري صوفياً كاملاً لا يبيع حرمة الخانقاه والمسجد بالحضور في البلاط. واستطاع ان يفعل ما عجز عن فعله السلطان محمود بت شكن ويتمثل في نشر الاسلام الحقيقي في الهند.

زار الهجويري العديد من المدن في الشام وتركستان وأذربايجان والعراق وغيرها(٤٦). وهاجر الى لاهور بأمر من استاذه، وتوفي في الأربعين من عمره، خلال الفترة ٤٥٠ ـ ٤٦٥ هـ ودُفن في لاهور، حيث أصبح قبره مزاراً للعاشقين.

آثاره كما ذكرها في «كشف المحجوب»:

١ ـ ديوان شعر لم يصل الى أيدينا؛ ٢ ـ منهاج الدين؛ ٣ ـ كتاب الفناء والبقاء؛ ٤ ـ كتاب في شرح كلام الحسين بن منصور الحلاج؛ ٥ ـ البيان لأهل العيان؛ ٦ ـ نحو القلوب؛ ٧ ـ أسرار الخلق؛ ٨ ـ كتاب الايمان؛ ٩ ـ الرعاية. وهناك كتابان لم يذكرا في «كشف المحجوب» هما: كشف الأسرار، وثواقب الأخبار(٤٧).

يبدو أنه بدأ تأليف «كشف المحجوب» في لاهور عام ٤٣٥ هـ وانتهى منه في ٤٤٢ هـ ويُعد هذا الكتاب، اقدم كتاب في التصوف الاسلامي باللغة الفارسية.

أمير خسرو الدهلوي

كان تلميذاً لشهاب الدين محمرة البدايوني. وأمضى خمسة اعوام في بلاط قاآن الملك، الابن الاكبر لبلبن، في مولتان.

كان مريداً لنظام الدين اولياء ويستطلع رأيه في كل كتاب يؤلفه. وكان ملماً باللغة الهندية، فضلاً عن التركية والفارسية والعربية. كما كان ماهراً في الموسيق الهندية والايرانية، ويتمتع بصوت حسن. وكان كاتباً مكثراً. ووصل الينا من شعره نحو ١٠٠ ألف بيت. وكان يقلد النظامي في المثنويات، وسعدي في الغزل، والخاقاني في القصائد. ويُعد أعظم ممثل للأدب الهندي ـ الايراني.

أهم آثاره:

أ ـ ديوانه الشعري، وفيه: ١ ـ تحفة الصفر؛ ٢ ـ وسط الحياة؛ ٣ ـ غرّة الكمال، ٤ ـ بقيّة نقيّة؛ ٥ ـ نهاية الكمال.

ب ـ مثنوياته الخمسة: ١ ـ مطلع الأنوار؛ ٢ ـ شيرين وخسرو؛ ٣ ـ المجنون وليلى؛ ٤ ـ آيينه سكندري، ٥ ـ هشت بهشت.

ج ـ ملاحم تاريخية: ١ ـ قران السعدين؛ ٢ ـ مفتاح الفتوح (فتح نامه)؛ ٣ ـ رسالة عشقية؛ ٤ ـ نه سبهر (سلطان نامه)؛ ٥ ـ تغلق نامه؛ ٦ ـ رسائل الاعجاز؛ ٧ ـ خزائن الفتوح؛ ٨ ـ أفضل الفوائد(٤٨).

الفن الهندي الاسلامي

١ ـ الفن المعماري

لاريب في أن الفن الهندي الاسلامي، يختلف عن الفن المحلي كالفن الهندوسي والفن البوذي، اختلافاً كبيراً، لكنه مع ذلك يرتبط به من عدة وجوه نظراً لوجود الكثير من المشتركات كالجغرافيا، والعرق وغيرهما. لذلك لا ينبغي على صعيد المباحث الفنية ان يُنظَر الى الامور من منظار واحد، ولا يمكن على هذا الأساس التحدث عن فن اسلامي خالص في الهند، او عن فن هندي خالص خلال تلك الفترة.

يعد العهد البابري او الغوركاني، من العهود التي بلغت فيه المعمارية الاسلامية ذروتها. ويُعد هذا الفن بالأساس شعبة من شعب الفن الاسلامي وظل وفياً خلال القرن الاول من العصر الاسلامي في الهند، للقوالب التي ورثها من ايران وآسيا الوسطى (تركستان)، ثم أُضيفت اليه بعض الاضافات القادمة من جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا(٤٩).

دخلت أنماط وأساليب الفن الاسلامي الى الهند في مراحل مختلفة. ابتدأ ذلك مع الفاتحين كالعرب في مطلع القرن السابع الميلادي، والغزنويين، والغوريين، فالمغول الهنود (الغوركانيين) في القرن السادس عشر الميلادي، ثم مع المهاجرين.

يمكن تقسيم الفنون الهندية الاسلامية الى ثلاثة فنون:

١ ـ فن دلهي؛ ٢ ـ فن الولايات الهندية الشمالية؛ ٣ ـ فن ولايات الدكن.

كان أباطرة المغول قد نشروا الفن التيموري والنمط الصفوي الايراني. وكانو مجبرين على استخدام معمارين ورسامين وبنّائين محليين. ويمكن ملاحظة اولى نماذج الفن المعماري بهذا الطراز، في بستان اكره دلهي، وفي مدرسة خير المنازل، ومقبرة همايون، ومسجد فتحبورسيكري(٥٠).

الغوركانيون كانوا على علم كامل أن الفن المعماري باستطاعته أن يسلط الضوء على الحكومات ويرفع من شأنها بين الشعوب والامم، لهذا فانهم كانوا بحاجة اليه كي يسلطوا به الضوء على انفسهم ويثبتوا وجودهم، سيما وأنهم اسرة جديدة تحكم بلداً مترامي الأطراف وشعباً ذا ثقافات متنوعة وأديان وعقائد متعددة.

كان السلطان الغوركاني بحاجة الى ان يعرّف نفسه على افضل وجه من خلال تشييد المباني الضخمة كي يرسخ وجوده في قلوب الناس، ويصبح هو نفسه معياراً أصلياً لتقييم القيمة المعمارية للمباني والعمارات(٥١).

على العكس من الرسامين الذين كانوا غالباً ما يكتبون أسماءهم تحت لوحاتهم ورسومهم، قلما نلاحظ أسماء المعماريين في الأبنية. وأوجد الفن المعماري الغوركاني أساليب ممتازة، من خلال دمج العديد من العناصر غير المتجانسة المستقاة من المعمارية الماوراء نهرية، والتيمورية، والهندية، والايرانية، والاوربية.

كانت التجديدات المعمارية تظهر اولاً في الأبنية التي يشيدها السلطان او المقربون منه. وهذه الحقيقة تكشف عن الدور المهم والحاسم الذي يضطلع به السلطان وحاشيته ـ كحماة للفن المعماري ـ في تطور هذا الفن. وبما أن معمارية كل حكومة وعهد وسلالة، ذات ملامح وخصوصيات تصويرية خاصة، لذلك يبدو منطقياً ان يقوم الملك او السلطان نفسه برسم تلك الملامح والخصوصيات. ومع ذلك فالانتقال من عهد الى عهد، كان يجري بصورة تدريجية وهدوء.

الملامح العامة للفن المعماري لمغول الهند، تُميِّز هذا الفن عن سائر انماط وطرازات المعمارية الاسلامية في شبه القارة الهندية خلال العصور السالفة، وتضفي عليه جاذبية عالمية.

لم تكن المعمارية الغوركانية جامدة وغير مرنة منذ البداية، وكانت ذات مرونة واضحة ازاء الظروف الاقليمية، والتقاليد المتبعة في البناء.

بما ان الغوركانيين كانوا الوارثين المباشرين للتيموريين والايرانيين، لذلك يمكن

مشاهدة العناصر الثابتة في فن هاتين السلالتين، خلال المرحلة الاولى من العصر الغوركاني. ويظهر بوضوح في الفن المعماري الغوركاني تشابه كبير مع الفن المعماري التيموري والصفوي لاسيما في النقوش والطيقان(٥٢).

شيدت في عهد بابر العديد من المساجد مثل مسجد باني بات، ومسجد آيوديا، والعديد من الحدائق، كحديقة زنابق الماء الصخرية في جنوب اكره التي ورد ذكرها في «بابرنامه»، والتي كانت تتميز باسلوب تيموري ايراني.

عهد همايون

امتزجت في هذا العصر عناصر المعمارية التيمورية بسرعة مع التقليد المحلي المتبع في نظام البناء، لاسيما مع الشكل الخارجي للأبنية والزخرفة المعمارية، كما هو الحال في بوراخ قلعة (القلعة القديمة) في دلهي.

عهد اكبر

تعد مقبرة همايون التي شيدها ابنه اكبر في دلهي، مثالاً بارزاً على المعمارية الغوركانية. وكان معمارها هو السيد محمد ووالده ميرك سيد غياث، خلال الفترة ٩٧٠ ـ ٩٧٨ هـ

من الآثار المعمارية في هذا العهد: المسجد الجامع في فتحبور سيكري، وخير المازل في دلهي الذي يُعد اول مساجد هذا العهد، وقلعة اكبر في اجمير، وجسر منعم خان في جانبور، وقلعة اكره، وقلعة الله آباد، وساحة النساء في قلعة الله آباد.

من الآثار المعمارية في عهد جهانكير: مقبرة والد جهانكير المعروف بـ «سكندرا» في ضواحي اكرة، ومقبرة اكبر في احدى الحدائق، وقصر لاهور الذي تم على يد عبد الكريم المعمار، وحدائق شاليمار في كشمير. وكان الوزير الايراني عبد الرحيم خاخان، من حماة المعمارية الايرانية، وقد عُرِف بأنه حوّل الهند الى ايران.

عهد شاه جهان

من الآثار المعمارية في هذا العهد، مقبرة جهانكير في لاهور، التي وضع تصميمها عبد الكريم المعمار. وفضلاً عن هذا المعمار، اشتهر معمارون آخرون في هذا العهد، مثل: مكرمت خان، والاستاذ احمد اللاهوري، والاستاذ حميد الذي شيد قلعة شاه جهان. وبنى دارا شكوه ابن شاه جهان في كشمير مكتباً معمارياً تحت اشراف معلمه المعنوي ملا شاه البدخشي. وكانت مقبرة جهانكير عبارة عن أربع حدائق مع مسجد.

تعد القلعة الحمراء في اكره، اول قصر يشيّد في عهد شاه جهان. وكان يتألف من ديوان عام، ومقر حكومي خاص، وبستان عنب، ومحل خاص، وجناح نسوي، وحمام، وبرج.

واشتهرت في هذا العصر العديد من البساتين تقليداً لبساتين وحدائق شاليمار في كشمير، مثل بستان فيض، وفرح بخش. وأشهر تلك البساتين، كان بستان جهان آرا المعروف بـ «زهرا باغ»، اي باسم بنت شاه جهان.

شيد شاه جهان الكثير من المساجد، مثل مسجد لاهور، ومسجد اكره، والمسجد الجامع في اكره الذي شيدته ابنته جهان آرا والذي كان على غرار المسجد الجامع في فتحبور سيكري المشاد في عهد اكبر، ومسجد اللؤلؤ في قلعة اكره، ومسجد مينا، ومسجد الجواهر.

تاج محل: يُعد هذا المبنى من أهم مباني عهد شاه جهان، بل وحتى العصر الغوركاني ايضاً. وهو عبارة عن ضريح أقامه الامبراطور شاه جهان لزوجته أرجمند بانو. ويعتبر أشهر ضريح وأثرٍ للغوركانيين في الهند. وكان الاسم الأصلي لهذا الضريح، ممتاز محل، لكن الناس غيروه الى تاج محل. ويقع وسط بستان واسع عند ضفاف أحد الانهار.

يوجد مدخل أمام ذلك البستان، وتوجد على جانبيه بعض الدور السكنية الخاصة بموظفي وعمال الضريح. وهناك سوق في الجهة الجنوبية منه كانت تدعى ممتاز آباد، وتسمى بـ تجانجي حالياً. وكانت تستخدم ايرادات الاسواق والمنازل وثلاثين قرية في ضواحي اكره لصيانة واعمار الضريح بأمر من الامبراطور. ويُعد ذلك البستان ومبانيه، نماذج أرضية لبساتين وحدائق الجنة. فيُعد هذا اللون الفكري المستخدم في الفن، تجسيداً للرؤية الاسلامية للعالم.

الضريح نفسه تعلوه قبة عالية وأربع منائر. وقد صُمِّم على اساس المثمن البغدادي. وتبدو القبة ذات شكل بصلي. ويضم ذلك الضريح رفاة شاه جهان وزوجته ممتاز محل، وهو من الرخام الأبيض الذي ينطق بالجمال(٥٣).

عمل في بناء هذا الضريح نحو ألفي عامل واستمر العمل به نحو ٢٢ عاماً. ويرى ويل ديورانت انه بناء لا يضاهيه سوى كنيسة سان بيترو في الفاتيكان. ويتألف من ١٢ ضلعاً، تمثل أربع أضلاع منها المدخل الذي تعلو كل ضلع من اضلاعه منارة. والمدخل الرئيس الذي كانت له أبواب فضية في يوم ما، مزدان في العصر الحاضر بالرخام. وتلاحظ على جدران المبنى من الداخل آيات قرآنية مخطوطة بخط جميل(٥٤).

اورنك زيب

لا تُعد أعماله العمرانية شيئاً بالقياس الى الاعمال العمرانية التي انجزها شاه جهان. وقد ركز اهتمامه على بناء الأبنية الدينية والعامة مثل بوابة عالم كيري في قلعة لاهور. وشيد كذلك ضريحاً لزوجته رابعة الدوراني في اورنك آباد، والذي يعد تقليداً مصغراً لتاج محل. ولم يكن موفقاً كثيراً في ذلك التقليد. وكان معمار هذا الضريح عطاء الله ابن معمار شاه جهان. واروع مبنى في عهد اورنك زيب، هو المسجد الملكي في لاهور. وشيد العديد من المساجد في ماتورا، وبنارس، ولكهنو. كما أمر بانشاء شبكة من المنازل في طريق اورنك اباد ـ اكره، وطريق لاهور ـ

كابل، فضلاً عن العديد من المنازل الاخرى الخاصة بـالقوافـل. ومجـموعة مـن الحمامات(٥٥).

٢ ـ الرسم

هذا اللون من الفن، هو الآخر ايضاً عبارة عن مزيج من الفنون كالفن الايراني والهندي والآسيوي الأوسط. وظهر أولاً ـ مثل معظم الفنون البابرية ـ في بـلاط الملوك، فكانت بلاطاتهم هي التي تشجع الرسامين وتدعمهم.

وليست لدينا معلومات عن الرسوم والآثار الفنية في بلاط بابر، ولكن تـفيد المصادر الأدبية والتاريخية انه لم يكن يشجع على الفنون الجميلة فحسب، وانما كان فناناً ايضاً. وكان يميل الى الطبيعة كثيراً ونُسبت اليه العديد من الرسوم، منها نموذج في المتحف الحكومي ببرلين، والذي يكشف عن تأثير الاسـتاذ بهـزاد ومـدرسة بخارى(٥٦).

الآثار التي وصلت الينا من عهد همايون، ذات صبغة ايرانية واضـحة، وذلك بسبب اقامته في ايران لعدة سنوات في أعقاب الاضطرابات الداخلية. فقد تعرف خلال تلك الفترة على العديد من الفنانين والرسامين الايرانيين، وحمل بعضهم الى الهند حين عودته اليها. وكان قد رأى في ايران آثار بهزاد وتلامذة مدرسته. ومن المحتمل جداً ان يكون قد تعرّف على رسوم العصر الصفوي لاسيما خمسة النظامي.

من الرسامين الذين رافقوا همايون الى الهند: مير سيد علي، وخـواجـه عـبد الصمد الشيرازي، وفرخ بيك قلماق. ويمكن أن يُـعدَّ هـؤلاء الرسـامون الثـلاثة، مؤسسين لمدرسة همايون في الرسم(٥٧).

في عهد همايون، تم اعداد قصة «امير حمزة» المصوَّرة على يد الرسامين الهنود وباشراف الرسامين الايرانيين، في ١٢ جزءاً، و١٤٠٠ صفحة. واستمرت عـملية تصوير هذا الكتاب حتى عهد جلال الدين اكبر. وحين مقارنة هذه القصة بخمسة

النظامي، يلاحظ وجود أوجه شبه كثيرة بين هذين المذهبين في الرسم.

كان مضمون الرسوم الغوركانية الاولى، رسم وتصوير ميادين الحرب وقتال الملوك مع أعدائهم، فضلاً عن رسم لقطات لصيد الملوك وما الى ذلك. غير ان هذه المضامين سرعان ما حلت محلها مضامين اخرى.

جلال الدين اكبر، شيّد مدينة جديدة باسم «فتحبور» كمحل لاقامته. وزين قصوره في هذه المدينة وغيرها برسوم جدارية بريشة الرسامين الايرانيين والهنود. وقد اسس هذا الامبراطور مذهب الرسم الهندي ـ الاسلامي في الهند من خلال تأسيس مدرسة حكومية يعمل فيها نحو ١٠٠ رسام باشراف الرسامين الايرانيين.

كان هؤلاء الفنانون يصوّرون الآثار النثرية والشعرية الفارسية وكذلك مخطوطاتهم. وكانت تُستخدم في عملية تعليم الرسم، المخطوطات التي صورها بعض أساتذة الرسم والمنمنمات مثل بهزاد ميرك، وسلطان محمد(٥٨).

يمثل عهد اكبر، ذروة ازدهار الفن والرسم في العصر الغوركاني. فكانت الرسوم خلال عهده، ذات تصاميم وألوان جديدة. وكان يتم فيها التركيز على الوجه. وكانت تُرسم عادة وجوه الامراء ورجال البلاط، وحتى وجوه النساء بشكل تدريجي.

خلال هذا العهد صورت الكثير من القصص الشعرية الفارسية مثل امير حمزة، وجنكيز نامه، وظفر نامه، ورزم نامه وغيرها، وكذلك المثنوي الغرامي الهندي «نل ودمن».

في نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، طرأ تغيير كبير على الفن البابري بفعل تأثير الرسوم الهندية القديمة التي كان يستخدمها فنانو كشمير، وغجرات، والبنجاب. كما صوِّرت كتب اخرى تتحدث عن حياة تيمور، وبابر، واكبر.

من أشهر رسامي عهد اكبر: باسوان (Baswan)، ولعل، وداس وانت

(Das Want). وكان باسوان تلميذاً لعبد الصمد الرسام، لكنه كان يتميز باسلوب خاص(٥٩).

استمر هذا النمط من الرسم في عهد جهانكير، وتحقق لأساتذة الرسم في الهند من البراعة ما حدا بالامبراطور جهانكير ان يبعث رسامه الهندي «بشن داس» الى البلاط الصفوي ليرسم صورة الشاه عباس الصفوي، وهو الرسم الذي لازال موجوداً. ازداد الاقبال في هذه المرحلة على رسم الطبيعة والحيوانات. وظهر اهتمام برسم وجوه الأشخاص. فظهر في هذا الفن اساتذة بارعون مثل: محمد نادر، وأبو الحسن، وغواردهان.

من الاغراض الاخرى التي تناولها الرسامون آنذاك، رسم المتريضين والرهبان الهنود وهم في حالة تباحث مع الامراء البابريين(٦٠). وكان هناك رسامان ايرانيان هما آقا رضا، وولده ابو الحسن، اشتهرا في أعمالهما الرائعة خلال عهد جهانكير، لاسيما في رسم الأشخاص.

يُعد عهد شاه جهان، عهداً بلغ فيه هذا اللون من الفن ذروته. وقد ازدهر فن استخدام الألوان والتصاميم والتظليل على اساس أصل المناظر كثيراً بحيث لم نشاهد مثل هذه الأعمال الفنية في العهود الاخرى. وتجلى رسم الحياة الارستقراطية داخل البلاط، وتصوير المجالس الرسمية، على أفضل وجه، كتلك اللوحة التي يظهر فيها شاه جهان على عرش الطاووس او تلك اللوحة الاخرى التي يظهر فيها ممتطياً جواده وقد أُحيط بالعظمة السلطانية. وتوجد هاتان اللوحتان في متحف متروبوليتن بنيويورك. ومن أشهر رسامي هذا العهد: ابو الحسن، ومير هاشم، ومحمد فاخر الله خان، وأنوب جهانز، ومحمد نادر السمرقندي(٦١).

المناظر الطبيعية والغابات، كانت من بين الاغراض الاساسية التي تناولها رسامو هذا العهد. وكانت تظهر معظم الوجوه جانبية، والأجسام طبيعية في لوحات الفنانين، على العكس من الرسوم الايرانية في نفس تلك الفترة التي كانت

تظهر فيها الوجوه كاملة، والأجسام أصغر من حجمها الطبيعي.

كان دارا شكوه، على غرار ابيه شاه جهان، فناناً ومحباً للفن ومشجعاً له. اما اورنك زيب فلم تكن لديه رغبة في الفن ولا احتضان للفنانين والرسامين(٦٢).

لم نشاهد في عهد اورنك زيب ولربما بسبب عقائده الدينية، حالة الابداع والحيوية الفنية التي كانت واضحة في العهود السابقة. والرسوم التي وصلت من ذلك العهد، كانت استمراراً للأساليب السابقة. ومع ذلك لابد من الاشارة الى الامر التالي وهو أن الخط كان يمثل اهم فنون هذا العهد لأن اورنك زيب نفسه كان خطاطاً، وقد خطّ المصحف الكريم(٦٣).

على ضوء الآثار المتبقية من العصر الغوركاني، يمكن القول ان فن الرسم لم يكن تقليداً للأساليب الايرانية والآسيوية الوسطى فحسب، وانما استوحى الرسامون من الأساليب والأنماط القديمة عناصر فنية كثيرة وأدخلوها على هذا الفن. ومع ذلك لم يكن باستطاعة العناصر الهندية ان تدخل بمستوى واسع وذلك بسبب القوة المهيمنة للمسلمين سواء كانوا اتراك او ايرانيين، ولأن الملوك ورجال البلاط كانوا هم الذين يوجهون هذا الفن في حقيقة الأمر. وكان الملك او البلاط هو الحَكَم النهائي والمرجع الأخير في تقييم الآثار الفنية. وكان الرسامون يركزون اهتمامهم على الكرة الأرضية ومواضيعها اكثر من اهتمامهم بالدين والمواضيع الاخرى.

كانت مواضيع الرسم وأغراضه تتغير بتغير عهود العصر الغوركاني، لكن ذلك التغيير لم يكن ليخرج عن الواقعية قط. وكانت الموضوعات الفردية والتاريخية، على لائحة الأولويات(٦٤).

٣ ـ الخط

أولى السلاطين الغوركانيون اهتماماً نحو فن الخط انطلاقاً من معتقداتهم الدينية. وكان ظهير الدين بابر ـ مؤسس هذه السلالة ـ من الخطاطين ايضاً، وقد خطّ

المصحف الكريم بخط جميل وأهداه الى الكعبة. وكان همايون قد حمل معه من ايران الى الهند ثلاثة من أشهر الخطاطين الايرانيين وهم: خواجة أحمد المؤتمني القزويني، وشمس الدين الكاشي، ومير قاسم، فكانوا من أساتذة خط النسخ.

كان أبو الفضل علامي ـ وزير السلطان اكبر ـ ذا خط جميل. كما كان الشاعر فيضي، والشاعر عرفي، وأمير الامراء عبد الرحيم خان خانان، خطاطين أيضاً.

في أعقاب مقتل مير عماد الحسيني في ايران، هاجر ثلاثة من تلامذته وهم آقا عبد الرشيد، وسيد علي التبريزي، وخواجة عبد الباقي، الى الهند والتحقوا ببلاط شاه جهان. وقد استقبلهم هذا الامبراطور البابري ولقّبهم بألقاب مثل جواهر القلم، والياقوت. وبلغ هذا الفن ذروته في عهد الامبراطور اورنك زيب الذي كانت له يد في هذا الفن أيضاً(٦٥).

٤ ـ حياكة السجاد

حياكة السجاد، فن ايراني كالرسم. وذكر المؤرخ ابو الفضل علامي ان الامبراطور الهندي اكبر، كان يمتلك ارقى انواع السجاد، لأنه كان يستخدم حرفيين ماهرين ومن اصحاب التجربة في هذا المجال، وقد استطاعوا صناعة الكثير من النماذج الرائعة. وكان يؤتى بحائكي السجاد من شتى المدن الايرانية مثل اصفهان، وكرمان، وسبزوار، ويُستخدمون في اهم مراكز حياكة السجاد في اكره، وفتحبور، ولاهور.

ويمكن ان يُفهم من صور السجاد في الرسوم والمنمنمات ان السجاد الهندي كان واقعاً تحت تأثير السجاد الايراني. وكان حائكو السجاد الهنود يعملون تحت اشراف الايرانيين، ويقلدون النماذج الايرانية. ويمكن مشاهدة الكثير من هذه النماذج في شتى المتاحف، لاسيما في متحف المهراجا جايبور، الذي يضم سجادة تدعى بالاصفهانية الهندية، ذات لون بني يميل الى الاحمر والبرتقالي.

اخذ الهنود ينصرفون عن نقوش الأزهار والنباتات في سجادهم الى نقوش الأشخاص. ويكشف هذا اللون من السجاد عن حرية اكبر لدى الهنود مما هو لدى الايرانيين. وتكشف نماذج السجاد في متاحف واشنطن، وبوستون، ومتروبوليتن عن اسلوب خاص في الحياكة والنقش تميز بها عهد شاه جهان.

تلك النماذج، مقتبسة من نماذج السجاد الهراتي، لكن نقوش الأزهار منتزعة من الاسلوب الهندي مع ظهور بعض التغييرات. وحاشيتها هندية تماماً، ونقوشها عبارة عن ازهار ونباتات، وأرضيتها خضراء وزرقاء. وقد استُخدم في حياكتها الصوف الناعم الممتاز الشبيه بالحرير.

بلغ هذا الفن ذروته في عهد شاه جهان، وقد تفوق فنانو السجاد الهنود على أساتذتهم الايرانيين. وهذا ما تؤيده نماذج سجاد تلك الفترة التي امتازت بتلاوينها ونقوشها البديعة(٦٦).

٥ ـ النسيج

ترجع هذه الصناعة في الهند الى عصور قديمة جداً. ومن الأقمشة المشهورة الى اليوم في الهند: الشيت، والأقمشة القطنية الرقيقة، والأقمشة الكتانية.

كانت الاقمشة البابرية تخضع لاشراف البلاط، ويلاحظ عليها مزيج من الأساليب الايرانية والهندية. وكان الهنود قد اقتبسوا بعض اساليب النسج الايراني، ولكنّ بعضهم قد تفوق في ذلك حتى على أساتذته الايرانيين، كما هو حال السجاد.

الأقمشة المخملية التي يعود معظمها الى عهد شاه جهان (١٠٣٧ ـ ١٠٦٩ هـ)، نادرة جداً، وهي مزدانة بنقوش الأزهار والنباتات، وشبيهة برسوم تلك الفترة.

تطور خلال هذا العصر، النسيج الحريري المذهَّب بشكل كبير في الهند، واشتهرت في هذا المضمار مراكز كثيرة اشهرها لاهور، واورنك آباد في الدكن، وتشندري في غواليو، وبنارس، وأحمد آباد. وكان هذا اللون من النسيج تخاط منه

ملابس رجالية ونسائية، ويتميز بكثرة الألوان.

الأحزمة الهندية الجميلة، تُعد من أثمن منسوجات العالم، وكانت تُصدَّر الى سائر مناطق العالم. والنماذج البارزة لها، تلك المحفوظة في متحف متروبوليتن بنيويورك.

التطريز والحياكة اليدوية، من الفنون التي كانت معروفة في الهند آنذاك، وكانت تتم على الأقمشة القطنية، وعلى العمائم، والألبسة، والشالات والوسائد. ويُعد الشال الكشميري، أشهر المنسوجات الهندية منذ القرن ١٢ م، وقد اقتُبست بعض انواعه من الاسلوب الايراني الذي يتميز بالتطريز والنقوش الزهرية وذات الشكل المخروطي.

كان يسود في الهند اسلوبان لتزيين الأقمشة منذ القدم: الاول ختم القماش بقطع خشبية حُفرت عليها بعض النقوش، والثاني بواسطة الصباغة التي بلغت اوج تطورها خلال هذا العصر، والتي امتزجت بالرسم أيضاً. وكان هذا اللون من القماش الذي يدعى «بولامبور» (Polampor) ـ يزدان بأشكال وصور الانسان والأشجار عادة(٦٧).

هوامش الفصل الثاني:

١ ـ الشيخ ابو الفضل مبارك، اكبر نامه، باشراف غلام رضا الطباطبائي، طهران، مؤسسة الدراسات الثقافية، ١٩٩٣، ص ١٣٨.

٢ ـ بايزيد بيات، تذكرة همايون وأكبر، تصحيح محمد هدايت حسن، طهران، دار أساطير للنشر، ص ٣.

٣ ـ الشيخ ابو الفضل مبارك، سابق، ص ٢٠٥.

٤ ـ نفس المصدر، ص ١٩٥.

٥ ـ س، ف، دولافوز، تاريخ الهند، ترجمة محمد تقي فخر داعي الجيلاني، لجنة المعارف، ١٩٣٧، ص ١٦١.

٦ ـ نفس المصدر، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٥.

٧ ـ رياض الاسلام، تاريخ العلاقات بين ايران والهند، ترجمة محمد باقر آرام وعباس قلي غفاري فرد، طهران، امير كبير، ١٩٨٨، ص ٢٧١.

٨ ـ نفس المصدر، ص ٢٧٢.

٩ ـ عبد الرضا هوشنغ مهدوي، تاريخ العلاقات الخارجية الايرانية، طهران، امير كبير، ج ٦، ١٩٩٨، ص ٩٨.

١٠ ـ رياض الاسلام، سابق، ص ٢٧٣.

١١ ـ نفس المصدر، ص ٢٧٥.

١٢ ـ نفس المصدر، ص ٣٣٩.

١٣ ـ احمد مير فندرسكي، ظهور وسقوط امبراطورية الاستعمار البرتغالي في الهند،

طهران، ١٩٦٢، ص ٣١.

١٤ ـ برايان غاردنر، شركة الهند الشرقية، ترجمة كامل حلمي ومنوجهر هدايتي، طهران، ٢٠٠٤م، ص ٣١.

١٥ ـ احمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية والباكستانية وحضارتهم، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠، ص ٣٦٥.

١٦ ـ برايان غاردنر، سابق، ص ٥٨.

١٧ ـ احمد محمود الساداتي، سابق، ص ٣٦٦.

١٨ ـ س. ف. دولافوز، سابق، ص ١٥٨.

١٩ ـ برايان غاردنر، سابق، ص ٩٥.

٢٠ ـ ش. ف. دولافوز، سابق، ص ١٩٣.

٢١ ـ احمد محمود الساداتي، سابق، ص ٤٣٣.

22 - Encyclopaedia of Islam' vo1.5.s.v. (Mughals)' (by Athar Ali)' Leiden' E.J. Brill' p.320.

23 - Raj Kumar' (Survery of Medieval India)' New Dehli' 1999' vo1.11' p.151.

24 - Athar Ali' op. cit.' p.320.

25 - Ibid' p.321.

26 - Raj Kumar' op. cit. p.154.

٢٧ ـ آن ماري شيمل، الأدب الاسلامي الهندي، ترجمة يعقوب آجند، طهران، امير كبير، ١٩٩٤، ص ٣٧ ـ ٣٨.

٢٨ ـ محمد فتوحي، نقد الخيال، نقد أدبي للمذهب الهندي، ١٩٩٢م، ص ١٤٤.

٢٩ ـ فيضي الدكني، ديوان فيضي، تصحيح اي دي ارشد، مقدمة حسين آهي، طهران، فروغي، ١٩٨٣.

٣٠ ـ موسوعة الأدب الفارسي، تحت اشراف حسن انوشة، طهران، منظمة الطبع والنشر في وزارة الارشاد الاسلامي، ١٩٩٦م، ج ٤، الفصل ٣، ذيل «فيضي الدكني»، (حميد حجتي).

٣١ ـ هـ. توفيق سبحاني، نظرة الى الادب الفارسي في الهند، طهران، ١٩٩٨م، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

٣٢ ـ موسوعة الأدب الفارسي، ج ٤، الفصل ٢، ذيل «طالب الآملي»، (جواد شريفي).

٣٣ ـ موسوعة الادب الفارسي، ج ٤، الفصل ٣، ذيل «صائب التبريزي»، (حميدة حجتي).

٣٤ ـ محمد رضا شفيعي الكدكني، شاعر في هجوم المنتقدين، طهران، ١٩٩٦م، ص ٦٩ ـ ٨٠.

٣٥ ـ موسوعة الأدب الفارسي، ج ٤، الفصل ٣، ذيل «حزين اللاهيجي»، (حميدة حجتي).

٣٦ ـ نفس المصدر، ذيل «بيدل الدهلوي»، (حميدة حجتي).

٣٧ ـ غلام سرور، «الشعراء من أصل ايراني في شبه قارة الهند»، مجلة الهلال، ج ١٠، العدد ٤، ص ١٨ ـ ١٩.

٣٨ ـ موسوعة الادب الفارسي، ج ٤، الفصل ٢، «شيداي فتحبوري»، «حسين برزكر».

٣٩ ـ اطهر عباس الرضوي، تاريخ التصوف في الهند والباكستان، طهران، ١٩٨٦، ص ٦٠ ـ ٦١.

٤٠ ـ غلام علي آريا، الطريقة الجشتية في الهند وباكستان، طهران، ١٩٨٦، ص ٦٠ ـ ٦١.

٤١ ـ غلام علي آريا، سابق، ص ٦٩ ـ ٧٤.

٤٢ ـ عباس الرضوي، سابق، ص ١٤١ ـ ١٥٢.

٤٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١١، ٢٠٠٢م، «بختيار كاكي»، (غلام علي

آريا).

٤٤ ـ عباس الرضوي، سابق، ص ١٩٠ ـ ١٩٩.

٤٥ ـ غلام علي آريا، سابق، ص ٥٥.

٤٦ ـ عبد الحسين زرين كوب، بحث في تصوف ايران، طهران، امير كبير، ج ٣، ١٩٨٨ م، ص ٧١.

٤٧ ـ علي بن عثمان الهجويري، كشف المحجوب، تصحيح جوكوفسكي، طهران، مكتبة طهوري، ج ٢، ١٩٩٢، ص ١٨ ـ ١٩.

٤٨ ـ موسوعة الأدب الفارسي، ج ٤، الفصل ١، ذيل «امير خسرو الدهلوي»، (حسين برزكر).

٤٩ ـ مالدين هالايد وهرمان غوتس، الفن الهندي الايراني، والهندي الاسلامي، ترجمة يعقوب آجند، طهران، ١٩٩٧ م، ص ٤٨.

٥٠ ـ مالدين هالايد، سابق، ص ٦١.

٥١ ـ اباكخ، معمارية الهند، ترجمة حسين سلطان زاده، طهران، مكتب البحوث الثقافية، ١٩٩٤ م، ص ١٣ ـ ١٤.

٥٢ ـ نفس المصدر، ص ١٤.

٥٣ ـ نفس المصدر، ص ٩٨.

٥٤ ـ ويل ديورانت، الشرق (مهد الحضارة)، ترجمة احمد آرام، ج ٣، ١٩٩١ م، ج ١، ص ٦٨٥.

٥٥ ـ اباكخ، مصدر سابق، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

٥٦ ـ م. س. ديماند، مرشد الصنائع الاسلامية، ترجمة عبد الله فريار، طهران، ١٩٥٧، ص ٦٩.

٥٧ ـ كريستين برايس، تاريخ الفن الاسلامي، ترجمة مسعود رجب نيا، طهران، ١٩٦٨ م، ص ١٧٣ ـ ١٧٥.

٥٨ ـ م. س. ديماند، سابق، ص ٧١.

٥٩ ـ نفس المصدر، ص ٧٢.

٦٠ ـ نفس المصدر، ص ٧٣.

٦١ ـ تاراتشند، تأثير الاسلام على ثقافة الهند، ترجمة علي بيرنيا وعز الدين عثماني، طهران، ١٩٩٥، ص ٣٣١.

٦٢ ـ م. س. ديماند، سابق، ص ٧٥.

٦٣ ـ علي اصغر حكمت، بلاد الهند، طهران، جامعة طهران، ١٩٥٨، ص ١٢٦.

٦٤ ـ سوامي آناندا كومارا، مقدمة على فن الهند، ترجمة امير حسين ذكرغو، طهران، ٢٠٠٤ م، ص ١٨٣.

٦٥ ـ علي أصغر حكمة، سابق، ص ١٢٦ ـ ١٢٨.

٦٦ ـ م. س. ديماند، سابق، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.

٦٧ ـ نفس المصدر، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.

الفصل الثالث

الصفويون

أسس الصفويون في عام ٩٠٧ هـ دولة يمكن اعتبارها درّة عقد الحكـومات الايرانية بعد الاسلام. فهذه الدولة التي دامت ما يزيد عن قرنين من الزمن، تختلف عن الدول والحكومات التي سبقتها، والى حـد مـا عـن التي تـلتها. وكـان مـن الضروري مرور قرنين من الزمن كي يصبح بمقدور طريقة التصوف ان تقدم لأول مرة في تاريخ ايران مشروعاً محكماً بوحي من التعاليم الشيعية ليكون منطلقاً لآثار ونتائج طويلة الأمد في تاريخ ايران خلال العصر الاسلامي. فـالصفويون احـيوا الهوية الايرانية من جديد بعد ثمانية قرون من حكم العناصر الأجنبية في ايـران، وعملوا على ايجاد بلد مستقل لازالت حدوده الجغرافية والسياسية قائمة الى يومنا هذا، ومعبّرة عن امة ذات هوية ايرانية ـ اسلامية.

كان من ابرز خصوصيات الدولة الصفوية: الاعتراف رسمياً بالمذهب الشيعي واتخاذه مذهباً للدولة، والتطور في الحقول الزراعية والصناعية والتجارية، وازدهار الفن والهندسة المعمارية، وتأسيس جيش منظم، وتبني سياسة خـارجـية قـوية. ولهذه الاسباب وغيرها، استقطب هذا الجزء مـن تـاريخ ايـران اهـتمام البـاحثين

والمحـققين اكثر من أية مرحلة اخرى، لاسـيما المسـتشرقين والمـهتمين بـالشؤون الايرانية.

ما سنتطرق اليه لاحقاً، عبارة عن نظرة عامة وسريعة عـلى شـتى الشـؤون السياسية والاجتماعية والثقافية والفنية في العصر الصفوي، عسى ان نسلط شـيئاً من الضوء على العظمة القديمة لايران الاسلامية.

الوضع السياسي للدولة الصفوية قابل للاهتمام والمتابعة من زوايا عديدة، أهمها:

أ ـ ظهور الدولة الصفوية وانقراضها

هناك إختلاف في وجهات النظر بين الباحثين والمحـققين بشأن اصـل الاسرة الصفوية، وهل هي عربية ام تركية ام كردية ام ايرانية. فبعض كتب النسب مثل صفوة الصفاة(١)، وسلسلة النسب(٢)ترى ان هذه الأسرة تـرجـع في نسـبها الى الامام موسى الكاظم (ع)، وبالتالي الى الامام علي (ع)، امـام المـذهب الشـيعي الأول.

اول فرد في هذه الأسرة تتوفر حوله بعض المعلومات القليلة هو فيروزشاه بن زرين كلاه الذي كان يعيش في ناحية أردبيل خلال القرن الخامس الهجري(٣). وتزداد المعلومات لاسيما خلال الفـترة الكـائنة بـين ولادة الشـيخ صـفي الديـن الأردبيلي (٦٥٠ هـ) وزمان تأسيس الدولة الصفوية، ويمكن رصـد الكـثير مـن الأعمال والنشاطات التي جرت خلال هذه الفترة والتي تكللت بـتأسيس الدولة الصفوية(٤).

كان الشيخ صفي الدين قد نزع نحو الزهد والعرفان، لذلك انطلق نحو شـيراز للاسترشاد بالشيخ غيب الدين بزغوش، لكن الشيخ تـوفي قـبل وصـول صـفي الدين(٥). فأخذ يحضر عند الشيخ زاهد الجيلاني فأصبح مقرباً لديـه، ثم تـولى رئاسة الطريقة الزاهدية بعد وفاته(٦). وانطلاقاً من هذا المقام المعنوي المهم وهذه

القاعدة المؤثرة، انبرى الصفويون للتبليغ والارشاد خلال قرنين من الزمن لاسيما بين تركمان غرب ايران والأناضول الشرقية، والذين أصبحوا فيما بعد القوة الفدائية للدولة الصفوية. فكانت هذه الدولة أشبه بالخيمة التي استندت الى عمود القوى التركمانية القوية التي ا نخرطت في صفوف الطريقة الصوفية الصفوية.

حينما أصبح الشيخ صفي الدين رئيساً للطريقة الزاهدية، تغير اسمها الى الطريقة الصفوية، وبدأ عهد جديد في الدعوة النشطة لهذه الطريقة، ثم تحولت بمرور الزمن من طريقة صوفية ذات اهمية محلية الى حركة ذات تأثير في ايران، وسوريا، وآسيا الصغرى(٧).

في عام ٧٣٥ هـ حل الشيخ صدر الدين موسى محل أبيه الذي شيد ضريحاً لقبره(٨)، وحوّله الى مركز ومقر لأتباع الطريقة الصفوية. وأخذ يزداد عدد الشيوخ الصفويين بتأثير التبليغ المعنوي. واستمرت النشاطات التبليغية والارشادية حتى نزل شيوخ خانقاه أردبيل الى الميدان السياسي تدريجياً، سيا بعد فراغ الساحة السياسية في أعقاب انهيار الامبراطورية الايلخانية، وضعف الحكومات المحلية وتشرذمها.

كان التصوف أحد مقومات الدولة الصفوية. وأخذت تتضح الماهية الشيعية للتعاليم شبه الخفية للطريقة الصفوية منذ عام ٧٩٣ هـ وهو العام الذي تولى فيه خواجه علي الرئاسة المعنوية للطريقة الصوفية(٩). وبذلك يستخدم الصفويون قوة معنوية جديدة لتأسيس دولتهم تتمثل في المذهب الشيعي الاثني عشري الذي يشترك مع التصوف في الانتساب الى الامام علي (ع).

في عام ٨٣٠ هـ بلغ ابراهيم مقام المرشد الكامل، حيث استمرت في عهده النشاطات الارشادية بين الصوفية الصفوية. ثم اختير الشيخ جنيد لرئاسة هذه الطريقة في عام ٨٥١، فكان لديه ميل واضح نحو السلطة الدنيوية، ولذلك كان اول زعيم صفوي يتلقب بالسلطان. وأخذ ينطلق لتحريك أتباعه ومريديه وتحريضهم على الجهاد ضد الكافرين، فأدخل روح القتال والجهاد الى طريقة التصوف(١٠).

لم يكن الدخول الى الميدان السياسي قابلاً للتحقق آنذاك من دون مناهضة او مسايرة الحكومات والدول القائمة. وانطلاقاً من ذلك كانت دولة القره قوينلو ترى في الصفويين تهديداً لهم فقررت التصدي لهم، بينما سعت دولة الآق قوينلو استخدام القوة الصفوية لضرب عدوتها دولة القره قوينلو وبهذه الطريقة دخل الصفويون الى ميدان التكتلات السياسية.

في عام ٨٦٠ هـ حل حيدر محل جنيد الذي قُتل في الحرب ضد الشروانشاهيين، فقُتل هو أيضاً في الحرب ضدهم عام ٨٩٣ هـ(١١)، فحلّ محله علي الذي لقّب نفسه بلقب الامبراطور(١٢). فأثارت هذه الأعمال الصفوية قلق حلفائهم في دولة آق قوينلو، فاتخذت هذه الدولة سياسة ملاحقة الصفويين وتصفيتهم، فقتلت زعيمهم علياً. فخلّفه اسماعيل الذي كان عمره سبع سنوات. وأصرت دولة آق قوينلو على قتله أيضاً، فحمله انصاره من أردبيل الى لاهيجان وأخفوا أمره(١٣).

تأسيس الدولة الصفوية

ظل اسماعيل مختفياً في منطقة لاهيجان على مدى خمس سنوات، لكنه كان على اتصال بمريديه. وقد وفّر الضعف الذي اخذ يدب الى دولة قره قوينلو بسبب الحروب بين امرائها، الفرصة لاسماعيل، فعاد الى أردبيل عام ٩٠٥ هـ وأخذ يدعو مريديه الى نفسه، وخرج بهم لقتال الشروانشاهيين فثأر منهم لجنيد وحيدر، ثم زحف نحو دولة قره قوينلو فقضى عليها ودخل الى تبريز فتتوج عام ٩٠٧ هـ(١٤)، وقد بلغ من العمر ١٣ عاماً وكان لابد من توجيهه وارشاده من قبل أصحاب الخبرة والتجربة.

في نفس ذلك اليوم، أعلن الشاه اسماعيل المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة الصفوية، وشمر عن ساعد الجد لنشر هذا المذهب وتقويته(١٥). واختيرت تبريز عاصمة للدولة الصفوية والتي كانت تتميز بمواصفات وخصوصيات العاصمة من

بين جميع المدن الكائنة في غرب وشمال غربي ايران. وانصرف الشاه اسماعيل لتصفية حسابة مع جميع أدعياء الملك والسلطة، وقضى عليهم واحداً تلو الآخر(١٦). ثم أخذ يشتبك منذ عام ٩١٨ هـ في معارك مع الاوزبك الذين كانوا يغيرون باستمرار على حدود ايران الشرقية والشمالية الشرقية. وقد ألحق هزيمة قاسية بهم في معركة مرو، لكنه انهزم أمامهم في معركة غجدوان حيث بعث قواته لدعم ظهير الدين بابر التيموري(١٧). وكانت لهذه الهزيمة جذور في اعمال واصلاحات الشاه اسماعيل. والحقيقة هي ان الدولة الصفوية قد قامت اعتماداً على العناصر التركمانية وقتالها واستبسالها. ومن الطبيعي ان يطالب هؤلاء بنصيب اكبر في الدولة والمناصب. وهذا أمر لم يكن خافياً على الشاه اسماعيل، لكنه كان قلقاً من احتمال ان يؤدي اعطاء مثل هذه الامتيازات لتلك العناصر التي راح يطلق عليها اسم الـ «قزلباش»، الى تحجيم سلطانه وصلاحياته. ثم ان القزلباش وان كانت عناصر قتالية ممتازة، لكنها لم تكن تصلح للشؤون الادارية. وكان الايرانيون يرون انهم أولى بتلك المناصب الحكومية والسياسية لما لديهم من تجربة وخبرة في هذا المجال. لذلك رأى الشاه اسماعيل ان زج القزلباش في معارك مع التاجيك سيعمل على اضعاف القزلباش ويحد من قوتهم المتزايدة من جهة، ويسمح بادارة شؤون البلاد بشكل أفضل من جهة اخرى. وقد أدى هذا الاتجاه الى ظهور نزاع مستمر في الدولة الصفوية بين أصحاب القلم وأصحاب السيف(١٨).

لهذا السبب بالذات، رأى القزلباش ان القتال تحت امرة الأمير نجم الثاني يحطّ من شأنهم، فكانت الهزيمة في معركة غجدوان افرازاً لذلك. وكان هذا فصلاً جديداً وبداية لتكتلات القزلباش في عهد اسماعيل الصفوي والتي انتهت الى وفاة يار أحمد الاصفهاني.

وكان من الصعب على العثمانيين ظهور دولة شيعية منافسة تسيطر على جزء كبير من العالم الاسلامي. لذلك أدت التعارضات العقائدية والأعمال الاستفزازية لأنصار الصفوية في الأناضول، وتدخل الصفويين في شؤون العثمانيين السياسية،

وغيرها، الى وقوع معركة جالدران بين العثمانيين والصفويين عام ٩٢٠ هـ فانهزم الصفويون هزيمة مُرّة فيها، اذ فضلاً عن الخسائر الفادحة في الأرواح والأموال، وقعت عاصمة الصفويين تبريز تحت الاحتلال العثماني. وقد مال الشاه اسماعيل بعد تلك المعركة الى العزلة ولم يقم خلال المدة المتبقية من عمره وعهده بأية أعمال خاصة.

مرحلة التثبيت

توفي الشاه اسماعيل الاول في عام ٩٣٠ هـ فخلفه ابنه طهماسب، الذي لم يكن عمره يزيد عن ١٢ عاماً(١٩). وينبغي ان يُعد العهد الطويل للشاه طهماسب (٩٣٠ ـ ٩٨٤ هـ)، عهد تثبيت الدولة الصفوية لأنه كان مهيمناً بشكل جيد على الأوضاع الداخلية والسياسة الخارجية للبلاد.

في بادئ الامر، وجد امراء القزلباش ورؤساؤهم ـ الذين نسوا الى حد ما النظام المتداول في سلسلة مراتب المريد والمراد ـ الفرصة مناسبة لاستغلال طهماسب الصبي للحصول على مزيد من الامتيازات واستعادة مواقعهم التي زعزعها التاجيك. ولذلك لم يعترفوا بـ«ديو سلطان» الذي أوصى به الشاه اسماعيل ان يكون وصياً على طهماسب وأمير أمرائه(٢٠).

انصرفت فترة مهمة من عهد الشاه طهماسب الأول، لاطفاء فتن القزلباش الذين كانوا يطالبون بمناصب حكومية مهمة. فكانت لتلك الحروب الداخلية تأثيرات ضارة جداً على الدولة الصفوية الفتية ووفرت فرصة جيدة لأعدائها، لاسيما الاوزبك الذين هاجموا خراسان(٢١)، فاضطر «ديو سلطان» لمجابهتهم.

استطاع الشاه طهماسب ان ينجح فيما بعد، في فرض سيطرته على القزلباش الذين زعزعوا بتكتلاتهم وأطماعهم أركان الدولة الصفوية، ويطبّق انضباطاً خاصاً على امراء القزلباش ورجال الدولة. لكنّ هذا الانضباط أخذ ينفلت في السنوات

الأخيرة من عهد الشاه طهماسب، فأخذ القزلباش يتدخلون في كافة الامور. وحصل اختلاف فيما بينهم أيضاً في مَنْ يخلف طهماسب، فانحاز البعض الى حيدر ميرزا، والبعض الآخر الى اسماعيل ميرزا(٢٢). فكانت النتيجة لصالح اسماعيل ميرزا.

كان الشاه طهماسب قد هزم الاوزبك في معركة جام عام ٩٣٥ هـ(٢٣)، واستطاع من خلال استخدام اسلوب الحرب الدفاعية وقوات المدفعية ان يحافظ على وحدة الدولة الصفوية لما يزيد عن نصف قرن. لكن اوضاع هذه الدولة اضطربت خلال العهد القصير جداً للشاه اسماعيل الثاني (٩٨٤ ـ ٩٨٥ هـ)، وعهد السلطان محمد خدابنده (٩٨٥ ـ ٩٩٦ هـ) لاضطراب اوضاع البلاط وتدخلات افراد القزلباش(٢٤)، الى ان حل عهد الشاه عباس الأول.

عصر القوة

كانت اوضاع ايران مضطربة تماماً قبل ان يمسك الشاه عباس بزمام الامور في البلاد. فالشاه محمد خدابنده، فضلاً عن الضعف الشديد في بصره، كان رجلاً ضعيفاً، بحيث باتت شؤون البلاد تتلاعب بها زوجته من جهة، والقزلباش من جهة اخرى. وكان العثمانيون قد أحجموا عن مهاجمة ايران والتعرض لسلطان الصفويين تطبيقاً لمعاهدة صلح أماسية التي عقدت بين الدولتين عام ٩٦٢ هـ لكنهم حينما شاهدوا الأوضاع المضطربة في ايران استأنفوا نزاعهم معها، ونقضوا تلك المعاهدة في عام ٩٨٦ هـ(٢٥)، واحتلوا المدن الايرانية في غربي ايران وشمالها الغربي. ولم تعمل تلك التهديدات الأجنبية على دفع قادة القزلباش على انهاء صراعاتهم، وانما تمادوا في ذلك الى درجة بحيث دبّروا مكيدة قاموا من خلالها بخنق مهر عليا(٢٦) ـ زوجة الشاه محمد خدابنده وأم الشاه عباس ـ وقتلوا حمزة ميرزا، ابن الشاه محمد(٢٧).

في ظل مثل تلك الأوضاع التي كان فيها كيان الدولة الصفوية يتعرض للتهديد

من الداخل والخارج، توجه الشاه عباس من خراسان الى قزوين، وتتوج عام ٩٩٦ هـ وبادر بمجرد امساكه بزمام الامور الى القيام بسلسلة من الاصلاحات والأعمال المهمة التي تمكن بها من اخراج ايران من الضعف وأضفى على الدولة الصفوية من القوة والهيبة والمكانة بحيث ذاع صيتها في سائر أرجاء العالم، ووجد سلاطين اوربا وبابوات روما انفسهم مضطرين لارسال سفرائهم اليها بكل تواضع(٢٨)، مع استقبالهم لسفراء الدولة الصفوية باحترام وتقدير. واستمرت تلك العظمة حتى نهاية عهد هذا الامبراطور الصفوي.

الشاه عباس الذي يدين في توليه العرش لقبيلتي استاجلو وشاملو، من خلال مؤامرة دبّرها ضد ابيه(٢٩)، والذي كان قد شاهد عن كثب جميع الاعمال الوقحة التي قام بها افراد قوات القزلباش بما فيها خنق امه، كان ينبغي عليه ان يضع حداً لتلك الأعمال وذلك النفوذ المتزايد لهؤلاء في الدولة الصفوية كي لا يقع هو الآخر ضحية لمؤامراتهم ودسائسهم. لذلك تصدى لهم بقوة وحزم وأخذ يستبدلهم بجنود كرجيين وشراكسة وأرمن، استطاع ان يصوغ منهم جيشاً منظماً جهزه بالأسلحة النارية والمدفعية اعتماداً على العلم العسكري الغربي لاسيما الخدمات التي قدمها الأخوان شرلي(٣٠). واستخدم هذا الجيش الجديد لقمع قوات القزلباش، وفرض الأمن على البلاد، واصلاح الأوضاع الاقتصادية.

في اعقاب تلك الاصلاحات، وبعد الهزيمة التي الحقها الشاه عباس بالاوزبك في معركة رباط بريان(٣١)، حل العهد الذي ينبغي فيه ان يواجه العثمانيين بقوة، واستعادة المدن التي سيطروا عليها في بداية عهده. فاستعاد تلك المدن جميعاً، ثم استولى على بغداد التي كان العثمانيون قد سيطروا عليها في عهد الشاه طهماسب(٣٢).

واذا كان بمقدور الشاه عباس ان يواجه العثمانيين ويهزمهم، كان من الأسهل عليه ان يواجه الاوزبك والغوركانيين، لذلك كان زمام المبادرة بيده دائماً في تعامله مع الدول والحكومات المجاورة.

الشاه عباس كان يعلم انه لا يمكن ان يحكم من خلال السيف فقط، لذلك كان يولي للتجارة أهمية(٣٣)، بحيث يمكن ان يعد نموذجاً للشخصية المركنتلية(٣٤)، كما كان يتخذ مبدأ تطوير العلاقات مع البلدان الاوربية مثل فرنسا وانجلترا وألمانيا وروسيا والنمسا، فبعث الكثير من السفراء الى هذه البلدان، وكانت لديه مراسلات كثيرة معها(٣٥)، وهو ما يحكي عن نشاطه السياسي والدبلوماسي الواسع. وقد حققت كل الأعمال والنشاطات والاصلاحات الواسعة التي قام بها الى جانب استخدام قوة السيف والحزم، ازدهاراً عظيماً لايران بحيث جعلته يستحق عنوان «الشاه عباس الكبير». ولذلك يعتقد «شاردن» ـ وكان أوعى الغربيين الذين زاروا ايران ـ ان ايران قد ودّعت الازدهار والرخاء حينما ودّعها الشاه عباس الى العالم الآخر(٣٦).

الانهيار

السياسة التي اتخذها الشاه عباس في حبس الامراء قد حرم البلاط الصفوي من وجود شخصيات قوية وفاعلة باستطاعتها ان تديم مجد العهد العباسي. فبعد وفاة الشاه عباس خلفه ابنه الشاه صفي. وفي عصره تعاظمت سياسة تحويل الولايات الى ولايات خاصة، مما وجّه ضربات الى الكيان الدفاعي لتلك الولايات(٣٧).

أُسرة امام قلي خان القوية، التي قدمت خدمات جليلة في مقاطعة فارس والسواحل الايرانية الجنوبية، تم القضاء عليها واستئصالها خلال هذا العهد(٣٨).

توفي الشاه صفي عام ١٠٥١ هـ عن ٣٩ عاماً بينما كان يستعد لتجهيز جيش لاستعادة قندهار من التيموريين(٣٩).

جاء من بعده الشاه عباس الثاني، فكان كجده الشاه عباس الاول سلطاناً قوياً وهذا ما برهن عليه من خلال قتله لقورجي باشي وسائر عناصر القزلباش التي

ساهمت في قتل الوزير ساروتقي(٤٠). وكان يجلس في ديوان العدالة ثلاثة ايام في الاسبوع(٤١)، ويصغي لشكاوى الناس. واتسعت في عهده سياسة تحويل املاك الولايات الى املاك خاصة، بحيث اصبحت جميع املاك البلاد تحت تصرف السلطان تقريباً(٤٢). وأفلح هذا الامبراطور في الحفاظ على حدود امبراطوريته، واستعاد قندهار من الأسرة التيمورية في عام ١٠٥٨ هـ(٤٣).

حينما حلّ عهد الشاه سليمان، اخذت الدولة الصفوية تسرع نحو الانهيار والسقوط. وكان الحضور الجاد للعلماء في الميادين السياسية والدينية، قد ضيّق الخناق على المتصوفة الذين كانوا المؤسسين لهذه الدولة والمقومين لها. وقد بلغ اقصاء الصوفية ذروته في هذا العهد والذي كان قد بدأ منذ عهد الشاه عباس الاول وذلك من خلال استخدام الكرجيين والشركس.

الشاه سلطان حسين الذي رقي العرش عام ١١٠٥ هـ كان رجلاً ضعيفاً وغير مبال بشؤون البلاد. فازداد في عهده اضطراب الدولة الصفوية وبانت عليها علائم العجز العسكري. وأدرك الأفغان الغلجائيون ما باتت تعاني منه الدولة الصفوية من ضعف لاسيما في اعقاب الظلم الذي اقترفه ولاتهم في قندهار، فهاجموا ايران، واستولوا على اصفهان ـ عاصمة الدولة الصفوية ـ عام ١١٣٥ هـ منهين بذلك هذه الدولة الى الأبد(٤٤).

ب ـ العلاقات الخارجية

حينما تأسست الدولة الصفوية في ايران عام ٩٠٧ هـ كانت هناك الدولة العثمانية غربي ايران، والدولتان الاوزبكية والغوركانية الى الشرق والشمال الشرقي من ايران. وكان لدى الصفويين بعض العلاقات مع كل دولة من هذه الدول المسلمة. ولم تكن تلك العلاقات عدائية دائماً، وانما كانت ودية في معظم الأحيان رغم وجود بعض الاختلافات والتناقضات التي لم تكن اختلافات مذهبية وعقائدية فقط. ومما يبعث على الأسف هو أن الباحثين والمحققين قلّما اولوا اهتماماً

نحو هذا الجزء من تاريخ العلاقات الصفوية، اي تلك العلاقات الودية في مجالات الثقافة والسياسة والاقتصاد، التي كانت تربطها مع الدول المجاورة. ولابد من النظر الى هذه العلاقات من زاوية اخرى، وهي العلاقات التي كان يُنظر اليها من منظار العداء.

العلاقات مع الدول المجاورة

لاريب في ان محققي العصر الصفوي لاسيما المهتمين بالتاريخ الايراني، ينظرون الى العلاقات الخارجية لايران في العصر الصفوي من النافذة الدينية. صحيح ان اضفاء الرسمية على المذهب الشيعي وترسيخه في ايران، امر كان له تأثير كبير على التطورات السياسية والاجتماعية وكذلك على العلاقات الخارجية، ولكن لا ينبغي عدّه أهم عامل في ميدان العلاقات والسياسة الخارجية. بل ولا يصح النظر الى الصراعات بين ايران الشيعية وجيرانهامن منظار طائفي فقط. فهناك العديد من العوامل الاخرى المؤثرة في هذا المضمار والتي يُعد المذهب واحداً منها فقط وليس أهمها.

الاوزبك الذين انتهزوا فرصة ضعف التيموريين خلال فترة تأسيس الدولة الصفوية، تمكنوا من الاستيلاء على البلاد التي كانت تحت حكم الأسرة التيمورية وتحولوا الى قوة كبيرة في بلاد ماوراء النهر، ومن الطبيعي ان تكون لديهم علاقات مع ايران(٤٥). لكنهم نظراً لما يتميزون به من اخلاق بدوية وبما لديهم من حالات التعصب القبلي، كانوا يخترقون في بعض الأحيان حدود الدولة الصفوية ويشتبكون مع قواتها. لكن الدولة الصفوية كانت تتعامل معهم من موقع قوة في معظم الأحيان وكانت هي التي تخرج منتصرة من الميدان(٤٦).

طبعاً لابد من النظر من خلف حجاب العلاقات العدائية، الى العلاقات الودية أيضاً، سيما وأن ماوراء النهر كان مركزاً مهماً للثقافة، والأدب، والحضارة الايرانية. فكان هناك تبادل للسفراء بين الدولتين الصفوية والاوزبكية. وكان لابد للحجاج

الاوزبك من اجتياز الأراضي الصفوية من أجل الوصول الى الديار المقدسة وحج البيت الحرام. وهذا بحد ذاته يتطلب وجود علاقات ودية بين الدولتين. فكان الصفويون يفتحون بوجههم طريق الحج ويستقبلونهم بحفاوة عادة.

واذا كانت بعض الحروب والاشتباكات قد دارت بين ايران واوزبكستان، فلم تكن بفعل التضارب العقائدي فقط، وانما بسبب الأزمات الاقتصادية التي كان الاوزبك يعانون منها دائماً وانطلاقاً من طبيعتهم الجافة وأخلاقهم البدوية، فضلاً عن عدم وجود حدود جغرافية واضحة.

حينما ظهرت الدولة الصفوية الى الوجود، كان قد مضى وقت طويل على تأسيس الدولة العثمانية وتحولها الى قوة كبيرة مهيمنة على آسيا الصغرى والأناضول الشرقية، وتتطلع الى الاستيلاء على مناطق اخرى، مثل اوربا الوسطى، وجميع البلاد الاسلامية في الشرق الأوسط وشمال افريقيا(٤٧).

كانت العلاقات ما بين العثمانيين والصفويين علاقات مزيجة بالحرب والسلام. كما شهدت تلك العلاقات انعقاد العديد من معاهدات السلام. فكان السلام بالنسبة لكليهما أمراً مهماً جداً سيما العثمانيين الذين كانوا منهمكين في معارك طاحنة ومستمرة مع الاوربيين.

معظم الباحثين في العلاقات الايرانية العثمانية، ينظرون الى هذه العلاقات من نافذة المذهب والتعصب المذهبي، بينما لم يؤلف هذا الجانب سوى عامل واحد من مجمل العوامل التي كانت ذات تأثير على العلاقات ما بين الاثنين.

صحيح ان الامبراطورية العثمانية السنيّة كانت مستاءة من وجود الامبراطورية الصفوية الشيعية الى جانبها، ولكن كان هناك عامل آخر غير هذا ايضاً. فقد كانت حماية الشاه اسماعيل الصفوي للأمير العثماني مراد الذي تمرد على السلطان سليم، مؤثرةً في بروز معركة جالدران ايضاً. فقد استقبل الشاه اسماعيل هذا الامير الهارب بحفاوة وسمح له بالاقامة في ايران حتى وفاته(٤٨). كما كان دعم الشاه اسماعيل لخصوم السلطان سليم، من بين العوامل الاخرى التي اوغرت صدره ضد

الشاه الصفوي.

كانت معركة جالدران، اهم معركة اندلعت بين ايران والدولة العثمانية وقد انكسر فيها الشاه اسماعيل، واحتل العثمانيون عاصمته تبريز(٤٩)، لكن السلطان العثماني لم يلحق أي اذى بهذه المدينة وأهلها وتعامل معهم على اساس المروءة والانصاف، وأكرم وجوه المدينة وفضلاءها(٥٠).

اضطر السلطان سليم الى مغادرة تبريز بعد اسبوع واحد في اعقاب تمرد الانكشارية(٥١). وكان من اسباب تمردهم انهم رأوا ان محاربة الاخوة في الدين امر غير قابل للتبرير(٥٢). وهذا بحد ذاته يكشف عن ان التعارض المذهبي بين العثمانيين والايرانيين لم يكن بذلك المستوى الذي يتحدث عنه البعض.

ورغم انكشاف ضعف مدينة تبريز عسكرياً وضعف دفاعاتها، إلّا ان الشاه اسماعيل احتفظ بها كعاصمة للدولة الصفوية. ولم تنتقل العاصمة الى قزوين إلّا بعد فترة طويلة(٥٣). ولم تدخل الدولة الصفوية بعد تلك المعركة في أزمة حقيقية وواصلت مسارها.

في عهد الشاه الصفوي طهماسب، دخلت العلاقة بين الدولتين مرحلة جديدة في اعقاب التوقيع على معاهدة أماسية عام ٩٦٢ هـ(٥٤). واستمرت هذه المعاهدة نافذة المفعول طوال عهد الشاه الصفوي طهماسب والسلطان العثماني سليم. وتم بموجب هذه المعاهدة التي تعد أول معاهدة سلام بين الدولتين، تخلي ايران للدولة العثمانية عن اذربايجان الغربية وجزء من كردستان وبين النهرين والجزء الشمالي، من جورجيا، في مقابل اعتراف الدولة العثمانية بتعلق كل من ارمينيا، وأردهان، وكارتيل، وكاخت، وأذربايجان الشرقية بايران(٥٥).

وحدّدت هذه المعاهدة الحدود الجغرافية المشتركة بين البلدين، وسمحت للمسلمين بالتردد على الدولتين بدون عوائق(٥٦). وقد نقض العثمانيون هذه المعاهدة عام ٩٨٦ هـ مستغلين الضعف الذي المّ بها آنذاك(٥٧).

الشاه عباس الاول الذي ورث بلداً يعاني من كل تلك الأزمات والاختناقات، لم يكن بوسعه سوى التوقيع على معاهدة للصلح مع الدولة العثمانية عام ٩٩٨ هـ عُرفت بمعاهدة استنبول، وتخلى فيها عن بعض المناطق للدولة العثمانية(٥٨). لكنه استطاع بعد ذلك ان يستعيد هذه المناطق في اعقاب تنظيم شؤون البلاد وتأسيس جيش قوي منتظم(٥٩). ثم نجح خلال الفترة ١٠١٥ ـ ١٠١٦ في طرد آخر جندي عثماني من الأرض الايرانية التي تحددت حدودها بشكل واضح طبقاً لمعاهدة أماسية(٦٠). وفي اعقاب تلك النجاحات والانتصارات وقّع الشاه عباس على معاهدة استنبول الثانية من موقع قوة والتي أعادت الى الدولة الصفوية المناطق التي تخلت عنها في معاهدة استنبول الاولى(٦١).

في عهد الشاه صفي، استولى العثمانيون على بغداد، ووقّع هذا الملك الصفوي على معاهدة صلح قصر شيرين (زهاب) وذلك في عام ١٠٤٩ هـ فتنازل فيها للعثمانيين عن بغداد، والبصرة، وجزء من كردستان الغربية، فاستتب السلام بين ايران والامبراطورية العثمانية على مدى قرن كامل(٦٢). ويذهب بعض الباحثين الى اعتبار الرخاء الذي عم الدولة الصفوية وفراغة البال التي عاشها الناس في أعقاب التوقيع على هذه المعاهدة، جزءاً من العوامل التي ادت الى ضعف الدولة الصفوية وانقراضها في نهاية المطاف(٦٣).

نقض العثمانيون هذه المعاهدة في أعقاب سقوط الدولة الصفوية، فاحتلوا غرب ايران ورابطوا هناك الى ان اخرجهم نادرشاه(٦٤). والحقيقة هي انه تظافرت عوامل كثيرة ومتعددة في التأثير على العلاقة بين الدولتين العثمانية والصفوية، فضلاً عن عامل المذهب. فالذين يعتبرون الرسمية التي حظي بها التشيع في ايران، العامل الوحيد الذي يقف خلف الصراعات بين الدولتين الايرانية والعثمانية، لا يستطيعون الاجابة على السؤال التالي: لو كانت الدولة الصفوية ذات نزعة سنية، فهل كان ذلك يمنع الدولة العثمانية عن مهاجمتها، ويحول دون اندلاع الحروب بين الدولتين؟

ثم ان العلاقات بين ايران والدولة العثمانية، لم تكن علاقات عدائية على طول

الخط. فهناك معاهدات سلام وصداقة وتبادل للسفراء والتجار بين الجانبين. وكانت الخلافات بين الصفويين والغوركانيين أقل من الخلافات مع الاوزبك والعثمانيين، لأن الحدود المشتركة بين الدولتين الصفوية والغوركانية قليلة. وبصرف النظر عن قضية قندهار التي كان هناك نزاع حولها، لم يكن بينهما اي تضارب في المصالح. فكانت بين الجانبين علاقات سياسية واقتصادية وثقافية كثيرة.

كان الشاه اسماعيل الأول قد لبّى دعوة ظهير الدين بابر الذي وعده بأنه سيضرب النقود باسمه ـ اي باسم الشاه اسماعيل ـ اذا ساعده في الانتصار على الاوزبك(٦٥). واستعان خليفته همايون بالشاه طهماسب الأول للوصول الى السلطة(٦٦). وهذا يشير الى ان الدولة الصفوية كانت ذات قوة اكبر من الدولة الغوركانية، اي امبراطورية مغول الهند.

كانت هناك علاقات ودية كبيرة جداً بين ايران والهند، لاسيما على الصعيد التجاري. كما كان البلاط الغوركاني ملجأ ومأمناً لكثير من الشعراء والكتّاب الناطقين بالفارسية(٦٧).

العلاقات مع الدول الاوربية

العلاقات بين ايران والغرب، ذات خلفية طويلة، لكنها دخلت مرحلة جديدة في العصر الصفوي، وقد مدّ العديد من الدول الغربية يد الصداقة للدولة الصفوية. ولو اردنا دراسة تلك العلاقة مع جميع تلك الدول لكنا بحاجة الى بحث طويل، لكننا سنتناول هذا الموضوع بشيء من الايجاز.

كانت ايران جسراً يربط اوربا بآسيا على مدى التاريخ. وحينما استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية اغلقوا طريق التجارة بين اوربا والشرق. فأخذ الاوربيون الذين كانوا بحاجة ماسة الى التجارة مع البلدان الآسيوية، يبحثون عن طريق آخر للوصول الى ايران، والهند، والصين.

في عام ٨٩٢ هـ نجح البحار البرتغالي بارثولومو دياز (Bartholomeu Dias) في أن يدور حول رأس الرجاء الصالح. ثم وصل مواطنه فاسكودي غاما بعد عشر سنوات الى الهند. ومعنى هذا ان الطريق البحري بين اوربا الغربية والشرق، قد اقيم قبل ثلاث سنوات من نشوء الدولة الصفوية في ايران. فالبرتغاليون اذن لم يلتفّوا فقط حول طوق البلدان الاسلامية الذي حرم ايران من الاتصال بالغرب لعدة قرون، وانما ذهبوا الى ما هو أبعد من البندقيين والقوى التجارية الاوربية الاخرى التي كانت تتاجر مع ايران عن طريق موانئ البحر المتوسط(٦٨).

وصل البرتغاليون(٦٩) بزعامة البوكرك الى جزيرة هرمز بالخليج الفارسي عام ٩١٢ هـ وأدركوا أهميتها الاستراتيجية والتجارية لذلك قاموا باحتلالها، وفرضوا الخراج على حاكمها. وقدم البوكرك من الهند الى جزيرة هرمز ثانية عام ٩٢٠ هـ وعزّز التواجد البرتغالي فيها. ولم يكن أمام الملك الصفوي الذي كانت تعوزه القوة البحرية والذي هُزِم تواً في معركة جالدران، سوى الصمت ازاء ما كان يحدث في هرمز(٧٠).

الشاه اسماعيل الصفوي الذي اضطر للصمت ازاء الاحتلال البرتغالي لجزيرة هرمز، سعى الى استخدام البرتغاليين ضد الدولة العثمانية، فتلق منهم جواباً ايجابياً، ووقّعوا على اتفاق يقضي بمدهم يد العون لايران ضد الدولة العثمانية في مقابل صرف ايران نظرها عن هرمز. لكنّ وفاة البوكرك حالت دون تنفيذ البرتغاليين لوعدهم. والنتيجة الايجابية الوحيدة التي تمخضت عن ذلك الاتفاق هي ان البرتغاليين علّموا الايرانيين كيفية استخدام الأسلحة النارية، مع تزويدهم لايران بمقادير من الأسلحة والمعدات الحربية خلال فترة الحرب التي خاضها الشاه طهماسب مع العثمانيين على مدى عشرين عاماً(٧١). ومنذ ذلك الحين ايضاً بدأ المبشرون النصارى بالعمل في هرمز، واستقرت في هذه الجزيرة مجموعة من المبشرين البرتغاليين وذلك في النصف الثاني من القرن العاشر.

كان هناك فرد يسوعي يدعى فرانسيسكو داكوشتا قد تحدث للبابا كليمنس

الثامن عن احتمال ان يدين الشاه عباس بالديانة المسيحية، فبعثه البابا الى ايـران لهذا الغرض، كما كان يرغب أيضاً في تحريض الشاه عباس عـلى محـاربة الدولة العثمانية(٧٢).

الأمر الذي لابد من الالتفات اليه في العلاقات ما بين ايران والعالم المسيحي هو ان الاوربيين كانوا يسعون لايفاد وفود تبشيرية متعددة الى ايران، ولم يكن هدف هذه الوفود التبشير فقط، وانما كانت نشاطاتهم ذات مرام سياسية ايضاً، من بينها حث الصفويين وتحريضهم ضد الدولة العثمانية.

ولاريب في ان الاوربيين لم يكونوا وحدهم يرغبون في التحالف مع ايران ضد الدولة العثمانية، وانما كان الايرانيون ينتهجون هذه السياسة ايضاً في بعض الأحيان. ومع ذلك كان الصفويون على علم بالسياسة الماكرة للاوربيين. وأنهم اذا كانوا قد سايروهم الى حد ما في هذا الاتجاه فلأنهم كانوا يجـنون بـعض المـنافع في ذلك. ولذلك كانوا يتجنبون التناغم مع السياسة الاوربية حينما يشعرون بضرورة عدم توسيع نطاق العداء مع العثمانيين. فقد رفض الشاه سليمان الاتحاد مع الروس ضد العثمانيين وقال ان عدم احترام الروس أفضل من نقض معاهدة الصلح مع العثمانيين. وقال صدره الأعظم ساروتقي للاوربيين الذين كانوا يضغطون على ايران للتصدي للدولة العثمانية ان من الخطأ ان يفتح المرء باب خلية النحل ويـضع نـفسه امـام لسعات النحل. ولذلك كان الصفويون حريصين جداً على الامساك بزمام المبادرة دائماً(٧٣).

ورغم فشل داكوشتا في مهمته التي جاء الى ايران من اجلها، ولكن نجح وفد آخر من الفرقة الاوغسطينية قدم الى ايران عام ١٠١٠ هـ في استحصال اذن من الشاه عباس بتأسيس صومعة وكنيسة(٧٤).

في عام ١٠٠٦ هـ وصل الى بلاط الشاه عباس مغامران انجليزيان هما السير انتوني شرلي، والسير روبرت شيرلي. وبعد عام من ذلك اوفد الشاه عباس السير انتوني شرلي الى اوربا حاملاً رسائل منه الى البابا وعدد من ملوك اوربـا مـثل

رودلف الثاني امبراطور روما، وملك بوهميا، وهنري امبراطور فرنسا، وفيليب الثالث ملك أسبانيا، وملك اسكوتلندا، وملك بولندا، وملكة بريطانيا، وحاكم البندقية، ودوق توسكانيا الكبير.

كانت مهمة السير انتوني استحصال دعم هؤلاء الملوك وحمايتهم للشاه الصفوي في مناهضته للعدو المشترك المتمثل بالدولة العثمانية. وقد رافقه في تلك المهمة أحد امراء القزلباش ويدعى حسين علي بيك. غير ان شرلي لم ينجح لا في هذه الزيارة ولا في الزيارة الاخرى التي قام بها عام ١٠٣٦ ـ ١٩٣٧(٧٥).

ينبغي ان يُعد القرن العاشر قرن البرتغاليين، من حيث المزايا التي حصلوا عليها من خلال العلاقة مع ايران. وسعى الانجليز بجد للالتفاف حول الجناح الشمالي للامبراطورية العثمانية، مثلما التفّ البرتغاليون حول الجناح الجنوبي للامبراطورية العثمانية من خلال اجتياز رأس الرجاء الصالح. ونجح انتوني جنكينسون بالقدوم الى ايران ممثلاً لشركة موسكوفي، مع حمله لرسائل من الملكة اليزابيث الى الشاه طهماسب. وكان الهدف من تلك الرسائل اقامة علاقات تجارية ما بين البلدين(٧٦).

لم يكن الشاه طهماسب راغباً في الحاق ضرر بمصالح التجار الأتراك الذين كانوا يتعاملون مع ايران عن طريق حلب والشام. ولذلك لم يرحب باقتراح التجار البريطانيين، وقطع المداولات معهم وهو يقول: «لسنا بحاجة الى صداقة الكفار».

وقدم وفد آخر من شركة موسكوفي الى ايران، فأصدر الشاه طهماسب هذه المرة مرسوماً أعفى فيه هذه الشركة من دفع الضرائب الجمركية، وسمح لأفرادها بالسفر الى جميع مناطق ايران وممارسة الأعمال التجارية، غير أن هذه الشركة لم تستثمر هذا المرسوم كما ينبغي، ولم تزدهر تجارة بريطانيا مع ايران حتى بعد مرور نصف قرن على ذلك(٧٧).

ايفان الرهيب، كان يفكر هو الآخر بالتحالف مع الصفويين للقيام بعمل عسكري مشترك ضد العثمانيين. فبعث سفيراً الى الشاه طهماسب عام ٩٧٦ هـ حاملاً معه بعض المدافع والبنادق فضلاً عن عدد من المدربين العسكريين. فرحب

الشاه الصفوي بذلك السفير وأعلن عن استعداده للتعاون مع القيصر الروسي بهذا الخصوص. ورغم ان روسيا كانت اقرب الى ايران من اوربا الغربية، لكنها لم تقم بأية خطوة عملية في أعقاب تلك الحركة السياسية(٧٨).

فضلاً عن المسار الشمالي الذي اختاره الانجليز للوصول الى ايران، جرّبوا كذلك المسار الجنوبي البري، فكان التاجر الانجليزي جان نيوبري، اول شخص انجليزي يصل الى هرمز عن هذا الطريق. وحينما عاد الى بلاده أخذ يشجع التجار الانجليز على التجارة مع ايران. وأزمع تجار شركة لوانت على تطوير وتوسيع تجارتهم مع ايران والهند عبر الطريق البري الذي يمر بسوريا وبلاد ما بين النهرين. لكن البندقيين والبرتغاليين أخذوا يخلقون لهم المشاكل(٧٩).

لم تكن مساعي البريطانيين في ايجاد طريق بري الى الخليج الفارسي ناجحة، بالضبط كما هو حال جهودهم في شق طريق الى الشرق عبر الأراضي الروسية. لذلك لم يكن أمامهم سبيل سوى اختبار الطريق البحري. ومن اجل النجاح في هذا المضمار، كان لابد لهم من وضع نهاية لسيادة البرتغاليين البحرية.

في عام ١٠٢٤ هـ أخذت شركة الهند الشرقية الانجليزية بالنفوذ الى السوق الايرانية بشكل تدريجي. فكان أصحاب هذه الشركة يحملون الأقمشة الى ايران، كما أقاموا لهم مراكز تجارية في شيراز واصفهان، وانتزعوا بعض الامتيازات من الشاه عباس(٨٠).

كان الشاه عباس يسعى من خلال منح تلك الامتيازات ان يحسّن الأوضاع التجارية من جهة، ويستخدم القوة البحرية الانجليزية ضد البرتغاليين من جهة اخرى للقضاء على التسلط البرتغالي على الخليج الفارسي(٨١).

بالرغم من نجاح الانجليز في انتزاع السيادة البحرية على الخليج الفارسي من البرتغاليين، ولكن سرعان ما ظهر الهولنديون منافسين حقيقيين للانجليز(٨٢). وحينما توفي الشاه عباس عام ١٠٣٨ هـ استطاع الهولنديون الحصول على امتيازات تجارية، وضغطوا على الشاه عباس الثاني كي يأذن لهم بابتياع الحرير،

فنجحوا في افشال سياسة انحصار تجارة الحرير بيد الشاه والتي كان الشاه عباس الأول قد اتخذها من قبل(٨٣).

في عام ١٠٧٤ هـ ظهرت فرنسا على المسرح، ونشطت البعثات التبشيرية الفرنسية في ايران وافتتحت لها مراكز في اصفهان. وحصل الفرنسيون فيما بعد على امتيازات تجارية شبيهة بتلك التي حصل عليها البريطانيون والهولنديون(٨٤).

في اواخر العصر الصفوي، بعث الشاه سلطان حسين وفداً الى فرنسا برئاسة محمد رضا بيك، للتباحث مع بلاط الامبراطور الفرنسي لويس الرابع عشر. وتم التوقيع على معاهدة بين ايران وفرنسا، لكنّ سقوط الدولة الصفوية حال دون العمل بتلك المعاهدة(٨٥).

نجحت شركة الهند الشرقية الانجليزية ان تعزز موقعها في ايران حتى نهاية العصر الصفوي. لكن هذه الشركة والشركات التجارية الاخرى جابهت ظروفاً حرجة وتعرضت لأضرار جسيمة في أعقاب سقوط الدولة الصفوية وظهور حالة الفوضى واللاأمن في البلاد. كما مني اقتصاد ايران وتجارتها بخسائر فادحة ايضاً(٨٦).

كان السفير الروسي «وليسنكي»، في ايران خلال الفترة الأخيرة من عمر الدولة الصفوية، قد بعث تقريراً الى حكومته يتحدث فيه عن ضعف الدولة الصفوية الشديد ويتوقع سقوطها عن قريب، وهذا ما شجع القيصر الروسي بطرس الكبير على التدخل في شؤون ايران. وحينما سقطت الدولة الصفوية احتل الروس بعض المناطق الايرانية(٨٧). كما كثّف البريطانيون الذين كانوا نشطين في ايران منذ فترة طويلة، من نشاطاتهم. فكانت روسيا وبريطانيا، البلدين المتنافسين على ايران في اعقاب انهيار الدولة الصفوية.

ما ينبغي التنويه اليه هو ان الملوك الصفويين لاسيما اسماعيل، وطهماسب، وعباس الأول، جنّدوا كل ما لديهم من قوىً وامكانات للحفاظ على استقلال البلاد وسيادتها وأراضيها، ونجحوا في اغلب الأحيان في ذلك. فقد دافع الصفويون

عن الحدود السياسية والهوية الوطنية على مدى قرنين من الزمن، سواء كان ذلك عن طريق الحرب والأعمال الدفاعية، او من خلال الطرق الدبلوماسية ومعاهدات السلام.

كانت علاقات الصفويين مع البلدان الاوربية تقوم بالأساس على مبدأ الاحترام المتبادل، وكان لديها معها تبادلات ومصالح تجارية. ورغم التنافس الذي كان قائماً بين تلك البلدان لاسيما انجلترا وهولندا وفرنسا، لم تستطع اية دولة منها ان تؤثر على القرار السياسي الايراني.

ج ـ الثقافة والحضارة

١ ـ رسمية التشيع وافرازاته

ظهر التشيع الى الوجود بشكل واضح في أعقاب قيام بعض المسلمين مدافعين عن حق علي (ع) في خلافة الرسول محمد (ص) بعدما تجوهل هذا الحق في اجتماع السقيفة الذي عُقد بعيد وفاة النبي الاكرم محمد (ص). واستمر التشيع منذ ذلك الحين كمذهب الى جانب المذاهب الاسلامية الاخرى(٨٨). وأصبحت ايران أحد المراكز الأصلية لهذا المذهب(٨٩). وكان الشيعة ينظرون الى الخلفاء الامويين والعباسيين بعين الغضب، وقد يهبّون ثائرين عليهم.

في القرن الرابع الهجري نجح البويهيون الى حد ما في تحقيق الطموح الشيعي في حكم سياسي والخروج من سيطرة الحكام المنتمين الى المذاهب السنيّة. حيث استولى البويهيون الشيعة على اجزاء من ايران ومدّوا سلطتهم حتى بغداد، وفرضوا لفترة ما نفوذهم السياسي ـ المذهبي على الخلفاء العباسيين ايضاً(٩٠). لكنّ دولتهم سرعان ما سقطت على يد السلاجقة، فعاد الشيعة الى الظل، وتهمش دورهم ثانية. وفتح التسامح المغولي الباب بوجه الشيعة للقيام بنشاطات واسعة بحيث مال بعض الملوك المغول مثل غازان واولجايتو الى المذهب الشيعي(٩١).

ويحكي ظهور بعض الأسر والدول الشيعية في نهاية العصر الايلخاني المغولي، كالسربدارية(٩٢) في شرق ايران، والقره قوينلو(٩٣) في شمال غربي ايران، والمرعشية في طبرستان ومازندران، وآل كيا في جيلان، والمشعشعية(٩٤) في خوزستان، عن انتشار المذهب الشيعي في ايران.

تقدم ان الشاه اسماعيل حينما انتصر على الآق قوينلو في شرور، زحف نحو تبريز ورقي العرش في مطلع عام ٩٠٧ هـ وحينما وصل الى مشارف تبريز خرج ساداتها وقضاتها وكبار رجالها وأهلها لاستقباله، وذاع صيته في المناطق المجاورة وهنّأه الامراء والمتصوفة وعبّروا عن اخلاصهم له(٩٥).

كان الشاه اسماعيل يفكر باستمرار في تقوية المذهب الشيعي ونشره. وقد وجد الفرصة سانحة لتحقيق هذا الطموح حينما اعتلى العرش. فانطلق لنشر هذا المذهب، وأمر خطباء آذربايجان ان يبدأوا خطبهم باسم الرسول الاكرم محمد (ص) والأئمة الاثني عشر، وأن يأتي مؤذنوا المساجد بعبارة «أشهد ان علياً ولي الله» في أذانهم(٩٦).

وتشاور الشاه اسماعيل في الاعلان عن رسمية التشيع، مع امراء الشيعة وعلمائها سيما وان الاكثرية في مدينة تبريز، كانت على المذاهب السنية(٩٧). وقال له بعضهم: نحن نخشى ان يقول الناس نحن لا نريد ملكاً شيعياً، فماذا سنفعل آنذاك؟ فأجاب الشاه: ان الله والأئمة المعصومين معي. ولا أخشى اي احد في هذا الطريق(٩٨). ويبدو ان الثقة التي كانت لديه بنفسه قد استمدها من منام رأى فيه الامام علياً (ع) بأمره ان يحضر في المسجد ويخطب(٩٩).

امر الشاه اسماعيل خطيب المدينة مولانا أحمد الأردبيلي(١٠٠). ـ وكان من اكابر الشيعة ـ ان يؤدي الخطبة. فاعترض الناس على ذلك. فأمر الشاه اسماعيل ان يُلعن على الملأ في الأزقة والأسواق اعداء الدين الاسلامي وخصوم أهل البيت النبوي. وضُربت النقود باسم الشاه اسماعيل والأئمة الاثني عشر، ونُقش على وجهها الآخر عبارات: لا اله إلّا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله(١٠١). وتمردت

فئة من أهل تبريز بعد الاعلان عن رسمية التشيع، لكن الشاه اسماعيل كان مصراً على المضي في منهجه ونجح في تحقيق الانتصار.

غير ان ذلك لم يكن سوى الخطوات الاولى، وكان امامه طريق طويل وشائك جداً. فكان لابد من اتخاذ بعض الاجراءات والقيام ببعض الأعمال الضرورية من اجل نشر التشيع في المجتمع وترسيخ الأحكام الشيعية، وتمشية الامور على أساس الفقه الشيعي. غير ان العارفين والمتمرسين في هذا الفقه كانوا قلّة في ايران.

حينما سمع الشاه اسماعيل بوجود نسخة واحدة من كتاب «قواعد الأحكام» للمطهر الحلي عند القاضي نصر الله الزيتوني، سرّ كثيراً وأحسن الى ذلك القاضي(١٠٢)، وهذا يكشف عن ندرة الكتب الفقهية آنذاك.

من أجل تدارك النقص في العلماء والفقهاء الشيعة، استنجد الشاه اسماعيل ـ وكذلك الشاه طهماسب ـ بعلماء جبل عامل والبحرين وطالبهم بالقدوم الى ايران(١٠٣). فقدم لفيف من العلماء في عهد الشاه اسماعيل مثل المحقق الكركي، غير ان هذا الامر اكتسب طابعاً اكثر جدية في عهد الشاه طهماسب، وأصبح جزءاً من سياسة الدولة.

طبعاً، لم يكن توجيه الدعوة لعلماء جبل عامل بالأمر الجديد، فقد دعا قبل الصفويين، علي المؤيد السربداري، العالم الشيعي المعروف محمد بن مكي (الشهيد الأول) للتوجه الى ايران. ورغم ان هذا العالم لم يتمكن من تلبية دعوة السربداري، إلّا انه ألف كتاب «اللمعة الدمشقية» في فقه الامامية، وبعث به اليه(١٠٤).

وفي ظل السياسة الصفوية هذه، هاجر عدد كبير من علماء جبل عامل الى ايران(١٠٥)، وتركوا تأثيراً على الأوضاع الثقافية، والدينية والسياسية للمجتمع الصفوي.

تعاون بعض هؤلاء العلماء مع الدولة الصفوية، وكرّسوا جهودهم لتوطيد دعائم تلك الدولة، وترسيخ جذور العقائد الشيعية، اي انهم أضفوا الشرعية على تلك

الدولة، اذ لم يكن جميع العلماء يؤمنون بالفكرة التي تقول بأن جميع حكومات عصر الغيبة حكومات جائرة ولا ينبغي التعامل معها(١٠٦). بل كان البعض يرى ضرورة هذا التعامل من أجل الحفاظ على الاسلام نفسه(١٠٧)، سيما اذا كان الحاكم منتم للمذهب الشيعي ويعمل على نشر المذهب وتعزيزه.

انبرى السلاطين الصفويون بدورهم لدعم علماء الدين وتعزيز مكانتهم. ووقفوا سياسياً الى جانب الفقيه الجامع للشرائط باعتباره نائب الامام الغائب المنتظر(١٠٨). وأناطوا بالعلماء والفقهاء العديد من المناصب المهمة كالصدر، وشيخ الاسلام، والمجتهد، والقاضي، والمفتي(١٠٩)، لاسيما في عهد الشاه طهماسب الأول الذي أناط مهمة ادارة شؤون البلاد بالمحقق الكركي، وبعث الى جميع المدن ان يطيعوه ويصدروا عن اوامره، لأنه نائب الامام، ويحق له ان يشرف على تسيير جميع الامور(١١٠).

القوة السياسية التي كان يتمتع بها الشاه عباس الأول، عتمت على القوة المذهبية. وسعى هذا الشاه الى تحديد قوة العلماء والفقهاء والحد من نفوذهم من خلال بعض سياساته الخاصة(١١١). وعاد الى العلماء تأثيرهم ودورهم السابق ما بعد الشاه عباس. وكان العلامة محمد باقر المجلسي، احد اكثر العلماء نفوذاً في العصر الصفوي، وكان شيخ الاسلام باصفهان في عهد سليمان الصفوي وحسين الصفوي. وكان السلطان الأخير بمثابة نائب له، لكونه ـ اي المجلسي ـ نائباً للامام الغائب(١١٢).

كانت صلاة الجمعة، من بين الطقوس التي مارسها علماء جبل عامل، بينما لا تجب هذه الصلاة إلّا في عصر ظهور الامام المنتظر طبقاً لرأي علماء الشيعة. وقد سعى عدد كبير من الفقهاء العامليين للبرهنة على ضرورة اداء هذه الصلاة. وكانت تلك الصلاة من بين الامور التي أضفت المشروعية على الدولة الصفوية(١١٣).

استطاع علماء جبل عامل ان يربوا جيلاً من الفقهاء الايرانيين على أفكارهم وعلمهم، حيث أمسك هذا الجيل فيما بعد بزمام الشؤون السياسية للدولة الصفوية.

وكانت جهود هؤلاء في اضفاء المشروعية على الدولة الصفوية مؤثرة جداً. فالمهاجرون العامليون نجحوا من جانب في اغناء الفقه الشيعي في الجانب السياسي والحكومي، ودعموا من جانب آخر الدولة الصفوية كدولة شيعية كي تظهر شرعية في نظر أتباعها. وقد اخذ الفقهاء اللاحقون، برؤية العلماء العامليين للدولة الصفوية، اي الاعتراف بالملك الشيعي او السلطان العادل في ادارة الشؤون السياسية، والسعي لحمايته ودعمه.

لا ينبغي تجاهل دور علماء جبل عامل في نشر التشيع. فقد لعبوا هذا الدور من خلال التعليم والتربية وتأليف الكتب والرسائل. ولم يكن هؤلاء غافلين عن نشاط المبشرين النصارى في ايران أيضاً، اذ كتبوا الكثير من الردود على أفكارهم وشبهاتهم(١١٤)، كما تصدوا للنزعة الصوفية المتطرفة أيضاً(١١٥).

٢ـ التأبين والمسرحيات الدينية

جعل الصفويون المذهب الشيعي، مذهباً رسمياً في ايران، وتركت هذه الخطوة تأثيراً عظيماً وخالداً ليس على الحياة الدينية فحسب، وانما على الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية للبلاد. فإتحاد البلاد على شكل بلد شيعي قوي، كان له تأثير كبير على مراسم العزاء والتأبين في شهر محرم، بحيث لعبت التظاهرات الشيعية الكبرى في محرم كل عام، دوراً مهماً في نشر المذهب الشيعي.

كان لظهور الدولة الصفوية تأثير على نمو واتساع ما يُعرف بـ«التشبيه» او المسرحيات التي تحاول تصوير وقائع يوم العاشر من محرم وملحمة الفداء الحسيني. كما ساعد الدعم الواسع الذي قدمته الحكومة الصفوية القائمة على اصول شيعية، على زج الأدب والشعر في خدمة الشعائر الحسينية. ومن بين الآثار الأدبية التي ظهرت في بداية تأسيس الدولة الصفوية كتاب الّفه ملا حسين الواعظ الكاشفي يحمل عنوان «روضة الشهداء»، وفيه يصوّر المؤلف واقعة كربلاء بلغة شعرية مؤثرة. فكان لهذا الكتاب دور كبير في بلورة الشعائر الحسينية، وظهور

المسرحيات المصوّرة لوقائع عاشوراء(١١٦). وعمل هذا الكتاب ايضاً على ظهور نمط جديد من النشاط الحسيني باسم «قراءة روضة الشهداء» او «قراءة الروضة»، فأضحى هذا النمط بعد قرنين ونصف بمثابة حقل مستقل تمتزج فيه المراثي والتأبين وسرد وقائع عاشوراء(١١٧).

فن التمثيل، الذي لديه جذور قديمة عند الايرانيين، اصطبغ بصبغة اخرى منذ عهد البويهيين(١١٨)، وتحول منذ العهد الصفوي الى لون من ألوان تأبين وتكريم شهداء واقعة كربلاء، وبلغ في العملية التاريخية درجة من القوة بحيث أصبح مثالاً للغربيين في بعض الأحيان(١١٩).

تعاظمُ المذهب الشيعي وتحوله الى مذهب رسمي لايران، ترك آثاراً كثيرة على الأدب الايراني الكلاسيكي. فالشعر الذي كان بلاطياً في معظم الأحيان، اخذ يتركز على رثاء ومدح شهداء الشيعة وأوليائهم. والنموذج البارز على ذلك مراثي الشاعر محتشم الكاشاني.

تقارير السواح الغربيين تتحدث عن مراسم تأبين ورثاء الامام الحسين (ع) وشهداء كربلاء في العصر الصفوي. وتوحي هذه التقارير ان تلك المراسم والشعائر كانت مزدهرة جداً في النصف الثاني من ذلك العصر، وأنها كانت تتعاظم باستمرار(١٢٠).

كان الملوك الصفويون يولون اهتماماً كبيراً نحو اقامة تلك المراسم. وقد قام الشاه اسماعيل الصفوي باحيائها بعد ان أصابها الفتور منذ عهد معز الدولة البويهي (٣٥٢ هـ)، وأخذت تكتسب طابعاً جماهيرياً عاماً(١٢١).

كان الشاه عباس يقيم مراسم الرثاء والتأبين في ذكرى استشهاد كل امام من أئمة الشيعة، ولم يكن ينصرف عن ذلك قط حتى في أسفاره الحربية وخلف قلاع العدو(١٢٢). واستمرت سنّة التأبين والتعزية التي كانت مؤثرة في احياء الشعائر الاسلامية وتخليد ذكرى شهداء كربلاء ومصائب أهل البيت، حتى نهاية العصر الصفوي، ولازالت قائمة الى يومنا هذا، تؤدي دورها الديني والاجتماعي.

٣ـ الأدب

ثمة اختلاف في وجهات النظر بين مؤرخي الأدب حول وضع الشعر في العصر الصفوي. فالباحث ادوارد براون الذي يعد من أوائل الباحثين في تاريخ الأدب الايراني يعتقد ان العصر الصفوي يمثل فترة جدب في تاريخ الشعر نظراً لعدم وجود شعراء مهمين رغم كثرة أسماء الشعراء في كتب التذاكر، اذ لا يمكن ان يقاس اي شاعر منهم بالجامي وهاتف والهلالي وسائر شعراء مدرسة هراة وشعراء العصر التيموري. فمعظم الشعراء قد التحقوا بأباطرة مغول الهند، ونزعوا نحو الاسلوب الهندي، ثم عادوا الى ايران بعد كسب المال والمنال، وهذا يكشف عن عدم وجود ما يشجع الشعراء في ايران، وليس عن ضعف القريحة الشعرية(١٢٣).

ويتفق العلامة محمد القزويني مع ادوارد براون في هبوط الشعر الى مرتبة دنيا في العصر الصفوي، ويعزو ذلك الى الوحدة المذهبية في ايران ونشر مذهب التشيع الاثني عشري الذي يصفه بأنه معارض للأدب، والشعر، والتصوف، وعدم احتضان الملوك الصفويين للشعراء(١٢٤).

اذن النظرية التي كان ادوارد براون مؤسساً لها، تطورت على يد محمد القزويني، وأخذ بها الآخرون مثل يان ريبكا(١٢٥)، وملك الشعراء بهار(١٢٦)، ورضا قلي خان هدايت، وذبيح الله صفا(١٢٧). وظل هذا الرأي قائماً الى ان جاء احسان يار شاطر الذي نشر كتاباً عنوانه «ادب العصر الصفوي، ازدهار ام انحطاط»، انبرى فيه لمناقشة آراء براون، ومحمد القزويني، ويان ريبكا، وغيرهم وقال بأن الرأي القائل بانحطاط الأدب الايراني في العصر الصفوي، لم يلق ترحيباً من قبل النقاد في الهند، والدولة العثمانية، وأفغانستان، وآسيا الوسطى، وظل هؤلاء على اشادتهم بشعراء تلك الفترة كالعرفي، وصائب، والنظيري، وكليم الكاشاني. كما ان الانتقادات الحيوية الملاحظة في بعض الآثار الهندية لبعض شعراء تلك المرحلة، لم تهاجم الاسلوب الهندي لأولئك الشعراء وانما تطرقت الى اخفاقات بعض اولئك

الشعراء. وقد عبّر شبلي النعماني في الجزء الثالث من «شعر العجم»، عن تقديره للاسلوب الشعري الهندي، وعدّ بعض شعراء هذا الاسلوب بمستوى شعراء كبار مثل سعدي وحافظ(١٢٨).

سعى بعض النقاد المتأخرين الى اثبات اصالة الاسلوب الهندي. ونُشرت دواوين بعض شعراء هذا الاسلوب مؤخراً كما نفذت بعض الأبيات الى كتب التذاكر والكشاكيل المتأخرة. ويحظى هؤلاء الشعراء بعناية اكبر في هذا اليوم، غير ان وجهات النظر السلبية للنقاد الأوائل لازالت قائمة وإنْ تهذَّبت الى حد ما.

تحدث يار شاطر عن المضامين الجديدة التي تميز بها الاسلوب الهندي عن غيره فذكر من بينها: التشبيهات او الاستعارات الحديثة، وادخال تغييرات الى المواضيع والتمثيلات القديمة، واستخدام الدقة العالية في وصف الخلجات القلبية والمشاعر، واللجوء الى البديع اللغوي، والاستعانة بالخيال(١٢٩).

راجر السيوري، يرفض في كتاب «ايران في العصر الصفوي» رأي القزويني وغيره الذي يصف شعر العصر الصفوي بالانحطاط، ويرى عدم صواب قولهم ان الملوك الصفويين لم يشجعوا الشعراء، ويقول بأنهم كانوا يقولون الشعر أيضاً، وحماةً للشعراء والخطاطين والموسيقيين(١٣٠).

كان الشاه اسماعيل الصفوي ينشد الشعر بالتركية الآذرية ويستخدم في شعره تخلّص «خطائي»(١٣١)، وكان يولي اهتماماً نحو الشعراء(١٣٢). والأمر الذي لابد من الاشارة اليه هو أن الأوضاع السياسية والدينية قد تركت تأثيراً على الشعر في العصر الصفوي، لاسيما عصر الشاه طهماسب الأول، وأدت الى شيوع المراثي وقصائد الحزن واللوعة لاسيما في رثاء الأئمة من اهل البيت(١٣٣). ومنها قصيدة الشاعر محتشم الكاشاني التي انشدها في رثاء الحسين (ع) تلبية لطلب الشاه طهماسب، والتي أصبحت أساساً للشعراء التالين في رثاء ومدح الائمة من ذرية الرسول (ص) لاسيما سبطه الحسين بن علي (ع)(١٣٤).

كان الشاه عباس الأول يختلط مع الشعراء ويزورهم في بيوتهم، وقد أهدى

لشاعر يدعى وجيه الدين شاني تكلو ذهباً بما يعادل وزنه(١٣٥).

صحيح أن بلاط التيموريين كان محلاً لاجتماع شعراء اللغة الفارسية، لكن الأباطرة انفسهم ـ عدا جهانكير ـ لم يولوا اهمية كبيرة للشعر. وكان ازدحام الشعراء على أبوابهم شكلياً فحسب، وكانوا يهدفون من خلاله رفع اعتبارهم واتخاذه وسيلة لاعلاء شأنهم.

من جانب آخر، كان الملوك الصفويون يتلذذون بالشعر، وكانت علاقتهم مع الشعراء أقوى واكثر حميمية من علاقة أباطرة الهند المغول بشعراء البلاط(١٣٦).

حينما عاد صائب التبريزي من الهند، التحق بالشاه عباس الثاني في اصفهان، وحصل على لقب ملك الشعراء في البلاط الصفوي. فعاش خلال عهد ذلك الشاه وعدة سنوات من عهد الشاه سليمان. فكان مجلسه في اصفهان، محلاً لاجتماع الأدباء والفصحاء والشعراء(١٣٧).

اذن كانت هناك مكانة مهمة للشعر والشعراء في العهد الصفوي، ولربما من الأفضل استخدام اصطلاح الاسلوب الاصفهاني بدلاً من الاسلوب الهندي. ويقول شبلي النعماني ان انحطاط الشعر الفارسي قد حدث في القرن الثامن عشر وليس في العصر الصفوي(١٣٨). وظهر بين الباحثين الايرانيين من يعتبر العصر الصفوي عصر ازدهار الأدب والعرفان(١٣٩).

هذا الرأي السلبي ازاء الشعر والنثر في العصر الصفوي، نجده ازاء كتابة التاريخ في هذا العصر ايضاً، فيصف ادوارد براون التواريخ التي كُتبت خلال هذا العصر بأنها ليست تواريخ الشعب الايراني وانما هي سيرة السلاطين والأمراء الأجانب الذين حكموا الايرانيين وفق منطق القوة وتسابقوا في ميدان النهب. لذلك من الصعب استخراج موضوع عام قيّم منها. ويمكن بعد عناء شديد وصبر لا حدود له ان نستخرج منها بعض النقاط التي لا تسلط سوى ضوء خافت على الأوضاع والقضايا الدينية والسياسية والاجتماعية(١٤٠).

مرّ زمن طويل على هذا الرأي الذي أطلقه ادوارد براون، وظهرت دراسات جديدة بشأن كتابة التاريخ في العصر الصفوي لا تتفق مع الرأي الذي ذهب اليه براون(١٤١). ويرى أبرز المفكرين الاسلاميين في هذا اليوم ان اسكندر بيك المنشي، والذي انتقد براون أثره، هو المؤرخ الأكبر في العصر الصفوي(١٤٢).

٤ـ المدرسة والعلوم

الى جانب الاهتمام بنشر التشيع واستقطاب نظر علماء المذهب الشيعي، اهتم الملوك الصفويون في تأسيس المدارس وايجاد الأرضية الملائمة لتعليم وتعلم العلوم الدينية. وأخذ العلماء الشيعة الذين قدموا الى ايران، يقيمون في شيراز، وتبريز، وقزوين، ومشهد، وقم، واصفهان وغيرها. وشيّد الملوك والولاة الصفويون عدداً كبيراً من المدارس والمساجد في هذه المدن(١٤٣).

يقول «شاردن» ان عدد المدارس في اصفهان بلغ نحو ٥٧ مدرسة. وكان الوضع، على هذا المنوال ايضاً في سائر المدن الايرانية المهمة. وكان يتولى ادارة شؤون المدارس، ويدفع الرواتب للعلماء والطلاب، ويشرف على شؤون الأوقاف، شخص يحمل عنوان «ملا باشي»، يُنتخب من بين أشهر العلماء(١٤٤).

وفي ظل نشاط العلماء في المدارس الدينية، ودعم الملوك الصفويين، كان من الطبيعي ان تبلغ العلوم الدينية الشيعية ذروتها. فازدهر تفسير القرآن، وعلم الحديث، والفقه والأصول، وعلم الكلام، وظهرت مصنفات قيّمة عديدة بهذا الشأن، وتخرج الكثيرون من تلك المدارس.

على العكس من رأي بعض الباحثين الغربيين الذين يعتبرون ابن رشد (ت ٥٩٤ هـ) آخر فيلسوف اسلامي، كان العصر الصفوي عصر احياء المذهب الاشراقي، الذي يُعد مذهباً فلسفياً مهماً. ويركز مؤسس هذا المذهب الشيخ شهاب الدين السهروردي (ت ٥٤٧ أو ٥٤٨ هـ)، على التعقل الاستدلالي، وكذلك على أهمية الكشف، والشهود، والرياضة في الفكر الاسلامي.

في العهد الصفوي تطورت مدرسة اصفهان الفلسفية بواسطة الميرداماد، وصدر الدين الشيرازي (ملا صدرا) وتلامذتهما مثل احمد العلوي، ومحسن الفيض الكاشاني، وعبد الرزاق اللاهيجي، والقاضي سعيد القمي(١٤٥). ونضجت تعاليم السهروردي في العهد الصفوي وتركت تأثيراً عميقاً على حياة الاسلام العقلية(١٤٦).

حظي الطب في هذا العصر بأهمية ايضاً، فكان لرئيس الأطباء او ما كان يعبّر عنه بـ «حكيم باشي» مقام مهم في البلاط. وكان «قانون» ابن سينا يدرّس في مدارس الدولة الصفوية، وكُتبت عليه شروح عديدة. وكان علم الفسلجة يقوم على اساس الأخلاط الأربعة، وكان الفصاد والمسهل، من الطرق المهمة في الطب آنذاك. فكان الأطباء يأخذون الدم، ويقومون بشتى العمليات الجراحية، ويستخدمون التخدير. وكانت هناك صيدليات منتظمة، وتحقق تطور في صناعة الأدوية، وهو العلم الذي كان لدى الايرانيين تفوّق فيه(١٤٧).

كانت عادة الملوك الصفويين المبادرة الى استشارة العرّافين وقرّاء البخت قبل القيام بأي عمل، فكان يشغل هؤلاء الأفراد مكانة مهمة في البلاط(١٤٨).

كان في اصفهان العديد من المنجمين، أشهرهم من أهالي خراسان. ويقول السائح الفرنسي في العصر الصفوي والذي يدعى «شاردن» ان جميع المنجمين الايرانيين، منحدرون من اسرة فلكية معروفة في مدينة غناباد الصغيرة التابعة لولاية خراسان. وكان جميع الفلكيين الايرانيين المعروفين، منحدرين من هذه الولاية أيضاً كالبيروني، وعمر الخيام، ونصير الدين الطوسي. ولم يكن الشاه الايراني يستخدم أي منجم آخر غير اولئك الذين وُلدوا في غناباد وترعرعوا فيها. ويقال انه توجد في هذه البلدة مدرسة عليا للفلك والنجوم كان يبعث اليها بأبنائهم حتى اساتذة علوم الفلك الموزّعين في سائر أرجاء ايران. ويقال ان صفاء الاجواء في هذه البلدة والجفاف الشديد، من العوامل التي ساعدت على تطور العلوم الفلكية في خراسان، حيث يمكن رصد حركة الكواكب بسهولة. ورغم ذلك لم تكن

أجواء اصفهان وسماؤها، بأقلّ من خراسان(١٤٩).

ازدهر أدب كتابة القصة خلال العهد الصفوي، وظهرت قصص وروايات مهمة. كما تُعد تذكرات الشعراء، من الآثار المهمة التي ظهرت في اطـار التـاريخ الأدبي، فضلاً عن ازدهار أدب كتابة المعاجم(١٥٠).

٥ـ الألعاب والتسليات

كان لدى الناس والملوك في العصر الصفوي ومثل سائر العصور، بعض الألعاب والتسليات. ولكنّ المصادر قلّما تناولت هذا الموضوع. ولربما يعد أهم أثر في هذا المجال، كتاب «حياة الشاه عباس» الذي ألّفه نصر الله فلسفي والذي تطرق الى هذا الموضوع بايجاز. ولا ينبغي ان نفهم من ذلك، ان ذلك البرنامج خاص بالشاه عباس فحسب، وانما ينطبق على جميع عهود العصر الصفوي، لربما مع بعض التـغييرات الطفيفة.

كان من بين ألعابهم، الألعاب النارية واضاءة مصابيح المدن. وكان الشاه عباس يميل نحو هذه اللعبة كثيراً. فكان كلما سافر الى احدى مدن ايران الكبرى أو عاد الى العاصمة من السفر، يأمر بأن تُضاء مصابيح المدينة، وأن تُعد وسائل الألعاب النارية، فكان يذهب لرؤية تلك الاضاءات والألعاب النارية. وكان يدعو السفراء الأجانب في بعض الأحيان لرؤيتها. وقد ينطلق مع نساء القصر للتلذذ بمشاهدتها، كما كان يخرج مع رجال الدولة والأمراء لهذا الغرض في بعض الأحيان.

وكان صيد الوحوش والأسماك، من بين التسليات التي كان يتسلى بها مـلوك الدولة الصفوية. ففضلاً عن اصطياد الحيوانات خلال الأسفار، كان الشاه عباس ينظم في كل عام عدة مهرجانات خاصة بالصيد تجري كل مرة في مكان خاص من أماكن الصيد المعروفة، فينشغل في ممارسة هواية الصيد على مدى عدة أيام. وكان يدعو قبل ذلك الى تجنيد الآلاف من ابناء المدن والقصبات القريبة كي يعملوا على مطاردة الحيوانات واستنفارها كي يسهل على الشاه اصطيادها. وكان الشاه عباس

يهوى صيد الأسماك ايضاً وكان يمارس هذه الهواية كلما عسكر الى جانب البحر او النهر.

كان الشاه عباس يميل أيضاً الى لعبة الكرة والصولجان، فكان كلما فرغ من الحرب او السفر، او اذا أراد تسلية ضيوفه الأجانب، أقبل على ممارسة هذه اللعبة.

من الألعاب التي كانت مشهورة آنذاك أيضاً، لعبة كانت تدعى بـ «لعبة القبق». و«القبق» كان عبارة عن خشبة طويلة تقام في ميدان المدينة الكبير، ويوضع على رأسها قدح ذهبي، او بطيخة أو تفاحة، وأحياناً اناء مليء بالمسكوكات الذهبية، ثم يأخذ الرماة بتسديد سهامهم اليه من على صهوات جيادهم وهي في حالة العدو. وتُقدّم هدية ثمينة لكل من يستطيع اسقاط ذلك الشيء الموضوع على رأس تلك الخشبة الطويلة.

كان مهرجان رش الماء، من المهرجانات الايرانية القديمة المعروفة قبل الاسلام. وكان قدماء الايرانيين يقيمون هذا المهرجان في الرابع من تموز من كل عام، فيرش البعض الماء أو ماء الورد على رؤوس ووجوه البعض الآخر. وكان الشاه عباس يقيم هذا المهرجان أيضاً ضمن مراسم وتشريفات خاصة.

كانت المقاهي في عهد الشاه عباس، مركزاً للتسلية ومحلاً لالتقاء الشعراء والفنانين. فكان كثير من الشعراء يقضي الساعات من كل يوم في تلك المقاهي ليقرأ أشعاره ويستمع الى أشعار غيره. فكانت المقهى أجمل وأروع عند الشعراء من مجالس الشاه. وكان بعضهم ينفق فيها كل ما يحصل عليه.

كانت المقاهي في عهد الشاه عباس، موجودة في معظم المدن الايرانية الكبيرة، فكان معظم الناس يفدون اليها من شتى الطبقات للترويح عن أنفسهم او لقاء اصدقائهم ومعارفهم، وسماع المطارحات الشعرية، وأشعار الشاهنامة، والحكايات والقصص(١٥١)، ومشاهدة شتى انواع الرقص، والألعاب والتسالي الاخرى. وكان الشاه عباس يدخل الى بعض تلك المقاهي دون خبر مسبق، ويتحدث مع الشعراء والفنانين الموجودين فيها.

كانت تُقرأ في المقاهي شاهنامة الفردوسي والقصص الملحمية الاخرى، فكان الكثيرون يرتادون المقاهي لسماع الشاهنامة. ولم تكن قراءة الشاهنامة أمراً سهلاً. وكان معظم قرّائها، من بين صفوف الشعراء والأدباء. وكان الشاه عباس يميل كثيراً نحو شاهنامة الفردوسي، فكان يقرؤها في مجلسه الشعراء الضالعون باللغة وأصحاب الصوت الجميل.

من بين النشاطات التي كانت متداولة في المقاهي: سرد القصص، ومدح الامام علي (ع)، والقاء الكلمات الدينية. فكان الشعراء والمداحون يقفون على موضع مرتفع في المقهى، فينشدون الشعر او يسردون القصص وفي يدهم عصا يحركونها بطريقة خاصة.

كان الملوك الصفويون يستقبلون عامة الناس في اعياد النوروز التي يحتفلون فيها احتفالاً عظيماً في كل عام. وكان الامراء والوزراء وكبار رجال الدولة والعسكر يحضرون بين يدي الملك الصفوي ويقدمون له التهاني والهدايا الثمينة. وكان الملك الصفوي يكرم اولئك الذين قدّموا خدمات جليلة.

كانت هناك العاب اخرى يتسلى بها الملوك الصفويون والشاه عباس مثل العاب الذئب، والثور، والشاة، والصقر الخ(١٥٢).

٦ـ الفن المعماري

تطور الفن المعماري في العصر الصفوي نوعاً وكماً. فتُعد اصفهان، عبارة عن مجموعة معمارية متألقة في العصر الصفوي. وتنم عبارة «اصفهان نصف العالم» عن ذلك التطور المعماري والازدهار الفني الذي تحقق في هذه المدينة خلال هذا العصر. ويدين ذلك التطور الى الجهود التي بذلها الشاه عباس الأول الذي تألق الفن المعماري في عهده وبلغ عصره الذهبي(١٥٣).

شيّد الشاه اسماعيل الأول والشاه طهماسب الاول العديد من المباني، إلّا انها اندثرت جميعاً(١٥٤). وقام الشاه طهماسب بنقل العاصمة الصفوية من تبريز الى

قزوين بعد ان تبين عدم قابلية تبريز على مقاومة الحملات العثمانية. وقام الشاه عباس الأول بنقل العاصمة من قزوين الى اصفهان وذلك في عام ١٠٠٦ هـ.

كانت اصفهان ذات استعدادت طبيعية تسمح للشاه عباس ان ينفّذ فيها مشاريعه العمرانية التي كان يطمح اليها. كما انها تقع في مركز ايران لذلك باستطاعته ان يتصدى للاوزبك بسرعة ويفرض سيطرته على الخليج الفارسي. كما كان بمقدور نهر زاينده رود الذي يخترق هذه المدينة والسهول المحيطة به، ان تحقق مستقبلاً اقتصادياً وعمرانياً زاهراً لها.

كان الصفويون الذين سبقوا الشاه عباس، قد شيدوا بعض المباني لاسيما في تبريز وقزوين(١٥٥)، لكنها لا تُعد شيئاً قياساً الى ما شيدّه الشاه عباس في اصفهان. فقد غيّر هذا الملك الصفوي، الفن المعماري الايراني وقفز به الى الأمام بعد قرن من الجمود.

الحركة التي بعثها الشاه عباس في حقل الفن المعماري، استمرت حتى نهاية العصر الصفوي. والمخطط العظيم الذي كان يدور في فكر الشاه عباس لعاصمته الجديدة كان عبارة عن عاصمة كبرى ذات شوارع، وقصور، ودواوين، ومساجد، وأسواق، ومدارس، وحمامات، وقلاع، وحدائق. وكان الساعد الأيمن للشاه في اعداد هذا المشروع وتنفيذه هو ذلك الشيخ الفاضل العالم بهاء الدين محمد العاملي المعروف بالشيخ البهائي. وكان، فضلاً عن كونه مهندساً معمارياً فذاً، عالماً الهياً، وفيلسوفاً، ومفسراً للقرآن، وفقيهاً، ومنجماً، ومعلماً، وشاعراً، فكان بحق عصارة المجتمع الصفوي في عهد الشاه عباس الكبير(١٥٦).

جهار باغ (اي الحدائق الأربع) وميدان «نقش جهان» العظيم، كانا مظهرين متألقين من مظاهر ذلك المشروع العمراني الكبير. ولم يكن ذلك المشروع يستلزم تهديم اصفهان القديمة، وانما تبدأ فيه المدينة الجديدة من حيث تنتهي المدينة القديمة.

ميدان «نقش جهان»، تحيط به العديد من الأبنية مثل مسجد الشيخ لطف الله، ومسجد الشاه، وعمارة عالي قابو. ويُعدّ مسجد الشيخ لطف الله، ومسجد الشاه، من

روائع الفن المعماري العالي. وكان مسجد الشاه عاماً، ومسجد الشيخ لطف الله خاصّاً. اما «عالي قابو» فكان ـ فضلاً عن كونه محل اقامة ـ مقصورة، وقاعة استقبال، ورواقاً حكومياً يتصل بمشارف القصر(١٥٧).

في النهاية الشمالية لميدان نقش جهان، تقع القيصرية او سوق الشاه التي تربط العاصمة الجديدة بالمدينة القديمة. وكانت تلك السوق تتألف من حمامات متعددة، وفنادق، ومساجد ومدارس(١٥٨).

من الأبنية الاخرى مبنى يُعرف بـ «چهل ستون» ـ ومعناه الأعمدة الأربعون ـ وقد بدأ الشاه عباس الأول بتشييده، وتمّ الانتهاء منه في عهد عباس الثاني. فكان الشاه يستقبل فيه السفراء رسمياً ويقيم مآدب الشرف الرسمية.

من الضروري التنويه الى الأمر التالي وهو ان معمارية العصر الصفوي لا تتلخص في اصفهان وفي المباني الشهيرة التي بناها الشاه عباس والتي لازالت تحيّر العقول الى يومنا هذا(١٥٩). فهناك الكثير من المباني التي تم تشييدها خلال عهود الملوك الصفويين في شتى المدن والمناطق، كالجسور، والحمامات، ومنازل القوافل، والمدارس، والمساجد وغيرها، والتي توحي جميعها بعظمة الفن المعماري في هذا العصر.

٧ ـ حياكة السجاد والنسيج

رغم الجذور القديمة لحياكة السجاد في ايران، لكنّ الصفويين استطاعوا الانتقال بها من حرفة قروية الى نشاط ذي طابع عام بات يؤلف جزءاً مهماً من اقتصاد البلاد. ولربما تأسس اول مصنع لحياكة السجاد في اصفهان، في عهد الشاه عباس(١٦٠).

كان الشاه طهماسب يميل كثيراً نحو السجاد، وقد ارتفع به الى مستوى الفن. وكان قد أمر بحياكة سجاد من الدرجة الاولى، قام باهدائه الى مسجد السليمانية باستنبول. وقيل انه هو الذي وضع تصاميمه ونقوشه. ولا يُعد هذا مثيراً للدهشة

اذا علمنا انه تلق شتى التدريبات الفنية في فترة شبابه(١٦١).

يُعد السجاد الذي صُنع في العصر الصفوي، أجمل انواع السجاد الايراني. ويعود ذلك لعاملين: الاول هو أن هذا اللون من الفن الايراني قد تطور في هذا العصر كثيراً. والثاني هو ان سجاد العصر التيموري لم يصل الينا منه شيء مهم كي يمكن اصدار رأي فيه، بينما لازال سجاد العصر الصفوي قادراً على التعبير عما يتميز به من تطور فني وجمالي(١٦٢).

بما أن السجاد ـ على العكس من الأعمال المعدنية والخزفية ـ غير قابل على البقاء لفترة طويلة من الزمن، لذلك لا توجد في متاحف العالم نماذج ايرانية تعود الى ما قبل القرن العاشر. ومن اقدم النماذج الموجودة، سجادة أردبيلية تُعد من أرقى كنوز متحف فيكتوريا وألبرت البريطاني، ويعود تأريخها الى عام ٩٤٢ هـ اي الى عهد الشاه طهماسب. وتوجد سجادة اخرى تعود الى عام ٩٢٩ هـ اي الى اواخر عهد الشاه اسماعيل الأول(١٦٣).

هناك نماذج اخرى من الأقمشة والمنسوجات الصفوية، موجودة في شتى المتاحف الاوربية، لازالت تنتزع اعجاب الزوار(١٦٤). وحيكت في عهد الشاه عباس سجادة من الذهب والحرير في مدينة كاشان. وكان السجاد الثمين لا يُحاك في اصفهان بناءً على طلبات يقدمها الشاه فقط، وانما بناءً ايضاً على طلبات يقدمها الأثرياء او التجار الذين يصدرونه الى خارج البلاد. وكان الملك البولوني سيغموند الثالث قد ابتاع بعض السجاد الايراني لابنته(١٦٥).

فضلاً عن السجاد، ازدهرت المنسوجات في العهد الصفوي وبلغت ذروتها. فكانت الألبسة الثمينة والمباني المزدانة بالستائر الجميلة الفاخرة، تثير اعجاب الزوار والسواح الأجانب الذين كانوا يفدون الى البلاط الصفوي. وكان الاوربيون في عصر النهضة والروس يميلون نحو الكماليات وأدوات التجمل الايرانية. وكان الايرانيون قادرين على انتاج المنسوجات التي لا نظير لها، نظراً لما كانت تتميز به من حياكة معقدة، واستخدام ذكي وبارع للألوان، وتصاميم مختلفة(١٦٦).

كانت المنسوجات متطورة وواسعة في اصفهان، حتى قيل انه كـان يـعمل في سوق النسيج نحو ٢٥ ألف عامل. وكان رئيس نـقابة النسـاجين، أحـد أقـوى الشخصيات في البلاد. وقيل ايضاً ان عُدد الحياكة كانت تغطي جميع المسافة بين ميدان المدينة المركزي ومبني چهل ستون، والتي كانت تزيد عن ٥٠٠ م.

كانت انواع الأقمشة والمنسوجات، تحاك في اصفهان وشـتى المـدن الايـرانـية الاخرى بمختلف الألوان والتصاميم، وكـانت تـلبي الاسـتهلاك المحـلي، ويـصدر الفائض منها الى الخارج. وليس غريباً ان توجد في اوربا سـوق مـزدهرة لبـيع المنسوجات الايرانية كالمخمل، والحرير، والأطلس(١٦٧). وكان تصدير الحرير من ايران الى البلدان الاخرى في العصر الصفوي، يحظى بأهمية فائقة لاسيا في عـهد الشاه عباس الذي تطور فيه انتاج الحرير وتصديره بشكل كبير. ويقول «شاردن» ان ايران كانت تصدر الى اوربا نحو ٢٢ ألف رزمة من الحرير سنوياً(١٦٨).

٨ـ صناعة الخزف

تركت صناعة الجرار الخزفية الايرانية تأثيراً كـبيراً عـلى صـناعة الجـرار في الشرق والغرب. وكانت ايران تأتي بالدرجة الثانية في صناعة الجرار الخزفية بعد الصين. وبلغت هذه الصناعة ذروتها في ايران خلال العصرين المغولي والسلجوقي، لكن المنتوجات الصفوية كانت ذات نوعية فريدة، وكانت مدينة كاشان الايرانية مركزاً شهيراً في صناعة الخـزف منذ اوائل العصر الاسـلامي وقـد اقـتُبس اسم «الكاشي» او «القاشي» من هذه المدينة، على اعتبار أنه نوع من الخزف الصقيل. وكانت اصفهان ومشهد مركزين رئيسيين في صناعة الخزف ابان العصر الصفوي. ولم يلجأ الخزفيون الاصفهانيون الى تقليد الخـزف الذي كـان يـصنع في العـهود السابقة وانما أحدثوا تغييراً وتجديداً في هذه الصناعة، مستخدمين فيها قوة الخيال والابداع(١٦٩).

من أهم المستجدات في تاريخ صناعة الخزف خلال العصر الصفوي، هو التبادل

الواسع للفنون والتصاميم بين ايران والصين. فالى ما قبل القرن التاسع، لم يكن الخزفيون الايرانيون يستخدمون اللونين الأبيض والأزرق في الصناعة الخزفية، وهما اللونان اللذان كانا مستعملين في الأواني الخزفية الصينية(١٧٠). وفي مطلع العصر الصفوي كانت الأواني الخزفية الصينية منتشرة في الأسواق الايرانية. وكانت لدى السلاطين الصفويين مجاميع من هذه الاواني. وكان الشاه عباس يهوى كثيراً جمع الأواني الخزفية، وشيد في عالي قابو باصفهان ومقبرة جده الشيخ صفي الدين في اردبيل، غرفاً خاصةً بتلك الأواني، لاسيما تلك التي جلبها من الصين(١٧١).

استقدم الشاه عباس الأول اساتذة فن صناعة الخزف من الصين الى ايران، فراحت تُصنع في ايران آنية خزفية بيضاء وزرقاء لا تقل في جودتها عن الآنية الخزفية الصينية(١٧٢). وقد كانت ايران تنتج في العصر الصفوي شتى انواع الآنية الخزفية ذات الألوان المختلفة، والمزدانة بأنواع النقوش والزخارف، وبمختلف الأحجام، ولمختلف الأغراض(١٧٣).

٩ـ تأثير الاوربيين على ايران

لم تتحدث المصادر الاوربية عن دخول أي اجنبي مسيحي الى البلاط الصفوي في بداية العصر الصفوي. وكان من النادر ان يحصل مثل هذا الأمر في عهد الشاه طهماسب، اذ كان معروفاً في احتقاره للمسيحيين. لكننا نجد حضوراً مشهوداً لهم في بلاط الشاه عباس الذين كان يؤمن بحرية الفكر والعقيدة ويرغب في حضور الاوربيين في بلاطه. وقام هؤلاء بنشر الفنون الجميلة وكذلك الآداب والتقاليد الغربية(١٧٤).

كان الشاه الصفوي يستقي بعض المعلومات، من الأجانب الذين كانوا يخدمونه كمترجمين وأدلاء خلال السفر. وكان يستخدم بعضهم كسفراء له الى الدول الاخرى. فقد بعث الشاه عباس شخصاً غربياً يدعى انطوني شرلي على رأس وفد

كبير، الى جميع الملوك والأباطرة الاوربيين(١٧٥).

كان الرسامون والنقاشون الاوربيون يمثلون اكبر مجموعة فنية غربية في البلاط الصفوي. والمبنى الأول الذي شيده اسماعيل الصفوي في شيراز والذي يدعى «القبعة الافرنجية»، تم تزيينه على يد نقاش برتغالي. وكان هذا المبنى قائماً في عام ١٠٢٦ هـ وكان النقاشون والرسامون الاوربيون يحصلون على مزايا كثيرة من الملوك الايرانيين(١٧٦).

كانت صناعة الساعات، أحد الفنون الغربية الملفتة للنظر في العصر الصفوي. وكان الشاه صفي قد بعث رسالة الى الملك الانجليزي تشارلز الاول، يسأله فيها ان يبعث اليه عدداً من المهرة في صناعات المينا، والساعات، والبنادق.

يشير السائح الفرنسي «تاورنية» في كتاب سفره، الى اسم «رودلف اشتاديلز» الذي قدم الى ايران تلبية لدعوة الشاه صفي. وكان هذا الرجل سويسرياً ماهراً في صناعة الساعات. فأقام في اصفهان منكبّاً على صناعة الساعات. ونجح في صناعة ساعة صغيرة جداً بحجم العملة الايرانية المسماة «الأشرفي»، وكانت ذات جرس يدق. فابتاعها البريطانيون بمئتي أشرفي وأهدوها الى امام قلي خان حاكم ولاية فارس، فأهداها بدوره الى الشاه صفي، فشدّها الأخير الى قلادة ذهبية ووضعها في عنقه. وأُحضر «رودلف» بعد فترة الى بلاط الشاه لتصليح ساعته، فأصبح من المقربين منه. وازدهر خلال تلك المرحلة، فنّ صناعة الساعات في ايران، وعُرِف عن الشاه ولعه الشديد بها، فكان لا يعود تاجر أرمني من اوربا إلّا ويحمل معه عدداً من الساعات للشاه او لاعتماد الدولة(١٧٧).

أهدى رهبان صومعة اوغسطين في اصفهان، ساعة كبرى للشاه عباس، فوضعها في أعلى باب السوق(١٧٨). ولكنها توقفت عن العمل بعد فترة، ولم يكن هناك من يصلحها، لأن الساعاتي السويسري «رودلف اشتاديلز»، كان قد أُعدم لارتكابه جريمة القتل(١٧٩).

كان يوجد في ايران ستة من الصناعيين الفرنسيين في عام ١٠٦٥ هـ كان

أحدهم صانعاً للساعات وآخر صانعاً للحلي. وكان فيها ايضاً هولندي يعمل في صناعة الياقوت. وثمة تقرير يتحدث عن ثلاثة من اهل البندقية يعملون في حقل صناعة الساعات، وآخر فرنسي يعمل في المجال الطبي(١٨٠).

كان هناك حضور للمهندسين الاوربيين في ايران ايضاً وقد قاموا بأعمال مفيدة. كان احدهم يدعى «جينة» وقد اوكل اليه الشاه سليمان مهمة اعداد مشروع عمراني كبير، يتمثل في شق نفق بين جبل كوه رنك وزاينده رود، غير ان هذا المشروع لم يتحقق بسبب تدخل رجال البلاط(١٨١).

١٠ ـ التسليح العسكري

كانت معركة جالدران، أول مواجهة عسكرية جادة بين الدولة الصفوية الفتية والامبراطورية العثمانية القوية. وحقق العثمانيون في هذه المعركة النصر على الصفويين بفعل ما كان لديهم من أسلحة نارية ومدفعية ثقيلة. ولكن هل كان الصفويون يجهلون وجود الأسلحة النارية، ام كانت هناك أسباب اخرى منعتهم من الحصول عليها او استخدامها؟

يعتقد روجر سيوري ان الصفويين لم يستخدموا السلاح الناري في معركة جالدران لأنهم لم يكونوا راغبين في ذلك وليس لأن ذلك السلاح لم يكن معروفاً في ايران او انهم كانوا جاهلين به. وتوجد الكثير من المؤشرات في المصادر الغربية والايرانية التي تؤكد على ان الايرانيين كانوا على معرفة باستخدام المدفعية، وان الجيوش الايرانية كانت مجهزة بالبندقية، قبل عهد الشاه عباس الأول بكثير(١٨٢).

استخدام السلاح الناري، ذو خلفية طويلة في اوربا. وقد اخذ العثمانيون هذا السلاح من الاوربيين. وكان تركمان الآق قوينلو على معرفة بهذه الأدوات الحربية ايضاً. وعليه يُرفض الرأي الذي يقول بأن الصفويين كانوا يجهلون الأسلحة النارية(١٨٣).

كان جيش القزلباش يمثل العمود الفقري للجيش الايراني قبل مجيء الشاه

عباس وتأسيس جيش حديث. وكان أفراد القزلباش من التركمان، والفرسان الذين يرتدون الدروع الخفيفة، ويتسلحون بالسهام، والسكاكين، والخناجر، وأحياناً بالطبرزين.

كانت مهمة الولاة العسكريين على الولايات، اعداد القوات الكافية للشاه عند الحاجة لاسيما في حالة الاستعداد للحرب. وكانت عناصر القزلباش تتميز بانسجام كبير، وتؤلف قوة عسكرية كبرى، كانت تحظى بالاحترام حتى من قبل العثمانيين. وكان الاوربيون يحسبون لهذه القوة حساباً أيضاً لأنهم جرّبوها(١٨٤). وقد كان من الضروري ايجاد تغيير في تركيبة الجيش الصفوي في أعقاب هزيمته في معركة جالدران. وفكّر الصفويون منذ ذلك اليوم بالتسلّح بالأسلحة العصرية من أجل الحفاظ على كيانهم.

قام الشاه طهماسب الأول بانتخاب صفوة شباب البلاد، فشكّل منهم النواة الأساسية لجيش خاص يتألف في بادئ الأمر من خمسة آلاف عسكري، كان يطلق عليه اسم «قورجي». وكان عدد أفراد الجيش العام في عهد الشاه طهماسب يبلغ نحو ٦٠ ألف فارس(١٨٥).

ويُستشف مما أورده «دالساندي» في كتاب رحلته ان استخدام المدفع والبندقية، كان أمراً متداولاً في عهد الشاه طهماسب(١٨٦). وينبغي ان يُعد هذا مقدمة للاصلاحات التي شهدها الجيش في عهد الشاه عباس. وتدل الأحداث على ان البرتغاليين ساعدوا الشاه طهماسب في صناعة الأسلحة(١٨٧).

لقد استخدم الشاه طهماسب الأسلحة والمدفعية الثقيلة في حربه مع الاوزبك، وفي حرب «جام»(١٨٨). وكانت الاوضاع الداخلية مضطربة في عهد الشاه اسماعيل الثاني والشاه محمد خدابنده. وطالما نقض العثمانيون والاوزبك حرمة السيادة الايرانية. وحينما حلّ عهد الشاه عباس، جعل هذا الشاه اصلاح الامور العسكرية على رأس قائمة الاصلاحات التي قرر القيام بها، لأنه كان يعلم انه لا

يستطيع ان يشيع الأمن والنظام في البلاد بدون وجود جيش فاعل قوي. وكان الشاه عباس نفسه، جندياً حقيقياً متمرساً، لا يخشى من الاشتراك في الحروب والمعارك مهما كانت حامية الوطيس، فكان جنوده وقواده يتأسون به، ولديهم الاستعداد للتضحية من أجل الوطن.

قام الشاه عباس بتأسيس جيش جديد أسماه «شاهسون»، اي انصار الشاه. وكان هذا الجيش يقوم على الاتحاد، والانضباط، وخدمة الشاه، فحل هذا الأساس الجديد محل الأساس القديم الذي كان عبارة عن الوفاء للقبيلة والطائفة. ومن خصوصيات هذا الجيش الجديد أيضاً أنه أذاب في بوتقته سائر العناصر التي تنتمي الى أديان وأعراق اخرى، كالنصارى، والشركس، والأرمن، والكرجيين، والتتر، والتاجيك(١٨٩).

أفاد الشاه عباس من المعلومات العسكرية التي كانت لدى انطوني شارلي وروبرت شارلي. وسمح لهما أيضاً في تأسيس نواة لجيش جديد في ايران، بحيث يضم في صفوفه شتى الصنوف العسكرية كالمشاة، والفرسان، والمدفعية. وكان بين المرافقين للأخوين شارلي رجل بارع في صناعة المدفعية والقذائف، فاستخدمه الشاه عباس في مشروع صناعة المدفعية في ايران(١٩٠).

بفضل تلك الجهود نجح الشاه عباس في ايجاد جيش قوي(١٩١) كان موفقاً في المجابهات الداخلية والخارجية. والذي يبعث على الأسف ان الملوك الذين اتوا في اعقاب الشاه عباس لم يواصلوا عملية التغيير والاصلاح التي ابتدأها، فأخذ الضعف يدب الى صفوف هذا الجيش تدريجياً، الى ان جاء نادرشاه الأفشاري، ليبعث الحياة فيه من جديد.

١١ ـ النظام الاداري للصفويين

كان «الشاه» يقف على رأس جميع الامور في هيكلية الدولة الصفوية. وكانت البلاد تدار بدعم من قبل أصحاب المناصب والمقامات(١٩٢) التالية: الوكيل الذي

كان يفوّض الشاه اليه سلطته الدنيوية والمعنوية. لذلك كان يلعب دوراً بارزاً في الشؤون السياسية. وكان لديه تأثير كبير على انتخاب صدر البلاد. وكـان هـذا المنصب يعطى للصوفية في بداية عهد الشاه اسماعيل، لكنّ الشاه اسماعـيل أخـذ يعطيه فيما بعد للايرانيين من اجل الحد من سلطة القزلباش. وفقد هـذا المـنصب أهميته بعد معركة جالدران. ولم يعد صاحب هذا المنصب وكيلاً للشاه في الامور الدينية والدنيوية، وانما راح يُنظَر اليه كرئيس للجهاز الاداري. ولم يعد وجود لهذا المنصب في اواخر العصر الصفوي(١٩٣).

المنصب الآخر، هو امير الامراء. فكان هذا الامير، يُنتخب من بين كبار قادة القزلباش الذيـن يؤلفون القـوام العسكري للدولـة الصفوية. وفضـلاً عـن القـوة العسكريـة التي يتمتع بهـا أمير الامـراء، كان يتمتع باشراف جديـر بـالملاحظة علـى الشؤون الادارية، وهذا يعنـي عدم وجود حدود واضحة بين المسؤوليات التي تنهض بها شتى الأجهزة والواجـبات المـلقـاة عـلى عـاتـق كـل مسـؤول حكومـي.

كان الـ «قورجي باي»، من المناصب العسكـرية في الدولة الصـفوية، وكـان صاحب هذا المنصب يتولى قيادة الأفواج العشائرية، وأصبح ذا أهمية اكبر بـعد الشاه اسماعيل الأول(١٩٤). وكانت المناصب العسكرية ذات اهمية كبرى في العصر الصفوي لاسيما في عهد الشاه عباس الذي أسس جيشاً منتظماً ومسلحاً اعـتماداً على الشركس والكرجيين(١٩٥).

كان منصب «الوزير الأعظم»، يأتي بعد الشاه من حيث الأهمية وكان يُلقّب باعتماد الدولة. وكان الوزير الأعظم، يحتل المرتبة الاولى في الديوان ويتبع له عدد من صغار الوزراء والكتّاب والمنشئين وغيرهم، حيث يتولى كل واحد منهم أحد الأعمال الادارية. وكان الوزير الأعظم يوقّع على التعيينات والمناصب الديوانـية. وكانت للديوان الذي يعرف بـ «دفترخانه همايون»، الكثير من الأعمال، مثل تنفيذ أحكام وأرقام الايرادات، والاقطاعات، والرواتب، والاعفاءات والسماحات بجميع

الوانها. كما كان يتولى دفع رواتب الجيش والقوات المسلحة، وتدقيق جميع الصفقات والوثائق العسكرية والمالية(١٩٦).

الصدر، أهم منصب عقائدي وديني في الدولة الصفوية(١٩٧). وكان هذا المنصب موجوداً ما قبل الدولة الصفوية أيضاً. ويترأس الصدر جميع المقامات الدينية، ويتولى شؤون وادارة جميع الموقوفات. لكنه لا يعمل مستقلاً عن التشكيلات والمؤسسات السياسية. وكان يتقصى الأمور القضائية الى جانب «ديوان بيكي»، الذي يُعدّ ممثلاً مطلق الصلاحية للشاه في الحقوق العامة(١٩٨). ويساعد هؤلاء المسؤولين جميعاً العشرات من المسؤولين الأصغر منهم، في العاصمة(١٩٩). والوضع على هذا المنوال ايضاً في الولايات. اي ان نظام الولايات، يمثل حالة مصغرة للوضع في العاصمة(٢٠٠).

دراسة عوامل سقوط الدولة الصفوية

مثلما يُعد ظهور هذه الدولة وتأسيسها، امراً مهماً ومستقطباً للاهتمام، يُعد كذلك سقوطها مهماً ايضاً. وطالما كتب العديد من الباحثين في ذلك كثيراً من التفسيرات والتحليلات. وكان كل واحد منهم ينظر الى هذا الموضوع من منظار خاص. ومن أجل بلورة فهم صحيح لعوامل سقوط الدولة الصفوية، ينبغي النظر الى تاريخ هذه السلالة وظروفها والمنعطفات التي مرت بها جميعاً. ولا يصح القاء مسؤولية سقوط دولة استمرت ٢٢٠ عاماً على عاتق آخر ملوكها.

كانت الدولة الصفوية دولة شيعية، اعلنت عن انتمائها الى المذهب الشيعي منذ اليوم الأول لظهورها على المسرح السياسي. ويقول السائح البولندي «كروسينسكي» الذي زار الدولة الصفوية في اواخر عمرها، ان المذهب كان ذا تأثير على سقوط هذه الدولة(٢٠١)، لأن قرنين من الحروب والصراعات مع الدول السنية في المنطقة ألحقت خسائر لا تعوّض بالدولة الصفوية. وكانت عوامل السقوط قد أخذت بالظهور قبل الشاه عباس. فإيمان المريدين الصفويين بالمرشد

الكامل قد انتهى تماماً، والقوة المعنوية التي كانت اساس تشكيل السلالة الصفوية قد ضعفت، لكن هذا السقوط قد تأخر بسبب عدم ظهور مهاجم من الخارج، وظهور مصلح باسم الشاه عباس.

بالرغم من ان الشاه عباس قد أحيا ـ ولو بشكل ظاهري ـ عظمة ايران، إلّا انه زرع بذور بؤسها من خلال بعض الأعمال والممارسات(٢٠٢). فسياسته في قتل وحبس بعض الامراء، قد أخْلَت البلاد من وجود الكوادر الكفوءة. كما تركت سياسة تحويلات الاملاك العامة الى املاك خاصة بالشاه، آثاراً سلبية على البلاد، سيما وأن هذه السياسة قد مورست بشكل أشد من قبل الملوك الذين أتوا من بعده. كما ضيّق جيش شاه عباس الجديد، الخناق على القزلباش الذين يُعدون مؤسسي الدولة الصفوية. ولم تكن العناصر الشركسية والكرجية المنتمية الى الجيش الجديد، متفاعلة مع هذه الدولة.

يمكن ان تكون عوامل سقوط الدولة الصفوية: عامة، وخاصة، ومباشرة. وتعد العوامل العامة من اهم تلك العوامل والتي يمكن تلخيصها في: ضغط الحكام والولاة، والضغوط المالية، وعدم الاهتمام بالأوضاع العامة للبلاد، وسخط الناس، والاختلاف بين امراء الجيش وولاة الأمر، وعدم كفاءة السلاطين، وضعف الأجهزة الادارية، وعدم وجود حكومة مركزية.

ومن بين العوامل الخاصة: ظهور رجال الدين المزيفين، وتربية ولي العهد في الجناح النسوي، وضعف الجانب الروحي وتزعزع الايمان بالمرشد الكامل، اي الشاه.

العامل المباشر الذي أسقط الدولة الصفوية كان الغزو الذي قام به الأفغان على اصفهان(٢٠٣). وقد وفّر الضعف الذي تميز به الشاه الصفوي سلطان حسين(٢٠٤)، الأرضية لذلك الغزو وسقوط الدولة الصفوية العظيمة على يد حفنة من الأفغان، خلال فترة قصيرة.

الشعائر الحسينية ومراسم الرثاء

لا توجد نظرة واحدة لدى المذاهب الاسلامية تجاه أهل البيت النبوي. فالشيعة يعتبرونهم أحد الثقلين اللذين خلّفهما الرسول محمد (ص)، مستندين في ذلك الى العديد من الأد لة القرآنية والحديثية والكلامية والتاريخية، ويرون وجوب اتباعهم، لأن الله عصمهم وجعلهم أئمة للمسلمين من بعد الرسول الاكرم محمد (ص). غير ان لأهل السنة رأياً آخر، وهم يرفضون على الأقل عصمة أئمة اهل البيت (ع) وامامتهم السياسية. ورغم ذلك يحظى آل البيت النبوي باحترام جميع المسلمين باختلاف مذاهبهم وفرقهم، ويمثلون المحور المشترك للأمة الاسلامية.

يُعد موضوع الحداد على اهل البيت ورثائهم، لاسيما في ذكرى استشهاد الامام الحسين (ع) وأنصاره وأصحابه في ٦١ هـ بتلك الطريقة المؤلمة، من المواضيع ذات الصلة بأهل البيت (ع). وكانت مراسم الحداد والتأبين تجري في مساحة ضيقة في بادئ الامر، ثم أخذت تنتشر وتشيع بين المسلمين بحيث تحولت الى شعيرة اسلامية، وجزء من الثقافة الدينية.

لا ينبغي ان يغيب عن البال بأن حبّ المسلمين لآل الرسول (ص) وعترته الطاهرة تلبيةً للأمر الالهي وايماناً بالرسالة وعملاً بوصايا الرسول المتكررة بذريته، كان يتجلى بين الناس في قالب ذكر فضائل هذه الذرية وسجلّها الحافل بالفضائل والمكرمات. ثم اخذت هذه النزعة تتبلور تدريجياً وتتحول الى شعائر خاصة في الأوساط الشعبية، وأقبل الشعراء والخطباء على تخليد ذكريات أهل البيت بشعرهم وكلماتهم.

حديث الرسول (ص) عن الحسين (ع)

تحدثت ام سلمة ـ احدى ازواج الرسول (ص) ـ للامام الحسين (ع) قائلة:

«كان جبرئيل عند رسول الله ﷺ وأنت معي فبكيت فقال رسول الله ﷺ: دع ابني فتركتك فأخذك ووضعك في حجره فقال جبرئيل أتحبه؟ قال نعم؛ قال فان أمتك ستقتله. قال وان شئت أن أريك تربة ارضه التي يقتل فيها؟ قال نعم؛ قالت: فبسط جبرئيل جناحه على أرض كربلاء فاراه إياها. فلما قيل للحسين هذه أرض كربلاء شمها وقال هذه والله هي الأرض التي أخبر بها جبرائيل رسول الله وانني اقتل فيها.

وفي رواية: قبض منها قبضة شمها وقد ذكر ابن سعد في (الطبقات) عن الواقدي بمعناه وقال: فاستيقظ رسول الله ﷺ وبيده تربة حمراء»(٢٠٥).

أورد المؤرخ المعروف «ابن سعد»:

«لما مر عليّ عليه السلام بكربلاء في مسيره الى صفين وحاذى نينوى قرية على الفرات وقف ونادى صاحب مطهرته اخبر أبا عبد الله ما يقال لهذه الأرض فقال كربلاء فبكى حتى بل الأرض من دموعه ثم قال دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقلت له ما يبكيك فقال كان عندي جبرئيل آنفاً واخبرني ان ولدي الحسين يقتل بشط الفرات بموضع يقال له كربلاء ثم قبض جبرئيل قبضة من تراب فشمني إياها فلم أملك عيني ان فاضتا»(٢٠٦).

الأئمة والحداد على الحسين

لعب ائمة اهل البيت عليهم السلام دوراً قيّماً في تبيان أهمية تخليد عاشوراء الحسين وتسليط الضوء على القيم المعنوية والدينية لثورة الامام الحسين(ع). وكانوا ينصبون المآتم الخاصة بهذا الغرض ويظهرون الحزن ويتحدثون عن مظلومية اهل البيت وسيد الشهداء الحسين بن علي (ع).

اول مأتم على الحسين وشهداء كربلاء، أقامه الامام علي بن الحسين السجاد (ع) وعمته العقيلة زينب بنت علي (ع) حين مرورهما على مواضع القتلى في

الحادي عشر من المحرم. وقد تأثر بذلك المشهد الصديق والعدو، بشهادة التاريخ(٢٠٧). وتكرر هذا المأتم في مجلس عبيد الله بن زياد بالكوفة، ومجلس يزيد بن معاوية بالشام. وقد عملت تلك المآتم وما زخرت به من نشاطات اعلامية مكثفة مارستها اسرة الامام الحسين لاسيا ولده الامام زين العابدين والسيدة زينب الكبرى، على كشف القناع عن وجه يزيد بن معاوية وحاشيته، وتعريتهم أمام الجماهير، وتحويل ذلك النصر الظاهري الذي تصور الظالمون أنهم حققوه، الى خسارة وخزي وعار، وتبديل مجالس الفرح التي ارادوا لها ان تُقام احتفالاً بقتل الحسين وآل الرسول الى مآتم ومجالس نوح وبكاء على هؤلاء المظلومين، فزُرعت بذلك في قلوب الناس بذور البغض والحقد على البيت الأموي(٢٠٨).

ويبدو أن ذلك التأثير الذي أفرزته نشاطات الأسرة الحسينية قد امتد الى اسرة يزيد نفسه، فاضطر الى تبرئة نفسه من قتل الحسين وأولاده والقاء تبعه تلك الجريمة النكراء على عاتق واليه على الكوفة عبيد الله بن زياد(٢٠٩).

سعى الامام علي بن الحسين السجاد (ع) لتخليد ملحمة عاشوراء الى درجة انه كان يبكي حينما يشرب الماء او يتناول الطعام، او حينما تُذبح امامه شاة. وقد أثارت تلك الحالة أحد غلمانه فقال له:

«جُعلت فداكَ يابنَ رسول الله إني أخافُ عليكَ ان تكونَ من الهالكين. قال: إنّما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون»(٢١٠).

وكان يقول له في بعض الأحيان:

«ويلك ـ أو ثكلتك أمُّكَ ـ والله لقد شكى يعقوب الى ربه في اقل مما رأيتُ حتى قال: يا أسفى على يوسفَ. إنه فقد إبناً واحداً وأنا رأيت أبي وجماعة أهل بيتي يذبحون حوالي»(٢١١).

وأدام الامام محمد الباقر (ع) نهج ابيه الامام السجاد (ع) في رثاء ابيه وتأبينه. فكان يدعو ـ مثلاً ـ الشاعر الشيعي المعروف الكميت الأسدي لانشاد الشعر في

واقعة الطف (كربلاء). ويأمر بتعميم المجالس التي تؤبّن الامام الحسين وتتحدث عن بطولات شهداء كربلاء وتضحياتهم. وكان يشارك في تلك المجالس ويبكي ويقول:

«ما من رجل ذكرنا أو ذكرنا عنده يخرج من عينيه ماءٌ ولو مثل جناح البعوضة إلاّ بنى الله له بيتاً في الجنّة، وجعل ذلك الدمع حجاباً بينه وبين النار»(٢١٢).

كانت تقام تلك المجالس والمآتم في ظل ظروف كان فيها النظام الأموي يحارب بشدة اهل البيت (ع) ويصر على طمس معالمهم والتعتيم على ذكرهم وفضائلهم، ويعاقب أشد العقوبة على ذكر الحسين ونصب المأتم عليه وزيارة قبره.

عاش الامام جعفر الصادق (ع) خلال المرحلة التي شهدت فيها السلطة الاموية ضعفها ومن ثم سقوطها، وبداية العصر العباسي، فوجد الفرصة مناسبة لذكر فضائل اهل البيت (ع) واقامة مجالس احياء ذكرى استشهاد الامام الحسين (ع) وأسرته وصحبه، ودعوة الامة للاستلهام من تلك الثورة التي فجرها سبط الرسول وريحانته والتي استرخص فيها كل شيء حتى روحه الشريفة، من اجل الدفاع عن الدين واعلاء كلمة لا اله إلّا الله. وانطلاقاً من خصوصية تلك الفترة، فقد كانت معظم الاحاديث التي تحث على تأبين الامام الحسين ورثائه وتخليد ذكراه وثورته، صادرة عن الامام الصادق (ع). وتشير الروايات الى انه (ع) كان يجمع أقرباءه وأصحابه في يوم عاشوراء لتأبين الامام الحسين. وكان يضطر الامام في بعض الاحيان لاقامة تلك المراسم بشكل خفي خوفاً من السلطة العباسية. وكان يشجع الشعراء على رثاء الحسين وأهل بيته وذكر مصائب كربلاء(٢١٣).

حينما وطّدت السلطة العباسية أركانها وفرغت من القضاء على الامويين تماماً، اخذت تفرض ظروفاً قاسية على أئمة اهل البيت النبوي (ع). وحينما كان الامام علي بن موسى الرضا وسائر الأئمة (ع) يعقدون المجالس لتأبين الامام الحسين كان

يحضرها عدد من كبار الشعراء المسلمين كالسيد الحميري، والكميت الأسدي، ودعبل الخزاعي، فينشدون الأشعار في رثاء ومدح أهل البيت، وهم على استعداد تام للاستشهاد لأنهم كانوا يعلمون ان السلطة كانت لهم بالمرصاد وتحصي عليهم أنفاسهم، وهذا ما يكشف بشكل واضح عن استمرار المأتم الحسيني في القرنين الثاني والثالث(٢١٤).

دور البويهيين في نشر الشعائر الحسينية

حينما سيطر البويهيون على بغداد عام ٣٣٤ هـ خفّت حدة التعصبات المذهبية والطائفية المدمرة كثيراً، وتمهدت الأرضية لحرية التعبير، واستعراض الطاقات العلمية والثقافية لشتى المذاهب الاسلامية. ورغم انتماء البويهيين للمذهب الشيعي، الا انهم لم يدعموا رسمياً مذهباً بعينه، فعملت هذه الحرية المذهبية النسبية التي توفرت بفضل هيمنتهم على جزء من العالم الاسلامي، على اندفاع الشيعة ـ ومثل سائر المذاهب الاسلامية الاخرى ـ الى التعبير عن آرائهم وممارسة شعائرهم وطقوسهم بحرية والتي منها اقامة المراسيم الحسينية بشكل علني في بغداد، مركز الخلافة الاسلامية(٢١٥).

كانت تلك المراسم الحسينية، تواجه ردود فعل سلبية من قبل بعض حنابلة بغداد في بعض الأحيان، وتنتهي الى بعض أعمال العنف ضد تلك المراسم. ورغم ذلك تُعد، تلك الفترة منعطفاً تاريخياً في احياء ثقافة عاشوراء ونشر مراسم التأبين الحسيني.

الى جانب تلك المراسم الجماهيرية، انبرى بعض المفكرين والعلماء والشعراء الشيعة كالشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، والشيخ الصدوق، والشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، والسيد المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، وغيرهم، الى التحقيق في معارف أهل البيت وتأليف الكتب القيمة في شتى ابواب الفقه، والاصول، والكلام، والتاريخ، والرجال، والحديث، وتأسيس المدارس، واقامة المناظرات، من اجل تسليط الضوء على نهج

أهل البيت واصولهم ومبادئهم العلمية والدينية.

حينما سقط البويهيون واستولى السلاجقة على مقاليد الامور، عاد التعصب المذهبي وعدم التساهل للهيمنة على العالم الاسلامي ومركز الخلافة(٢١٦). غير ان المآتم الحسينية استمرت بشكل سري وحتى بشكل غير مباشر في قالب مجالس الخطابة والكلمات. وأخذت تنتشر في شرقي البلاد لاسيما في مدن مثل قم، وكاشان، ومناطق مختلفة في خراسان وماوراء النهر(٢١٧).

انبرى الشعراء الناطقون بالفارسية ـ وعلى غرار الشعراء العرب ـ لرثاء الحسين (ع) وانشاد الشعر في واقعة عاشوراء وأحداث كربلاء. وهب الكثير من الشعراء الشيعة والسنّة مثل الكسائي المروزي (ت ٣٩١ هـ)، والحكيم ناصر خسرو البلخي (ت ٤٨١ هـ)، والسنائي الغزنوي، والأديب صابر، والخاقاني الشرواني (ت ٥٩٥ هـ)، وظهير الدين الفاريابي (ت ٥٩٨ هـ)، وجلال الدين المولوي البلخي (ت ٦٧٢ هـ)، وعلاء الدولة السمناني (ت ٧٣٦ هـ)، والعطار النيشابوري (ت ٦٢٧ هـ)، وغيرهم كسيف الدين محمد الفرغاني(٢١٨) (في النصف الثاني من القرن السابع)، الى دعوة الناس لاقامة الشعائر الحسينية.

الشعائر الحسينية في نظامية بغداد

رغم التعصب المذهبي الشديد الذي كان عليه السلاجقة والخلفاء العباسيون، إلّا أنّ الشعائر الحسينية كانت تقام ليس بين الشيعة فحسب، وانما بين أهل السنة أيضاً. وورد انهاقد نفذت الى داخل المدرسة النظامية ببغداد والتي اوجدت من اجل نشر الأشعرية بل وحتى قمع الشيعة لاسيما الاسماعيلية. فكان في هذه المدرسة علماء كبار مثل محمد بن عبد الله البلخي (ت ٥٩٦ هـ)، وعلي بن الحسين الغزنوي، يحيون في هذه المدرسة ذكر أهل البيت ويستعرضون المصائب التي لاقوها، لاسيما ما جرى للسيدة فاطمة الزهراء (ع)(٢١٩).

الشعائر الحسينية منذ الغزو المغولي وحتى الدولة الصفوية

في أعقاب الغـزو المــغولي الذي اسـقط الدولة العـباسية (١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ)، انتشرت الشعائر الحسينية، بحيث باتت تقام في عهد التيموريين (٧٨٢ ـ ٩١١ هـ) بشكل واسع. وكان السلاطين التيموريون انفسهم لعبوا دوراً واضحاً في نشر هذه المراسم، وكانوا يعبرون بشكل صريح عن حبهم لأهل البيت وذريتهم، ويكرمون العلماء الشيعة والسنة معاً، ويدعمون العـرفاء(٢٢٠). وقـد لعب كـتاب «روضـة الشهداء» الذي كتبه ملا حسين الكاشفي السبزواري (ت ٩١٠ هـ) دوراً مهماً في نشر الشعائر والمآتم الحسينية.

الأسرة الصفوية ونشر الشعائر الحسينية

بذل الصفويون جهوداً كبرى وواسعة لنشر المذهب الشيعي وتعميق مـبادئ وأفكار ومنهج أهل البيت النبوي. ورغم الآراء الشتى التي قيلت عن أفكار هذه الأسرة وعملها لاسيما تعاملها مع معارضيها من المذاهب الاخرى، لا يمكن تجاهل الأمر التالي وهو أنها جعلت المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في ايران، وعملت على تعزيزه وتجذيره.

القاء نظرة سريعة على الحياة السياسية لهذه الأسرة، يكشف انها أمضت معظم حياتها في حرب مع خصومها، ولم تسنح لها الفرصة الكافية للاهتمام بشكل كامل ودقيق باجراء الشعائر الدينية لاسيما الشعائر الحسينية(٢٢١).

وهذا امر يمكن ملاحظته بـوضوح في الدواويـن التي خـلّفها شـعراء العـصر الصفوي، اذ لا نجد في الدواوين الشعرية التي ترجع لعهد اسماعيل الأول أثراً مهماً لعاشوراء وكربلاء. وأخذ الشعراء ينزعون بهذا الاتجاه في عهد الشـاه طـهماسب الصفوي. فقد سنحت لديه الفرصة كي يقطع خطوات مـهمة في طـريق تـعميق

الأفكار والعقائد الدينية عن طريق نشر شعائر اهل البيت والحث على اقامة المراسم الحسينية، وقراءة الشعر العاشورائي(٢٢٢).

فكما أشرنا، كانت الدواوين والأشعار التي خلّفها شعراء العصر الصفوي تدل على الأمر التالي وهو انها كانت تنزع في بادئ الأمر نحو أشعار الحب او مدح الملوك والخوانين والامراء المحليين، لذلك لم يشر الشاعر وحشي البافقي (٩٣٩ ـ ٩٩١ هـ) الى حادثة عاشوراء سوى في موردين فقط(٢٢٣).

وقد عبّر الشاه طهماسب الصفوي عن امتعاضه لمدح الشعراء له وطالبهم بأن ينشدوا الشعر في آل البيت والأئمة المعصومين وأن يتوقعوا الصلة والجائزة من أرواحهم المقدسة ثم من الصفويين(٢٢٤).

ومنذ ذلك الحين أصبح أهل البيت محوراً في الأدب الصفوي لاسيما في مواضيع عاشوراء وكربلاء واستشهاد الامام الحسين. وقد تأثر الشاعر مولانا محتشم الكاشاني (٩٦٦ ـ ٩٩٧ هـ) بنصيحة الشاه الصفوي، فخلّف قصيدة عاشورائية باللغة الفارسية، تُعد أشهر القصائد واكثرها خلوداً(٢٢٥).

وأهدى الشاه عباس ذهباً بوزن الشاعر شاني تكلو لمدحه الامام علياً (ع)، وهو ما يدل على اصرار ملوك الدولة الصفوية على نشر واذاعة فضائل أهل البيت (ع). وكان هؤلاء الملوك يسبقون الناس في اقامة مجالس التأبين والرثاء، ويشجعونهم على اقامتها وتعميمها بعيداً عن حالة الاحتراس والحذر التي كانت لديهم في العصور الماضية. وأخذوا يشاركون الناس في تلك المجالس التي كانت تقام في الميادين العامة، والمساجد، والحسينيات. وقد أدت تلك الحركة المتصاعدة الى احياء سوق الرثاء، واقبال الشعراء على تأليف القصائد الرثائية لاسيما في أعقاب القصيدة التي انشدها محتشم الكاشاني(٢٢٦).

ولم يكتف الملوك الصفويون بهذا القدر. فتشير وثائق الحكومة الصفوية الى ان هؤلاء الملوك كانوا يقيمون المآتم الحسينية حتى خلال أسفارهم التي تقترن مع شهر محرم وصفر أو رمضان.

في هذه المرحلة، تأسست التكايا الخاصة بذكر فضائل ومناقب اهل البيت ورثاء الحسين (ع) في شتى المناسبات الاسلامية، لاسيما في محرم الحرام(٢٢٧). وتحدث السواح والسياسيون الغربيون الذين زاروا ايران آنذاك، عن اقامة مراسم التأبين الحسيني. وتحدث «بيتر دلاواله» عن الجماهيرية الواسعة التي كانت تتمتع بها تلك المراسم.

انتشار المراسم الحسينية في مناطق اخرى

بالرغم من الصراعات السياسية والمذهبية بين السلاطين الصفويين والاوزبك، انتشرت المراسم والشعائر الحسينية الى هراة، وبلخ، وسائر المناطق(٢٢٨). وأخذ أهل السنة يُحيون هذه المراسم ايضاً ويُحلّونها محل الممارسات الصوفية التي كانوا يقومون بها(٢٢٩). وتكشف الشهرة الكبيرة التي امتاز بها كتاب «روضة الشهداء» ـ الذي يتحدث بلغة الشعر عن شهيد كربلاء واهل البيت ـ في افغانستان وآسيا الوسطى، وترجمته الى التركية و الاوزبكية، عن مدى انتشار تلك المراسم الى خارج الحدود الايرانية ومدى تفاعل الامم مع مصائب اهل البيت(٢٣٠). وورد ان كتاب «روضة الشهداء» قد تُرجم الى اللغة التركية مراراً، منها تحت اسم «سعادت نامة» في منتصف القرن العاشر، و«حديقة السعادة» للشاعر البارز فضولي البغدادي مع اصلاحات واضافات، و«شهد نامه». وهناك ترجمة تركية آسيا أوسطية لشاعر يتخلص بتخلص «صابر»، وقد انتشرت هذه الترجمة الأخيرة على نطاق واسع في طاشقند والمناطق المجاورة(٢٣١).

في افغانستان التي كان جزء منها تابعاً للدولة الصفوية وجزء آخر تابعاً للسلاطين الأتراك والمغول الشيبانيين او البابريين، كانت مراسم التأبين الحسيني تجري من دون اية مشكلة في الجزء الاول. اما في المناطق المركزية منها والتي يتواجد فيها الهزاريون الشيعة، فكانت تجري فيها تلك المراسم أيضاً رغم الضغوط التي كان يوجهها الأمراء من أهل السنة لاسيما شيبك خان الاوزبكي ومن جاء من

بعده. وترسخت تلك المراسم وانتشرت بعد ان انتقلت عناصر من القزلباش على يد نادرشاه (حكم ١١٤٨ ـ ١١٦٠ هـ) الى مدن كابل، وقندهار، وهراة، وغزنين.

انتشر كتاب «روضة الشهداء» في شبه القارة الهندية ايضاً، وتُرجم الى اللغة الدكنية في القرن الثاني عشر. كما تُرجم الى اللغة الاوردية تحت عنوان «كنز الشهداء»، وهو ما يدل على استقبال عامة الناس لهذا الكتاب وتفاعلهم مع اقامة مراسم احياء ذكرى الامام الحسين (ع) وتخليد نهضته(٢٣٢).

الأمر الآخر الذي يؤكد على استمرار مراسم التأبين الحسيني واقبال شتى الطوائف الاسلامية عليها، هو قيام مسلم من المذهب الحنفي بتأليف كتاب يدعى «قرة العين في البكاء على الحسين»(٢٣٣)، الذي يدل على ان قضية رثاء الامام الحسين والمراسم الخاصة بهذا الشأن، لم تكن مقتصرة على الشيعة ولا على ايران.

المراسم الحسينية في العهد القاجاري

ظهر في ايام الدولة الصفوية ما يُعرف بـ «التعزية»، وكانت عبارة عن لون من الرثاء المشفوع بالتمثيل. وقد امتدت بعد فترة ليست بالطويلة الى شبه القارة الهندية. وثمة اختلاف في وجهات النظر بشأن هذه الظاهرة: فهل هي شكل اكثر تطوراً للمراسم التي ظهرت في عهد البويهيين ام ظهرت على يد السلاطين الصفويين بهدف تعميق هذه المراسم، وترسيخ مفاهيم أهل البيت من خلالها، ام انهاتقليد غربي دخل الى الشرق وايران في العصر الصفوي وأصبح في خدمة المآتم والشعائر الحسينية(٢٣٤)؟

مهما كان الأمر، تطورت وانتشرت تلك الشعائر في العصر القاجاري (١٢١٠ ـ ١٣٣٧ هـ) بعد توقف خلال الفترة بين سقوط الدولة الصفوية وظهور الدولة القاجارية، لاسيما ظاهرة «التعزية» حتى انهانفذت الى بلاط الملوك القاجار وراح يُطلق عليها اسم «التعزية الحكومية»، فكان يشارك فيها الشاه ورجال البلاط

والحكومة. وأخذت تنزع نحو هذا اللون من الشعائر، طبقات مختلفة من الشعب، فأخذت تسمى بمسميات عديدة على اساس طبيعية الجهة التي تتبناها، كتعزية الأعيان، والنسوية والبيتية، وما الى ذلك(٢٣٥).

على ضوء اهتمام الدولة القاجارية بالشعائر الحسينية، أقبل عدد كبير من الشعراء على انشاد الشعر الحسيني والعاشورائي، والذي راح بعضه يقرأ في تلك الشعائر لاسيما في «التعزية»، فظهر قرّاء التعزية كجوقة فنية ـ دينية جديدة.

كان الاقبال على تلك المراسم والممارسات واسعاً وشديداً الى درجة بحيث لم يستطع أوهن الشعراء الايرانيين اخلاقاً ان يتجاهل تلك العقيدة العامة والثقافة الواسعة، على حد تعبير «براون».

يُعد الشاعر القاءاني (ت ١٢٧٢ هـ)، أحد الشعراء الذين انشدوا اجمل المراثي في استشهاد الامام الحسين (ع). فقد صوّر فيها مظلومية سيد الشهداء وأصحابه وأنصاره من جانب، وعكس الظلم الذي كان عليه أعداؤهم والقسوة التي كانت عليها قلوبهم، والحقد الذي كان يغلي على البيت العلوي في نفوسهم(٢٣٦).

استمرار الشعائر الحسينية في شبه القارة الهندية

استمرت الشعائر الحسينية في شبه القارة الهندية. ولم يقتصر الاهتمام بهذه الشعائر على المنتمين للمذهب الشيعي وانما كان يشارك فيها بعض اتباع المذاهب السنية ايضاً، ويقومون في شهر محرم بطبخ الطعام وتوزيعه على الناس طلباً للثواب والرحمة الالهية.

كان شعراء شبه القارة الهندية ينشدون الشعر الحسيني بشتى لغاتهم كالاوردية والبنجابية، ويؤلفون المراثي في واقعة الطف، ويصورون المصائب التي لقيها الحسين (ع) وأهل بيته على يد الامويين وزبانيتهم، بأرق الأشعار التي تثير الحزن وتسيل الدمع(٢٣٧). وأهم مرثية أُنشدت باللغة الفارسية في شبه القارة الهندية، تعود

للمصلح والمفكر الاسلامي السني المذهب، العلامة محمد اقبال اللاهوري الذي وصف الامام الحسين (ع) في تلك القصيدة بـ«امام العاشقين»، و«سيد الحرية»، مؤكداً على ان هدف الامام الحسين (ع) من ثورته هو اعادة تشييد صرح «لا اله إلّا الله»، وهو نفس المعنى الذي سبق ان اكد عليه الشاعر خواجه معين الدين الجشتي(٢٣٨). ويذهب الشاعر والمفكر اللاهوري في تلك القصيدة الى الاعتقاد بأن الامام الحسين (ع) استأصل بثورته الكربلائية جذور الاستبداد الى يوم القيامة، لأنه ايقظ بها الأمة السابتة، وأنقذها من أغلال الطاغوت الى الأبد(٢٣٩).

في العراق وأفغانستان

العراق، هو نواة التشيع ومركزه الأُم، لأن فيه معظم العتبات والبقاع المقدسة، ولذلك أصبح مركزاً لمراسم احياء الثورة الكربلائية واقامة الشعائر العاشورائية، وكان لذلك الامر تأثير حتى على أهل السنّة القاطنين في العراق لاسيما الأكراد. فللشعراء الاكراد مراث كثيرة في مصيبة الحسين وأهل بيته وأشعار غفيرة في ذكر مناقب أهل البيت وسجاياهم وفضائلهم، وتصوير الظلم الذي لحق بهم في صور شعرية معبّرة ومؤثرة(٢٤٠).

بالرغم من الضغوط التي كانت تفرضها الحكومات على ممارسة الشعائر الحسينية في افغانستان ـ وهي الضغوط التي كان يقف خلفها الانجليز في بعض الأحيان ـ كانت تلك الشعائر تجري من قبل الهزاريين والقزلباش بشكل مستمر، سيما وقد كانت تقرأ فيها أشعار لشعراء من قبيل السيد محمد كاظم بلبل (ت ١٩٤٦ م) والسيد اسماعيل البلخي (ت ١٩٦٩ م)(٢٤١).

في الامبراطورية العثمانية

كانت الامبراطورية العثمانية تسيطر قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ

١٩١٨ م)، على جزء كبير من العالم الاسلامي. وكانت آسيا الصغرى، والشرق الأوسط، والبلقان، وشمال افريقيا وحتى قسم من مركز أفريقيا، جزءاً من تلك الامبراطورية. ورغم ردود الفعل السلبية جداً لبعض السلاطين العثمانيين ازاء الدولة الصفوية، واباداتهم لكثير من الشيعة بسبب عقائدهم الشيعية، ورغم النشاطات الوهابية المتلاحقة ضد التشيع والشيعة والتي كان يدعمها الاستعمار بشكل صريح وخفي في بعض الأحيان، كانت الشعائر الحسينية تقام منذ القدم من قبل الفرقة البكتاشية. ثم انتقلت هذه المراسم الى البانيا ويوغسلافيا بعد نفوذ هذه الفرقة الى هذين البلدين، ولازالت قائمة الى يومنا هذا(٢٤٢).

تقام هذه المراسم ايضاً في بعض البلدان العربية ولازالت مستمرة فيها نظراً لوجود التشيع منذ القدم في البحرين، والتشيع الزيدي في اليمن، والآثار التي خلّفها الفاطميون، فضلاً عن بعض المزارات كمزار السيدة زينب ورأس الحسين في مصر، وكذلك مرقد رقيّة بنت الحسين، ومرقد السيدة زينب بنت علي (ع) في الشام.

يمكن ان تكشف خلفية الحمدانيين الشيعة في الشام، عن جزء من الشعائر الحسينية هناك. وتُعد مدينة حلب السورية ذات خلفية أطول في ذلك، لاسيما خلال القرنين الهجريين السادس والسابع. ومع ذلك لم يرقَ شمال افريقيا والدولة العثمانية الى مستوى شرق العالم الاسلامي مثل ايران وأفغانستان وآسيا الوسطى والهند، من حيث اتساع الشعائر الحسينية، وكتابة المقاتل، وانشاد الأشعار الحسينية والعاشورائية(٢٤٣).

هوامش الفصل الثالث:

١ ـ ابن البزاز الأردبيلي، صفوة الصفاء، مقدمة وتصحيح غلام رضا الطباطبائي، طهران، ج ٢، ص ٧٠.

٢ ـ حسين أبدال الزاهدي، سلسلة النسب الصفوية، طهران، ١٩٨١، ص ١٠ ـ ١١.

٣ ـ نفس المصدر.

٤ ـ نفس المصدر، ص ١٦.

٥ ـ ابن البزاز، سابق، ص ٩٥ ـ ٩٧.

٦ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: نفس المصدر، الفصول ٦ و٧ و٨.

٧ ـ روجر سيوري، ايران في العصر الصفوي، ترجمة قامبيز عزيزي، طهران، ١٩٩٥، ج ٤، ص ٨.

٨ ـ ابن البزاز، مصدر سابق، ص ٨٩٨ و٩٨٣.

٩ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٢.

١٠ ـ نفس المصدر، ص ١٥ ـ ١٦.

١١ ـ خواند مير، تاريخ حبيب السير، تحت اشراف محمد دبير سياقي، طهران، ط ٣، ١٩٨٣، ج ٤، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٩ و٤٣٢ ـ ٤٣٤.

١٢ ـ نفس المصدر، ص ٤٣٥.

١٣ ـ نفس المصدر، ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢.

١٤ ـ نفس المصدر، ص ٤٤٦ ـ ٤٥١؛ حسن بيك روملو، أحسن التواريخ، تصحيح عبد الحسين نوائي، طهران، ١٩٧٨، ص ٨٠ ـ ٨٦.

١٥ ـ جهانكشاي خاقان (تاريخ الشاه اسماعيل)، مقدمة وملحقات الله دتا مضطر، اسلام آباد، ١٩٨٠، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

١٦ ـ كان أدعياء الملك والسلطة: السلطان مراد بن يعقوب آق قوينلو في عراق العجم وفارس؛ باريك بيك برناك في عراق العرب؛ قاسم بيك بن جهانكير بيك في ديار بكر؛ مراد بيك بايندر في يزد؛ محمد كره في ابرقو؛ ابو الفتح بيك بايندر في كرمان، القاضي محمد كاشاني في كاشان؛ حسين كيا جلاوي في خوار وسمنان وفيروزكوه؛ السلطان حسين ميرزا في خراسان. لمزيد من المعلومات، راجع: جهانكشاي خاقان، ص ١٥٧ ـ ١٥٨؛ خواند مير، سابق، ج ٤، ص ٤٧٨ ـ ٤٨١ و ٤٧١ ـ ٤٧٤؛ روملو، سابق، ص ١٠٩ ـ ١١١.

١٧ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: فضل الله روزبهان خنجي، مهمان نامه بخارى، ص ٥٦ ـ ٥٧؛ روملو، سابق، ص ١٦٨ ـ ١٧٤.

١٨ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٣٠ ـ ٣١.

١٩ ـ خورشاه بن قباد الحسيني، تاريخ ايلجي نظام شاه، تصحيح محمد رضا نصيري، طهران، ٢٠٠٠ م، ص ٨٤ ـ ٨٥.

٢٠ ـ بوداق منش القزويني، جواهر الأخبار، تصحيح محسن بهرام نجاد، طهران، ١٩٩٩، ص ١٤٧.

٢١ ـ خورشاه، سابق، ص ٨٧ ـ ٨٨.

٢٢ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: القاضي أحمد القمي، خلاصة التواريخ، ج ١، ص ٦٠٠ ـ ٦١٥؛ روملو، سابق، ص ٥٩٨ ـ ٦١٥؛ والترهينتس، الشاه اسماعيل الصفوي الثاني، ترجمة كيكاوس جهانداري، طهران، ١٩٩٢، ص ٥١ ـ ٦٨.

٢٣ ـ روملو، سابق، ص ٢٧٧ ـ ٢٨١.

٢٤ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: اسكندر بيك منشي، تاريخ عالم آراي عباسي، تصحيح محمد اسماعيل رضواني، طهران، ١٩٩٨، ص ٣٤١ فما بعد.

25 - H.R. Roemer, (The Safavid Period), The Cambridge History of Iran.vol.6, Cambridge University Press, 1997. pp.243 - 244.

٢٦ ـ القاضي أحمد القمي، سابق، ج ٢، ص ٦٩٤ ـ ٦٩٦.

٢٧ ـ نفس المصدر، ص ٨٤١ ـ ٨٤٢.

٢٨ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: السياسة الخارجية للشاه عباس وتعامله مع السفراء الأجانب، راجع: نصر الله فلسفي، حياة الشاه عباس الأول، طهران، ط ٥، ١٩٩٢، ج ٥ و ٤، ص ١٣٢٥ ـ ١٦٧١.

٢٩ ـ اسكندر بيك منشي: سابق، ج ١، ص ٥٦٦ فما بعد.

٣٠ ـ راجع: روجر سيوري، دراسات في تاريخ ايران خلال العصر الصفوي، ترجمة عباس قلي غفاري فرد ومحمد باقر آرام، طهران، ٢٠٠٣ م، المقال الحادي عشر.

٣١ ـ اسكندر بيك منشي، ج ٢، ص ٩٠٤ ـ ٩٢٢؛ ملا جلال المنجم، التاريخ العباسي، ص ١٦٤ ـ ١٦٦.

٣٢ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: نفس المصدر، ص ١٠٢٢ فما بعد.

٣٣ ـ لمزيد من المعلومات، راجع الكتاب التالي لاسيما ص ٦١ ـ ٩١:

Rodolph p. Matthe, The Polittics of Trad in Safavid Iran, CambridgeUniversity press, 1999.

34 - Rudi Mathee, (Merchant in Safavid Iran:
Participants and Perceptions), Journal of early modern History, 4-3-4 ,leiden 2000, p.234.

٣٥ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: الشاه عباس (مجموعة الوثائق والمراسلات التاريخية مع المذكرات التفصيلية) باشراف عبد الحسين نوائي، ١٩٨٨.

٣٦ ـ روجر سيوري، ايران في العصر الصفوي، ص ٩٩.

٣٧ ـ روجر سيوري، حول الصفويين، ترجمة رمضان علي روح اللهي، طهران، ٢٠٠١

م، ص ١٦٨.

٣٨ ـ محمد يوسف واله القزويني، ايران في عهد الشاه صفي والشاه عباس الثاني، تصحيح وتعليق وتوضيح محمد رضا نصيري، طهران، ٢٠٠١ م، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

٣٩ ـ نفس المصدر، ص ٣١٣ ـ ٣١٥.

٤٠ ـ نفس المصدر، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥.

٤١ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: ويلم فلور، النظام القضائي في العصر الصفوي، ترجمة حسن زندية، ٢٠٠٢ م، ص ٢٦.

٤٢ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٢٢٩.

٤٣ ـ ولي قلي بن داود بن قلي، قصص الخاقاني، تصحيح السيد حسن السادات الناصري، طهران، ١٩٩٢، ج ١، ص ٤٠٦ ـ ٤١٢؛ محمد طاهر وحيد القزويني، عباسنامه، تصحيح وتحشية ابراهيم دهكان، ١٩٥٠، ص ٩٢ ـ ١٢٥.

٤٤ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: لورنس لاكهارت، انقراض الأسرة الصفوية، ترجمة اسماعيل دولتشاهي، ط ٢، ٢٠٠١ ؛ ويلم فلور، سقوط الصفويين وظهور الأفغان، ١٩٨٦.

٤٥ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: عباس قلي غفاري فرد، العلاقات الصفوية الاوزبكية، طهران، ١٩٩٧؛ حسن زندية، العلاقات بين ايران والاوزبك منذ عهد الشاه عباس وحتى وفاة نادر، اطروحة ماجستير، جامعة طهران.

٤٦ ـ للاطلاع على الاوضاع في آسيا الوسطى خلال ١٠ ـ ١٢ هـ راجع:

Robert D. mc (Central Asia vi. in The 10th - 18th Centuries),Encyclopaedia Iranica, vo1. v, Mazda Publisher, 1992, pp. 177 - 199.

٤٧ ـ عبد الرضا هوشنغ مهدوي، تاريخ العلاقات الخارجية الايرانية منذ العصر الصفوي وحتى نهاية الحرب الكونية الثانية، طهران، ط ٥، ١٩٩١، ص ٩ ـ ١٠.

٤٨ ـ جوزيف هامربورغشتال، تاريخ الامبراطورية العثمانية، ترجمة ميرزا زكي علي ابادي، ١٩٨٨، ص ٨١٦ ـ ٨١٩.

٤٩ ـ راجع: خواند مير، سابق، ج ٤، ص ٥٤٤ ـ ٥٤٦؛ القزويني، لب التواريخ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧؛ خواند مير، تاريخ الشاه اسماعيل والشاه طهماسب، ص ٨٥؛ القاضي احمد الغفاري القزويني، تاريخ جهان آرا، طهران، ١٩٦٣، ص ٢٧٧.

٥٠ ـ جهانكشاي خاقان، ص ٥٠٦.

51 - Blair, (Tabriz), The Encyclopaedia of Islam, vo1.x, new edition, Leiden Brill, 1998, p.44.

٥٢ ـ ابو القاسم طاهر، تاريخ ايران السياسي والاجتماعي منذ وفاة تيمور وحتى وفاة الشاه عباس، طهران، ١٩٧٠، ص ١٦٩.

53 - H.R. Romer, (The Safvid Period), The Cambridge History of Iran.vol.6, Cambridge University Press 1997, pp. 227 - 228.

٥٤ ـ رومير، «ظهور الصفويين»، تاريخ ايران كيمبريج، (تاريخ ايران حتى عصر الصفويين)، ترجمة يعقوب آجند، طهران، ٢٠٠١، ص ٦١.

٥٥ ـ عبد الرضا هوشنك، مهدوي، سابق، ص ٣٣.

٥٦ ـ اسكندر بيك منشي، سابق، ج ١، ص ١٢٩.

٥٧ ـ روجر سيوري، ايران في العصر الصفوي، ص ٧٠ ـ ٧٣.

٥٨ ـ جوزيف هامر بورغشتال، سابق، ص ١٥٦٦ ـ ١٥٦٧.

٥٩ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: محمد يوسف واله الاصفهاني، الخلد الأعلى، باشراف مير هاشم محدث، ١٩٩٣، ص ٧١٨.

٦٠ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٨٣ ـ ٨٦.

٦١ ـ عبد الرضا هوشنك مهدوي، سابق، ص ٧٨.

٦٢ ـ راجع: اسماعيل حقي، اوزون تشارشيلي، التاريخ العثماني، ترجمة ايرج نوبخت،

طهران، ١٩٩٩، ج ٥، ص ١٤٣ ـ ١٤٤؛ عبد الرضا هوشنك مهدوي، سابق، ص ١٠٤.

٦٣ ـ راجع: عبد الحسين نوائي، الوثائق والرسائل السياسية الايـرانـية خـلال ١٠٣٨ ـ ١١٠٥ هـ طهران، ١٩٨١، ص ١١ المقدمة.

٦٤ ـ لمزيد من المعلومات عن العلاقات الايـرانـية العـثمانـية في أعـقاب سـقوط الدولة الصفوية، راجع:

Stanford Shaw, (Iranian Relations with Ottoman Empire in The Eighteenthand Nineteenth Centuries), The Cambridge History of Iran, vo1.7, 1991, pp. 297 - 314.

٦٥ ـ جهانكشاي خاقان، ص ٤١٤ فما بعد.

٦٦ ـ رضا قلي خان هدايت، تاريخ روضة الصفاء الناصرية، تصحيح جمشيد كـيان فـر، طهران، ج ٨، ص ٦٣٧٣ ـ ٦٣٧٥.

٦٧ ـ لمزيد من المعلومات عن العلاقة الصفوية الغوركانية، راجع: رياض الاسلام، تاريخ العلاقات الايرانية الهندية، ترجمة محمد باقر آرام وعـباس قـلي غـفاري فـرد، طـهران، ١٩٩٤.

٦٨ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

٦٩ ـ لمزيد من المعلومات حول العلاقات الايرانية البرتغالية، راجـع: نـصر الله فـلسفي، تاريخ علاقات ايران باوربا خلال العصر الصفوي، طهران، ١٩٣٧، الفصل الاول.

٧٠ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٠٢.

٧١ ـ عبد الرضا هوشنك مهدوي، سابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

٧٢ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٠٣.

٧٣ ـ لمزيد من المعلومات بهذا الشأن، راجع:

Rudi Matthe, (Iran's Ottoman Diplomacy During The Reign of ShahSulayman I), Iran and Iranian Stadies Essags in Honor of Iraj Afshar

1998, pp. 148 - 178.

٧٤ـ نفس المصدر.

٧٥ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

٧٦ـ نفس المصدر.

٧٧ـ عبد الرضا هوشنك مهدوي، سابق، ص ٤٠؛ لمزيد من المعلومات حول العلاقات الايرانية البريطانية، راجع: عبد الحسين نوائي، العلاقات السياسية والاقتصادية الايرانية في العصر الصفوي، ١٩٩٨، الفصل الرابع.

٧٨ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٠٨.

٧٩ـ نفس المصدر، ص ١٠٩.

٨٠ـ نفس المصدر، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

٨١ـ نفس المصدر، ص ١١٣.

٨٢ـ للاطلاع على العلاقات السياسية الايرانية الهولندية، راجع: ويلم فلور، اوائل سفراء ايران وهولندا، باشراف داريوش مجلسي وحسين ابو ترابيان، طهران، ١٩٧٧.

٨٣ـ روجر سيوري، سابق، ص ١١٤ ـ ١١٥.

٨٤ـ لمزيد من الاطلاع على العلاقات الايرانية الفرنسية، راجع: عبد الحسين نوائي، سابق، الفصل الثامن.

85 - Laurence Lockhart, (European Contacts with Persia), The CambridgeHistory of Iran, vo1.6, 1997, pp. 404 - 477.

٨٦ـ للاطلاع على تأثير سقوط الدولة الصفوية على الشركات التجارية، راجع: ويلم فلور، راجع: سقوط الصفويين وظهور محمود الأفغاني، ترجمة ابي القاسم سري، طهران، ١٩٨٦.

٨٧ـ للاطلاع على مدى تدخل الروس في ايران بعد سقوط الدولة الصفوية، راجع: استانفورد جي. شاو، «العلاقات الايرانية العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع

عشر»، ترجمة حسن زندية، مجلة تاريخ العلاقات الخارجية، العدد ٢، ربيع ٢٠٠٠م، ص ١١ ـ ٢٩.

٨٨ ـ لمزيد من المعلومات عن التشيع، راجع: السيد حسين محمد الجعفري، التشيع في مسير التاريخ، طهران، ١٩٩٤.

٨٩ ـ لمزيد من الاطلاع حول انتشار التشيع في ايران، راجع: محمد كاظم خواجويان، تاريخ التشيع، مشهد، ط ٤، ٢٠٠٠م.

٩٠ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: علي اصغر فقيهي، البويهيون وأوضاع زمانهم، طهران، ١٩٨٧.

٩١ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: شيرين بياني، الدين والدولة في ايران ابان العصر المغولي، طهران، ١٩٩١، ج ٢، الفصول ٨و٩ و١٠.

٩٢ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: يعقوب آجند، القيام الشيعي لحركة سربداران، ١٩٨٤.

٩٣ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: اسماعيل حسن زاده، حكومة القره قوينلو والآق قوينلو في ايران، طهران، ٢٠٠٠م.

٩٤ ـ لمزيد من المعلومات بشأن هذه الأسر الشيعية، راجع: محمد كاظم خواجويان، سابق.

٩٥ ـ جهانكشاي خاقان، ص ١٤٥ ـ ١٤٦.

٩٦ ـ خواندمير، حبيب السير، ج ٤، ص ٤٦٧.

97 - Shela C. Blair, (Tabriz), The Encyclopaedia of Islam, new edition,1998, vo1.x, Leiden Brill 1998, p.45.

٩٨ ـ جهانكشاي خاقان، ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

٩٩ ـ نفس المصدر.

١٠٠ ـ عالم آراي صفوي، باشراف يد الله شكري، طهران، ١٩٨٤، ص ٦٥.

١٠١ ـ جهانكشاي خاقان، ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

١٠٢ ـ نفس المصدر، ص ١٥٠.

١٠٣ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: مهدي فراهاني منفرد، هجرة علماء الشيعة من جبل عامل الى ايران، طهران، ١٩٩٨.

١٠٤ ـ يعقوب آجند، سابق، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

١٠٥ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: جعفر مهاجر، الهجرة العاملية الى ايران في العصر الصفوي، بيروت، دار الروضة للطباعة والنشر، ١٤١٠ هـ

١٠٦ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: رسول جعفريان، الدين والسياسة في العصر الصفوي، ١٩٩١، ص ١٧ ـ ٤٥.

١٠٧ ـ المحقق السبزواري، روضة الأنوار العباسية، قم، ٢٠٠١م، الفصل الأول.

١٠٨ ـ مهدي فراهاني منفرد، سابق، ص ١٠٤.

109 - Willem Floor, (The Sare or head of The Safavid neliyiousadministration, Judiciary and endowments and other members of the religious institution), (ZDMG), BAND 150, 2000.

١١٠ ـ مهدي فراهاني منفرد، سابق، ص ١٠٨.

١١١ ـ نفس المصدر، ص ١١١.

١١٢ ـ نفس المصدر، ص ١١٣.

١١٣ ـ نفس المصدر، ص ١٢١؛ كذلك راجع: رسول جعفريان، سابق، ص ١٢١ ـ ١٧٩.

١١٤ ـ رسول جعفريان، سابق، ص ٢٩٩ ـ ٣٣٤.

١١٥ ـ نفس المصدر، ص ٢٢١ ـ ٢٨٧؛ للاطلاع على أسباب مناهضة العلماء للصوفية، راجع: منوجهر بارسا دوست، الشاه طهماسب الأول، ١٩٩٨، ص ٥٣ ـ ٨٥.

١١٦ ـ جمشيد ملك بور، الأدب التمثيلي في ايران، طهران، ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٧.

١١٧ ـ بيتر جلكوفسكي، التعزية فن محلي طليعي في ايران، ترجمة داود حاتمي، طهران،

١٩٨٨، ص ٣٦٦.

١١٨ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: مفيز الله كبير ومهدي افشار، آل بويه في بغداد، طهران، ٢٠٠٢م، ص ٣١٢ ـ ٣١٣.

١١٩ ـ عباس شادروان، تاريخ التتر برواية ويل ديورانت، طهران، ١٩٩٨، ص ٤٦٦.

١٢٠ ـ لمزيد من المعلومات حول السواح الذين تحدثوا عن هذا اللون من التمثيل، راجع: جلكوفسكي، سابق، ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠.

١٢١ ـ محمد كريم يوسف الجمالي، حياة الشاه اسماعيل الأول، طهران، ١٩٩٧، ص ٢٤٢.

١٢٢ ـ لمزيد من المعلومات بشأن اهتمام الشاه عباس بمراسم الحداد الحسيني، راجع: نصر الله فلسفي، حياة الشاه عباس، ج ٣، ص ٨٤٧ ـ ٨٥٩.

١٢٣ ـ ادوارد براون، تاريخ الأدب الايراني، ترجمة رشيد ياسمي، طهران، ط ٣، ١٩٦٦، ج ٤، ص ٣٥ ـ ٣٦.

١٢٤ ـ نفس المصدر، ص ٣٦ ـ ٣٧.

١٢٥ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: يان ريبكا، تاريخ الأدب الايراني، ترجمة كيخسرو كشاورزي، طهران، ٢٠٠١م، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٩.

١٢٦ ـ محمد تقي بهار، المنهجية، طهران، ١٩٩٧، ج ٣، ص ١١٦٩.

١٢٧ ـ ذبيح الله صفا، تاريخ الآداب في ايران، طهران، ج ٥، الفصل الخامس.

١٢٨ ـ احسان يار شاطر، «الشعر الفارسي في عهد التيموريين والصفويين»، تاريخ في العصر الصفوي، دراسة في جامعة كيمبرج، ترجمة يعقوب آجند، طهران، ٢٠٠١، ص ٥٧٤ ـ ٦١٥.

١٢٩ ـ نفس المصدر.

١٣٠ ـ روجر سيوري، ايران في العصر الصفوي، ص ٢٠٤.

١٣١ ـ رسول اسماعيل زاده، الخطائي (الديوان، نصيحت نامه، دهنامه، قوشمالار)، دار الهدى للنشر.

١٣٢ ـ محمد كريم يوسف الجمالي، سابق، الفصل الثاني.

133 - Z. Safa, (Persian Literature in The Safavid Period), The CambridgeHistory of Iran, vo1.6, 1997, pp. 953 - 54.

١٣٤ ـ اسكندر بيك منشي، سابق، ج ١، ص ٢٧٧.

١٣٥ ـ راجع: شبلي النعماني، شعر العجم، ترجمة محمد تقي الجيلاني، طهران، ١٩٨٤، ص ٣.

١٣٦ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٢٠٦.

١٣٧ ـ ذبيح الله صفا، سابق، ج ٢ / ٥، ص ١٢٧٥.

١٣٨ ـ نفس المصدر، ص ٢٠٨.

١٣٩ ـ راجع: أحمد تميم داري، العرفان والأدب في العصر الصفوي، طهران، ١٩٩٣، ج ١.

١٤٠ ـ ادوارد براون، سابق، ج ٤، ص ٣١٥.

١٤١ ـ جهانبخش ثواقب، كتابة التاريخ في العصر الصفوي، شيراز، ٢٠٠١ م؛ كذلك راجع:

Sholeh A. Puinn, (Historical Writing During The Reign of Shah Abbas),The University of Utah Press, 2000.

١٤٢ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٢١٣.

١٤٣ ـ مهدي فراهاني منفرد، سابق، ص ١٦٧.

١٤٤ ـ حسين سلطان زاده، تاريخ مدارس ايران، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

١٤٥ ـ هنري كوربن، تاريخ الفلسفة الاسلامية، ترجمة جواد الطباطبائي، طهران، ١٩٩٤، ص ٥٦.

١٤٦ ـ نفس المؤلف، تاريخ ايران في العصر الصفوي، ترجمة يعقوب آجند، طهران، ٢٠٠١ م، الفصل ٧.

١٤٧ ـ شاردن، كتاب سياحة شاردن، ترجمة محمد عباسي، طهران، ١٩٥٩، ج ٥، ص ١٢٦ ـ ١٢٩.

١٤٨ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٢١٩ ـ ٢٢٢؛ كذلك راجع: سيديل الغود، الطب في العصر الصفوي، ترجمة محسن جاويد، طهران، ١٩٧٨.

١٤٩ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

١٥٠ ـ تاريخ في العصر الصفوي، سابق، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧.

١٥١ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: رسول جعفريان حكاة القصة في تاريخ الاسلام وايران، طهران، ١٩٩٩، ص ١٢٦ فما بعد.

١٥٢ ـ راجع: احمد تاجبخش، تاريخ الدولة الصفوية، ص ٢٨١ فما بعد؛ نصر الله فلسفي، سابق، ص ٦٦٥ فما بعد.

١٥٣ ـ راجع: زكي محمد حسن، الفن الايراني، ترجمة محمد ابراهيم اقليدي، ١٩٩٨، ص ٣٧ ـ ٤٤.

١٥٤ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: تاريخ ايران في العصر الصفوي، الفصل ٩.

١٥٥ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: محمد يوسف كياني، عواصم ايران، طهران، ١٩٩٥، ص ٥٧١ ـ ٦٠١.

١٥٦ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٥٢.

١٥٧ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: ريتشارد اتينغهاوزن واحسان يار شاطر، تألقات الفن الايراني، ترجمة هرز عبد اللهي، طهران، ٢٠٠٠ م، ص ٢٢٥ ـ ٢٥٤.

١٥٨ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: مساجد اصفهان، مركز الوثائق والبحوث في كلية الهندسة المعمارية وبناء المدن، طهران، جامعة الشهيد بهشتي، ٢٠٠٠ م.

١٥٩ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: لطف الله هنرفر، كنوز الآثار الاصفهانية، ١٩٧١.

١٦٠ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

١٦١ ـ نفس المصدر، ص ١٣٣.

١٦٢ ـ لمزيد من المعلومات حول انواع السجاد في هذا العصر، راجع: اشبولر، «صناعة السجاد والنسيج»، تاريخ ايران في العصر الصفوي، الفصل ٨.

١٦٣ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

١٦٤ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: ريتشارد اتينغهاوزن واحسان يار شاطر، سابق، ص ٣٨٣ فما بعد.

١٦٥ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٣٥.

١٦٦ ـ نفس المصدر، ص ١٣٦.

١٦٧ ـ نفس المصدر، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

١٦٨ ـ شاردن، سابق، ج ٤، ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

١٦٩ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٣٩.

١٧٠ ـ نفس المصدر، ص ١٤١.

١٧١ ـ ليلى رفيعي، الخزف الايراني منذ ما قبل التاريخ وحتى العصر الراهن، طهران، ١٩٩٨، ص ٨٦.

١٧٢ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٤٣.

١٧٣ ـ محمد يوسف كياني، خلفية الخزف في ايران، طهران، ٢٠٠٠م، ص ٤٥.

١٧٤ ـ سيبيلا شوستر فالسر، ايران الصفوية من وجهة نظر السواح.

١٧٥ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: نفس المصدر، ص ٥٧ ـ ٥٩.

١٧٦ ـ نفس المصدر، ص ٥٩ ـ ٦١.

١٧٧ ـ تاورنيه، رحلة تاورنيه، ترجمة ابي تراب النوري، طهران، ص ٥٢٦.

١٧٨ ـ نفس المصدر، ص ٦٢.

١٧٩ ـ آرام اولياريوس، اصفهان الشاه صفي المدمّاة، ترجمة حسين كرد بجة، طهران، ١٠٠٠م، ص ٥٦٣ ـ ٥٦٦.

١٨٠ ـ سيبيلا شوستر فالسر، سابق، ص ٦٤.

١٨١ ـ نفس المصدر، ص ٦٦.

١٨٢ ـ روجر سيوري، حول الصفويين، ص ١٩٦.

١٨٣ ـ نفس المصدر، ص ١٩٧. ١٩٨.

١٨٤ ـ روجر سيوري، سابق، ص ١٩٩.

١٨٥ ـ خانبابا بياني، تاريخ ايران العسكري، حروب العصر الصفوي، ص ٥٩.

١٨٦ ـ دالساندري، رحلة دالساندري، ترجمة منوجهر أميري، طهران، ١٩٧٠، ص ٤٤٨.

١٨٧ ـ خانبابا بياني، سابق، ص ٦١.

١٨٨ ـ روجر سيوري، ايران في العصر الصفوي، ص ٥٧.

١٨٩ ـ خانبابا بياني، سابق، ص ٦٨.

١٩٠ ـ نفس المصدر، ص ٧٠؛ لمزيد من المعلومات بشأن الأخوين شرلي، راجع: رحلة الأخوين شرلي في عصر الشاه عباس الكبير، ترجمة آوانس، طهران، ١٩٧٨.

١٩١ ـ لمزيد من المعلومات عن طبيعة الجيش الايراني في العصر الصفوي، راجع: خانبابا بياني، سابق.

١٩٢ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: ميرزا سميعا، تذكرة الملوك، ط ٢، ١٩٨٩.

١٩٣ ـ روجر سيوري، حول الصفويين، ص ٧٠ ـ ٧٥.

١٩٤ ـ نفس المصدر، ص ٧٥ ـ ٧٩.

١٩٥ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: خانبابا بياني، سابق.

١٩٦ ـ تاريخ ايران في العصر الصفوي، ص ١٦٤؛ كذلك لمزيد من المعلومات، راجع: علي دهكاني، الوزارة في العصر الصفوي، طهران، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة الشهيد بهشتي، ١٩٩٧.

١٩٧ ـ روجر سيوري، سابق، ص ٩٧.

١٩٨ ـ لمزيد من المعلومات عن منصب الصدر والمناصب الاخرى، راجع:

النظام القضائي في العصر الصفوي، الفصل الثاني.

١٩٩ ـ لمزيد من المعلومات عن المناصب الكبرى والصغرى، راجع:

Willem Floor, (Safavid Government institutions), Mazda Publishers, 2001.

٢٠٠ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: زهربرن، نظام الولايات في العصر الصفوي، ترجمة كيكاوس جهانداري، طهران؛ يوسف رحيم لو، الألقاب والرواتب في العصر الصفوي، مشهد، ١٩٩٣.

٢٠١ ـ رحلة كروسينسكي، ترجمة عبد الرزاق دنبلي، طهران، ١٩٨٤، ص ٢٢ ـ ٢٤.

٢٠٢ ـ لارنس لاكهارت، انقراض السلالة الصفوية، ترجمة اسماعيل دولتشاهي، طهران، ٢٠٠١، ط ٢، ص ١٣.

٢٠٣ ـ احمد تاجبخش، تاريخ الدولة الصفوية، شيراز، ١٩٩٣، ص ٥٢٠ فما بعد.

٢٠٤ ـ محمد هاشم، رستم التواريخ، تصحيح وتحشية محمد مشيري، ١٩٦٩.

٢٠٥ ـ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، تحقيق بحر العلوم، طهران، ص ٢٥٠؛ ابن حنبل، مسند أحمد، ج ٤، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

٢٠٦ ـ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، بيروت، دار الفكر، ج ٢، ص ٣٠٠؛ ابو بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، بيروت دار الكتاب العربي، ١٤٠٢ هـ ج ٩، ص ١٨٧.

٢٠٧ ـ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، الأعلمي، ج ٤، ١٤٠٢ هـ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

٢٠٨ ـ نفس المصدر، ص ٣٤٩.

٢٠٩ ـ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، كراتشي، ص ٢٠٨.

٢١٠ ـ الشيخ الصدوق، الأمالي، طهران، ١٩٨٣، ص ١٤١.

٢١١ ـ جعفر بن محمد قولويه، كامل الزيارات، النجف، المطبعة المرتضوية، ١٣٥٦ هـ ص ١١٥.

٢١٢ ـ عبد الحسين الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، بيروت، دار الكتاب

العربي، ١٤٠٣هـ ج ٢، ص ٢٠٢.

٢١٣ ـ الشيخ الطوسي، اختيار معرفة الرجال (رجال الكشي)، قم، آل البيت، ١٤٠٤ هـ ج ٢، ص ٥٧٤؛ عبد الحسين الأميني، سابق، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

٢١٤ ـ ابن قولويه، سابق، قم، مكتبة الصدوق، ١٩٩٦، ج ٧، ص ٩٣.

٢١٥ ـ عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ ج ٨، ص ٥٢٠؛ علي أصغر فقيهي، تاريخ آل بويه، طهران، ٢٠٠٢ هـ ص ٧٠ ـ ٧٣.

٢١٦ ـ نفس المصدر، ج ٩، ص ٦٣٢.

٢١٧ ـ عبد الجليل الرازي القزويني، النقض، تحقيق المحدث الأرموي، طهران، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٣.

٢١٨ ـ سيف الدين محمد الفرغاني، ديوان شعري، تصحيح ذبيح الله صفا، طهران، جامعة طهران، ١٩٦٢، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

٢١٩ ـ عبد العزيز الطباطبائي، معجم أعلام الشيعة، قم، آل البيت، ١٤١٧ هـ ص ٢٩٦؛ ابن حجر العسقلاني، سابق، ج ٥، ص ٢١٧؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، ج ٦، ص ٢١٥.

٢٢٠ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: عبد المجيد الناصري الداودي، التشيع في خراسان في العصر التيموري، مشهد، ١٩٩٩.

٢٢١ ـ ادوارد براون، تاريخ الأدب في ايران، ترجمة بهرام مقدادي، تحشية ضياء الدين سجادي وعبد الحسين نوائي، طهران، ١٩٩٠، ص ٦٠ ـ ٩١.

٢٢٢ ـ اسكندر بيك تركمان، عالم آراي عباسي، طهران، ج ٢، ص ٢٣٢؛ ادوارد براون، سابق، ص ١٧٨.

٢٢٣ ـ ديوان وحشي البافقي، تصحيح الدكتور حسين آذران، طهران، ٢٠٠١، ص ٥٩٣ ـ ٥٩٥.

٢٢٤ ـ اسكندر بيك تركمان، سابق، ص ٢٣٣.

٢٢٥ ـ نقلاً عن مجلة الحوزة، السنة ١٩، العدد ١١٣ ـ ١١٤؛ شتاء ٢٠٠٢ م، ص ٣٧١.

٢٢٦ ـ ادوارد براون، سابق، ص ١٨٠.

٢٢٧ ـ نصر الله الفلسفي، حياة الشاه عباس الأول، طهران، ج ٣، ص ٨٤٧؛ غلام حسين محرمي، «تاريخ الشعائر الحسينية»، التاريخ في مرآة البحث، قم، العام الاول، ٢٠٠٣، العدد ١، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٩.

٢٢٨ ـ حسن بيك روملو، أحسن التواريخ، تصحيح عبد الحسين نوائي، طهران، ١٩٧٨، ص ١٢٦؛ ادوارد براون، سابق، ص ٧٤ ـ ٧٥.

٢٢٩ ـ مصطفى كامل، التشيع والتصوف، ترجمة علي رضا قراكزلو، طهران، ١٩٩٥، ص ٢٦٢.

٢٣٠ ـ اقا بزرك طهراني، الذريعة الى تصانيف الشيعة، بيروت، دار الأضواء، ج ٢، ص ٢٩٥؛ رسول جعفريان، المعاندة التاريخية، قم، ص ١٨٧.

٢٣١ ـ نفس المصدر.

٢٣٢ ـ يو. ا. بركلي، ادبيات دستوري، ترجمة آرين بور، طهران، مؤسسة الدراسات الثقافية، ١٩٨٣، ص ٩١٢.

٢٣٣ ـ غلام حسين محرمي، سابق؛ علي اصغر حكمت، بلاد الهند، طهران، جامعة طهران، ١٩٥٨، ص ٢٥٢؛ مجتبى مكرمي، نظرة الى تاريخ حيدر آباد، طهران، ١٩٩٣، ص ٨٥؛ صالح الشهرستاني، تاريخ النياحة، تحقيق واعداد الشيخ نبيل رضا علوان، بيروت، دار الزهراء، ١٤١٦ هـ ج ٢، ص ٧٢ ـ ٨٤.

٢٣٤ ـ راجع: عنايت الله شهيدي، بحث في التعزية، طهران، ٢٠٠١.

٢٣٥ ـ نفس المصدر؛ صادق همايوني، التعزية، ٢٠٠١.

٢٣٦ ـ ادوارد براون، سابق، ص ١٨٢ ـ ١٨٤.

٢٣٧ ـ مجتبى مكرمي، سابق؛ صالح الشهرستاني، سابق، ص ٨٤.

٢٣٨ ـ يقول هذا الشاعر:

الحسين الملك، والحسين الامبراطور

الحسين دين، والحسين ملجأ الدين

أعطى الرأس ولم يعط اليد ليزيد

حقاً ان الحسين صرحُ لا اله إلّا الله

٢٣٩ ـ محمد اقبال اللاهوري، كليات شعره، مقدمة أحمد سروش، طهران ص ٧٤ ـ ٧٥.

٢٤٠ ـ راجع: صديق صفي زاده، الشعراء الاكراد، طهران، ١٩٨٧، ص ٦٩ ـ ٧٣؛ عبد الحميد جبرت السجادي، روضة شعراء كردستان، سنندج، ص ٦٤ ـ ٦٥.

٢٤١ ـ لمزيد من المعلومات، راجع: ديوان بلبل وديوان شهيد السيد اسماعيل البلخي؛ صالح الشهرستاني، سابق، ص ٦٨ ـ ٦٩؛ عبد الحميد الناصري، مشاهير التشيع في افغانستان، قم، ٢٠٠٠م، ج ١ و٢ و٣.

٢٤٢ ـ صالح الشهرستاني، سابق، ج ٢، ص ٤٧ و٦٤؛ زهرا كدخدائي، الامام الحسين (ع)، طهران، المجمع العالمي لأهل البيت (ع)، ٢٠٠٢م، ص ١٣٨ ـ ١٥٠.

٢٤٣ ـ صالح الشهرستاني، سابق، ص ٩٤؛ مجلة الهادي، قم، العدد ٢، ذو القعدة ١٣٩١ هـ

الفهرس